إبراهيم عبد المجيد

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

رسائل إلى لا أحد

عن وطن وكتب وأحباء

الدار المصرية اللبنانية

رسائل إلى لا أحد

عن وطن وكتب وأحباء

الدار المصرية اللبنانية

هذا كتاب يضم مقالات لي في صحف ومجلات مصرية وعربية هي النهار العربي والقدس والأخبار المصرية وأخبار الأدب والمصور والعربي الكويتية وديوان الأهرام ومجلة فنون ومجلة الفيصل والمصور المصرية وبعض المواقع الإلكترونية، وكالعادة قسمتها إلى أقسام تدور متقاربة من موضوع واحد بصرف النظر عن مكان وزمان النشر الذي حرصت عليه قليلًا في الأعداد ذات التاريخ القديم من المجلات والصحف أو حين يتعلق الأمر بحادثة ما.

القسم الأول

لعل الفضاء يجيب

الرسالة الأولى:

بعد ثلاث سنوات انقطاع عن زيارة الإسكندرية ذهبت هذا الصيف. في يونيو من هذا العام 2021. لم يعد لي مكان في الإسكندرية. الشقة التي كانت عندي زمان تركتها بعد وفاة زوجتي الأولى أم أولادي مبتعدًا عن الذكريات والألم. كنت اشتريت شقة صغيرة من غرفتين وصالة في قرية سياحية تالية لقرية كرير نسيت حتى اسمها. كنت أذهب إليها مع زوجتي الثانية التي تزوجتها بعد ست سنوات من فراق زوجتي الأولى ونعيش معًا منذ خمس عشرة سنة. أحيانًا يذهب إليها أولادي. القرية على البحر والشقة ليست بعيدة. مائة وخمسون مترًا على الأقدام. كان خلو القرية من السكان تقريبًا أمرًا جميلًا بالنسبة لي، لكن فجأة صار هناك تجديد في بوابة العبور على الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية تجاوز العامين لا أعرف لماذا، فكنا نقف بالساعات لنعبرالبوابة. قررت في لحظة جنون أن أبيع الشاليه أو الشقة، وألا أذهب إلى هناك وأواجه هذا الجحيم. قرار عبثي فلم أكن أذهب إلا مرتين أو ثلاثة في العام. ربما كانت هناك رغبة مكبوتة أن أبتعد عن الحياة. هذا إحساس يراودني كثيرًا جدًّا. ربما لأني استفدت كثيرًا من رحلاتي إلى الساحل الشمالي وتسربت كلها إلى رواياتي أو بعضها، مثل "في كل أسبوع يوم جمعة" أو "أداجيو". المهم انتهى الأمر أني لم يعد لي مكان في الإسكندرية إلا في الفنادق. أحيانًا كنت أذهب لقضاء ليلة أو ليلتين مع الفنان التشكيلي العظيم الراحل مصطفى عبد الوهاب، الذي كان يقطن في سموحة خلف مديرية الأمن، أو عند أختي في المندرة. ليلة واحدة لأني أحب أن أكون في محطة الرمل. هكذا صرت أحجز في فندق متروبوليتان أو ويندسور وقليلًا سيسيل. أرى في الفندقين الآخرين جمالًا لا يقل عن سيسيل، وتكون معي زوجتي تيسير التي تعشق الإسكندرية، وإذا كنت غير قادر على سعر الفندق أحجز في فندق كريون القريب من الويندسور. فندق عادي لكن اسمه يفتح لي الفضاء على قراءاتي القديمة في الأساطير الإغريقية. أنا وزوجتي نمشي على الشاطئ أو نقضي وقتًا ممتعًا في الأنفوشي نتعشى كبدة عند صالح فتوح، الذي أخذني إليه أول مرة الدكتور حسام زكريا العالم والعلامة في الموسيقى في الإسكندرية، والذي عرفته عن طريق مصطفى عبد الوهاب. حين أكون وحدي أجلس مع باعة الكتب في محطة الرمل، كلهم طبعًا يعرفونني لكني أجلس عند مكتبة الرملي. أو أذهب إلى مقهى "كافيه دي لابيه" فأجد بعض الأدباء صدفة، الدكتور هاني المرعشلي أو رشاد بلال أو الدكتور شريف عابدين مسؤول جماعة أكوا الأدبية وغيرهم. شريف عابدين شاعر وروائي وطبيب. وهي جماعة ليس لها مكان
ولا مقر لكن وراءها فكر ومثقف عاشق للثقافة في مدينة تاريخها الثقافي هو تاريخ العالم لقرون طويلة – يومًا ما طبعًا – هي مدينة الإسكندرية التي حمل اسمها في التاريخ عصر كامل كان يسمى العصر السكندري وهو العصر الذي امتزجت فيه ثقافة مصر بثقافة اليونان والرومان بعد ظهور المدينة إلى الوجود. هذا النشاط اختار له الدكتور شريف عابدين اسمًا عمليًّا هو ""ACWA Alexandria Creative Writing Activation وتعني نشاط الكتابة الإبداعية في الإسكندرية واختصارها " أكوا " فلماذا اختارهذا الاسم للمبادرة ؟ ببساطة للتنامي المتضاعف

للكتابة عن الإسكندرية فما كنا نعرفه هو كتابة الأجانب، وعلى رأسهم لورانس داريل لكن برز العديد من كتاب الإسكندرية، بل وأضيف إنها كانت في منتصف القرن السابق مركزًا للتجديد في الشعر والفنون، لكن هذا حديث يطول، حتى صار السكندريون يقولون أهل الإسكندرية أدرى بشعابها.

نجلس نتحدث معًا، ونقضي ليلة طيبة، والأهم هو الجلوس في أتينيوس الذي ربطتني بصاحبه يعقوب نصار صداقة، فهو يعرف الأدباء، وقرأ روايات لي مثل "الإسكندرية في غيمة" و"طيور العنبر" و"لا أحد ينام في الإسكندرية". انقطعت عن السفر لحوالي ثلاث سنوات. كنت أسمع أخبار المدينة وما يحدث فيها، وأرى صورًا للشواطئ، وكيف صارت مغلقة على الناس العاديين إلا برسوم دخول، وحتى المناطق المفتوحة وضعوا أمامها أسياخًا من الحديد ينظر الجالس من بينها. لم يعد الشاطئ مفتوحًا إلا في المنطقة التي تمتد أمام السلسلة، أو بعدها.أي من الشاطبي إلى الأنفوشي. كان هذا يؤلمني جدًّا. ذهبت مرة بين هذه الثلاث السنوات فتأكد لي ذلك. رأيت الكوبري الذي تم على الطريق في منطقة سيدي جابر فتم تشويه الطريق والشاطئ تمامًا، فنزلت دموعي ولم أذهب مرة ثانية. صارت الأخبار تأتيني على تويتر بقطع الأشجار في المنتزه، وإقامة محلات للكبدة والفول والفلافل وغيرها في حديقة الخالدين. رأيت صورًا فظيعة لذلك، وأحسست أني صرت باردًا لا أتحرك ولا تتحرك مشاعري. لم أعد أكتب المقالات عن الإسكندرية فلا أحد سيستجيب. أذكر مرة أيام مبارك أنه كانت هناك محاولة لإقامة جراج لمجمع النيابات داخل مياه الميناء الشرقية، وحدثني الدكتور محمد عوض الذي كان رئيسًا للأمانة الفنية للحفاظ على تراث الإسكندرية ذلك الوقت، وقمنا بحملة ضد ذلك وتوقف الأمر. مبان كثيرة أوقفنا هدمها، وكان هناك من يستمع إلى كلامنا، وإن كان يحدث الالتفاف حول الأمر ويتم هدم الفلل الأثرية فيما بعد. الآن من البداية لا أحد يستمع إلى أي شيء نكتبه. ولم تعد برامج التليفزيون تنتبه إلى ذلك أو تهتم. أصابني الإحباط الذي تحول إلى يأس، وربما ساعد التقدم في العمر في ذلك أيضًا، أو كما قال لي صديق العمر الشاعر عبد المنعم رمضان، ليس لدينا الوقت لنضيعه، فلنعش ما بقي لنا. أقول له عندك حق لكن ماذا يفعل من تعود أن يكتب في السياسة وشؤون الحياة. يصيبني الإحباط أكثر وأحاول أن أقنع نفسي بالبلادة. المهم كما نقول صرت أقضي المصيف فيما تحققه لنا نقابة السينمائيين التي أنا أحد أعضائها، فيما تستأجره من شاليهات بالشاطئ والقرى السياحية. لا يهمني جمال القرية ولا أي شيء، لأني لا أفعل ومعي زوجتي أكثر من الجلوس على الشاطئ بعض الوقت، ثم بقية الوقت في الشاليه أو حديقته. مرة اشتركنا في قرية جرين بيتش، ومرة اشتركنا في قرية شهر زاد، ورغم أن جرين بيتش طبعًا أجمل وأكبر إلا أن النقابة تغير في اشتراكاتها. شهر زاد قرية صغيرة شبه خالية من السكان وتبدو معظم الشقق مغلقة، مفاجأتي فيها أني وجدت أكثر من شخص يعرفني ويسألني عن رواياتي، ومنهم كذلك مهندس تصوير اسمه عاطف شاكر. هكذا أخذت طريقي هذا العام في يونيو الماضي لأقضي أسبوعًا هناك. ليس عن طريق نقابة السينمائيين فلم تشترك في أي قرية بالساحل هذا العام. اشترَكت في المعمورة في شقق في عمارات عالية، وأنا عاجز عن الحركة بشكل كبير أمشي مستندًا على مشاية ضلعاها الأماميان فوق عجلتين وخشيت أن تنقطع الكهرباء في أي لحظة ولا أستطيع صعود السلالم. اتصلت بالمصور عاطف شاكر أن يدبر لي مكانًا بقرية شهر زاد لمدة أسبوع. سأكون قريبًا من العجمي ومن الإسكندرية. ربما أذهب

إلى مقهى بدوية بالبيطاش أقابل أيًّا من الأصدقاء صدفة أو بموعد. أو أمر على الفنان الكبير عصمت داوستاشي في منزله بالبيطاش. لكن من هنا بدأ الألم.

خرجت يومًا أنا وخالد ابن زوجتي ومشينا بالسيارة التي يقودها وكنا صحبناه معنا وزوجته وطفليه. كان لا بد أن أذهب إلى المندرة فصحبني خالد في السيارة لأني صرت عاجزًا عن القيادة بما أصاب عضلات ساقيّ من ضمور وخشونة ركبتيّ – اكتشف الأطباء بعد عامين ونصف أنه لا خشونة في الركبة لكنه ورم في العمود الفقري يؤثر على العضلات والأعصاب - من هنا كانت رحلة الأسى التي حاولت الابتعاد عنها، والتي أبدأ بها هذه الرسائل التي أشعر أنها ستتسع وتبتعد عن الإسكندرية لأني في الحقيقة أشعر أنني أريد أن أقول آخر كلماتي في الدنيا. لكني سأحاول الانتصار على الألم وأتذكر أيضًا ما يضحكني. الحياة لا تقف من أجل أحد.

قرية شهر زاد بعد الهانوفيل بمسافة قليلة. والرحلة سوف تمر بكل ما عرفته في حياتي في طفولتي وشبابي، منذ كان طريق الساحل خاليًا ليس حوله إلا أشجار التين، ثم بدأت تغزوه البنايات، وحتى الفلل القريبة من الشاطئ أيضًا باعها أكثر أصحابها، وتحولت إلى عمارات دون تخطيط في أزقة لا تزيد عرضها عن ستة أمتار. تعودت أن أتذكر حتى نسيت. لقد كتبت عن العجمي في رواياتي وأكثرها كانت رواية "أداجيو" التي تدور معظم أحداثها فيه. يومًا ما كان الأوتوبيس الذي يأتي من محطة الرمل إلى العجمي يتحرك كل ساعة، فهي ضاحية بعيدة عن المدينة. كان ما يدهشنا هو الطريق بعد حي الدخيلة. ضيق على جانبيه مزارع التين وباعته. ثم حين يصل إلى الطريق الجانبي الذي سيصل إلى شاطئ البيطاش لا تنتهي أيضًا على جانبيه مزارع التين. كنا نذهب إلى الشاطئ المفتوح لا كافتيريات عليه. فقط اثنان من الغطاسين يجلس كل منهما على عامود مرتفع يراقبان من في الماء. العجمي شاطئ غدار والأسطورة تقول: إن سيدي العجمي الذي سُمي الشاطئ باسمه كان يكره النساء، لكن الغرقى دائمًا من الجنسين. شاطئ البيطاش مفتوح للزوار مجانًا وكلهم قادمون من الورديان أو القباري. كنت ترى من ترتدي المايوه العادي أو البنطلون والتي شيرت. لكن على مسافة قريبة شاطئ بيانكي. لم يكن مغلقًا على المشتركين فيه من سكان الفلل، لكن كان مشهدهم يجعل الشخص العادي يشعر أنه غريب. كل الرجال في مايوهات أو شورتات وكل النساء والفتيات في البكيني، وكثيرات منهن يتمددن على بطونهن فوق الرمل جوار الشماسي وقد فككن رباط السوتيان من الخلف حتى تطول الشمس مكان الرباط. كان هذا يضحكنا، وكان صديقي حسين اللنش يقول: "حتى مكان الفتلة الرفيعة صعبان عليهم يفضل أبيض". كنا نمشي على الشاطئ لا ننظر إلى الماء لكن إلى رواد بيانكي الذي لم نكن من رواده. نجد بينهم فنانين وفنانات نعرفهم ونشير لبعضنا عليهم. مثل صالح سليم وابنه هشام سليم وفاتن حمامة وابنتها نادية ذو الفقار. كان لعبد الحليم حافظ فيلا قريبة من الشاطئ لكنا لم نره أبدًا. لم نكن نذهب طول الصيف. كان ما يشجعنا على الذهاب إلى البيطاش هو أن صديقنا الصيدلي مجدي شحاتة فتح صيدلية هناك على مسافة قريبة من الشاطئ. على يسار الداخل إلى شاطئ شهر العسل وعلى الناحية الأخرى من مقهى بدوية التي لم تكن ظهرت بعد لا هي ولا العمارة التي هي فيها. كانت آخر العمارات من ناحية الشاطئ هي التي بها صيدلية الدكتور مجدي على بعد حوالي مائة متر من الشاطئ. لم نذهب إلى الشاطئ؟ ننزل إلى الماء ولا حاجة لنا بالجلوس، ونتمشى رايحين جايين نتفرج على بيانكي ونساء بيانكي، ثم نستحم في الحمامات التي على الشاطئ ونعود للصيدلية نغير

ثيابنا ونجلس أمامها فالداخلون قليلون فلا زحام بعد بالشاطئ. رأيت كل شيء يتغير وينتهي إلى عمارات ومحلات، لكن ظلت الذكريات الحلوة. لن أتوقف هنا أكثر لأقول: إن فنانًا كبيرًا مثل عصمت داوستاشي صار يخشى أن يخرج بلوحاته أمام السكان الذي صاروا كلهم يرتدون جلابيب وتنزل اللحى إلى صدورهم. تغير الشاطئ والطريق وصار ذهابي لزيارة الدكتور مجدي، ونتجمع نحن الأربعة. هو وأنا ومحمد أبو سلامة وحسين اللنش وسعيد وهبة. كلهم لا يسكنون في العجمي بعد، ويأتون من الدخيلة لأن زيارتي تجمع بينهم. كلنا لم نكن تزوجنا بعد. الضحك لا ينتهي بيننا. أذكر منه حين خطب سعيد وهبة ابنة خالته وكانت -رحمها الله ورحمه معها- سمراء، بينما خطب حسين فتاة بيضاء، يتنافسان في الحديث عن جمال الخطيبة حتى سأل حسين سعيد هل خطيبتك شايلة اللوز؟ دهشنا! وسأله سعيد ما علاقة اللوز بالجمال؟ أجاب حسين: "أنا خطيبتي شايلة اللوز، البوسة ليها بتفرقع". طبعًا هلكنا من الضحك كما يقال. رحم الله سعيد وزوجته. سعيد هو من استوحيت من طوله ونشاطه في صيد السمك شخصية شجرة محمد علي في راوية بيت الياسمين. والثلاثة الآخرون هم مصدر أبطال الرواية أيضًا معه. كتبت ذلك في كتابي "ما وراء الكتابة". كان كريمًا جدًّا يصطاد السمك بالبندقية كل يوم جمعة ويعزمنا عليه في الدخيلة. ولا يتراجع عن إعطاء شيء منه لأي عابر طريق يراه يستحق. يومًا ما ابتعد في الصيد عن الدخيلة. كان صيده في البيطاش. أنفق معظم النهار وملأ مقطفًا كبيرًا بالسمك البوري والدنيس وغيره. مشى إلى الشارع وكان متعبًا فجلس على الرصيف والمقطف أمامه تظهر منه أطراف السمك. توقفت أمامه عربة مرسيدس ملاكي ومن نافذتها سأله المجاور للسائق. بتبيع السمك دا؟ فكر لحظة ومن التعب قرر أن يبيعه فقال: نعم. قال له الرجل: تعالى وريني. قال له سعيد: تعالى انت شوف. كانت المسافة ربما مترين لا أكثر لكن سعيد تذكر أنه ليس بائع سمك وضايقه أن راكب المرسيدس يأمره. قال له الرجل انت مش بياع؟ تعالى هنا. لم يرد سعيد وراحت عيناه على صعيدي غلبان رث الجلباب يمر أمامه وناداه. تعالى يا ريس. تقدم إليه الصعيدي، فقال له: خد الغلق بالسمك هدية ليك مجانًا ياللا. فرح الصعيدي الغلبان غير مصدق، ونظر سعيد لمن في السيارة وقال: خلاص بعته، ارتحت. انصرف الرجل بسيارته في غيظ، وعاد سعيد يضحك بلا سمك. كان كريمًا بشكل مجنون حتى إنه ذات مرة، وكان يعيش مع أمه وأبيه وله أخ في ليبيا سافر إليه الأب والأم. كان لبيتهم باحة خلفية تربي فيها أمه الدجاج والبط واعتمدت عليه في إطعامه وكان يعرف ذلك. غابت أمه وأبوه شهرًا في ليبيا، وكان هو يذبح كل عدة أيام لنا فرخة أو بطة، ولما سألناه: ماذا سيقول لهما؟ قال ضاحكًا: سأقول شوطة خدت البط والفراخ، ذبحها وطهيها أسهل من إطعامها. وحدث أن أجهز على كثير من البط والفراخ. لم تكن الدخيلة قد صارت عشوائيات، وكان شاطئها تقريبًا لسكانها ولاحظت أن البنات فيها جميلات، ولا أعرف حتى الآن كيف كانت كذلك بين الأحياء. ولأنها كانت صغيرة، فكان ظهور البنات واضحًا. هل هو الشاطئ أم الله اختص بناتها بالجمال؟ طبعًا مثل غيرها امتلأت بالقادمين من الريف شمالًا وجنوبًا ولم تعد قادرًا على تمييز أهلها من غيرهم. حكايات كثيرة ضاحكة أخشى أن أتوغل فيها فتكون إعادة لما ظهر في رواياتي رغم أن شخصيات الروايات تحمل أسماء أخرى. كل الضحك في رواياتي التي جاء فيها ذكر الدخيلة والعجمي هم مصدره. أذكر حين تُرجمت بيت الياسمين إلى الفرنسية عام 2000، أن قابلني الكاتب روبير سوليه اليهودي المصري العاشق لمصر المهاجر إلى فرنسا، وقال لي كتبت عن الدخيلة يا إبراهيم! كانت منطقة الدخيلة حتى الستينيات هي المنطقة القريبة من البحر فقط، ولم يكن هناك وجود للدخيلة القبلية. كانت صحراء أو مزارع تين. كان من سكان الشاطئ أجانب وممثلون وفنانون يأتون إليها

وكانت هناك بيوت لهم مثل لبنى عبد العزيز. لم تعد الدخيلة كذلك. أصابها كما قلت ما أصاب العجمي، البيطاش والهانوفيل وما بعدهما، لكن إصابتها كانت أبشع لأن مصانع الحديد التي صارت لأحمد عز وكانت ملكًا للدولة، جعلت لها ميناء خاصًّا تأتي إليه السفن محملة بالفحم من الخارج، فارتفع الهباب والسواد وغطى على البيوت القريبة، كما أن المنطقة القبلية منها صارت زحامًا فصار الشارع بينهما جحيمًا، بينما لسنوات طويلة كنا نجلس نلعب الطاولة فيه بالمقهى والشارع خالٍ من المارة والسيارات، ومعنا أصدقاء مثل شندي ومحمد تمام اللذان كانا يعملان معي في الترسانة البحرية مثل سعيد وهبة وغيرهم ضاعت مني أسماؤهم مع الزمن والانقطاع. لم تعد تهمني الذكريات وظل خالد يقود السيارة فما أراه من زحام رأيته وما أراه من تغير رأيته في السنوات السابقة وأريد أن أضحك أكثر ربما ينتهي الطريق.

المهم وصلنا إلى المكس فلم أشغل نفسي بالنظر إلى فينيسيا المكس، وما يحدث فيها، ولن أنظر بعد قليل إلى المساكن المواجهة للفنار، وهي بالمناسبة شاليهات خشبية من قبل الخمسينيات كان يملكها اليونانيون، صارت للمصريين بعد أن ترك اليونانيون البلاد. اشتروها منهم قبل مفارقة البلاد. مكان جميل كان يمكن استثماره للسياحة، كما رأيت في بلاد كثيرة مثل المغرب وتونس وكذلك في أوربا. فما أكثر الأماكن الصغيرة المنعزلة عن الطرق، التي تطل على البحار، يحافظون عليها ويزورها السياح. هناك يوجد "اللول" بائع السمك الذي كنت آكل عنده في زيارتي. كان المكان في البداية مجرد منضدة حتى صار مطعمًا، ولا أعرف ماذا جرى أو سيجري معه بعد أن تقرر إخلاء المساكن من أصحابها لهدمها، وطبعًا لإقامة عمارات بدلًا منها. لقد احتج سكانها فتم القبض على بعضهم. ثم عرفت أنه قد تم الإفراج عنهم فيما بعد. ربما لا يتم بناء عمارات بعد أن تقرر عمل ميناء في المكس رغم أن ميناء الدخيلة على بعد أربعة كيلومترات. في هذه الحالة سيتم هدم كل شيء، ولا تقام حتى العمارات غواية العصر التي سترتفع على الشاطئ إلى السماء كما ارتفعت العمارات على طول الشاطئ من الشاطبي إلى المنتزه حاجبة الهواء عن المدينة خلفها. اشتاقت نفسي إلى الذهاب إلى اللول للغداء وأسرتي لكني تراجعت. لا أريد أن أسمع شيئًا مؤلمًا. طبعًا اللول والمساكن حوله هي آخر حدود المكس للقادم من الغرب. قبله على الشاطئ باعة السمك الصيادون. في الصباح تجد السمك طازجًا. وبعد ذلك تجده في المحلات طول النهار، وليس أمام الشاطئ على ترابيزات كما كان في الصباح. قبلهما مطعم زفير الشهير الذي كان يأتيه يومًا الملك والباشوات مثل "سي جل" الذي مررت عليه قبله. لم آكل أبدًا عند سي جل رغم شهرته. لم أقصد. أكلت مرة واحدة عند زفير، وربما كان السبب أنه ظل مغلقًا لسنوات من قبل لا أعرف لماذا. أكلت مرة واحدة أيضًا عند شعبان الوافد الجديد إلى المكس والأقل سعرًا كما هو في المنشية خلف سينما ركس. كلها مطاعم سمك. ستضحكون عندما تعرفون أن الذي يجعلني أحيانًا أذهب إلى شعبان في المنشية هو أن الشارع الصغير المؤدي إليه اسمه شارع "كريت"، وأقول لنفسي دائمًا هذا آخر شارع لا يزال يحمل اسمًا يونانيًّا. لم أذكره في مقال من قبل حتى لا ينتبه أحد إلى الاسم فيتم تغييره وهأنذا أذكره، فلم يعد يعنيني حتى لو اشتكى الشارع لي وحدته. المهم الآن أننا نقترب من منطقة الورديان.

الرسالة الثانية:

بعد أن عبرت منطقة المكس كنت أعرف أن الطريق سيكون خاليًا لمسافة ليست بعيدة حتى أصل إلى المذبح القديم الذي كان يسمى بالسلخانة، كان مذبح الحيوانات الوحيد في الإسكندرية. أعرف أنه تم نقله الآن خارج المدينة ولم أسأل يومًا أين تم النقل. لكن كان وسط الشارع قضبان للترام الذي يأتي ويذهب من المنشية أو من محرم بك. كنت وأنا أعمل في الترسانة البحرية التي سنقترب منها بعد قليل كثيرًا ما أعود إلى البيت مشيًا أنا وصديقي محمد تمام -رحمه الله. كان هو يسكن مع أهله في مساكن السواحل بالمكس، وكنت أنا أستمر إلى منطقة وادي القمر التي سكنا فيها بعض السنين بعد أن أحيل أبي إلى المعاش عام 1962. كانت العودة من الترسانة مشيًا فسحة جميلة ولم يكن ذلك لأننا لا نملك ثمن التذكرة مثلًا، لكن لأننا نحب المشي. حين وصلت إلى منطقة المذبح وجدت مبانيها كما هي لكن عليها آثار القِدم. كان جوارها أيضًا مصانع للجلود تم تأميمها وتم تدميرها فيما بعد. تذكرت ضاحكًا كيف في زقاق ضيق جوارها كانت توجد حظيرة للخنازير. لم يجعلوا واجهتها على الشارع، فكانت غايتنا أحيانًا أن ندخل الزقاق نتفرج من النوافذ على الخنازير ونضحك، وقبل ذلك في سن أصغر كنا نقذفها بحجارة صغيرة فنسمع نخيرها ونرى حركتها. كيف كنا في سن أصغر نفعل ذلك؟ كنا في مدرسة طاهر بك الإعدادية القريبة التي جوارها وتحتها قسم بوليس الورديان، وقبلها وأنا قادم من المكس مدرسة الورديان الثانوية للبنات. رغم أني كنت أسكن مع أسرتي في كرموز ذلك الوقت لكن الشيطان كان يغوينا أن نذهب إلى السلخانة نعاكس الخنازير على الناحية الأخرى. لم يكن ركوب الترام يكلفنا شيئًا فمعي اشتراك فيه. لا أعرف لماذا كنا لا نرى البنات حين يخرجن من مدرستهن الثانوية. كان ذلك يحدث فقط حين يتم إخراجنا للتظاهر ضد نوري السعيد في العراق أو ضد الاستعمار تمجيدًا لنكروما أو من أجل الجزائر وكفاحها للاستقلال. كنت نمشي نهتف كما يقال لنا حتى نصل إلى مدرسة الورديان الثانوية التي صارت إدارة لشركة الترسانة البحرية فيما بعد وينضم إلينا طلبة الثانوي الأعلى صوتًا ثم طلبة معهد ديني تم هدمه ودخل في حرم الترسانة وصار مكانه مركز تدريب طلبة الترسانة الذي عملت به فيما بعد حين حصلت على دبلوم الصنايع عام 1964 مدربًا للكهرباء ومدرسًا للغة العربية والرياضيات أيضًا. تفاضل وتكامل وحساب مثلثات وميكانيكا.درسناها في المدرسة الصناعية وكنت بارعًا جدًّا فيها. كنت أقرأ في الرياضة الحديثة وأنا طالب وأتباهى بذلك. أذكر أثناء الدراسة ونحن في الدبلوم أن جاءنا مدرس خريج كلية الهندسة ليدرس لنا مادة المقايسات الكهربائية. في أول حصة قال لنا: إنه لا يحب التدريس، وأن إدارة القوى العاملة هي التي جعلته مدرسًا وكان يحب أن يكون مهندسًا، ومن ثم هو لن يدرس لنا شيئًا، ولن يعطينا دروسًا خصوصية إذا فكرنا أنه يفعل ذلك من أجل الدروس. قال: اشتكوني للناظر، فأنا أريد الرفد من العمل. كان كثير الغياب. احترنا ماذا نفعل فأحضرت أنا من طالب سبقنا في التخرج كراسة المقايسات. لم يكن لها كتاب، وأحضرت كتبًا في حسابات الكهرباء من مكتبة المدرسة، ووضعت منهجًا في كراس ستين صفحة كتبت عليه اسمي، وراح طلبة الفصل يتبادلونه ينقلونه من بعضهم. اثنان فقط رفضا ذلك واعتبراني مهرجًا، وأخذا دروسًا عند مدرس آخر ورسبا آخر العام في المادة، بينما نجحت أنا وكل من نقل كراستي. لن أحكي كيف انتقلت من العمل في الورشة الرئيسية للترسانة إلى مركز التدريب، فذلك موجود في كتابي عن الأيام الحلوة فقط.. الشارع فقط يقلب عليّ الذكريات. عبرت السلخانة وتذكرت العربات الكارو التي كانت تقف أمامها تنقل اللحم والنساء خارجات منها شاريات لحومًا يتجهن للناحية الأخرى ليركبن الترام. كان أهم ما تأتي أمي من كرموز لشرائه من السلخانة هو الكوارع والفشة والممبار، فاللحم موجود في المحلات. ورغم وجود الكوراع أيضًا والفشة والممبار إلا أنها كانت

تحب أن تشتريها من السلخانة فهي أرخص وأفضل كما كانت تقول هي وجاراتها. الحقيقة أن في مساكن عمال السكة الحديد التي كنا نعيش فيها كانوا يربون الخراف والنعاج والماعز في أكشاك أمام البيوت. وكانوا أيضًا على الأسطح يربون البط والإوز والدجاج. كان البروتين متوفرًا جدًّا وأضف عليه الأسماك من الملاحة. بحيرة مريوط التي كانت تعرف بذلك والتي جاءت في أغاني لإبراهيم عبد الشفيع وغيره من نجوم الغناء في الإسكندرية. كما ظهرت في أفلام مثل "امرأة في الطريق" مبكرًا ومثل فيلم "الكيف" فيما بعد وفي أكثر من مسلسل لإذاعة الإسكندرية. كانت غوايتنا فيها صيد السمك ومن حولها صيد العصافير.

كان لا بد أن أتذكر هنا الكاتب الكبير محمد حافظ رجب. كيف وقد عرفته في السبعينيات يسكن ويعيش في منطقة بوالينو بمحرم بك. مرت سنون وعرفت أنه انتقل إلى هنا في مساكن شعبية أقيمت على شاطئ ترعة تم حفرها لتصل بين الميناء وبحيرة مريوط بعيدًا. عرفت محمد حافظ رجب منذ وقت مبكر من حياتي الأدبية في نهاية الستينيات. لم ألتقِ به وقتها لكني كنت وأنا أقرأ قصصه القصيرة أشعر به يملأ الفضاء حولي ويدفعني إلى الأمام. كنا أدباء الإسكندرية الذين كنت بينهم في قصر ثقافة الحرية ومنهم مصطفى نصر وسعيد سالم ورجب سعد السيد وعبد الله هاشم وغيرهم نتحدث عنه كثيرًا بفخر وزهو وهو في القاهرة. كنا جميعًا نعرف كيف هو من أجنّة التجريب الأدبي الأولى في القصة القصيرة التي انطلقت في الستينيات كما كتب عنه يومًا الناقد صبري حافظ إذ إنه سبق الجميع بالمغامرة في التجديد الذي اعتبره البعض شططًا منذ نهاية الخمسينيات حتى انفجرت الدنيا بمجموعته "الكرة ورأس الرجل" في الستينيات. في عام 1972كتبت مقالًا عن مجموعته القصصية "الكرة ورأس الرجل" في مجلة سنابل التي كانت تصدر من محافظة كفر الشيخ، وكان يرأس تحريرها الشاعر الكبير محمد عفيفي مطر، وكانت هذه بداية المعرفة الشخصية بيني وبين مطر حتى قابلته في القاهرة. كنت ذلك الوقت في الليسانس أنا ومجموعة من الأصدقاء الذين اشتهروا بعد ذلك منهم شبل بدران ومحمد الرفاعي ومراد منير وسيد حافظ الأخ الأصغر لمحمد حافظ رجب ومجنون التجديد في الكتابة المسرحية، ورغم اختلاف كلياتنا كنا حريصين على محاضرة الدكتور عثمان أمين في الفلسفة الحديثة. كان يأتي من القاهرة يوم الأربعاء ومحاضرته في الساعة الخامسة تنتهي في السابعة ونذهب وهو معنا إلى شقة الزميل حسن عقل الذي تخلف عنا بالرسوب نتحلق حول عثمان أمين يحكي لنا أجمل الذكريات عن طه حسين والعقاد وأحمد أمين وغيرهم. أطلعته على المقال فقرأه وأبدى إعجابًا كبيرًا به وتنبأ لي بمستقبل رائع في النقد، ولم يكن يدري طبعًا أن القصة والرواية ستغلبان النزعة النقدية والمعرفة بالأدب. فتح المقال باب الود بيني وبين محمد حافظ رجب الذي عاد في نفس العام ليستقر في الإسكندرية بعد محن كثيرة في القاهرة لا أحب الدخول فيها. يكفي أنه عاد ليدخل مصحة نفسية بعض الوقت. صرت أحيانًا أزوره في شقته بحي بوالينو بمحرم بك. لا أنسى زيارة له عام 1978 وكنت على وشك السفر إلى السعودية للعمل. أخبرته وقلت له أخشى أن يكون السفر مغامرة غير جيدة فقال لي بصوته الأجش العريض: إن البقاء هنا هو المغامرة!

في مجموعته القصصية "الكرة ورأس الرجل" حطم كل الموروثات في الحكي، فصارت للأشياء أرواح كما البشر وصار البشر يتمزقون قطعًا بينها ولكل قطعة حكاية. القصص كالكوابيس شكلًا وموضوعًا لكنها في طعم الأحلام، ومن الصعب أن ترسو بها على شاطئ غير الخيال. لقد

انفجرت بها الدنيا في مصر وخارجها. رغم ذلك لم يجد اعترافًا بأهميته وسبقه في التجديد إلا في جلسات المقاهي ومقال هام جدًّا كما قلت لصبري حافظ نشره في مجلة الطليعة فيما أذكر وكذلك إبراهيم فتحي. منذ عشر سنوات تقريبًا أجرت معه جريدة الشروق حوارًا وسألوه عمن كتب عنه فقال: "إبراهيم عبد المجيد كتب عني". أبكاني كلامه فهو لا ينسى مقالًا لشاب مضت عليه أربعون سنة. كانت الأستاذة فاطمة البودي قد قامت وقتها بنشر أعماله الكاملة، وطلبت مني أن أسافر معها إليه نصحبه إلى ندوة في فرع دار العين بالإسكندرية. ذهبت معها إلى بيته الجديد في المساكن الشعبية بالورديان هذه المرة. هذه المساكن التي أمر عليها الآن. دخلنا إلى الشقة واستقبلتنا إحدى بناته وكان هو يستحم. خرج من الحمام وأتى إلينا وأشار لي من بعيد باسمًا مرحبًا وجلس وأنا لم أتحير فلقد بدا لي زاهدًا كبيرًا. أقمنا الندوة الجميلة وردد فيها رجب سعد السيد حكاية كان قد حكاها لي من قبل وهي جديرة بالذكر. كان رجب في زيارة لإحدى إدارات وزارة الزراعة في محطة مصر لشراء بعض إصداراتها التي تفيده في قصص يكتبها للأطفال في مجلة ماجد. سمع حوارًا بين موظف الإدارة للبريد وزميله عن خطاب معه مكتوب عليه بالإنجليزية اسم محمد حافظ رجب ووزارة الزراعة فدخل في الحوار بينهما، وقال لهما: إن ما هو مكتوب:

أي وزارة الثقافة Ministry Of Culture وليس Ministry of Agriculture أي وزراة الزراعة، وأنه يعرف صاحبه. وثقوا فيه وأعطوه الخطاب بعد أن أخذوا بيانات بطاقته. كان الخطاب من موسوعة: "Who is Who" التي تعنى بتقديم تعريفات بالمشاهير. وذهب به إلى السيدة المرحومة عواطف عبود مسؤولة النشاط الثقافي بقصر ثقافة الحرية. فتحا الخطاب لأنه بالإنجليزية ليترجماه لحافظ رجب، وكانت دائرة المعارف قد كتبت سطرين عنه كمجدد كبير للقصة القصيرة العربية رغم قلة إنتاجه، وتريد موافقته على ما كتبت. أوصلت السيدة عواطف عبود الخطاب لمحمد حافظ رجب ورد عليه.

الصدفة وضعت إنسانًا جميلًا مثل رجب سعد السيد في الطريق. على الناحية الأخرى التقيت أيام الجامعة بكاتب المسرح المجدد سيد حافظ، وهو الأخ الأصغر لمحمد حافظ رجب. لا يمكن أن أتذكر محمد حافظ رجب دون أن أتذكر سيد حافظ وجرأته في التجديد والعكس صحيح. كنت معجبًا جدًّا بما يكتبه سيد، وأحيانًا كان يتحول إلى عرض مسرحي في قصر ثقافة الحرية وكتبت عنه وقتها مقالًا له قصة لطيفة إذ كنت أعمل في محطة الكهرباء بالترسانة في وردية الساعة الثالثة عصرًا التي تنتهي في الحادية عشرة. كنت عائدًا من الكلية. وكان الطريق داخل الترسانة مبللًا بالمطر. خلعت حذائي ووضعته أمام باب المحطة ليتعرض للشمس، وجلست أكتب المقال عن سيد حافظ. انتهيت وتوجهت للباب أحضر الحذاء فوجدت فردة واحدة. لا يمكن لأحد أن يسرق فردة حذاء. أدركت أنه كلب طائش مرّ وحملها بين أسنانه. من حسن الحظ أن من كان سيتسلم العمل مني الساعة الحادية عشرة مساء كان له نفس مقياس قدمي، وكان يسكن قريبًا في المفروزة. ذهب إلى بيته وأحضر لي حذاء حتى أعود إلى البيت وأعيده إليه في اليوم التالي. لم يكن عملنا في محطة الكهرباء يزيد عن فصل الكهرباء عن الورش التي ينتهي فيها العمل، ومن ثم كنت أقرأ وأكتب فيها أكثر مما أقرأ وأكتب في البيت.

كتبت عبر السنوات الماضية في أكثر من مقال أطالب لمحمد حافظ رجب بجائزة الدولة التقديرية ولا فائدة، وكذلك جائزة كفافيس السكندرية كان أحق بها فهو المجدد الاستثنائي من زمان ولا فائدة، كأننا نعوي في فراغ. لقد ظلمت هذه الجوائز نفسها بإهماله. عاش غريبًا وهو أصل عظيم في التجديد الأدبي لكنه عاش راضيًا.

مررت على المساكن التي رأيتها واقفة متجمدة وبدت لي تتذكر في أسى محمد حافظ رجب.

لم نكن نرى بنات مدرسة الورديان الثانوية إلا نادرًا في المظاهرات كما قلت، وهذه كانت تحدث مرتين على الأكثر في العام. ربما لاختلاف المواعيد لم نكن نراهن. لكنا كنا في مدرسة طاهر بك حين نلعب الكرة نتعمد أحيانًا أن نشوطها عاليًا لتسقط خلف السور الذي يفصل بين المدرستين، ويصعد السور أي منا يرى البنات ويطلب أن تقذف واحدة منهن له الكرة وينزل. لم يكن ذلك هو المهم. المهم كانت مدرسة طاهر بك الإعدادية نفسها. كان فناء المدرسة واسعًا جدًّا والفصول محيطة به في طابق واحد ولا ترتفع ناحية شارع المكس عن طابقين. لها باب دخول من شارع المكس وباب خروج في الشارع المؤدي إلى حي المتراس ينفتح آخر اليوم الدراسي. الباب الرئيسي ناحية شارع المكس ليس للخروج، لذلك لا يخرج منه أحد أثناء الدراسة إلا بتصريح لأي سبب. كانت فرصة التزويغ بالقفز من أعلى السور صعبة لأن السور واضح جدًّا في فناء المدرسة، لذلك كان التزويغ يعني الغياب من بداية اليوم. يعني عدم الذهاب إلى المدرسة. كان بها في الفناء ملعب كرة قدم وملعب كرة سلة وملعب كرة طائرة وعلى ناحية منها أدوات الجمباز. كان عددنا قليلًا، ففي كل فصل أقل من ثلاثين تلميذًا. في هذه المدرسة قفزت موهبتي الأدبية، وحكيت عن ذلك في كتابي "ما وراء الكتابة". كلما مررت على المدرسة بعد أن تركت الإسكندرية وصرت من هواة التصييف في العجمي أضحك وأنا أتذكر كيف في إحدى حصص الزراعة أراد المدرس أن يعلمنا عمل مربى البرتقال.أعطانا عددًا من القروش لا أذكر خمسة أو ستة أنا وزميل كان اسمه "علي" وشهرته علي تأبيدة لأنه كان يسبقنا ورسب عامين قبلنا ثم فُصل فيما بعد. كتبت عنه مقالًا قديمًا، وكيف تم فصله نهائيًّا ثم صار مصدر شخصية زين في رواية السايكلوب، رحمه الله. أوصانا المدرس بشراء برتقال عادي وليس برتقال بدمه، لأن هذا لايصلح للمربى. خرجنا نشتري البرتقال فالباعة قريبون من المدرسة، واقترح علي أن نشتري برتقالًا بدمه لنفسد الحصة على المدرس. فعلنا وحين رأى المدرس البرتقال بدمه راح يقذفنا به ويشتمنا وطردنا جميعًا من الحصة. لم يكن ذلك الضحك فقط، لكن أيضًا وأنا في السنة الأولى الإعدادية فكرت أدخل جماعة الموسيقى. كان معي زميل اسمه محمد عبد الفتاح من منطقة القباري أو الورديان مثل أكثر التلاميذ، وكثير غيرنا زملاء من قبل في المرحلة الابتدائية في مدرسة القباري الابتدائية التي سأصل إليها بعد أن أنتهي من الحديث هنا فهي في الطريق. في أول حصة لجماعة الموسيقى لا أعرف ما الذي جعل محمد يصرخ مغنيًا بلا إذن هاتفًا "الجنة هي بلادنا" وهي أغنية فايدة كامل الشهيرة أثناء حرب 1956 فرددت عليه هاتفًا ملوحًا "وجهنم هي حدودنا" ومعًا صرخنا "اللي يخطيها راح يهلك فيها" فطردنا المدرس من الجماعة ولم نعد إلى الموسيقى أبدًا. كنت تمنيت أن أتعلم العزف على الناي لكن ضاعت الفرصة. أحيانًا كان لدينا حصص خالية لغياب المدرس فكنا نقضيها في الغناء. كان بيننا طالب لا أذكر من اسمه إلا "التومي" أصله من البدو، وكان يغني بصوت نقبله، لكن طالبًا آخر كان طويلًا عريضًا كان يطلب هو الغناء أحيانًا فنسمعه. كان صوته سيئًا جدًّا يرتفع فيرتفع

صوتنا أعلى منه. في إحدى المرات سمعنا الناظر الذي كانت حجرته قريبة فجاء وكدرنا جميعًا بالوقوف بقية الحصة رافعين الأيدي. كنا في السنة الثالثة عام 1961 وكنا نغني معه أغنية عبد الحليم حافظ "حكاية شعب" عن السد العالي. المهم في هذه المدرسة كانت المكتبة طريقي إلى القراءة والكتابة كما حكيت في كتابي "ما وراء الكتابة". كان بها مدرسان يقومان في طابور الصباح بالخطابة معًا " دويتو" بلغة عربية رصينة وبصوت عالٍ مؤثر مثل صوت المذيعين الشهيرين أحمد سعيد في صوت العرب ومحمد عروق. كانت الخطبة كلها سياسة عن عظمة ما يفعله عبد الناصر وعن نهاية الاستعمار في أفريقيا وآسيا، ونهاية أي حاكم عربي معادٍ لعبد الناصر. حينما كانت تأتي الأوامر بالخروج في المظاهرات الوطنية نخرج ونمشي نهتف لنصل إلى مدرسة الورديان الثانوية وبعدها المعهد الديني ونمشي بالمظاهرة حتى المنشية.. لكن أغرب خروج لنا من المدرسة كان يوم أن أخرجونا قبل أن ينتهي اليوم الدراسي لأن السفاح محمود أمين سليمان مرّ على فرس في شارع المكس أمام المدرسة. كيف فكروا هكذا لا أعرف ولم أعرف. كل ذلك وصفته في رواية "السايكلوب" وأضاف إليه الخيال. كل ذلك كان عجيبًا فأتى بالعجائب.

ما أريد هنا أن أقوله: إني منذ عشرين سنة تقريبًا ذهبت إلى مدرسة طاهر بك دون موعد سابق لتصوير جزء من فيلم عني للقناة الثقافية. الفيلم كتبه المرحوم مكاوي سعيد وأخرجه سامي إدريس وتعليق صوتي لشريف عامر، وكان عنوانه صائد اليمام. ذهبنا بلا موعد ولا تصريح سابق من أي جهة. قلت لهم: سأجد من يعرفني وسيسعد الناظر، أي ناظر، بأني كنت من أبناء المدرسة. بالفعل قابلت الناظر وكان في عمري تقريبًا. وبعد أن جلسنا معه وطلب لنا الشاي قبل التصوير سألني: ألا تذكرني يا إبراهيم، كنا معًا في فصل واحد. تذكرته وضحكنا وتذكرنا أصدقاء كثيرين شغلوا مناصب هامة في الحياة. تذكرنا زميلًا كان اسمه محمد المعتز بدين الله الحبشي. هذا اسمه وحده، وكان أبوه اسمه ياقوت محمد سلامة. فكان اسمه الثلاثي محمد المعتز بدين الله الحبشي ياقوت محمد. لم أفهم ولم يفهم أحد معنى هذا الاسم ولماذا؟ وحين قابلت عددًا آخر من الأصدقاء القدامى فيما بعد سألتهم عليه فتذكروه وضحكنا وأخبروني أنه محامٍ كبير في الإسكندرية. لم تسعفني الظروف لأعرف مكتبه وأزوره. أصدقائي القدامى يهلون عليّ مع المدرسة وسيهلون مرة أخرى حين أصل إلى مقهى خفاجي بعد محطتي ترام. منهم يحيى خفاجي أو علي خفاجي الذي ذكرني يومًا بذلك، وكنت ذهبت إلى المقهى صدفة ورآني فحدثني عن وجودنا معًا في المدرسة. كان يعرفني من التليفزيون هو وغيره أو مما أنشره، فمقهى أو قهوة خفاجي التي أقيمت في الخمسينيات كانت في الستينيات مثل مركز ثقافي، واستمرت كذلك حتى أعوام قريبة. سأتحدث عنها أكثر حين أصل إليها. تذكرنا سيد رضوان وكنت أعرف أنه بعد الثانوية التحق بكلية الشرطة، وعرفت كيف صار رتبة كبيرة وصار يومًا مديرًا لأمن الإسماعيلية. وتذكرنا صفوت عبد القادر الذي التحق بالأكاديمية البحرية ليصير قبطانًا وغيرهم مثل علي قطري الذي يسكن في نفس شارع المقهى وغيرهم من أصدقائهم الذين انضموا إلينا مثل يسري عبد اللطيف الذي يتصل بي في كل المناسبات ويسبقني للسلام وكان من سكان الورديان، وإن لم يكن معنا في مدرسة طاهر بك.. وعرفت، وكان هذا عجيبًا، أن الفنان التشكيلي مصطفى عبد الوهاب أمضى عامًا في مدرسة طاهر بك. لكن كان من زملائي أيضًا محمود السعدني وله حكاية. تخرج من كلية الفنون مع مصطفى عبد الوهاب وعمل في لندن في مجلة سيدتي. كنت أرسل إليها أحيانًا قصصًا أو مقالات عن طريق مكتبها في القاهرة. يرى صورتي ويرى اسمي إبراهيم

عبد المجيد حتى جاء زيارة إلى القاهرة يومًا وقرر أن يقابلني. كان قد عرف أني أعمل في الثقافة الجماهيرية بشارع أمين سامي المتفرع من شارع القصر العيني. كنت مديرًا للثقافة العامة وذهبت متأخرًا كعادتي فأخبرني الموظفون أن شخصًا جاء يسأل عني ولم يجدني وقال: إنه قادم من لندن. لم يترك اسمه لكنه قال: إنه يقف في الباحة بين الدور الأول ربما يراني قادمًا. نزلت لأراه. وجدت شخصًا نحيلًا أشار إليّ. صافحته وهو يقول لي ألا تذكرني يا إبراهيم. ارتبكت.
لا أذكره. قلت ما أشعر به وهو: إني لا أذكرك لكني أشم رائحة الإسكندرية ورائحة المدرسة التي كنا فيها. قال لي: أنا محمود السعدني. لم يكن يمكن أن يُنسى على الأقل لاسمه الشبيه باسم الكاتب الكبير محمود السعدني. تحاضنا وأنا مندهش. كنت سمينًا يامحمود. قلت. وكان بالفعل سمينًا ربما أكثر الطلاب سمنة لكنها لندن والحياة هناك. بعد ذلك تتالت لقاءاتنا كلما جاء القاهرة ثم صرنا نتراسل على الفيسبوك وطال الوقت ولم نرَ بعضنا. كانت الصدفة أيضًا في أن الممثل إسماعيل محمود عمل في مسلسل كنت كتبته وهو "قناديل البحر" قال لي: أنت من الإسكندرية يا إبراهيم وأنا من القباري. نظرت إليه مليًّا وقلت بسلاسة: أنت تذكرني بزميلي في التختة الذي قلب المحبرة بتاعتي على الكراسات وكان اسمه محمود محمود. قال: إنه أخي. ضحكنا والتقيت محمود بعد ذلك عند مصطفى عبد الوهاب. كانا صديقين. لكن السيد رضوان التقيت به عند يحيى أو علي خفاجي ومثله صفوت عبد القادر وغيرهم، وفي عزاء يحيى خفاجي التقيتهم جميعًا وبينهم علي قطري. أسماء كثيرة من هذه المدرسة مثل بقية المدارس ذلك الوقت خرج منها تلاميذ نجباء في العالم منهم سليمان الشاذلي الذي يعيش في أمريكا. التقيته على تويتر وعرفت أنه كان في المدرسة حين كتب رثاءً في محمود عبد العزيز وكيف كان زميله في مدرسة طاهر بك الإعدادية. كنت أعرف أن محمود
عبد العزيز كان في المدرسة. يومًا ما قلت لزوجته المذيعة بوسي شلبي ذلك، وحين التقينا قال لي: كنت معي في المدرسة يا إبراهيم، وجلسنا نتذكر هذه الأسماء لأنه من نفس الشارع الذي يقع فيه المقهى. كانت وفاته ليلة سفري في الصباح إلى فرنسا في مهمة لا أستطيع تأجيلها ورثيته حزينًا في تويتر والفيس بوك.

أتذكر هنا مدرسًا كان يضحكنا كثيرًا. كان مدرسًا للغة الإنجليزية اسمه بشر.. كان كثيرًا ما يقطع الدرس ليقول نكتة، ومما أتذكره قوله عن اتنين شيوخ قاعدين على القهوة ومعدي قدامهم طلبة إعدادي فحبوا يوروهم إنهم يعرفوا إنجليزي، فقال واحد منهم للثاني "ديكتيشن ذا جلاس". وديكتيشن أصلًا هي مادة الإملاء، وليست لملء شيء، لكنه استخدمها كأنه يقول: "املا الكوباية "، فقال الثاني: كومبوزيشن جود. وكومبوزيشن هي مادة الإنشاء، فكأنه يقول: "إن شاء الله". لكن الذي أضحكنا كثيرًا شرحه يومًا لقصيدة إنجليزية عن الخريف يقول فيها الخريف حين يهل للشجر: اخلعي رداءك، فترجمها أن الخريف يقول للأشجار: "اخلعي لباسك". ضحكنا بقوة، فقال: بتضحكوا على إيه يا بهايم، اللباس هو الملابس عمومًا وليس ما تحت البنطلون. لكن الذي كان يضحكنا دون نكت بعد أن ينتهي الدرس الذي كان مليئًا بالرعب، كان مدرسًا للغة العربية اسمه الشيخ جمعة. أجل كنا نضحك من أفعاله وحركات يديه وشفتيه وعينيه بعد أن تنتهي الحصة. كان شيخًا حقيقيًّا في زيه وكان دائمًا غاضبًا لا ندري لماذا. درّس لنا اللغة العربية في السنة الثانية. كان يحمل دائمًا خيزرانة يضرب بها من يخطئ ضربًا شديدًا. كان مقررًا علينا قصة عن الجزائر والمقاومة، وفيها مشهد للبطل يودع زوجته ليذهب إلى الجبال للقتال. انتهى المشهد بكلمة "فقبّلها

وخرج".
لا أعرف كيف كنت لا أعرف معنى قبّلها. حتى الآن لا أعرف كيف أنا الذي فزت في طفولتي وصباي بمئات القبل من النساء جيراننا. سألته "يعني إيه قبّلها يا أستاذ؟" ملأ الغضب وجهه بسرعة وسألني "مش عارف يعني إيه قبلها؟" اقترب مني والفصل كله يكتم أنفاسه، ومن يعرف المعنى يكتم ضحكه بيده. قال لي: "قوم اقف". وقفت، فسألني من جديد: "مش عارف يعني إيه قبّلها؟". قلت: لا والله، وتراجعت في ذعر. قال: يعني ب..ع. ب.. ص...ها. قالها في كلمة واحدة، ونزل عليّ بالخيزرانة ضربًا مبرحًا. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي ضُربت فيها في المرحلة الإعدادية كما كانت هناك مرة واحدة ضربت فيها في المرحلة الابتدائية. لقد عرفت يومًا متأخرًا جدًّا أنه مات غرقًا في شاطئ المكس لأنه نزل الماء بملابسه فلفها الموج وسحبه. لم أصدق وقلت ربما هي إشاعة قالها عليه تلامذته. رحمه الله في كل الأحوال. لقد كان قد تجاوز الخمسين عام 1960. كان المدرس الذي لا أنساه هو الأستاذ إبراهيم الأول مدرس اللغة الإنجليزية أيضًا. عرفت فيما بعد من صديقي حسين اللنش أنه والد المذيعة نجوى إبراهيم. كان معارًا إلى الإسكندرية ويسكن في المفروزة. في أحد البرامج ومنذ سنوات طويلة كنت ضيفًا مع نجوى إبراهيم فحدثتها عنه. سألتني ما رأيك فيه؟ قلت لها: حببني في اللغة الإنجليزية، وكان شكله مثل باكوات زمان في سلوكه والكاب الذي على رأسه. وكان كذلك حقيقة. مدرسون كثيرون كانوا عظماء، وتلاميذ كثيرون صاروا في مراكز مرموقة، ولم تكن مدرسة طاهر بك وحدها، بل كل المدارس. بقايا الملكية من نظام ونظافة وتعليم ومدرسين التي بدأت تتدهور مع السبعينيات.

أعود إلى يوم ذهبت للتصوير في المدرسة. وسألت الناظر أن نقوم بالتصوير في المكتبة فابتسم وقال: "مكتبة إيه يا إبراهيم. المكتبة مقفولة بالقفل وكلها عنكبوت ولا يدخلها أحد، بل كل التلاميذ تقفز من فوق السور ولا تأتي الساعة الحادية عشرة إلا والمدرسة شبه خالية كما ترى. كيف يحدث هذا؟ قال آسفًا: "المدرسون يشجعونهم على ذلك لزوم الدروس الخصوصية. انتهى التعليم وباقي لي سنة وأخرج إلى المعاش وتنتهي القصة". كنت أعرف أن ذلك هو سمة العصر، فأبنائي في مدارسهم الحكومية في الثانوي أو الإعدادي في إمبابة في القاهرة يفعلون ذلك. ومن ثم هو في كل المدارس الحكومية. بل لا أنسى يوم أن ذهبت إلى مدرسة ابني الأكبر زياد، مدرسة يوسف السباعي الثانوية بالعجوزة. ذهبت إليه فوجدت الفصل بلا تُخت ولا مقاعد، والدروس تتم وهم واقفون. كان ذلك في أواسط التسعينيات. اندهشت جدًّا لكن الناظر قال لي أن كل شيء سيتم إصلاحه. لم أذهب إلى هناك مرة أخرى وشجعت ابني على عدم الذهاب والاكتفاء بالدروس الخصوصية. كان سبب ذهابي أن ابني جاء من المدرسة يسألني: "هل أنت كافر يابابا؟" سألته مندهشًا لماذا تقول ذلك؟ قال لي: إن وكيل المدرسة يدرس لهم اللغة العربية، وقال لهم: إن نجيب محفوظ كافر لأنه يكتب الروايات. ذهبت محتجًّا وجاء الوكيل واعتذر أمامي في غرفة الناظر حتى انصرفت وأنا أعرف أنه لن يكف عن ذلك، لكني أرحت نفسي. حين كتبت ذلك يومًا على الفيسبوك فوجئت بابني الأصغر إياد الذي كان في الابتدائي ذلك الوقت وفي مدرسة خاصة، يقول لي: "أنا كنت أحيانًا وأنت نائم أنظر إليك وأبكي لأن مدرس اللغة العربية قال لنا أن نزار قباني كافر وسيدخل النار، وأنا أعرف أنك تحب نزار قباني". لم يقل لي شيئًا من ذلك وهو تلميذ، فكنت ذهبت إلى المدرسة محتجًّا. لقد توقف ابني الأصغر عن البكاء وحده لأنه كأي طفل لايتصور أن أباه سيدخل النار.

المهم وصلت إلى مدرسة طاهر بك هذه المرة، ولابد أن أنظر إليها على يميني فأنا متجه للورديان والقباري. وجدتها قد سقطت نوافذها وبان عليها الخراب ووضح لي أنها فرغت من الطلاب. لم أتوقع ترميمها لكني توقعت هدمها لأنها تشغل مساحة كبيرة على الطريق العام، شارع المكس الواسع الذي صار خاليًا من الترام. ومن ثم تصلح مولًا أو عدة عمارات وأتمنى ألا يحدث ذلك ويعاد ترميمها، لكني من كثرة ما أسمع عن البناءات الجديدة للمولات أذهب إلى التشاؤم دائمًا. لو كان هناك ترميم فلماذا لا يتم الآن ولقد بدأت الإجازة منذ شهر، بل والتعليم منذ الكورونا على الهواء. هل بسبب ذلك خربت المدرسة بعد أن خلت من الطلاب؟ كل شيء جائز في هذه البلاد.

الرسالة الثالثة:

عبرت مدرسة طاهر بك الإعدادية. طبعًا أعرف أن الذكريات ستنهال أكثر. قلت يا ربي لا أجد خرابًا. يا ربي لا يقفز إليّ الخراب. لفتة صغيرة على يميني في الطريق المؤدي إلى المتراس. تذكرت أن به ميدان الآن باسم محمود عبد العزيز. ليس لدي الوقت لأزوره وأتذكر الفنان الكبير. تذكرت كيف كان المتراس في أغلبه جزءًا من بحيرة مريوط. لقد اتسع مع ردم البحيرة. لقد حمل المكان اسمه منذ أيام الحملة الفرنسية حيث وضعوا عليه المدافع كأنها متاريس تدافع عن المدينة. ويقال إن ذلك حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أيضًا. كان المكس هو مدخل المدينة الغربي من الصحراء ومن يعبره من التجار يدفع المكوس على ما يحمله من بضائع. ازداد زحام شارع المكس بالناس والسيارات. هذا الشارع الذي كنت أحيانًا أشتري من محطة الرمل بما معي كتابًا، وأعود مشيًا إلى البيت هذه المسافة الجبارة، فلا أجد فيه أحدًا بعد الحادية عشرة مساء. لا يمر إلا ترام خالٍ. أما لو تأخرت بعد الثانية عشرة فلا يكون فيه ترام ولا أوتوبيسات. أنا وحدي والليل والخيال. تذكرت أيام صيد السمك لأبتعد عن الزحام. الحديث عن الزحام ليس له معنى فكل مدن مصر في زحام الآن. ربما فائدته أنك تشرد إذا جلست في مقهى أو في سيارة يقودها غيرك فيما مضى من زمان. تذكرت الولد عبده الشطلاوي الذي كان يسبقني في الدراسة، فكنت أنا في السادسة الابتدائية وهو في الثانية الإعدادية، وطلب مني أن أذهب أصطاد معه في المتراس، فأنا عادة أذهب مع آخرين في بحيرة مريوط، لكن ليس في المتراس البعيد. في الجزء الذي حمل اسم الملاحة حيث مئات الصيادين وباعة السمك والذي كنا نذهب إليه عبر قبو مظلم مجاور لمساكن السكة الحديد التي تقع ما بين كرموز وكفر عشري لكنها تابعة إداريًّا لقسم كرموز. بعيد يا عبده! قلت له، فقال: لكن سمكه كتير لأن الصيادين قليلين والسمك يحس بالصيادين فيبعد! أيوة السمك بيحس وشايفنا! شجعني فذهبت معه. اصطدنا سمكًا كثيرًا بالفعل، وبدا السمك في حالة إغماء لا يرى أحدًا. حين بدأنا الانصراف، قال لي: ما رأيك تعطيني ما اصطدته اليوم، وغدًا نأتي وأعطيك ما اصطدته أنا فيصبح مع كل منا كمية كبيرة؟ وافقت. في اليوم التالي اعتذر عبده عن الذهاب. صرت كل يوم أسأله فيعتذر حتى جاء يوم رأيته عائدًا بعد الضهر يحمل البوصة ومخلاة مليئة بالسمك. صممت أن نذهب في الغد معًا. حقي لن يضيع. في اليوم التالي قال لي: إنه سيذهب ليصطاد العصافير وليس السمك وإذا أحببت أذهب معه. رحت معه أصطاد العصافير. لدينا جميعًا الفخاخ والطُّعم من الديدان نأتي به من طين شاطئ الملاحة.

يا إلهي. أين ذهب هذا المكان. كان أيضًا يطل على بحيرة مريوط في الطريق إلى القباري، وكان مقلب زبالة المدينة لكنه مع البحيرة تحول إلى بنايات عشوائية. ما إن نصب كل منا فخين على

الأرض حتى قلت له ما رأيك أن آخذ ما تصطاده اليوم وغدًا أعطيك ما أصطاده. وافق. وكلما سقطت في الفخ عصفورة يجري ولا ينتظر أن نذبحها بالمطواة الصغيرة. كان يقطع رقبتها بيديه. قلت له هذا حرام وهكذا لا تؤكل. كنت أشعر أنه لايريدني أن آكل عصفورة حلال. رغم ذلك أخذت ما اصطاده كله، وقلت له: ربنا حيحاسبك انت. قلت له ذلك ونحن عائدان حين قال لي: كيف ستأكل عصافير ميتة. كنت أغيظه. أخذت العصافير بدلًا من السمك. بعد ذلك لم نذهب معًا إلى صيد سمك أو عصافير. كان موسم الصيف هو موسم الطيور المهاجرة. الخضير والدقنوش والبط البري. البط كان صيادوه محترفين يستخدمون البنادق راكبين زوارق صغيرة بين الماء، ولقد ظهر في أفلام مثل موعد مع السعادة، وكان صيادوه عادة أثرياء يستمتعون بصيده، لكن كان هناك أيضًا من يصطاده ليبيعه ويمر على بيوتنا، لكن أمهاتنا تقريبًا على قلب واحد يرفضن. كيف يأكلن بطًّا مضروبًا بالرصاص بينما البط والدجاج فوق السطح؟ كنا أحيانًا في الطريق إلى المدرسة وكانت هناك غيطان جنوب السكة الحديد، نثبت على أفرع بعض الأشجار عودًا به صمغ أو أكثر من عود. كنا نسميه المُخيط ونتركه، وفي عودتنا نجد العصافير قد لصقت به وخاصة الخضير، وكان طائرًا صغيرًا. الدقانيش كانت أكثر ذكاء حتى حول الفخاخ لا تسقط فيها بسرعة، وهي أيضًا طيور مهاجرة مثل الخضير.أسماء الذين عرفتهم في طفولتي وصباي كثيرة تذكرت بعضها مع مروري على مدرسة طاهر بك. لكني أتذكر كوستا الآن في الورديان. كوستا اليوناني بائع مواد البويات. في أول يوم من شهر رمضان وكنت في السنة الأولى الإعدادية كنت عائدًا مشيًا لأضيع الوقت كما يقول الكبار ومعي أصحابي. كان كوستا واقفًا في الشارع يشرب من زجاجة خمر ويتطوح. طبعًا لم يفتنا المشهد فأشرنا إليه هاتفين لبعضنا "ولا. كوستا سكران". لم نقل فاطر فهذا أمر عادي للأجانب. ورحنا نشتم فيه. جرى وراءنا فأمسك بي وأخذ كراساتي وكتبي القليلة من شنطتي وألقى بها تحت الترام الذي يمر. لقد خلصني من يده أستاذ للغة الإنجليزية كان اسمه الأستاذ المسيري، وله ابنان معنا في الفصل هما أحمد وإبراهيم. خلصني من يده ونهره، بل ضربه أكثر من بوكس في صدره ووجهه وكوستا لم يقاوم. يعرفه، فالأستاذ المسيري من سكان المنطقة. رحت أجمع كتبي من فوق الأرض لكن الترام كان قد مر على كتاب اللغة الإنجليزية كأنه يقصده بعد تدخل مدرس اللغة الإنجليزية لإنقاذي! مزقت بعض صفحاته وأخذت الكتاب والكراريس ومشيت حزينًا. كانت هذه أول مرة أصوم رمضان. كنت نويت أصوم اليوم كاملًا. قبل ذلك كنت أصوم لكن وسط النهار يقول لي أبي المتدين الطيب: "افطر يا إبراهيم انت ضعيف كفاية عليك كدا"، كنت فعلًا نحيلًا جدًّا دائمًا مصابًا بأمراض في المعدة، وكانت كلمة أبي التي لا أنساها: "أنا باصوم وصيامي بالنيابة عنكم يابني" لم يزجرني أو يرفع عليّ صوته إلا مرتين. مرة وأنا في حوالي السادسة، كنت أحب أن ألعب مع قطة في البيت. ربطت حبلًا رفيعًا حول عنقها ورحت أتركها تتحرك وأجذبها. في لحظة، ولا أعرف كيف فعلت ذلك، جذبت الحبل بقوة لأسمع صوتها تصرخ وأضحك فاختنقت وماتت. أعطاني درسًا لا أنساه أن بالقطط أرواحًا للناس وأنها أطفال الله، وأخذ القطة التي كانت صغيرة وأخذني معه وخرجنا إلى شاطئ المحمودية فحفر لها حفرة ودفنها، وأنا في غاية الدهشة. منذ ذلك اليوم أحب القطط لكن أبتعد عنها. لم أربّها حتى لا أتذكر ما فعلته. المرة الثانية، وكنت أكبر قليلًا رآني أقطع صفحات من كتاب وألقي بها على الأرض. صفحة أو صفحتين فانحنى يلتقطها وأنّبني على ذلك، فالكتابة هي حروف الله التي علمنا إياها، ولسوء حظي كانت الصفحات من كتاب الدين، فكان تأنيبه أكثر لأن بها آيات الله. لا تمزق الكتب ولا تلقي بها على الأرض أبدًا. من يومها لا أفعل ذلك. لا أمزق صفحة من كتاب. المهم وصلت إلى البيت بعد

ما جرى مع كوستا فرأتني أمي مرهقًا حزينًا فسألتني في خوف وفجيعة: مالك؟ حصل إيه؟ قلت لها: "أفطر الأول". بسرعة قدمت لي الطعام وأكلت ثم حكيت لها الحكاية فاستشاطت غضبًا، لكني هدأت من غضبها وقلت لها: إنه لم يضربني، فقط رمى كتبي وكراساتي تحت الترام، لكن أستاذ الإنجليزي ضربه خلاص، حتى لا تخبر أبي ويذهب للشجار معه. لم أعد أذكر أين دكان كوستا. الدكاكين كثيرة جدًّا على يميني وعلى يساري ورش الخشب وبرج الساعة الذي كان يومًا مقرًّا لسفارة السويد بالإسكندرية، ثم باعته لشركة الترام الدنماركية القديمة في إسكندرية، ثم اشتراه تاجر الأخشاب الشهير أسعد باسيلي، وقيل إنه كان يجلس عليه يراقب العمال أثناء تنزيل الأخشاب من السفن. أين ذهبت الساعة التي كانت أعلى البرج تدق كل ساعة كأنها ساعة جرينيش والذي أخذت محطة الترام اسمها منها. يقولون إنها اختفت من زمان ولا يعرف أحد السبب لكني كلما مررت عليها أراها كما رأيتها صغيرًا!

تذكرت كيف سمعت أن من تجار الخشب الكبار كان أبو عمر الشريف الذي كنا حين نراه في السينما نعتبره ليس غريبًا عنا، بل من حيّنا. المهم كنت أقترب من مقهى خفاجي ومن الترسانة بعد ذلك. مقهى خفاجي أخذ الحديث هنا مبكرًا عن الوصول إليه. لكني أيضًا تحدثت عنه كثيرًا في كتبي وسجلت فيه لحظات من لقاء طويل لقناة الغد كما فعلت مع مقهى اللنش التي ستأتي بعد قليل. وهنا شيء من التاريخ للمقهى الذي أنشئ عام 1952 لصاحبه عبد الستار خفاجي.

كان له دور تعليمي وتثقيفي، فقد تحول إلى فصول لمحو الأمية وأيضًا مكتبة وجاليري لعرض الفنون التشكيلية وعلى جدرانه صور لتاريخ المقهى وأهم زواره. دعمه المحافظ حمدي عاشور والفنان فاروق حسني وعرض فيه عصمت داوستاشي بعض معارضه الفنية، وكذلك عرض فيه مصطفى عبد الله بعض لوحاته وكان ملتقى الأدباء والفنانين وغيرهم. قابلت فيه ذكري خفاجي أخا علي الذي كان يحاول أن يحافظ على تراث المقهى، وكذلك زوجة علي طبعًا التي كنا نزورها أنا وزوجتي في بيتهم في العجمي وما زلنا نتبادل الأحاديث. أخذ المقهى مساحة في روايتي الإسكندرية في غيمة. لعب المقهى دورًا كمركز ثقافي لنا في الستينيات، كان عملي في مواجهة المقهى في الترسانة البحرية وكان أمام المقهى حديقة بها تمثال لجمال عبد الناصر، وكان به جهاز تليفزيون، لذا كان مقرّنا المفضل لمتابعة خطب جمال عبد الناصر. يمثل لي جزءًا من وجداني وارتبط لدي بذكرياتي مع أصدقاء الطفولة والشباب، فقد كان علي خفاجي زميلي بالمدرسة ذاتها كما قلت، وهناك كانت جلستي المفضلة. لقد كان هذا المقهى جزءًا من الهوية الثقافية للإسكندرية.

بدأت الترسانة البحرية تظهر على يساري. كانت إحدى مصادر روايتي "في الصيف السابع والستين" و"بيت الياسمين". حي المفروزة كله أخذ نصيبه في رواية "السايكلوب" وغيرها. ما لم أقله إنني حين اشتغلت في الترسانة كان رقمي بين العاملين 532 وحين غادرتها بعد عشر سنوات كان عدد عمالها اثني عشر ألفًا أو أربعة عشر لا أذكر. الآن أربعة آلالف. كنا ننتج في العام الواحد مدمرتين وسفينة تجارية كبيرة. قرأت إنها أنتجت بعد توقف لسنوات مدمرة بحرية. عمالها الآن أربعة آلاف محول الكثير منهم إلى قضايا لأنهم تظاهروا أو أضربوا عن العمل لزيادة رواتبهم. رحم الله أيام أن قادت الترسانة البحرية مظاهرات يناير عام 1977 في الإسكندرية. مشت السيارة وأنا أتطلع إلى سور الترسانة وأقول المهم إنها موجودة. مررت بمنطقة المفروزة ومقهى اللنش

وغيرهما مما أعرفه حتى وصلت إلى سينما الهلال. أعرف أنها هدمت من زمان بسبب الطريق العلوي الذي صار يربط الميناء بالأوتوستراد. ذكرياتها تملأ كتابًا. كتبت عنها في كتابي "أنا والسينما". كان جوارها محل سمك نأخذ منه رغيف تعابين بقرش صاغ. رغيف بلدي محشو بالثعابين المطهوة في طاجن. الثعابين التي صارت أغلى أنواع الأسماك الآن. إنها تعيش في مياه البحيرات وفي البحر أيضًا. ردموا البحيرات وامتلأ البحر بالتلوث فأصبحت شيئًا نادرًا. كانت تباع وهي حية جوار الأسماك موضوعة في إناء كبير تتحرك فيه براحتها. لا يزال خالد يمشي بالسيارة. وصلنا إلى آخر شارع المكس وسننحرف يسارًا إلى مينا البصل. هنا كانت مدرسة للبنات لم أعد أذكر اسمها اختفت من زمان. لكن الأهم بالنسبة لي هي مدرسة القباري الابتدائية. مدرستي. لن أقارن بسببها بين التعليم زمان والآن. ما أكثر ما كتبت في هذا. يكفي أنها كما كتبت في كتابي "أنا والسينما" كانت تأخذنا في رحلة بثلاثة قروش إلى سينما فريال التي كانت تذكرتها بتسعة قروش، وتعطينا وجبة ساندوتشين، وتنقلنا في أوتوبيس بدورين. سأتذكر ما لم أكتبه. الزقاق الذي يقع فيه المدرسة ينتهي بباب حديدي عريض مغلق دائمًا يؤدي إلى منطقة أرصفة قطارات البضائع. هناك باب آخر بعد الزقاق مفتوح لكن الشرطي يمنع مرور الأطفال منه، وأحيانًا الكبار إذ يسألهم أين يذهبون. ولماذا؟ لأن الأرصفة الموجودة منذ أيام إسماعيل باشا هي آخر محطة لقطارات البضائع. تأتي القطارات من الصعيد أو الدلتا تقف كل منها على رصيف خاص بها في كل محطة تنزل حمولتها وتأخذ حمولة أخرى إلى البلد التالي وتستمر. تصل الإسكندرية بآخر ما فيها. كيف كنا نذهب إليها. كنا بعد الخروج من المدرسة نستغل صغر جسمنا ونزحف تحت الباب المغلق فنعبر ونمشي ضاحكين. نفعل ذلك بعد أن نجرب المرور من الباب المفتوح فإذا رفض الشرطي عدنا إلى الباب المغلق لكن الشرطي عرفنا وسمح لنا بعد ذلك. كنا نخبره أننا من سكان كرموز، أو من سكان مساكن السكة الحديد في الطريق. كنا نصطاد العصافير بالنبال في طريق عودتنا، لكن أيضًا في طريق الذهاب إلى المدرسة كنا نجد القطارات واقفة على الأرصفة، بعضها يتم إفراغه وبعضها ينتظر، وفيها القطن والقمح والذرة والأهم بالنسبة لنا الدوم والبلح والفول السوداني والقصب. نأخذ منه إلى زملائنا في المدرسة، ولا أحد يمنعنا.

حين صرت في المرحلة الإعدادية في مدرسة طاهر بك كنت أركب الترام حتى القباري أو أمشي ثم أعبر البوابة مشيًا إلى البيت. حين أكون وحدي
لا أنشغل بالصيد، بل أبدأ أردد درس اللغة الإنجليزية بالذات كأني أحفظه.

كم مقالٍ كتبته لإعادة النقل بالسكة الحديد الذي صنعت أصلًا من أجله قبل الركاب، وكان مصدر الدخل الرئيسي. كم مسؤول قابلته في هذا البلد وحدثته في ذلك. لقد بدأوا منذ أواخر السبعينيات في تقليص النقل بالسكة الحديد حتى انتهى لصالح الجرارات والعربات وصرنا الدولة الأولى في حوادث الطرق. كنت قبل أيام قد عرفت على تويتر من الباحث زياد مرسي، وهو باحث كبير في الآثار البحرية والتراث المعماري في الإسكندرية، أنه قد تم هدم أسقف الأرصفة وخلعت الأرصفة نفسها من فوق الأرض لأنهم كما قيل سيتوسعون في الميناء. الرصيف يمتد طويلًا حتى إنه يستوعب عربات أكثر من قطار وراء بعضها. عربات القطار الواحد لا تقل عن عشر عربات، وأحيانًا تصل إلى عشرين عربة. عرض الرصيف لا يقل عن خمسة عشر مترًا إذ تتحرك عليه عربات النقل التي تنقل ما في القطارات. سيقول قائل: إذًا كانت هناك عربات نقل؟ والإجابة نعم،

لكن كلها صغيرة تتحرك داخل المدينة أو المحافظة نفسها، وليست بحاجة لحمل حمول ثقيلة فتكون كبيرة ولها جرارات. هكذا كانت سيارات النقل داخل كل المدن ونادرًا ما كنت تجد سيارة كبيرة. الرصيف من قطع جرانيت خاصة جدًّا إيطالية الأصل، ويرتفع مترًا عن الأرض. نظرت بسرعة فوجدت ما قاله زياد مرسي صحيحًا. لم أسأل نفسي أين ذهبت قطع الجرانيت الجميل. لقد كانت أكثر شوارع الإسكندرية زمان وخاصة منطقة مينا البصل وبحري من البازلت الأسود لكنهم نزعوه، وسفلتوها بأسفلت لا يصمد للعربات فوقه فصاروا يسفلتونها كل حين. لم أسأل نفسي أين ذهب بازلت الشوارع والأزقة الجميل، الذي كلما سافرت إلى أوربا أجده في مدنها على الأرض مطمئنًّا منذ مئات السنين. آخر مرة أتيت هنا كانت أيام فيلم الصياد واليمام. لم أذهب معهم في التصوير، لكني ذهبت قبلها مع المخرج إسماعيل مراد الذي أراد أن يشاهد المكان ففيه أحداث الرواية. ونحن فوق أحد الأرصفة وجدت الأسقف الصاج منهارة خربها الزمن، ووجدت الأرض ينبت الحشائش بين بلاطها ومغطاة في أكثرها بالعسل الأسود، عرفت أن العسل لا يزال يأتي بالقطارات من الصعيد في عربات أشبه بالتانكات لأنه لا يتم حمله في السيارات. بدأ إسماعيل مراد يصور المكان فتقدم إلينا شخص كان يتابعنا من بعيد. تقدم بسرعة وقال: إن التصوير ممنوع ولا بد من تصريح. طبعًا سيحصل إسماعيل مراد بعد ذلك على التصريح حين يبدأ تصوير الفيلم، لكنا الآن جئنا للفرجة مما يفيد المخرج. ابتسمت وعرّفت الرجل بإسماعيل مراد وبنفسي وحدثته عن تاريخي مع المكان فتركنا سعيدًا. مرت أكثر من خمس عشرة سنة على هذه الواقعة حتى أخبرني زياد مرسي أخيرًا أنه جاء ليرى المكان قبل هدمه، وهو يفعل ذلك مع كل قديم في الإسكندرية ويصوره، فوجد رجلًا يحدثه كيف جاء إبراهيم عبد المجيد يومًا هنا وكيف صنعوا فيلم صياد اليمام. أسعدني ما قاله لي زياد مرسي على تويتر، لكني الآن لا سعادة. لقد قاموا بتطوير النقل بأن أضاعوا الأرصفة كلها والحمد لله. قلت فلأضحك. رحت أتذكر شقاوتنا وكيف كنا نركب القطار الذي يتحرك ونقفز منه أمام بيوتنا في مساكن السكة الحديد. نركب السبنسة لنفعل ذلك. لكنا أيضًا من باب اللعب الغريب كنا نركب فوق العربة المسطحة التي كانت مخصصة لنقل الدبابات والمدافع أو السيارات. مسطحة بلا سقف ولا جوانب ونقفز منها إلى العربة المسطحة التالية، في عكس اتجاه القطار فتكون القفزة سهلة، فالقطار المتحرك يقرّب العربة الثانية، لكن التحدي كان أن نقفز في نفس اتجاه القطار الذي يبتعد بالعربات فتتسع المسافة رغم ثباتها. المسافة بين العربتين عادة صغيرة حوالي نصف متر أو أكثر قليلًا، لكن القفز في اتجاه القطار يجعلها كبيرة وفقًا لسرعته، وربما نسقط بين العربتين فتكون النهاية، لكنا لم نسقط قط. ألا أكتب لكم الآن؟ أبتسم وأن أرى نفسي غير قادر على الحركة وأقول الحمد الله. أنا الذي كنت أقفز من القطارات المسرعة ومن الأوتوبيسات والترام بظهري عكس اتجاه الأوتوبيس أيام الصبا حين كنت مع أصحابي لا ندفع تذاكر ونتشعبط! لكني لم أستطع أن أمنع الحزن وأنا أرى الأرصفة قد ضاعت. ثم هززت رأسي وقلت لقد أضاعوا حتى النقل النهري للبضائع، والحمد لله على وجود فيلم مثل صراع في النيل وهند رستم ورشدي أباظة وعمر الشريف، وفيلم مثل دماء على النيل وفريد شوقي وهند رستم أيضًا. من يدري ربما يريدون أن يؤكدوا أهمية ما يسمونه بالقوة الناعمة من الفن والأدب ويكتفون به فيضيعون مصادره! لقد أضاعوا تقريبًا أكثر من نصف ما كتبت عنه في الإسكندرية إن لم يكن كله، فمثل هذا المكان أيضًا ردموا ترعة المحمودية وبنوا كوبري فوقها، ولن أستطرد فأمامي لا يزال الكثير مما ضاع. لكن من يدري ربما أجد ما يضحك. هنا تذكرت ما يضحك لكن مني أنا. فحين جئنا نرى المكان قبل تصوير فيلم صياد اليمام. لا أذكر العام هل كان 2008 أو

2009 تذكرت أنه على الناحية الأخرى مساكن قليلة لعمال السكة الحديد. يومًا ما في نهاية الخمسينيات قمت أنا وصاحب لي، كنا نسميه ضاحكين إبراهيم بلك لأنه أسود ولا يضايقه هذا، بل صار لقبه نناديه به في كل وقت، باقتناء كلب عادي. كنت أنا وهو نطعمه وصار الكلب يطيعنا فكل منا يأخذه يومًا ونلعب معه في الشارع على المحمودية. تذكرت أن رجلًا كان يعمل بالسكة الحديد ويسكن هنا وزار أبا إبراهيم بلك في بيته في المساكن التي نعيش فيها على ترعة المحمودية. رأى الكلب فأعجبه وطلب من إبراهيم أن يبيعه له. جاءني إبراهيم وأخذني إليه ووافقنا على أن يدفع بريزة، عشرة قروش. أخذ الرجل الكلب لكنه رفض المشي معه فمشينا معه حتى بيته وهربنا من الكلب الذي تركناه. أعطانا الرجل البريزة وسألنا ماذا ستفعلان بها، قلنا سنذهب إلى السينما فطلب أن نأخذ ابنه معنا من ضمن البريزة. أخذنا ابنه ودخلنا سينما فؤاد وكان بها فيلم عن فرانكشتين وفيلم عن الفنان الفرنسي رودان. تركت المخرج إسماعيل مراد وذهبت أزور المكان وهناك سألت أحد الأشخاص من الساكنين عن الرجل الذي كان يسكن هنا وكان عنده كلب قام السكان بوضع السم له حين كبر لأنه صار مصدر تهديد لهم. كنا عرفنا وقتها بهذا. نظر إليّ يسألني: متى حدث ذلك؟ قلت له تقريبًا عام 1960. نظر إليّ باعتباري مجنونًا وتركني ومشى. حدث نفس الشيء مع غيره وحدثت نفس النهاية ثم انتبهت إلى جنوني حقًّا فمشيت ضاحكًا. لكن أنعم الله عليّ بقصة قصيرة بعنوان "البحث عن كلب".

الرسالة الرابعة:

لم أندهش أنه لم يعد في الطريق بعد ميدان مينا البصل ترام في شارع السبع بنات. تذكرت أن الترام قديمًا كان يأتي من المنشية إلى شارع السبع بنات، أو من محرم بك إلى شارع الخديوي، ويمشي في طريق المكس حتى النهاية. تحول الترام إلى شارع الأمان المتجه إلى المتراس وترك الطريق القديم. حين ألقى كوستا بكتبي تحت عجلات الترام كان الترام يمشي في طريق المكس.. لقد اختفت القضبان في شارع السبع بنات لكنها ستظهر بعد قليل، وليس معنى ظهورها وجود الترام فيه. حتى أدخل شارع السبع بنات كان لا بد أن أمر على ميدان مينا البصل الصغير.

على اليمين شارع الخديوي الذي أعطوه اسم شريف، بعد أن كان هذا الاسم على شارع صلاح سالم بالمنشية قبل أن يضعوا طبعًا اسم صلاح سالم. وشريف هو محمد شريف باشا رئيس الوزراء في عهد إسماعيل وتوفيق. السكندريون حتى الآن يقولون شارع الخديوي والمقصود به الخديوي إسماعيل، وهو اسم الشارع الأول القريب من ميدان مينا البصل، توجد دار إسماعيل للأطفال. أذكر أن أمي أخذتني إليها يومًا حين أصبت بالدوسنتاريا، وأذكر أن تطعيمي كله كان هناك كما سمعتهم يقولون. زحام سيارات كبيرة وصغيرة تأتي من ناحية بحري لتدخل في الطريق إلى القباري، أو تأتي معنا وتستمر، أو تدخل في شارع الخديوي في الطريق إلى كرموز أو محطة مصر.

هذا كله توقعت أن أراه لكن كان لا بد أن نعبر أولًا كوبري التاريخ، وهو الكوبري الذي بني في عصر إسماعيل باشا، وتحته كانت ترعة المحمودية في آخر طريقها قبل أن تتصل بالميناء. هنا تداعت عليّ المشاهد القديمة لعمال محالج القطن الذين كانوا وقت الراحة يخرجون إلى جوار الكوبري، يأكلون من الباعة الذين كان أكثر بيعهم للخبز والمش. لقد وصفت ذلك في رواية الصياد

واليمام. لكني تذكرت مدرستي الابتدائية على الناحية الأخرى في كفر عشري. مدرسة عبد الله النديم التي كانت بيتًا قديمًا لعبد الله النديم التي أمضيت فيها عامًا واحدًا هو السنة الأولى الابتدائية، ثم نقلتني أمي إلى مدرسة خاصة اسمها مدرسة الغندور بالقباري ظللت فيها عامين، ثم في السنة الرابعة نقلتني إلى مدرسة حكومية هي القباري الابتدائية التي مررت بها. لقد فكرت مرة وأنا أقود سيارتي أن أدخل إلى منطقة القباري لأبحث عن مدرسة الغندور، لكني حين فعلت ذلك لم أصل إلى شيء.

زحام المباني مرعب والطرق ضيقة ولم أشأ أكمل حتى لا أكتشف أنها ضاعت. قلت فلأكتفِ أني كنت هنا يومًا في مدرسة تسمى الغندور. ما أذكره منها مُدرِّسة كان اسمها "سندس" لا أعرف لماذا كانت تحبني جدًّا، فكانت في الفسحة أو في حصة الألعاب تجعلني أجلس جوارها مع المدرسات في الفناء الصغير وتحضنني بذراعها. وما أذكره منها أنهم قاموا مرّة بتنفيذ عرض مسرحي منا نحن الأطفال واختارني المخرج، وكان مدرسًا لا أذكر اسمه، أن أقوم بدور فلاح. حتى الآن حين أتذكر ذلك أرى نفسي في القفطان أو الجلابية وعلى رأسي طاقية بيضاء، وأمي بين الجالسات من أولياء الأمور تتفرج عليّ. ما أذكره أيضًا أنه في اليوم الذي كان يضاعف فيه أبي مصروفي فيكون قرش صاغ بدلًا من تعريفة، أخرج في الفسحة مثل غيري وأشتري بنصف قرش، أو بتعريفة كما نقول في الإسكندرية، بسطرمة، ثم أذهب إلى فرن قريب يضعها في رغيف من العجين كبير في حجم رغيف هذا الزمن الذي هو بجنيه، ثم يطبق عليها الرغيف فيصبح كأنه نصف رغيف، ويدخله الفرن ويخرج منه مستويًا تسبقه رائحة البسطرمة في الفضاء. كنت أعود به إلى المدرسة أو آكله في الشارع. في الحالتين كان معنا ولد أشد فقرًا كنا نسميه "أبو لقمة" لأنه كان يخطف منا الطعام، فكنت أعطيه قطعة قبل الخطف ليتحول إلى غيري يخطف منه.

لا أذكر شيئًا من مدرسة عبد الله النديم إلا أنهم كانوا يخيفوننا بأن بها حجرة للفئران يمكن أن يعقابونا بالحبس بها، لكني لم أرها ولم أرَ أحدًا يدخلها. لا أذكر منها مدرسًا أو مدرسة. فقط أذكر أن أختي الأكبر كانت تأخذني مشيًا في الصباح إلى المدرسة وتعود، وأحيانًا تأتي لتأخذني بعد الخروج، لكني غالبًا كنت أعود بنفسي، ثم بعد ذلك صرت أفعل ذلك وحدي ذهابًا وإيابًا. كنت أمشي من مساكن السكة الحديد على المحمودية وحدي لا أحد يعترضني ولا أحد يهاجمني لأي سبب، وكنت كثيرًا ما أجد خفيرًا نوبيًّا جالسًا على باب "وابور النور" وهو المكان الذي ينتج الكهربا للسكة الحديد. لا يلفت نظري إليه سواده، لكن الخطوط الغائرة في خديه. عدد كبير من الخطوط الغائرة. كنت أنظر إليه وأضحك وأستمر في طريقي.

كان أكثر ما يدهشني السفن الحاملة لقصب السكر القادمة من الصعيد، والتي تُنزل القصب من المركب على شاطئ الترعة، فتنقلها السيارات إلى المدينة كما يفعلون مع ما يأتي بالقطارات. الأمر نفسه في المواد الزراعية الأخرى. كنت أحب مراكب القصب لأن العمال يشيرون إليّ فأقترب ويعطونني قطعة طويلة أمشي أمص فيها. كنت أحيانًا أحتفظ بها لنلعب قصب أمام المساكن على الترعة، وهي اللعبة العجيبة التي كنا فيها نضع عود القصب على الأرض ونصوب إليه بالقرش صاغ أو التعريفة أو حتى المليم فتدخل العملة بينه. كانت لعب احترافية كبيرة غير اللعبة الأخرى التي كان يقبل عليها الكبار، فيجمعون بين أكثر من عود قصب يكسرونها على سيقانهم فوق

الركبة، فتنفصل إلى مجموعتين، ويخسر من تبقى قطعة أو أكثر لم تنفصل إلى قطعتين. سيأخذني لعب القصب إلى لعب النحلة ولعب البلي وغيرها.النحلة التي نلف حولها الخيط ثم نقذفها إلى الأرض، فتتبتعد عن الخيط ثم تدور على رأسها الذي به مسمار، ثم نلقطها بين بالسبابة والوسطى لتدور فوق اليد، وأحيانًا لا نفعل ذلك فقط، بل ننشن بها على النحلة الأخرى التي في الأرض فتصدمها، وتظل تدور وهذه حرفنة عالية.

ستأخذني الذكريات لأبتعد عن كفر عشري ولا أريد. لكن العالم الجميل هذا مكانه القصص ولقد فعلت. سأدخل شارع السبع بنات ولتكن ذكرياتي أحدث قليلًا. ستينية أو سبعينة فلا داعي للعودة الآن إلى الخمسينيات. دخلنا شارع السبع بنات. لم أعد أرى على يساري محلات القطن التي كانت تبيع للناس من أجل التنجيد والأفراح. ليس مهمًّا. المهم أن أرى شيئًا أفضل. لم أرَ شيئًا. بعد قليل تزداد المحلات. كانت محلات الكهرباء هي الأكثر فصارت المحلات من كل نوع.

قبل نهايته عند المنشية سأجد لا بد بعض محلات التصوير في مكانها. تصوير للناس وللأفراح ومنهم أخذت زوجتي الأولى، رحمها الله، من عند الكوافير وتصورنا عنده. ليس مهمًّا أن الشارع لم يعد به ترام. لم يتسع. الشارع صار مزدحمًا تحت الأرصفة بالباعة المتنقلين لكل شيء. الموبايلات طبعًا وقطع غيارها هي أكثرها. زحام بشع على الجانبين وأصوات أغانٍ رديئة جدًّا تنطلق من كل محل لم يكتفِ بمكانه، بل احتل الرصيف وما بعده من الشارع على الناحيتين. عشوائية وفوضى جبارة لا تليق أبدًا بشارع له تاريخ مثل شارع السبع بنات.

إذا لم نكتفِ بحكاية السبع بنات؛ فلنكتفِ بريا وسكينة عند قسم اللبان الذي لم يعد مكانه، وإذا لم نكتفِ بريا وسكينة؛ فلنكتفِ بالبارات التي من بينها البار الذي قتل فيه المالطي السكير سائق الحنطور سيد العجّان فقامت المعارك بين المصريين والأجانب فدخل الإنجليز مصر. لا أريد أن أنظر حولي إلى المباني الجميلة التي هدمت وقامت مكانها العمارات العالية القبيحة. هذا يحدث في كل مصر. هنا قبل نهاية الشارع على الناحية اليسرى وقبل شارع الميدان زقاق صغير كان فيه محل لوالد أحد زملائي بمدرسة الصنايع وكان اسمه سعيد المصري. كنا كثيرًا في الصيف ما نذهب لنسهر عنده أنا وحسن القاضي وسعد الدين الذين كنا أقرب الأصدقاء إلى بعضنا في قسم الكهرباء وربما في المدرسة. دائمًا نذاكر آخر العام معًا إما في منزل سعد الدين بالحضرة في المساكن الشعبية، وإما في بيت حسن القاضي بكامب شيزار. لقد أكمل الثلاثة تعليمهم في المعاهد العليا الصناعية، ولم أكمل أنا تعليمي رغم مجموعي الكبير لأن الأسرة كانت في حاجة إلى عملي، ولأني قررت أن أذاكر الثانوية العامة وأدخل كلية الآداب وفعلتها.

عرفت من الأخبار التي نقلها لي بعض الأصدقاء بالصدفة منذ سنوات بعيدة أن كلًّا من سعيد المصري وسعد الدين صارا عميدين للمعهد العالي للهندسة بالقاهرة وبالقليوبية، وأعتقد أن سعد الدين هو الذي كان بالقليوبية، لكن حسن القاضي بعد تخرجه عمل في الترسانة، حيث أنا موجود لكن كان بعيدًا عني أو في العام الأخير لوجودي وربما عامين. أحن إليهم أكثر ما أحن إلى شيء آخر في الدنيا. الحنين يجعلني أراهم ولا أفكر في البحث عنهم. لا أعرف عنهم شيئًا لكن لا ينتهي الحنين. أذكر حين جئت أول مرة إلى معرض كتاب القاهرة الدولي عام 1969، وكان أول معرض يقام أني اتصلت بسعيد المصري وعرف بحضوري فأعطاني عنوانه في شارع الثورة

بمصر الجديدة. ذهبت وأقمت عنده اليومين اللذين بقيتهما من أجل المعرض. لم يكن في شارع الثورة غير عمارتين أو ثلاثة. لقد ذهبت إلى شارع الثورة مرة منذ عشر سنوات فلم أعرف أين هو الشارع نفسه من العمارات والزحام. لماذا أعيش في الماضي دائمًا؟ لن أتحدث في ذلك تكفي الإسكندرية. لكن هل سأخرج من شارع السبع بنات فأرى شيئًا مختلفًا؟ لأشرد قليلًا مع الذكريات الحلوة بشارع الميدان قبل أن أترك الشارع.

الرسالة الخامسة:

الزحام في شارع الميدان أو سوق الحقانية من البداية يجعلني أدرك كم هي صعبة الحركة فيه. لا أذكر آخر مرة جئت إلى هنا. ربما منذ عشر سنوات. كنت في شاليه بسيدي كرير وجاءني الجنون أن أشتري بسطرمة وجبنة تركي من الشارع. الأرمن هم الذين أدخلوا صناعة البسطرمة في الإسكندرية وفي مصر كلها، وكانت لها حلاوة ربما لا تزال في فمي. كان يمكن أن أشتريها من أي محل على الساحل، لكن لا بد أني كنت أريد أن أستعيد بعض الذكريات. النوستالجيا لها طعم ورائحة يأتيان معها حتى لو نفضت الذكريات بيدك في الهواء وتعمدت الانشغال عنها.

لا أنسى قبل العيد الصغير بيومين أو ثلاثة حين كان أبي يأتي إلى هنا لشراء ما كان يسمى بالفُترة. أي اللوز والجوز والزبيب وغيره. لا يزال هذا موجودًا طبعًا. انقطع فترة بعد التأميم أيام عبد الناصر إذ تم منع الاستيراد لأشياء كثيرة منها السلمون الياباني. السلمون بالذات أقاموا مصنعًا لإنتاجه، لكن إنتاجه لم يكن أبدًا من سمك السلمون الحقيقي صاحب الرحلات الرهيبة في المحيط الهادئ إلى أمريكا والعودة. المصري من سمك الماكريل. لا أنسى سعر العلبة الصغيرة من السلمون الياباني الحقيقي. ثلاثة قروش بينما الكبيرة بخمسة أو ستة قروش. كانت هدية أبي لي هي علبة سلمون صغيرة.

كان من أهم ما يشتريه أبي ويعود به قبل العيد من شارع الميدان هو سمك البكالاه. البكالاه المجمدة التي تأتي من أوربا وتضعها أمي ليلة العيد في الماء، وفي الصباح تخرجها لتقليها أو تصنع منها طاجنًا. لا أريد للحديث أن يأخذني إلى الأسماك وما جرى فيها في مصر بعد ردم بحيراتها العظمى، أو الجزء الأكبر من مساحتها، فصارت الأسماك من إنتاج البحر فقط، فارتفعت أسعارها، بينما كانت من قبل طعام الفقير. سأتحدث عن البكالاه الذي اختفى. رأيته مرة منذ عشرة أعوام في محل صغير جوار سينما أمير بسعر كبير يتجاوز المائة جنيه. لكني لم أنسَه أبدًا حتى رأيته في أوربا في رحلاتي مع كتبي المترجمة، وصرت حريصًا في أكثر زياراتي أن أعود بطبق مغلف منه أشتريه من المطار قبل صعودي الطائرة. فقط لأذكّر نفسي أننا كنا نشتريه أيام زمان.

على يساري الزحام في شارع السبع بنات كما هو. العربة تحركت قليلًا فابتعدت عن شارع الميدان لكنها توقفت لأنه لا مسافة للعربة التي أمامنا أن تتجه إلى اليمين. العربات القادمة من شارع الحقانية متوقفة. هناك شيء ما يعطل السيارات في الميدان. هذا الميدان الذي كان متسعًا مثل الفضاء. ميدان المنشية أو ميدان القناصل حيث كانت قنصليات لدول أجنبية فيه، وعلى اليمين واليسار محلات بأسماء أصحابها الأجانب، وأمامك في الواجهة بورصة المنشية التي احترقت في مظاهرات يناير 1977 ولم يفكروا في ترميمها فهدموها وصار مكانها جراج.

ليست مشكلة أن نقف لا نتحرك حتى ولو ساعة فنحن في يونيو وليست هناك رطوبة في الجو بعد، لكن المسألة هي الأصوات المسجلة العالية للباعة وأصوات أغاني المهرجانات التي لا تزال تنبعث من كل المحلات. ضجيج قاتل لمن هم مثلي عاشوا أجمل سنوات عمرهم بين الصمت والهدوء. حتى الناس على المقاهي كانوا يتحدثون لكن لا تسمع أصواتهم. عليّ أن أرضى وهأنذا راضٍ. ما بقي لي في الحياة قليل. مات أبي في سن الخامسة والسبعين وقبل أن يموت قال لي: إن جدي مات في هذا العمر، وهأنذا أقترب من الخامسة والسبعين. أضحك. ماذا سيحدث؟ مؤكد لن أقرأ نعيي بنفسي ولا ما سيقوله من يحبونني، لكن هل يمكن تفادي الموت في أي عمر. لا تتفادى الموت إلا أن يأتي في غيابك. كم من أصدقاء رحلوا بسبب الكورونا وغيرها وكم من دموع نزفتُ. سعيد الكفراوي وشاكر عبد الحميد ورفعت سلام وبهاء عبد المجيد وأخيرًا جبور الدويهي وبينهم كثيرون. كان بكائي ولا يزال مستمرًّا لأن الذكريات تتجلى أمامي أشجارًا تملأ الفضاء. لكن جبور الدويهي الذي لم أقابله إلا مرات استنزف مني دموعًا كثيرة. أعماله عظيمة لا تحتاج إلى حديث مثل كل الراحلين، لكني كنت أشعر فيه رغم البعد بالنبل الذي يتجسم في الفضاء.

لقد عدت من هذه الرحلة فوجدت نفسي أكتب فيما أسميته "نفحات من العزلة" أكثر من مرة عن الرحيل. أعود إلى الرحلة فلا معنى للدموع والفجر يوشك على الأذان وأنا أكتب هذه الرسائل. فلأنظر حولي لعل شيئًا يخرجني من الغضب رغم أني أدرك أن القبح سيزداد. تحركت السيارات فتحركنا على مهل أمامنا تمثال محمد علي باشا كما هو، لكن كيف حقًّا لا يترجل ويلعن كل هذا الزحام من الباعة الذي يحيط أيضًا بالميدان. هذا التمثال الذي أقامه الخديوي إسماعيل واحتاج إلى فتوى من الشيخ محمد عبده بحلال التماثيل ووضعها في الميادين. لكن أليس حرامًا الآن ما يحيط بالتمثال من عشوائية الباعة. سنلتف وندخل فيما كان يسمى ميدان الحدائق الفرنسية لأنه أمام القنصلية الفرنسية، وأشجاره منسقة على طريقة الحدائق الفرنسية.

أمامي نُصُب الجندي المجهول. الجندي المجهول الذي صار علامة على النصب التذكاري الذي كان من قبل لتمثال إسماعيل باشا. الرجل الذي ظلم المصريين كثيرًا من أجل نهضته في البناء على الطراز الفرنسي في وسط القاهرة وكورنيش الإسكندرية، فهل يأتي الآن ليرى ماذا جرى. وهل لأنه ظلم المصريين تُدمر كل آثاره. هل يأتي هو أو جده محمد علي. لقد نزعوا تمثاله من مكانه وانتشرت الإشاعات وأنا صغير أن الدولة في حاجة إلى صهره لصناعة النقود المعدنية، حيث هناك نقص فيها. بعد سنين طويلة عرفت أنه ملقى في حدائق أنطونيادس، ورغم أني ذهبت إليها كثيرًا إلا أني لم أره. عرفت حين ظهر مرة أخرى جوار سينما أمير وحيدًا يمر عليه الناس ولا ينتبهون. هو الذي كان تمثاله القديم يتطلع إلى البحر المتوسط، حيث تأتي النهضة صار مهملًا لا ينظر إلى أحد ولا أحد ينظر إليه!

كيف كانت أشجار الميدان حتى وقت ليس ببعيد وكيف هي الآن. يمكن لأي شخص أن يبحث عن الصور القديمة وينظر إلى الميدان الآن. صار زحامه مرعبًا من الباعة. هكذا تحولت المنشية – ميدان القناصل – وميدان الحدائق الفرنسية، إلى سوق عشوائي لم أره في أي زمان. من يستطيع أن يرفع عينيه الآن ليرى شكل العمارات الأوربية الطابع. لا أحد. رفع عينيك معناه تعثرك في الأرض ووقوعك. لا بد أن نخرج من المكان وسنخرج. البحر في واجهتنا وسنصل إليه.أليس في

هذا البلد رجل رشيد؟ أين ما نقرأه عن تجديد الميادين والشوارع. ألا يستحق هذان الميدانان التاريخيان أن يخلوَا من الباعة الجائلين حتى ننظر حولنا ونرفع وجهنا للسماء. هل هذه الأشجار فقيرة الأفرع والأوراق هي ما كانت من قبل؟ هي بالتأكيد لكن كيف صارت شاحبة هكذا كأنها تبكي على ما تحتها من عدوان. حتى الظلال تركتك يا مصر. لكني حمدت الله أنهم لم يقطعوها بعد كما يفعلون في حدائق أنطونيادس والمنتزه. ماذا يفعلون حقًّا؟ يقولون إنهم يفعلون كما في دبي في البنايات والكافتيريات والملاعب المائية، لكن دبي كلها ليست في حجم مدينة الإسكندرية. دبي ترتفع في عمارتها إلى السماء لأنه ليس في أرضها اتساع، ونحن ليس لدينا إلا الاتساع ونبني عمارات عالية في المدن الجديدة، ولا ندرك أنها ستذرف الدموع لوحدتها في هذا الاتساع حولها! أجل. عمارات دبي تخرج لسانها للضيق من حولها أما هنا فستبكي يومًا هذه العمارات. كيف تنظر إلى أعلى وأنت تستطيع أن تمشي مئات الأميال؟ المهم أريد أن نصل إلى البحر رغم أن ما سأراه سيغضبني أكثر. أريد أن أنتهي من الصخب.

الذكريات تنثال عليّ مع سينما ركس وسينما كونكورد. سينما ركس ما زالت مهدودة لن أنظر إلى يميني إليها لأن أمامها عشرات من الميكروباصات، وسينما كونكورد صارت عمارة كبيرة. حديث السينمات التي هدمت كبير في كتابي "أنا والسينما"، ورغم أني كتبت الكتاب لم أنسَ. حتى الكتابة صارت تخذلنا
ولا تساعدنا على النسيان. الحمد لله صرت بين القنصلية الفرنسية وقبر الجندي المجهول. هنا نمت مرة. لا أذكر هل كانت عام 1997 أو 1998. كان القنصل هو جيل جوتييه المترجم العظيم ودعاني إلى لقاء في المركز الثقافي الفرنسي وبعدها سيكون النوم في القنصلية.

مرة أخرى أتيت إلى القنصلية الفرنسية عام 2015 وكنا في مكتبة الإسكندرية في ندوة لا أذكر موضوعها. كانت هناك عملية إرهابية كبيرة في فرنسا فذهبنا وعدد من الأصدقاء نقدم العزاء للقنصل الذي لم ألتقِ به من قبل. طلب دخولي إليه أولًا ثم قابل الآخرين. أما دخولي أولًا لأنه قرأ قبل أن يأتي ترجمة "لا أحد ينام في الإسكندرية" بالفرنسية. إنه نبيل حجلاوي. خرج بعدها ووقف مع الجميع وقدمنا العزاء وانصرفنا. لم أحضر إلى القنصلية مرة أخرى رغم عمل أكثر من ندوة في المركز الفرنسي. صاروا يحجزون لي في أحد الفنادق وبالذات فندق متروبول. ربما هي مرة أو مرتين لا أذكر ثم صرت أعتذر عن أي ندوات لما أصابني في ركبي من خشونة لم تفلح معها حتى الآن أي علاجات دوائية أو علاج طبيعي، وانتهت بضمور في العضلات. أنا أيضًا صرت غير مهتم كأني أنتظر العام الخامس والسبعين في عمري!

صرت غريبًا في الإسكندرية وزادت الغربة بعد وفاة الفنان العظيم مصطفى عبد الوهاب الذي كنت أزوره في سموحة ونسهر، وأبيت عنده رغم وجود مكان مبيت لي. كان اللقاء مع مصطفى من أجمل ما منحتني الحياة. لقاء يتسع به العالم كما كان يحدث حين أزور عصمت داوستاشي في العجمي. لكن اللقاء مع مصطفى كان أكثر بحكم وجودي في أحد فنادق منطقة الرمل أو حتى فندق هيلتون سموحة. أحب أن أسهر معه. كان من أكثر ما آلمني أن الحركة لم تساعدني لأحضر جنازته، ولا الذهاب إلى منطقة الأوبرا، حيث أقام الفنانون له عزاء، وحدثت ابنته مريم عبد الوهاب ودموعي تسبقني في الكلام، وهي تهوّن عليّ ولا تزال رغم أني لم أرها منذ وفاته.

سنخرج إلى البحر ونمشي. سأمر على المقاهي التي جلست بها كثيرًا وضحكت. سأمر وسأنظر إلى العمارات الجميلة قبل أن تتلاشى كلما توغلنا في الطريق. كم سيستغرق المشوار من الوقت؟ أليس من الأفضل أن أعود. لم أعد ولم أطلب من خالد ابن زوجتي وابني الذي لم أنجبه أن يعود بي.

الرسالة السادسة:

هلَّ علينا هواء البحر وانحرفنا بالسيارة إلى اليمين. الطريق مزدحم. الميكروباصات فيه أكثر من السيارات الملاكي وأكثر من التاكسيات. تجري مسرعة وتنحرف كل لحظة يمينًا كأن لا أحد غيرها في الطريق. ليس جديدًا عليّ. لا توجد على الشاطي هنا كافيهات تحجزه عن الناظرين، ولا سور من أعواد الحديد كما هو في مناطق أخرى. هذا شيء جميل. الكثيرون يجلسون على سور الشاطئ والكثيرون يمشون أمامه في الاتجاهين. على اليمين الرصيف متسع. لا رطوبة في الجو فنحن في شهر يونيو. يوليو قاتل في الرطوبة وأغسطس قاتل أثيم.

على يميني لا تزال العمارات القديمة كما هي. مقهى الوطنية يقترب. مقهى متسع من الداخل ويحتل جزءًا صغيرًا من الرصيف وكان لنا بها جلسات أيام الشباب. مطعم نصار الشهير. كنت أسمع عنه منذ الطفولة. صار كافيه الآن. صاحبه هو نصار الذي اشترى أيضًا أتينيوس، وكثيرًا ما التقيت بابنه يعقوب نصار فيه وصرنا أصدقاء. في المطعم كان يعمل فيه ابن عم لي في الخمسينيات.
لا أذكر ماذا كان يعمل بالضبط. هل جارسون أم شيف في المطبخ. أكلت فيه مرة واحدة منذ أكثر من ثلاثين سنة. كنت أعرف دائمًا أنه للأغنياء. تغير الوضع وأنا لا أدري أو لا أهتم. علاقتي بالطعام مختلفة. ليس لي اهتمام بنوع ما آكل. الطعام بالنسبة لي سد للجوع لا أكثر. لذلك تتساوى فيه الفلافل مع الكبد مع اللحوم. الأسماك فقط هي محبتي الوحيدة. لا يمكن أن يمر أسبوع دون أكل السمك. تعودنا عليه ونحن صغار. الزحام رغم أننا في يونيو ولم يأتِ يوليو بعد، واضح في المقاهي.

أهم ما أتذكره هنا هو مسرح شهر زاد وكان صالة أفراح من قديم الزمن. حضرت فيه أفراحًا كثيرة. أما مقهى كريستال أو نيو كريستال اسمها الحقيقي فقد هُدمت عمارتها. سيقيمون مولًا أو عمارة عالية تحجب هواء البحر عما خلفها كعادتهم. هنا كان أكبر تجمع للكتاب لا ينافسه إلا مقهى الوطنية. أرى كل شيء بهدوء لأن السيارة تتحرك في بطء. ربما حين نمر من محطة الرمل ينفسح الطريق ونسرع. المهم أن البحر على يساري يهل منه الهواء. تذكرت أنه كان له رائحة اليود زمان ولا أشمها الآن. أين راحت رائحة البحر؟ لا أعرف. فندق ويندسور لا يزال موجودًا. ماذا جرى يا إبراهيم؟ أنت تعرف أن فندق سيسيل بعده
لا يزال!..

الحقيقة أن هذه الفنادق كانت كشيء من الأفلام وأنا أعيش في الإسكندرية. لم أنزل فيها إلا بعد رحيلي إلى القاهرة، وفي زياراتي سواء لمكتبة الإسكندرية أو قصور الثقافة أوغيرها، فهم يقومون بالحجز لي ولغيري فيها وأحيانًا أنزل بها في زياراتي السريعة. لم يكن هناك معنى لدخولها وأنا

في الإسكندرية أعيش، ولا معنى لدخولها في سفري وحدي حتى لو فكرت في الإقامة في فندق فهي غالية وهناك فنادق أرخص منها سعرًا. وكما قلت أذهب إلى فندق كريون. أنا لا يهمني من الإسكندرية غير هوائها وأصدقائي. رحل الكثيرون من الأصدقاء فبقي لي الهواء، وهو أمر مختلف عن كل هواء عشته في كل البلاد. مؤكد لأنها موطني. فالهواء في تونس على الشاطئ جميل وفي المغرب وفي فرنسا وفي أمريكا وغيرها بين محيطات وبحور مررت عليها، لكن هنا يختلف الإحساس به. في الإحساس حنين وأسئلة قديمة.

لقد وصلت إلى مبنى فندق سيسيل. هنا لا بد أن أتذكر على الأقل أسماء من قاموا بالبناء القديم في الإسكندرية ومصر مثل بيترو أفوسكاني مصمم كورنيش الإسكندرية وماريو روسي، وجوسيبي اليساريو لوريا مصمم وباني فندق سيسيل. ليست نوستالجيا فلقد رحلوا ربما قبل ميلادي أو وأنا طفل صغير، لكن كلًّا منهم كان يعرف أنه يبني على البحر فلا يحجب الهواء عمن هم خلفه فلا ترتفع البنايات عن خمسة أو ستة طوابق. البناء يذكرني بالدكتور محمد عوض أستاذ العمارة العظيم. أحد أبناء العائلة العظيمة في تاريخ العمارة في الإسكندرية وأحد أعلام مكتبة الإسكندرية حين كان يرأسها إسماعيل سراج الدين. وطبعًا أتذكر الدكتورة سحر حمودة أستاذة الأدب الإنجليزي في كلية الآداب ورفقتي معهما في المكتبة، في اللقاءات أو اجتماعات مجلس إدارة مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط الذي كنت عضوًا فيه، وتركته حين جاء مصطفى الفقي ولم أجدهما فيه. أرسلت طلبًا بالاستقالة دون حديث غير انشغالي. انتهى زمن الحديث الآن مع أي أحد، كما يذكرني عبد المنعم رمضان الشاعر الكبير دائمًا، أن ما بقي لنا قليل فلنعش بسلام مع النفس.

كم الندوات واللقاءات التي كانت في مكتبة الإسكندرية مع كتاب ومفكرين من العالم كبير جدًّا، وكانت كلها تقريبًا تحت رعاية الدكتور محمد عوض وسحر حمودة. هذا فضلًا عن الندوات في المجالات الأخرى بعيدًا عن مسألة البحر المتوسط. سعد زغلول كما هو لا يزال واقفًا يشير إلى البحر. إلى أوربا حيث الحضارة. ضحكت لأني جعلته في خيال بطل رواية "الصياد واليمام" وهو يعود يومًا سكران من أحد البارات بالليل، ويقف ينتظر الأوتوبيس، يرى سعد زغلول مستديرًا ينحني على الإسكندرية يحضنها ويحميها من المطر. رؤية لعائد من البار لكنه حب المدينة. قلت لنفسي يا إبراهيم سعد زغلول لم يلتفت في مكانه ولا يستطيع. القصص أوهام وليست حقائق. هناك أمامي جراج قام منذ سنوات في الحديقة التي حول التمثال. ومن بعيد أرى ديليس وعمارته وأرى تريانون وفندق متروبول. كل شيء في مكانه. لا بد يومًا أن أجلس في ديليس بعد انقطاعي أعوامًا طويلة. آخر مرة جلست في تريانون كانت منذ ثلاثة أعوام وكان زحامًا شديدًا. أجمل كابتشينو وأجمل أي مشروب تشربه في ديليس فما بالك بالحلوى. المهم أن المباني موجودة ولا يزال البحر يرسل الهواء ولم يظهر السور الحديدي. لو تحدثنا عن ذكرياتي سوف يختلط ما رأيته بما كتبته في رواياتي بما قرأته عن هذه الأماكن. وربما أخرج من الكورنيش بذهني وأبدأ في الدوران حول محطة الرمل.

ميدان محطة الرمل من أجمل معالم مدينة الإسكندرية ثاني كبرى مدن مصر بعد القاهرة، والأقدم من القاهرة بمئات السنين وعروس شاطئها المتوسطي ويشبه الميادين الأوروبية، وتنتشر به

العمارات الجميلة المبنية على الطراز الأوروبي. ميدان محطة الرمل كان في الأصل منطقة صحراوية أو كثبانًا رملية بها قرية صغيرة اسمها الرملة، وكانت منطقة عسكرية لا يُسمح بالتجول فيها إلا لساكنيها أو بتصريح خاص. تغير الأمر مع الخديوي سعيد عام 1858 ودخلت المياه النقية بإنشاء وابور مياه في الإسكندرية، ومن ثم انتقلت المياه إلى البيوت واتصلت المنطقة بالمدينة، ثم كان إنشاء خط الرمل للترام أحد أهم الأسباب لتطور المكان والمدينة.

تتداعى عليّ ذكرياتي ومعرفتي بمن ارتاد محطة الرمل ولم أره لأنه كان قبل ميلادي مثل كفافيس أو لورانس داريل أو هاري تزالاس أو غيرهم كثيرون جدًّا. أذكر أني في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كنت أعود مشيًا من الجامعة، كلية الآداب، إلى محطة الرمل أزور باعة الكتب. الرملي وعم سيد المجاور له وكانت معاملتي أكثر مع عم سيد، لأنه كان يسمح لنا بالاستعارة نظير قرش صاغ تقريبًا حين نعيد الكتاب. أي كنا ندفع ثمنه ثم حين نعيده يعطينا الثمن خاصمًا قرش صاغ. بعد ذلك وثق فينا فلم يكن يأخذ منا ثمنه مقدمًا. كنت أرى الفنان سيف وانلي جالسًا على الرصيف في كافتريا "على كيفك" وكان جميلًا فقط أن أنظر إليه. كان من طقوسي وأنا ذاهب إلى الكلية صباحًا أن أقوم بتلميع الحذاء في المحل الصغير جوار سينما ستراند. لا زلت أذكر حوارًا رائعًا بين العاملين الاثنين فيه. عاملان اثنان وأظن أن الأمر كذلك حتى الآن، يجلس كل منهما جوار الآخر وأمامه مقعد عالٍ يجلس عليه الزبون لتلميع الحذاء. كنا في شهر مارس فقال أحدهما للآخر: "هو الشهر دا طويل كدا ليه؟" فقال له الثاني: "دا شهر واحد وتلاتين يوم" فسكتا لحظات حتى قال الأول: "ياسلام لو الدنيا كلها تبقى شهر واحد "، فرد الثاني على الفور: "في الحالة دي مش حتلاقي حد يسلفك فلوس" ضحكت وتأملت كم الذكاء في الرد. كل مارس أتذكر هذا الحوار، الذي بدوره يذكرني بحوار آخر بين اثنين من ملمعي الأحذية، لكن بعد أربعين سنة تقريبًا في القاهرة، وأنا جالس على مقهى في شارع المبتديان يلمع لي واحد الحذاء والثاني جواره لا يلمع شيئًا فسأله: "هو فاضل قد إيه على العيد الكبير؟" رد الثاني وقال: "تقريبًا شهر وكام يوم كدا"، فسكت الأول لحظات ثم قال: "زي دلوقت السنة اللي فاتت" ضحكا وضحكت، بينما أفكر في العلامات الوجودية في تفكيرهما رغم أنهما لايدركان. لكني أتذكر أيضًا أن أكثر من ماسح أحذية كان يجلس في محطة الرمل أمام المحلات الصغيرة التي تبيع الآيس كريم عند نهاية خط الترام. اختفوا مع الوقت واختفت المحلات.

وأتذكر المقهى المجاور لسينما ريتس وأنا أشرب الشاي وتركت ماسح الأحذية يلمع لي حذائي وكان ما نعطيه له قرش تعريفة. حين أعطيته التعريفة قال لي: "معلش صاغ النهاردة" سألته: لماذا؟ فقال لي: إن محمد أحمد رفع سعر الساندويتش وأصبح قرشين صاغ بعد أن كان قرشًا واحدًا، وكان هذا حقيقيًّا. ستأخذني الذكريات إلى محمد أحمد الذي هو من علامات المنطقة، والذي حتى الآن حين أسافر إلى الإسكندرية لا أغفل أن أتناول وجبة فيه وأتذكر أيام زمان. كنا في كل رحلاتنا إلى سينما ريتس أو الهمبرا أو ماجيستك أمامه أو بارك في شارعه، شارع شكور، يكون الأكل سهلًا فهو "ساندوتشين" من محمد أحمد. هذه السينمات قد هدمت. سينما ريتس تغيرت وصارت ملهى أطفال. ما علينا. الذي وضع تصميم محطة الرمل هو المعماري الإيطالي الشهير أنطونيو لاشياك عام 1878. هذا ما أردت أن أتذكره. لكن السيارة تحركت قبل أن أبتعد بالتفكير عن محطة الرمل ورأيت على يميني مطعم وبار كاليتيا.

هل يصدق أحد أني عشت صباي وشبابي أحلم بالجلوس فيه يومًا. كان قبل السبعينيات والتحولات التي جرت في الثقافة وهجمة الوهابية، ومثل كل البارات والمطاعم على الكورنيش يجلس رواده داخله وعلى الرصيف، وخاصة بالليل يشربون البيرة والخمر أو ما يشاءون شبابًا ونساء ولا أحد يستنكر ذلك، بل يمر عليهم دائمًا بائع للسوداني وللمكسرات وكثيرًا ما كان يحمل فواكه بحر مطهية يعرضها عليهم، ورغم المزات التي أمامهم لا يعترض المحل ويشترون. كنت أعرف أن ذلك ليس في مقدرتي المالية. حين تحسنت الحياة معي شيئًا ما وعشت في القاهرة ونشرت أعمالي اشتقت إلى الجلوس في بار كاليتيا وجلست أكثر من مرة في أكثر من زيارة وطبعًا لا جلوس لشرب البيرة أو غيره على الرصيف. أثناء زياراتي للإسكندرية وأنا أكتب رواية "لا أحد ينام في الإسكندرية" أو رواية "طيور العنبر" كنت أستريح فيه. صرت معروفًا لديهم حتى جاء يوم لا أذكر تاريخه أجرى معي الإعلامي النابه شريف منير حوارًا حول كتاباتي، فاخترت إلى جانب مكتبة الإسكندرية، كاليتيا نجري فيه الحوار ولم يطلبوا أي مقابل. كانت هذه آخر مرة دخلت فيها كاليتيا لا أدري لماذا. لقد انقسم الآن إلى اثنين
لا أعرف السبب لكني لم أعد أجلس فيه وحدث ذلك بلا قصد أو سبب. يبدو لي أني كنت أنتظر اليوم الذي أجري فيه حوارًا تليفزيونيًّا. للأسف كعادتي لم أحتفظ بنسخة من هذا الحوار. كاليتيا من البارات القديمة التي تشهد على الإسكندرية الكوزموبوليتانية. لقد تم تأسيسه عام 1920 على يد اثنين من اليونانيين وقاما بتسميته على اسم مدينة كاليثيا اليونانية. اسم كاليثيا يعني المنظر الرائع.

وجدت نفسي أمام أتينيوس الذي ظهر في أكثر من رواية لي. الحديث عنه طويل لكن المهم أنه موجود. إذا أردت أن تعرف تاريخ الأجانب والفن معه فاقرأ كتاب "سبعة أيام في سيسيل " Seven Days at the Cecil الذي صدر عن مركز دراسات الإسكندرية والبحر المتوسط بمكتبة الإسكندرية والذي كان لي شرف الاشتراك في مناقشته بمكتبة الإسكندرية.

كاتبه هو هاري تزالاس اليوناني الذي ولد وعاش في الإسكندرية وغادرها مع غيره من اليونانيين وهو في العشرين من عمره. والذي كتب عنها من قبل كتابه "وداعًا للإسكندرية" Farewell to Alexandria.

رغم أن العنوان عن سيسيل الذي عاد هاري تزالاس عام 1990 ليقضي به سبعة أيام ثم يعود فيكتب هذا الكتاب عن ذكريات المدينة العالمية، فأكثر اللقاءات للشخصيات التي يتذكرها كانت في أتينيوس. أتينيوس أصبح الآن ملكًا لعائلة يعقوب نصار صاحبة مطعم نصار.

في الأصل في نهاية القرن التاسع عشر كانت الأرض الخالية ملكًا ليهودي إيطالي اتفق معه كوستانتيوس أثينيوس، أي الأثيني، أن يبني له العمارة مقابل عمل كافيه باسمه وحلواني. كان هذا عام 1898. وراء كل المحلات والبارات والكافيهات حكايات يونانية وإيطالية ويهودية. باستارودس وسانتا لوتشيا وغيرها حتى بار الشيخ علي ومحمد أحمد. تستطيع أن ترجع إلى كتاب الدكتور محمد عوض "إيطاليا في الإسكندرية: المؤثرات على عمران المدينة" Italy in Alexandria: Influences on the Built Environment أو كتابه مع الدكتورة سحر حمودة "طعم الإسكندرية- نكهة عالمية". A Taste of Alexandria: A Cosmopolitan Flavor وفيه كل ما تشاء عن مطاعم وكافيهات ووجبات الطعام الأجنبية في الإسكندرية.وإن

شئت أكثر عن الجاليات الأجنبية والحياة في جو من التسامح الذي افتقدناه، وكيف أثروا المدينة بأعمالهم فيمكن أن تقرأ "أصوات من الإسكندرية العالمية" Voices from Cosmopolitan Alexandria أيضًا لمحمد عوض وسحر حمودة.

وكلها من مطبوعات مكتبة الإسكندرية. لقد كانت هذه الكتب أحد مصادري وأنا أكتب رواية مثل " الإسكندرية في غيمة".

كل من أتى إلى مصر من فنانين وأدباء وساسيين مروا على محطة الرمل، ومن عاش في الإسكندرية لم يكن بعيدًا عنها. كان بين محطة الترام وتريانون منطقة سفلى للمحلات النزول إليها زمان بسلم كهربي، لكن أغلقت الأبواب وصارت الزبالة أمامها. سمعت أكثر من مرة عن إعادتها وإعادة المحلات إليها لكن لم يحدث حتى الآن. ستأخذني محطة الرمل لأمشي في شارع صفية زغلول، وأنتهي منه لأدخل في شارع فؤاد وأعود من شارع صلاح سالم لأدخل شارع سعد زغلول، لكني لا أريد. فعلت ذلك في رواياتي. أمرّ على المقاهي التي من بينها جلست كثيرًا في كافيه دي لابيه. هأنذا الآن أقترب من حديقة الخالدين. وهنا أتمنى أن تسرع السيارة ولايتوقف الطريق. لن أتحمل الحديث عما جرى.

هل سأتحمل كل هذه الذكريات؟ ليست الذكريات حكايات وبشر لكنها طعم ورائحة. حتى لو تعمدت أن تهرب منها سيظل الطعم والرائحة في فمك.

الرسالة السابعة:

لم أجلس في "حديقة الخالدين" غير مرات قليلة، سواء كنت أعيش في الإسكندرية أو في زياراتي لها. لكني كنت سعيدًا جدًّا بها في المرات القليلة التي جلست فيها وأنا أنظر حولي إلى تماثيل سيد درويش وعبد الله النديم وبيرم التونسي ومحمد كُريّم. لم أرَ أحدًا منهم طبعًا. حين كنت صبيًّا كان بيرم التونسي في القاهرة، أما سيد درويش فلقد مات عام 1923 وكذلك مات عبد الله النديم عام 1896 وكذلك تم قتل محمد كريّم عام 1798 من قبل الحملة الفرنسية. أعرفهم كلهم من قراءاتي.

من تعليمي عرفت النديم الثائر مع أحمد عرابي وعرفت مقاومة محمد كريّم للفرنسيين ومن الأغاني عرفت سيد درويش وبيرم التونسي ومن قراءاتي عنهم. لا زلت عاشقًا لسيد درويش كثيرًا ما أحب أن أسمع أغانيه بصوته أو بأصوات أخرى، وطبعًا عشقي لبيرم ملء الفضاء، وقرأت في شبابي كل أعماله الشعرية. عبد الله النديم درسناه مثالًا على الوطنية وكذلك محمد كريّم. أعجبني يومًا مقال لبلال فضل وكيف أنه زار تركيا ليبحث عن مقبرة عبد الله النديم ليطالب بنقل رفاته إلى مصر لكنه لم يصل إليها. مدرستي الابتدائية لا الحضانة الأولى كانت هي مدرسة عبد الله النديم كما قلت وكانت بيته. سنة واحدة بقيت بها حتى انتقلت إلى مدرسة الغندور الخاصة. ولما كبرت وعرفت من هو عبد الله النديم فرحت جدًّا أني قضيت وقتًا في بيته. رغم أني لم أجلس بحديقة الخالدين غير مرات قليلة، لكني كنت كلما مررت عليها أشعر بالغبطة، وأنها صارت شيئًا في الروح لا تحتاج أن أطل عليها. صارت معلمًا من معالم الإسكندرية بأشجارها القليلة ومقاعدها وتماثيل العظماء بها.

حدث منذ أكثر من عامين أن بدأت في الإسكندرية ومصر كلها حملة لا أدري ما المقصود بها على الأشجار في الشوراع. قيل أن ذلك يحدث لأنها تحجب كاميرات المراقبة عن متابعة ما يمكن أن يحدث من جرائم. لكن الحملة لم تتوقف عند الأشجار التي وراءها محلات. امتدت لتشمل الأشجار التي على ضفاف النيل مثلًا. أنا لا أعرف كيف تسمح الدولة لنفسها أن تخلع أشجارًا بعضها مضى عليه خمسون سنة وأحيانًا مائة. هذا عمل مُجَرَّم بالقانون.

أذكر مرة ربما عام 2010 وكنت سهران في وسط البلد بالقاهرة. كنت في حاجة أن أستمر في السهر فقررت الذهاب إلى دار ميريت في مقرها القديم بشاعر قصر النيل. قطعت الزقاق الصغير الذي به بار ومطعم استوريل فوجدت بائعًا للعاديات يقف حزينًا يكلم نفسه في ضيق. نظرت إليه فأشار في حزن إلى شجرة عند نهاية الزقاق على بعد أمتار قليلة حين يلتقي بشارع قصر النيل، وعمّال يقطعون فروعها العالية. قال لي في ضيق شديد وحيرة: يقطعون شجرة عمرها مائة سنة. تملكني الغيظ وتقدمت إليهم: أسألهم كيف تفعلون هذا؟ قالوا: إن صاحب المحل يريد ذلك لأنها تقطع عنه رؤية الناس. قلت: لهم توقفوا، هذا ممنوع. وتركتهم إلى ميدان طلعت حرب. قابلت ضابطين شابين حدثتهما في ذلك فجاء معي أحدهما. رأيت صاحب المحل يهمس له بطريقة لا تجعلني أسمعه، فقلت للضابط: إني فلان، وسأتصل الآن بالصحف لتأتي تصور المشهد. وفعلًا اتصلت بأكثر من صحيفة، وجاء صحفيون. أوقف الضابط تقطيع الشجرة وحرر محضرًا لصاحب المحل وصادر الأدوات التي مع العمال. عرفت بعد ذلك إنه حكم عليه بغرامة ثلاثة آلاف جنيه. ظللت كلما مررت من هناك بعد ذلك ينظر لي في غيظ. قامت ثورة يناير وتغيرت الدنيا. لم أعد أراه أو لعله موجود وأنا نسيته. أحكي هذا لأقرر أن القانون يمنع قطع الأشجار، لكن الدولة العظيمة تضرب بالقانون عرض الحائط، وتحول أشجارنا إلى أخشاب تباع. عرفت أنه سيقومون بتجديد في حديقة أنطونيادس وسيقطعون الأشجار لبناء كافتيريات. لم أعلق ولم أتابع من كثرة ما حولي من قضايا ووجع، ثم عرفت أنهم يفعلون ذلك بحدائق قصر المنتزه. ضممت ذلك إلى ما كتبت عنه وضاع. وتذكرت ما يجري في الداون تاون بمحرم بك، الذي هو أصلًا كان جزءًا من بحيرة مريوط، وقررت المحافظة في المنتصف الثاني من السبعينيات أن تردمه وتقيم حديقة دولية. ردموا البحيرة بفضلات المدينة من الزبالة وزرعوا الأشجار، ولم يدرك أحد أن الفضلات بها مواد عضوية مثل العظام وبقايا اللحم والدهن فخرجت الديدان من الأرض تأكل جذور الأشجار، فقرروا تغيير المكان إلى فنادق ومطاعم وغيرها، وصارت الحديقة الدولية في مكان صغير جدًّا قياسًا على ما تم ردمه. مكان ابتعدت عنه الديدان صدفة، ربما ردموه بالرمال. الآن حتى هذا الذي أقيم على خطأ سيزيلونه من أجل إقامة عمارات يقولون، كما يقال دائمًا، أنها ستتبع إحدى شركات الإمارات، وسترتفع إلى السماء كما ترتفع العمارات في الإمارات ولا يدرك أحد أنها ترتفع هناك لقلة مساحة البلاد.

تاريخ قصر المنتزه يعرفه الجميع. لقد بناه الخديوي عباس حلمي الثاني عام 1892 وأحاطه بالحدائق، لكن التاريخ لا يشفع لأشجاره. منذ أيام الخديوي إسماعيل كانوا يبنون الحدائق كما يرونها في فرنسا. حديقة الأورمان تماثل حديقة التويليري بباريس التي جلست أستريح فيها كثيرًا بعد جولاتي في شارع الشانزليزيه. الآن يعودون بنا إلى الصحراء رغم أن الصحراء البعيدة عن مدننا، قامت فيها أشجار من زمان مثل كينج مريوط وبرج العرب، ولا أعرف ماذا جرى في

أشجارها الآن. المهم أن حديقة الخالدين هي الحديقة الوحيدة على كورنيش الإسكندرية في المسافة من الأنفوشي حتى المنتزه. لكنهم حولوها إلى مطاعم الفلاح للكبدة وغيرها من المطاعم أرى صورتها وأرى تمثال سيد درويش وراء الزحام كأنه يصرخ "شيلوني من هنا ياولاد ال...." على طريقة الإسكندرانية في الأحياء الشعبية.

أغمضت عيني. الحمد لله انتهت ألفاظ سكندرية كثيرة مشت معي من الأحياء الشعبية التي عشت وتعلمت بها.. تقريبًا لم يعد معي من الإسكندرية شيء غير أني أقول لَبَست بفتح اللام والباء لا كسرهما، وشربت بفتح الشين والراء لا كسرهما، لكني لم أعد أقول: "أربع" على يوم الأربعاء بدون تفخيم. صرت مثل أهل القاهرة أقولها بالتفخيم، ولا أقول "أحا" ولا "جِنِي" بدلاً من جنيه. يخلط الناس على الميديا بين "أحا" و"أحيه". فأوضح لهم أن "أحا" يقولها الرجال أما أحيه فهي للنساء. حتى الآن إذا جلست بين نساء من الإسكندرية تنزل حولك "أحيه" كالمطر لكنها أرق من "أحا". البعض وجد تفسيرًا لـ"أحا" غير صحيح أن معناها أني حقًّا أعترض، وهذا تلخيص لها بالحروف الأولى. الحقيقة إنها لفظ صوتي وليس للاعتراض فقط، بل أحيانًا للإعجاب أو الندم أو غير ذلك. فيمكن أن يقول الرجل: "أحا انا نسيت المشوار بتاعي". ويمكن أن تقول المرأة: "أحيه نسيت الشاي على النار" وتنهض بسرعة تلحق به. هنا لا اعتراض طبعًا. ويمكن أن يصف الشاب السكندري فتاة: "أحا دي حلوة أوي". كأنه يفصل بينها وبين الأخريات ويغالي في جمالها. وتقول المرأة عن فستان: "أحيه دا حلو أوي" تمامًا مثل سب الدين فكما يستخدم في الغضب، يستخدم في الإعجاب. إنها طريقة جاءت من تعدد الجنسيات في البلاد الساحلية. لا يقصد بها الدين، بل الأصل أو العمل. تمامًا كما كنا نسمع في الأفلام المصرية القديمة أحد الشوام يقول لآخر: "يلعن ربك". لا يقصد الله سبحانه وتعالى، لكن أصله أو جنسه أو ولي أمره. قيل عن "أحا": إنها وفدت إلينا مع الفاطميين حين كان بعض شيوخ المساجد يخطبون ويسبون الصحابة فيقولون: أحا يا أبو بكر.. أحا يا عمر. لكني لا أعتقد. هي مجرد صوت ربما السبب فيه اتساع الفضاء. كما أن "أحا يا عمر" كثيرًا ما كانت تبسيطًا "لأحمد يا عمر" في المعارك بين النساء في الأحياء الشعبية، ولأحمد يا عمر حديث آخر مختلف، وتشمل كل المدن والقرى لا السواحل. المهم أصابني الضيق والغيظ وأغمضت عيني أنا الذي مررت على كاليتيا منذ قليل وأتينيوس وغيرهما واستعدت أيامًا جميلة ورأيت ما جرى في حديقة الخالدين، وهي الحديقة الوحيدة على الكورنيش وبها أعظم عظماء الإسكندرية ولا أقول تماثيل، فالذي كان ينظر إليهم يراهم ينظرون إليه ويبتسمون سعداء أنهم بين أهلهم. ترى ماذا يقولون أو بماذا يشعرون الآن؟.. لكن كان علينا أن نستمر في الطريق.

تحركنا ببطء حتى وصلنا إلى طريق سوتر. طبعًا مررنا على مسرح كوتة الذي لم يعد موجودًا. وأرض كوتة التي لا بد سيقام عليها أي بناء. مسرح كوتة تعرض من وقت بعيد للإهمال. أهم ما شاهدت عليه من مسرحيات كانت "مدرسة المشاغبين" عام 1973 وكان عبد المنعم مدبولي هو الذي يقوم بدور الناظر
لا حسن مصطفى. شهدت مسرحيات كثيرة في أوبرا سيد درويش، وحين أتيت إلى القاهرة صرت من رواد المسرح الدائمين. المسرح القومي والطليعة بالتحديد.

المهم أني غير متفاجئ بما جرى في أرض كوتة. حتى معارض الكتب التي كانت تقام عليها برعاية مكتبة الإسكندرية لم تعد تتم. لا يفاجئني ما يحدث على الجانب الأيمن من العمارات والبيوت فكله عاصرته وشاهدته. الجانب الأيمن كان يمتلئ بالملاهي الليلية ولقد انتهى ذلك. معظمها صار عمارات أو قاعات أفراح. لكن شارع سوتر كان لا بد أن يثير فيّ ذكريات الجامعة. فكليات التجارة والحقوق أمامه وبعدهما كلية التربية ثم بعدها كلية الآداب تطل على شارعي بورسعيد وقناة السويس. لكن السيارة راحت تتحرك أسرع، حتى تجاوزنا الأزاريطة إلى شارع قناة السويس، ولاح على يساري كازينو الشاطبي. تاريخ كازينو الشاطبي قديم. وفي روايتي "لا أحد ينام في الإسكندرية" أخبارعن فرق رقص وموسيقى عالمية كانت تأتي إليه في الأربعينيات وقبلها. وطبعًا استمر الأمر في الخمسينيات. كان كازينو الشاطبي هو جلستنا مع زميلاتنا بالكلية بعد المحاضرات، أو حين لا نحضرها. قصص صداقة أو حب. سمِّها كما تشاء. كان ما يلفت انتباه أي شخص هو أن الكازينو مقام على مسافة من الشاطئ وفوق الماء على أعمدة خرسانية.

لقد غرقت أنا يومًا تحت هذا الكازينو. قصة الغرق لطيفة إذ كنت يومها عام 1961 عرفت بنجاحي في الإعدادية، فذهبت إليه مع بعض الأصدقاء. لم أكن أعرف العوم وحتى الآن لا أعوم لمسافات طويلة. تصيبني فوبيا إذا تقدمت في الماء بسبب هذا الغرق. لا أعرف ما الذي جعلني أترك الشمسية وأصحابي وأنزل الماء وأتجه إلى ما بين الأعمدة التي تحمل الكازينو. بينها غرقت ورأيت وأنا أغرق وجهًا أسود ظننت أنه الشيطان سيأخذني إلى الجحيم، لكن بعد ذلك عرفت أنه الغواص الذي أنقذني وكان يجلس على الشاطئ وأسرع إليّ. عرفت ذلك بعد أن أفقت من الإغماء في غرفة كانت على الشاطئ للإسعافات الأولية. أسعفوني وعدت إلى البيت. لم أكره كازينو الشاطبي ولاشاطئ الشاطبي لكن أصابتني فوبيا من البحر نفسه، ظل كازينو الشاطبي مكان أجمل اللقاءات. رأيته قد تغير. لم يعد مقامًا كما كان من الحجارة بل أصبح يغلب عليه الألموتال. هكذا رأيته منذ سنوات. لا أعرف من أين جاءت إلينا ثقافة الألموتال هذه. لم أدخله على هذا النحو لأني لا أعرف هل هو بمساحته القديمة وبنفس الاتساع أم لا؟ هذا من ناحية. ومن ناحية أصابني الألموتال منه بالنفور. لست من جيل الألموتال. مررت عليه غير مندهش. والسيارة تمشي ثم فجأة انقطعت رؤية البحر.

صرت لا أرى إلا كافتيريات على الشاطئ ورأيت أيضًا ما يشبه الجراج للسيارات على الشاطئ. ما الذي يحدث هنا. أريد أن أرى الماء. الماء الذي كان يمتد في الصيف إلى ما لا نهاية، وفي الشتاء يرتفع فيه الموج صاعدًا إلى الكورنيش يكاد يصل إلى الناحية الأخرى، فتتلقفه البلاعات التي تنتظره في شغف من عام لعام. البلاعات حين كان لدينا نوعان منها. نوع للمطر ونوع للصرف الصحي تم الجمع بينهما لا أعرف في عهد أي محافظ، لكنه على أي حال قبل عبد السلام المحجوب. لا أعرف لماذا تم الجمع بينهما. ثم ما جرى بعد ذلك من مبانٍ مخالفة مرتفعة ومن ازدياد حجم الصرف الصحي وكمياته فصارت البلاعات مع المطر الشديد "تطرش" ما فيها إلى الشارع. كدت أقول لخالد الذي يقود السيارة أن يعود لأطل على تمثال عروس البحر. حمدت الله أنه ما زال موجودًا رغم أني لم أتطلع إليه. تمثال عروس البحر الذي أنشأه النحات فتحي محمود. يقال دائمًا أنه عن إله البحر في الأساطير اليونانية وكيف تغير في شكل ثور يحتضن عروس البحر التي هي الإسكندرية. وأراه أنا دائمًا عن حكاية زيوس الذي غير نفسه في شكل ثور وخطف

البنت الجميلة "أوربا" من مدينة صور بلبنان وهرب بها إلى جزيرة قبرص، يبدو هنا في شكل حصان يحيطها.

كنت لا أزال أرى البحر، لكن بعد كازينو الشاطبي اختفى مع الكافيتريات والجراج العجيب للسيارات. وحين وصلنا إلى سيدي جابر اختفى البحر تمامًا بسبب الكوبري العلوي العجيب الذي أنشأوه على الشاطئ. كيف حقًّا تمشي على الكورنيش لا ترى الماء. لم أعد من رواد شواطئ الإسكندرية. صرت من رواد العجمي ثم تركته وصرت من رواد سيدي كرير ثم تركته وصرت قليلًا ما أذهب إلى الساحل مستأجرًا شاليه لأسبوع لا أكثر مثل هذه المرة. قرأت كثيرًا عما جرى في الشواطئ وكيف صارت غير مفتوحة لأي أحد، فلا بد من دفع رسوم دخول تصل في بعضها إلى خمسة وعشرين جنيهًا للفرد. هكذا تقريبًا تم استبعاد تسعين في المائة من أهل الإسكندرية.

إسكندرية لم تعد المدينة التي كانت تنتهي حدودها الجنوبية عند بحيرة مريوط، امتلأت بالعشوائيات. هذه المناطق العشوائية هي أكثر سكان الإسكندرية عددًا الآن، وأكثرها مناطق عامرة بالفقراء. لا جديد فيما نرى. على يسارنا البحر محجوب وللأسف سيظل كذلك حتى نصل إلى سور المنتزه وينتهي النظر إلى البحر. على يميني ترتفع العمارات العالية محل العمارات القديمة التي كانت
لا تزيد عن ستة طوابق. لم تكن بطول الشاطئ طبعًا فلقد كانت الشواطئ البعيدة مثل سيدي بشر والعصافرة والمندرة أمامها رمال بها شاليهات خشبية. انتهى ذلك من زمان وقامت العمارات. من الذي سمح عبر خمسين سنة بهذه الارتفاعات فحجب الهواء عن المدينة.

لكني طبعًا رأيت شيئًا قديمًا أحبه وهو فندق سان جيوفاني بستانلي الذي خلفه أقيم الكوبري الذي تم حين كان عبد السلام المحجوب محافظًا وعليه يقف الشباب في بعض الأحيان. لا تزال كبائن ستانلي القديمة موجودة كما أقرأ أو أسمع لكن الأسوار عزلت الشاطئ عن الرؤية. عزلت الماء. تقريبًا في تسعين في المائة مما بقي من الطريق لن أرى المياه فيه. وطبعًا ولا الموج. حركة أمام وحول الكافتيريات وهذا طبيعي فلقد ازداد عدد السكان، لكن لا يعني هذا أن الإسكندرية ظلت تطل على البحر. سأرى عمارات عالية على يميني، وبيوتًا قديمة خالية يزداد فيها الخراب، حتى يسهل هدمها من أجل البنايات العالية القبيحة، التي لا علاقة لها بالبيئة والمكان، وتقف على الشاطئ كأنها رجال أمن يمنعون عن المدينة الهواء.

الأفضل أن أكمل الرحلة شاردًا عن كل ما حولي. مهما حاولت أن أجد ما يمتعني من ذكريات سيغتاله القبح. فلأعش ما بقي لي في صمت وأعود إلى عزلتي عما حولي ولأترك المستقبل للأجيال الجديدة التي لم تعرف كيف كان من قبل على شاطئ المدينة يتنفس الجمال. في الشتاء والصيف لا تنقطع أنفاسه عن الناس. ولتكن هذه هي الرسالة الأخيرة، فسأكمل المشوار مغمضًا عيني.

القسم الثاني

وجوه للعالم والوطن

"إيطاليا في الإسكندرية" و"تاريخ أسرة في إحياء المدينة "

كتابان عظيمان

لحارس الإسكندرية الدكتور محمد عوض

من دواعي الفخر والشرف أني قابلت الدكتور محمد عوض منذ أكثر من عشر سنوات في إحدى الندوات بالمركز الثقافي اليوناني بالإسكندرية، ثم بعد ذلك كثيرًا في مكتبة الإسكندرية. منذ وقت مبكر جدًّا في حياتي أدركت أن الحدود بين الأدب وسائر الفنون واهية. وأن وحدة الفنون كلها تتجلى في الكتابة. سينما أو فن تشكيلي أو تصوير أو عمارة.

كنت أعرف أن مصر مرت بمراحل تاريخية في العمارة منذ عصر الفراعنة، وكنت أعجب بها، وما أكثر الليالي التي مشيت فيها أيام الشباب مع الفنان صلاح عناني والفنان عادل جيلاني في شوارع الجمالية حتى الصباح نقرأ التاريخ من أشكال البناء. كنت أعرف أن للعصر الفرعوني ملامحَ، ولليوناني الروماني ملامحَ، وللإسلامي ملامحَ تتفرق على فتراته بكل أنواع الحكم، ثم عمارة البحر المتوسط التي انفتحت لها مصر منذ عصر محمد علي، لكني لم أفكر أن أعرف من كانوا وراءها وما هي أسماؤهم إلا من اشتهر منهم في كتب التاريخ. تفاصيل غابت عني حتى قابلت الدكتور محمد عوض واستمعت إلى محاضراته في مكتبة الإسكندرية ثم قرأت كتبه وأولها كتابه العظيم الكبير "إيطاليا في الإسكندرية" وفيه وجدت منجمًا تفصيليًّا كان غائبًا عني. ثم قرأت كتابه الجميل الذي شاركته فيه الدكتورة سحر حمودة وعنوانه "طعم الإسكندرية" عن المقاهي والمطاعم القديمة، الباقي منها والذي اندثر. ثم أخيرًا كتابه الرائع "عوض وشركاه – تاريخ العائلة في العمارة السكندرية" و"عوض" طبعًا هو كنية عائلته وهو سليلها في المجال نفسه.

لقد فتح لي كتابا "إيطاليا في الإسكندرية" و"طعم الإسكندرية" الأفق واسعًا فوقه قوس قزح من البهجة وأنا أكتب رواياتي عن الإسكندرية وبصفة خاصة رواية "الإسكندرية في غيمة" وهي الجزء الثالث من ثلاثية الإسكندرية. بل أقول: إن جولة أحد أبطال الرواية مع بقية الأبطال من طلاب الجامعة بين العمارات التراثية وبين مقابر الجاليات وأهل العقائد الأخرى مصريين وأجانب في منطقة الشاطبي، والتي كانت في الرواية أشبه بموال حزين على ما ضاع، واستلهامًا للأمل من ماضٍ عظيم، كان وراءها هذان الكتابان. والآن إلى كتاب إيطاليا في الإسكندرية.

هذا الكتاب الفذ: Italy in Alexandria يقع في أكثر من أربعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير والذي تشغل اللوحات أكبر مساحة منه وشرحها وشرح أساليب البناء وخصائص كل مدرسة معمارية يحتاج إلى صفحات وصفحات لكنك ستمضي به مذهولًا وأنت ترى أن وراء كل الأبنية العظيمة في المدينة مهندسين وفنانين إيطاليين وشركات معمارية إيطالية.

الكتاب يلقي الضوء على إسهام الإيطاليين في الإسكندرية الحديثة في معظمه لكن في الفصول الأولى البدايات والعصور الوسطى، وهكذا يقدم كيف كان التاريخ القديم للمدينة واستمرار النفوذ والتفاعل الروماني مع الثقافة والحضارة المصرية. وهكذا تمشي الدراسة العظيمة مع التاريخ بالصور حتى نصل إلى العصر الحديث لنعرف أنه في أواخر القرن التاسع عشر حين صارت الإسكندرية عاصمة مصر الاقتصادية، كان التجمع الإيطالي هو الثاني في العدد بعد التجمع اليوناني. وكان التجمع الإيطالي يصل إلى حوالي 25 % من التجمع الأوربي في عام 1897. لقد زاد الإسهام الإيطالي في الإسكندرية في المجتمع المتعدد المفتوح – الكوزموبوليتاني - للإسكندرية، فلقد كان الإيطاليون أول من أدار المتحف اليوناني الروماني لحوالي نصف قرن وجمعوا مادته واختاروها. لقد عُرِف الإيطاليون بأنهم بناة محترفون وأهل حرفة، سواء في مباني العائلة المالكة أو بين الباشوات أو بين الشركات وأهل الصناعة أو الناشطين من المجتمع الأهلي. الأمر نفسه يقال عن تأثيرهم في المجال العام حيث كانوا الموظفين الأساسيين في وزارة الأشغال العامة وفي مؤسسة الوقف ومؤسسي لجنة التنسيق والتنظيم الحضاري والبيئي المسماة بلجنة الأورناتو Comissione d`Ornato في عام 1834، وكذلك في تأسيس البلديات في عام 1890، واكتسب الإيطاليون نوعًا من الاحتكار في تنمية عمارة المدينة وشوارعها وتطورها الحضاري.

يبدأ التاريخ الإيطالي في المدينة في الظهور بالعلاقات بين الإسكندرية البطلمية وروما في القرن الثالث ق. م في عهد فيلادلفيوس بطليموس الثاني باتفاقات تجارية وسياسية. ثم كان الوجه الثاني للعلاقات حين ضعفت دولة البطالمة في مصر ومستعمراتها وبدأ سيناريو حضور روما في مصر وحكمها لها بعد الصراع بين كليوباترا وأخيها الصغير الضعيف بطليموس الثالث عشر حتى دخل قيصر روما مصر وحدث ما حدث من حرق مكتبة الإسكندرية وكثير من الآثار.

بشرح عميق يواصل البروفيسور السكندري محمد عوض ما حدث في المدينة من تطور فكري وديني نتيجة لتداخل الفكر المصري والهيللييني والروماني والبيزنطي ويقدم أمثلة على فلاسفة ومفكرين فالعمارة لا تنفصل عن الفكر السائد والحالة الدينية وكيف استقرت المسيحية وأثرها على الفكر وكيف صارت الإسكندرية مركز الأرثوذكسية الشرقية في أفريقيا وكيف صار بطريرك الإسكندرية هو بطريرك لكل هذه البلاد. لقد كشفت آثار غارقة في أبي قير أو الميناء الشرقية عن الكثير من الآثار اليونانية والرومانية وآثار في مارينا والعلمين وغيرها واكتشاف صهاريج المياه وغيره من آثار تحت الأرض. كانت الصهاريج لتخزين المياه منذ عصر القيصر أوغسطس، وحين جاءت الحملة الفرنسية كان ما تبقى منها 308 صهاريج، وظلت تستخدم في عصر محمد علي. مع بداية القرن العشرين كان ما تبقى منها للاستخدام هو 71 صهريجًا، وتم استخدامها فيما بعد في الحربين الأولى والثانية العالميتين كمخازن سرية للأسلحة ويبقي الآن 44 منها صهريج كنيسة سانت كاترين على سبيل المثال.

بحيرة مريوط ازدهرت في العصر اليوناني الروماني، وكان حولها مساكن الطبقة الراقية من فلل ومنتجعات والقوارب للنزهة والصيد، وكان حولها أماكن لإنتاج النبيذ الممتاز بالإضافة إلى زراعة الفواكه والزيتون ونبات البردي وغيرها. كان هناك يونانيون ورومان ويهود ومصريون طبعًا

وصارت المدينة للعالم كله ملاذًا. كانت منطقة مريوط تعد بيتًا لمن لاذ بالصحراء في عصور الاضطهاد من رجال الدين والقديسين مثل سان مينا الشهيد الذي دُفن في المكان الذي توقف فيه الجمل الذي يحمل بقاياه ورفض أن يتحرك وصار المكان مكانًا هامًّا للحجاج من كل البحر المتوسط وبُني ديره قريبًا من برج العرب. وحديث طويل عن المكتشفين من علماء الآثار الأجانب وبقايا مناطق في أبي صير بالساحل الشمالي حيث توجد بقايا من معبد أوزوريس والفنار الصغير ومقبرة رومانية، وملامح الموقع تعكس استمرار التراث المصري والهيللينى والبيزنطي الروماني الذي يعكس الخلط النموذجي في عماراتها.

طبعًا كثير من الآثار دمرتها الحروب يذكرها الدكتور محمد عوض ويستمر بنا إلى العصر الإسلامي وظهور المدينة التركية أو الحي التركي ما بين الميناء الشرقية والغربية بعيدًا عن أسوار الأحياء القديمة.

ونصل إلى عصر محمد علي الذي بدأت معه نهضة مصر الحديثة، والذي خص المدينة بحفر ترعة المحمودية التي أحيت ميناء الإسكندرية، وبدأ الازدهار يعود إلى المدينة التي غاب عنها الروح العالمي في العصور الوسطي الإسلامية، وبدأت هجرات من الأوربيين إلى مصر عامة والإسكندرية خاصة وكانت مصر قد بدأت شيئًا فشيئًا تنعتق من السيطرة العثمانية وتتجه إلى أوربا. وما جرى يومًا من دمار للمدينة عند الاحتلال البريطاني ودور الإيطاليين في إعادة ما انهدم.

ثم يعرّج الكاتب على تنمية المدينة صناعيًّا وتجديد المباني الملكية و"طَلينة" الأساليب المختلفة في العمارة ويعرض نماذج متعددة لهذه "الطلينة" للأساليب، ويستمر في نمو المدينة حداثيًّا في البناء، ويعرّج على المباني الدينية والعرقية ثم المستشفيات ثم فضاء الخلود، المقابر وبنائها، وكل ذلك في اتجاه الحداثة. وقبل أن ينتهي الكتاب نكون قد حصلنا على مجموعة من الصور الرائعة تجسد دراسته وأسماء لا تنتهي من المعماريين الإيطاليين. فيما يلي أمثلة منها.

ممن جاء من المعماريين الإيطاليين فرانسيشكو مانشيني الذي عمل في الإسكندرية ما بين عامي 1820-1865 وأقام أعمالًا هامة مثل الوكالة الجديدة والميدان الكبير، ميدان القناصل فيما بعد ثم ميدان محمد علي، وكذلك تنظيم المباني حول الحي التركي والميناء وترعة المحمودية. فتح مانشيني المجال للأورناتو في 1834 الذي قام بتنظيم المدينة على النهج الكوزموبوليتاني وكان مديرها حتى عام 1847 وبعض الوثائق تقول إنه كان مستشارًا فيها وليس مديرًا. تحت رعاية الأورناتو مشت الإسكندرية في طريق التحديث.

بييترو أفوسكاني الذي جاء بدعوة من أخيه الضابط في خدمة محمد علي ليقوم بتصميم قصر بوخوس بيك- الأرمني مساعد محمد علي باشا وناظر أو وزير التجارة - ووصل الإسكندرية عام 1837 وكان فنانًا رائعًا ونحاتًا، من أعماله حي الأزاريطة الذي كان "كارانتينة" للمرضى يُعزل فيه البحارة والمسافرون حتى يتم فحصهم طبيًّا، حيث كان الوباء يتردد على المدينة وكان محل اهتمام كبير للسلطات. وكلفه الخديوي إسماعيل بتصميم بورصة مينا البصل عام 1871.

أنطونيو لوكوفيتش الذي وصل الإسكندرية عام 1836. بنى كنيسة يونانية وأخرى إنجليزية وجامعًا ومصانع القطن والأرز والزجاج على قناة المحمودية وقرب الميناء، وأنتج مواد خام للأثاث والبناء، وانغمس في بناء قصر الوالي سعيد في المكس بانتقائية عالية بين الأساليب. وبنايات بطول شارع شريف باشا ومحاور موازية لها مثل شارع توفيق وجامع العطارين. لقد قدم لوكوفيتش تفسيرًا لزواج الشرق بالغرب في ترابط مدهش بين القباب والمآذن.

أنطونيو لازياك الذي صمم وكالة منشا وميدان محمد علي وأسس مع مجموعة من البنائين شركة البناء المصرية وشارع شريف باشا وقصر محمد علي وكثيرًا جدًّا من الفلل والبيوت منها فيللا مظلوم باشا وفيللا لوران التي هي الآن مدرسة لوران الثانوية للبنات وعمارة آفيون بشارع فؤاد الأول التي تقع فيها الآن مكتبة الأهرام وضريح سوارِس وجامع يحيى باشا وغيرها كثير.

جياكومو اليساندرو لوريا مصمم المستشفى الإسرائيلي – مستشفى الطلبة الآن – ومستشفى الولادة وكنيسة سانت ريتا بمينا البصل وجامع رمضان شحاتة وغيرها وبنك مصر الذي يتجاور فيه أيضًا الفن الإسلامي والإيطالي. وكذلك محطة سكة حديد الإسكندرية ومحطة الرمل وهانو بميدان سانت كاترين وشيكوريل بشارع سعد زغلول وقصر رأس التين وفندق سيسيل.

جوستاني آفيون الذي وُلد في الإسكندرية عام 1868 وتعلم في كلية الفنون الجميلة في باريس وعاد إلى مصر يمارس فيها فنه ومهاراته وقام بتصميم فيللا منشا والقصر اليوناني الذي هو المركز الثقافي الأميركي الآن وفيللا فرغلي باشا، وكذلك شون قطن فرغلي باشا بمينا البصل ومستشفى الرمد الشهيرة بمحرم بك وفيللا سيرسوك وفيللا كوتاريللي بين جليم وسابا باشا.

روبرتو فيتوريو منشئ كورنيش المينا الشرقية والسلسلة. وألدو أمبرون الذي عاش في منزله لورانس داريل، وقد هُدم المنزل أخيرًا "علشان تطلع عمارة تافهة" – وكانت حديقة المنزل ملتقى الكتاب والفنانين وأصبحت مرسمًا للفنانة عفت ناجي وزوجها سعد الخادم.

وأنريكو بوفيو منشئ المدرسة الإيطالية بشارع الخديوي والقنصلية الإيطالية. وليوناردو بوتاري منشئ كنيسة أبي قير وكنيسة الدخيلة وعمارة قطاوي باشا بشارع فؤاد ومستشفى البحرية بالشاطبي – صارت مستشفى الولادة – وفلل كثيرة.

فيليب كارتارجيا مع إيمانويل دنتيمارو مؤسسًا النادي الإيطالي ومدرسة الفرنسيسكان بباكوس وأخرى بمصطفى باشا وكورنيش الإسكندرية من الشاطبي حتى المنتزه ومستشفى الحميات وطريق أبو قير من سبورتنج إلى السيوف ومستشفى الملكة نازلي للأطفال سنة 1928 وطريق الكورنيش في المكس وغيرها.

كاسيلي أول من صمم مشروع مدارس الدون بوسكو الصناعية وامبروجيو كاسيس مؤسس حي المفروزة والبنك البريطاني المصري والمستشفى البيطري في محرم بك. ودي فارو باني ستاد الإسكندرية مع شركة بريطانية.

دييجو دي مارتينو منشئ خط ترام الأنفوشي وشركات نسيج في كرموز ومصنع دخان كوتاريللي وماتوسيان مع المقاول ميلتيادس كوكينوس.

دل فياسو وأبناؤه مؤسسو نادي اليخت بالميناء وأوجو ديسبرج مؤسس مصانع عدة في مصر وحول بحيرة مريوط وباني البنك الأهلي وبنك دي روما والبنك البلجيكي وبنك الإسكندرية التجاري وغيرها من البنوك ومستودعات الأخشاب في الورديان الخاصة بعائلة كرم وستاجني وباسيلي. والدو ماريللي مهندس أماكن فرق البوليس والمطافي في كوم الدكة وقسم بوليس باب شرق.

ماتيولي مؤسس شارع السلطان حسين والمعبد اليهودي في النبي دانيال وبنوك مثل لونيان بانك والبنك الألماني الشرقي والبنك الأهلي.

وماريو روسي شارك في تصميم قاعة العرش في قصر رأس التين وقصر المنتزه وأكمل تصميمات مسجد المرسي أبو العباس وجامع القائد إبراهيم وجامع سيدي تمراز وجامع سيد كريم وفيها تتجاور العمارة الإسلامية مع الإيطالية كما بنى أضرحة الأوقاف في الشاطبي.

ريكاردو سميث باني فلل وقصور، منها فيللا عوض وارنستو فيروسي بك مصمم مكان تمثال إسماعيل باشا – الجندي المجهول الآن - وكورادو برجولوزي مصمم فندق متروبول. وهكذا عشرات العمارات والفيلات تحمل أسماء أصحابها وأسماء الشركات الإيطالية والمصرية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين وساهمت في هذه النهضة المعمارية العظيمة، وكان من بينها شركة المهندس محمد عوض بك والد الدكتور محمد عوض نفسه، ومؤكد من هذا الأثر جاء حب الدكتور عوض لدراسة العمارة، وتجلى هذا الحب في هذا السفر العظيم وأعماله ومؤلفاته السابقة. وهذا ينقلنا إلى الكتاب الرائع الثاني وهو:

AWAD associates” The saga of an Alexandrian building firm“

"عوض وشركاه. تاريخ عائلة في العمارة السكندرية"

يبدأ الكتاب بالإهداء الجميل "في ذكري جدي وأبي" وشكر لكل من ساهم في مهنتنا – البناء – وتجربتنا. تجربة العائلة وتجربة البناء في المدينة وحولها. ثم تمهيد بقلم الدكتور إسماعيل سراج الدين يقول فيه بلا مبالغة فالتاريخ شاهد والوقائع شاهدة: "بشغف شديد أغوص في هذا الكتاب عن عائلة عوض ومساهماتها السابقة والجارية الآن بواسطة ما كتبه البروفيسور محمد عوض رأس العائلة الآن. هذه الدراسة ليست مجرد مناقشة للأحداث والتواريخ المهمة للعائلة لكن ارتباطها بالتطور في عمليات البناء والتطور في العائلة التي كانت سباقة والتي استمرت مائة عام، وهذا شيء نادر في مجالات كثيرة تتعلق بالبناء ومستلزماته في العمران.

لقد كان سوق البناء خاص بالمحترفين والمقاولين الأجانب لكن المصريين المهرة في الواقع والتنفيذ رفعوا شعار "ابني أفضل معنا"، وكان هذا شعار عائلة عوض. وهكذا تكشف الأعمال

المبكرة لعائلة عوض عالمية المدينة والطعم الخاص لما بعد الأوربية في البناء في الأحياء من محطة الرمل مركز المدينة وما حولها أو بعيدًا عنها مثل الشاطبي والحضرة وغيرها. ثم يمشي الكتاب في التاريخ وتحولاته الكبرى والعائلة معه سواء مع بداية القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى أو بين الحربين أو بعد 1952 وانتهاء العصر الملكي والستينيات الاشتراكية أو السبعينيات وما جرى فيها على البناء لنرى كيف تدهورت الأحوال في المدينة". فمحمد عوض لا يفصل العمران عن الحياة.

محمد عوض بك الجد للدكتور والبروفيسور محمد عوض (1889-1969) بدأ عمله في البناء عند المقاول اليوناني "نيكولاس نيكولو" عام 1911، ثم بدأ عمله في بناء البيوت الخاصة التي شاعت منها سمعته كواحد من قادة المقاولين في الإسكندرية. لنصف قرن كان منغمسًا في أنشطة معمارية مختلفة شاملة 150 بناء وأكثر لشخصيات شهيرة مثل سموحة، روفيه، هيس، بيناكي، كارفر، مكرم عبيد باشا، فؤاد بك سلطان، وغيرهم وبالمساهمات والوكالة في المشروعات العامة مثل البنك الأهلي المصري والبنك الألماني الشرقي وبنك باركليز وبورصة القطن في مينا البصل.

كما كان للعائلة ومؤسستها مساهمة في المشروعات الرياضية والاجتماعية مثل نادي سبورتنج. النادي السويسري، ونادي يونيون ومستشفيات مختلفة مثل المواساة والمستشفيات الأوربية المختلفة وفي الأعمال الخيرية للأميرة فريال والتي نال عنها الجد مرتبة البكوية عام 1949 ومدارس الأطفال الدولية. أما في مجال الصناعة فكان للعائلة دورها في شركات المياه ومصنع الملح والصودا ومصانع نسيج سباهي ومصنع صباغي البيضا ومصنع نسيج برودفورد وفي الأبنية التعليمية والدينية مثل المدرسة الإسكتلاندية وكلية البنات الإنجليزية وعدد من البطريركات القبطية والسورية الكاثوليكية. في الحرب العالمية الثانية انضم إلى محمد عوض بيك ابنه فؤاد عوض (1922-1998)، في العمل في التسهيلات العسكرية على طول الساحل الشمالي من الدخيلة إلى العلمين من طرق ومعسكرات ثم بعد الحرب ساهمت العائلة وشركتها في تطوير مصنع صباغي البيضاء في كفر الدوار بأعمال شملت مراكز صناعية ومكاتب وطرق محورية وجسور. أماكن إقامة ومدارس ومستشفى وجامع ومحلات لبيع البضائع وحتى عام 1990 كانت العائلة لا تزال نشيطة في خدمة وصيانة ما أصبح مدينة صناعية حول مصانع صباغي البيضاء.

ورغم أن العائلة كان لها عملها في تسهيل تصميمات البيوت كمقاول عام كانت تتعاون مع قادة معماريين وقتها مثل لاسكاريس، ليفانوس، جريباري، بيلجريني، فارس، هـ. برنو، سيرجانتي، ن. داوسون، على لبيب جابر، علي ثابت، أحمد خليل وعديد من المعماريين. في عام 1973 انضم الحفيد محمد عوض كاتب الكتاب والبروفيسور في كلية الهندسة والمثقف الكبير وهو حفيد مؤسس العائلة. انضم في شراكة في شركة "إدكو ADCO"، وهي شركة للأعمال المعمارية والمقاولات، وكان لها فرع في القاهرة.

في عام 1979 صار الدكتور محمد عوض هو مدير شركة العائلة الرئيسي وانضم إليه جمال سمّان عوض كمعماري في عام 1997 وشمل عمل الشركة مشروعات عديدة للبناء من الأعمال الخاصة إلى الفنادق والمطاعم والمكاتب والمشروعات الصناعية والمحلات التجارية وغيرها كثير

منها مصور في الكتاب. وكان دائمًا يتم تدعيم عمل العائلة بمشروعات خاصة لتأثيث البيوت مثل السجاد والأعمال المعدنية وأعمال الرخام وإنتاج الأسمنت.

الدكتور محمد عوض منذ نشأته كان من بين أساتذة قسم العمارة في كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية ومستشارًا لمركز دراسات البحر المتوسط في مكتبة الإسكندرية الذي قدم له كثيرًا من الأبحاث عن التراث العمراني والحضاري لمدينة الإسكندرية. إن الحفاظ على الإسكندرية وتراثها المعماري والحضاري أحد ملامح المؤسسة العائلية العظيمة عبر التاريخ الحديث.

هذا الحديث المجمل عن العائلة وتاريخها يتتبعه الكتاب الضخم عن المدينة وتطور عمارتها في التاريخ الحديث، فيبدأ الجزء الأول عن العمارة والبناء كمنهج عملي ونظري وهو دراسة في التصورات والأدوات التي يُستفاد بها في تاريخ العمارة وتعريفات متعددة للعمارة على رأسها تعريف فرانك إيليود " يقال: إن العمران هو مجموعة واسعة من المباني المختلفة التي بنيت لإمتاع عدد من الأغنياء من الجنس البشري. لا. العمران هو الحياة أو على الأقل هو الحياة نفسها في كل عمران ومن ثم هو أصدق تعبير عن الحياة كما تعاش في العالم أمس واليوم.

فالعمارة التي أعرفها هي الروح العظيمة "ويختصر التعريفات كلها في أن العمران يمكن تعريفه بأنه فن البناء الذي يتكون من شيئين أحدهما الفن الذي هو التخطيط والملمح الجمالي والقيمة الجوهرية والثاني هو البناء وما يرتبط به من معرفة بنظم البناء والأدوات التكنولوجية. ويمشي مع تطور البناء وأدواته منذ أقدم العصور مارًّا على العصر اليوناني والروماني والبحر المتوسط والفن القوطي إلى البالادية – نسبة إلى المعماري أندريا بالاديو الإنجليزي في القرن الثامن عشر صاحب الرؤية النيو كلاسيكية والثورة الصناعية والبناء بالحديد حتى ظهور الكلاسيكية الجديدة التي قادت إلى تراث الفنون الجميلة وهكذا عبر العصور وتجلي ذلك في مصر.

والحديث يطول في الكتاب عن تطور العمارة والبناء عبر العصور حتى ما نشهده من فوضى وعشوائيات وجهاد العائلة بين ذلك كله لتحقيق الجمال والأصالة وبقائها على الأرض. لا يقتصر إسهام العائلة على البناء فقط، بل في الحدائق مثل حديقة الشلالات والميدان الفرنسي بحدائقه في المنشية والوكالات ولأحياء لها تاريخ مثل الحي التركي والحي الإفرنجي وشارع فرنسا ومناطق حجر النواطير وغيرها وترعة المحمودية زمان حين كانت شانزليزيه مصر وما قام حولها من مصانع ومتنزهات والوكالات والبيوت ذات الحدائق مثل بيوت سموحة سابقًا والمصايف التي كانت تتميز بالكبائن الخشبية كما كان في المكس والدخيلة وسيدي بشر والميادين حتى نصل إلى ميدان الإسكندر الأكبر حيث يوجد تمثال الإسكندر الأكبر، وكيف أعاد المهندس محمد عوض تقسيم الميدان حول التمثال. تاريخ عظيم من المعرفة بفن العمارة وتجلياتها في مصر عبر التاريخ ودور العائلة السامي ودوره هو الآن، أطال الله في عمره.

ملحوظة: الكتابان من إصدار مكتبة الإسكندرية وكذلك كتاب "طعم الإسكندرية" الذي ذكرته.

"مجلة ديوان الأهرام"

عملاق بين الأنهار.. المسح العلمي لنهر زائير

1975-1974

تأليف :ريتشارد سنيلهام

عن المؤلف:

مؤلف هذا الكتاب "عملاق بين الأنهار" A Giant Among River، أستاذ وباحث في علم التاريخ في الأكاديمية الملكية للعلوم العسكرية بإنجلترا.. وهو والميجور جون بلاشفورد سنيل الذي جاء ذكره في الكتاب، يترأسان معًا "جمعية الكشف العلمي"، التي كوناها عام 1959م. وهي جمعية تُعنى بالدراسات الجديدة، والميدانية منها على وجه الخصوص. ولقد سبق للمؤلف أن قام قبل عملية مسح نهر زائير بعملية أخرى مع فريق آخر لمسح النهر الأزرق، واشترك معه فيها چون بلاشفورد سنيل أيضًا، وأصدر عنها المؤلف كتابًا بعنوان "إعادة اكتشاف النهر الأزرق"، وقصة المسح العلمي لمنطقة آبيا العظمى عام 1968 م.

كتاب واقعي في أرض السحر:

أما العدد فقد كان كبيرًا.. أكثر من مائة وستين عالمًا وباحثًا وإداريًّا وعسكريًّا ومراسلًا صحفيًّا من هيئات ومعاهد مختلفة. ومن جنسيات مختلفة كذلك، أوروبية وأفريقية. وأما الهدف فهو أكبر عملية مسح علمي متعدد الجوانب للنهر الأسطوري (نهر الكونغو، أو زائير حاليًّا.. ذلك النهر الغامض الذي يجري في أراضٍ غامضة ليصب في المحيط الواسع، المحيط الأطلنطي.. النهر الذي شهد مغامرات الرحالة الأوائل في أواخر القرن التاسع عشر.. أولئك الذين كانت توفدهم الجمعيات والهيئات العلمية والجغرافية، لا تكاد ترتفع أقدامهم حتى تثبت أقدام الاستعمار.

أسماء كثيرة من المكتشفين الأوائل تقفز إلى الذهن حين نذكر ذلك النهر، أو وسط أفريقيا، أو أفريقيا عمومًا، لعل أشهرها ليفنجستون وستانلي.. والأخير بالذات هو الذي ركب هذا النهر ركوب المصمم الذي لن يتراجع، والذي سار فيه كما لم يفعل أحد قبله، والذي سميت أكبر شلالات النهر باسمه، وكذلك أكبر بحيراته، ثم صارت الآن الشلالات، "شلالات البامونجا، والبحيرة، بحيرة ماليبو" علامة على نقمة أفريقيا على الاستعمار والشوق لأن تكون أفريقيا للأفريقيين شكلًا ومضمونًا!

والسبب الذي يقف وراء هذه العملية الكبيرة - عملية المسح العلمي متعدد الجوانب- لا نعرف عنه إلا القليل. فالمؤلف لهذا الكتاب الذي نعرضه الآن، البروفسور ريتشارد سنيلهام، لا يقف كثيرًا عند هذه النقطة. نعرف فقط أنه بوصفه باحثًا ومفسرًا لعلم التاريخ، كان يحاضر طلاب الأكاديمية الملكية للعلوم العسكرية ببريطانيا في عصر يوم حار من شهر سبتمبر / أيلول عام 1970م، وكان موضوع المحاضرة يدور حول "جوانب تطور الإمبراطورية البريطانية والكومونولث.. في هذا اليوم، وبينما هو يغادر قاعة الدرس مفكرًا فيما سيفعله في الأسابيع المقبلة، قال لنفسه: إن البرنامج

يقول إن الموضوع القادم هو "أفريقيا".. ثم تساءل: "لماذا لا نفعل شيئًا نقتحم به أفريقيا الوسطى؟ وجاءت فكرة هذه العملية الكبيرة.. بالضبط كما قالوا لنا إن نيوتن اكتشف قانون الجاذبية، حين سقطت تفاحة فوق رأسه؟! وكأنه لم يكن هناك من قبل نيوتن كبلر وكوبر نيكوس وجاليليو!

على كل حال، فإن المؤلف هنا يعترف بفضل السابقين عليه. وبصفة خاصة ستانلي الذي يتحدث عنه كثيرًا وبوَلَه على طريقة الاسترجاع أو الاستدعاء إذا شئت - الرومانتيكية القديمة! إنه أي المؤلف على طول النهر يتذكر ويسترجع ما كتبه وما فعله ستانلي. ويجب أن نعترف أن هذه الصفحات الطويلة من الأحاديث التاريخية والجغرافية أيضًا، أعطت للكتاب روحًا لطفت من جفاف الأحاديث العلمية. بل إن الكتاب بشكل عام رغم الهدف العلمي من ورائه، يعد واحدًا من كتب الرحلات والمغامرات في نفس الوقت، بل ويعد قصة واقعية في أرض السحر والخيال.. وهو أيضًا وبشكل عام كتاب متعدد الجوانب.

ففي الوقت الذي يكرس فيه المؤلف صفحات كثيرة للإعداد لهذه العملية الكبيرة، يكرس صفحات أكثر لوصف المغامرة كلها وما صادفها من متاعب. وصفحات لوصف النهر وما حوله والقرى والمدن التي مروا بها، وصفحات تاريخية عن آثار الماضي، وصفحات لوصف إنجازات جماعات الأبحاث العلمية في المجالات المختلفة. وخلال هذا كله تتحرك مجموعة هذا المسح العلمي الكبير بروح حية تتخلل الكتاب كله، حتى إننا في بعض الأحيان نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع مشكلات شخصية تمامًا. لقد أطلق المؤلف على كتابه "عملاق بين الأنهار"، وهو عنوان يثير الخيال.. ثم ألحق بهذا العنوان الرئيسي عنوانًا فرعيًّا هو "قصة المسح العلمي لنهر زائير بين عامي 1974 - 1975م" فجذب هذا العنوان الفرعي الخيال ليحدده بمنطقة معينة وزمن معين. ولكن لم يفقد الخيال سحره، فنهر زائير شيء مثير حقًّا. وعلى هذا تبرز عدة أسئلة: كيف يرى المكتشفون المحدثون نهر زائير اليوم؟ ماذا سيجدون فيه؟ ماذا سيضيفون للمكتشفين الأوائل؟

ومثل هذه الكتب يكون عرضها بواحدة من طريقتين؛ إما أن نتتبع الكتاب فصلًا فصلًا باعتبار أنه "رواية لمهمة علمية ذات هدف، تجري أحداثها في زمان محدد، وتقوم بها شخصيات مختلفة، ولها محور درامي يتمثل في الصراع بين هذه الشخصيات وبين المكان الذي يمثله النهر وما حوله- ولها محور درامي آخر، ثانوي، يتمثل فيما يجري بين هذه الشخصيات وبعضها البعض" .

في هذه الحالة لن يوفي أي عرض للكتاب حقه.. وسيكون أفضل عرض للكتاب على هذا النحو هو أن نعيد كتابة الكتاب كله!

أما الطريقة الثانية، وهي التي تتبع عادة في مثل هذه الكتب كأن نتناول أبرز ما في الكتاب ونتتبعه، ونقدم في نفس الوقت صورة موضوعية عن الكتاب، وفي النهاية نقول رأينا فيه. أو خلال الحديث كلما كان ذلك ممكنًا. وأبرز ما في هذا الكتاب هو الآتي:

1- صورة الإعداد لهذه العملية الكبيرة والخطة العامة لها، حيث لا تكتمل صورة الكتاب في ذهن القارئ بدونها.

2- صورة عن بعض المصاعب التي واجهت أفراد هذه العملية، ورؤية المؤلف لبعض الأماكن التي مروا بها. فهذا يعطينا صورة عامة عن الظروف التي تمت خلالها هذه العملية.

3- إبراز بعض الجوانب التاريخية للمنطقة، وخاصة ما يتعلق بالمكتشفين السابقين أو بغيرهم، ممن وطئوا هذه المنطقة من قبل من الشعوب الأخرى. فهذا يعطينا خلفية جيدة للموضوع من ناحية، كما أن له أهمية لا بأس بها إذا اكتشفنا أنه كان هناك نشاط عربي وإسلامي فعال في هذه المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر، بل في النصف الثاني من ذلك القرن.

4 - تسليط الأضواء على النتائج العلمية التي توصل إليها العلماء وأبرز الأبحاث التي قدموها، خاصة وأن هذه هي الغاية الأساسية من العملية كلها.

5 - وفي النهاية رأينا في الكتاب.

الإعداد أربع سنوات.. المهمة أربعة أشهر:

يقول البروفسور ريتشارد سنيلهام مؤلف الكتاب: "أخذت أعد لعمل شيء ما في وسط أفريقيا.. في البداية قرأت ما كتبه الرحالة الأوائل. سبك وبورتون.. جرانت وبيكر.. ليفنجستون وستانلي. واقتنعت بإمكانية القيام بمسح علمي لنهر زائير وما حوله.. قلت: لو كان ما سنفعله شيئًا صغيرًا، فإننا في نفس الوقت سنقدم مفخرة أخرى إلى مفاخر مكتشفي العصر الفيكتوري".

وكان لا بد أن يكون لهذه العملية قائد.. وهذا القائد لا بد أن تتوفر فيه صفات عديدة.. أن يكون مسلحًا بمعلومات واسعة وعديدة. أن يكون على دراية بمثل هذه المهام، ومعرفة بمشاكل النقل والإعداد والتنظيم، وقدرة على فهم المشاكل الإنسانية وحلها.. وكان يمثل ذلك كله الميجور چون بلاشفورد سنيل الذي نشر فيما بعد كتابًا عن هذه العملية عام 1975 م أي قبل صدور كتاب المؤلف الذي نعرضه بثلاثة أعوام - وكان بعنوان (على درب ستانلي). ومعرفة المؤلف بالميجور چون بلاشفورد قديمة. وسبق لهما أن اشتركا في عملية مسح علمي أيضًا للنهر الأزرق، وهما معًا أسسا عام 1959م، جمعية الكشف العلمي، والميجور چون هو رئيس هذه الجمعية بينما يشغل المؤلف منصب السكرتير بها.

رحب چون بلاشفورد بفكرة المؤلف، وعلى الفور شرعا في التخطيط والإعداد. استغرق ذلك أربعة أعوام. من سبتمبر / أيلول عام 1970 م، حتى أكتوبر / تشرين الأول عام 1974 م، بداية العملية التي لم تستغرق سوى أربعة أشهر. وكانت سنوات غنية بالعمل. كان عليهما الاتصال ببعض العلماء وعرض الفكرة عليهم لإشراكهم معهما.. وكان عليهما عرض فكرة المشروع على هيئات علمية مختلفة، وعلى المعاهد والمؤسسات التي يمكن أن تساهم في نجاحه.. وكان عليهما التنسيق مع السلطات الزائيرية التي سيجري العمل في بلادها..
ثم كان عليهما الاختيار من بين العناصر التي ستتقدم لهما من غير العلماء الذين سيتصلون بهما. كما يجب أيضًا بحث إمكانية التغطية الإعلامية للمشروع. وإلى جانب هذا كله لا بد أن تتوفر دراسات واسعة حول مكان البحث وأهداف العملية كلها، ووضع برنامج محدد، ولقد تم هذا كله..

توفر الكفلاء الذين سيشكلون القاعدة الاقتصادية للمشروع - ووصل عددهم إلى أكثر من مائة وعشرين شخصًا وهيئة ووكالة مدنية وعسكرية وطبية وعلمية وصحفية، ودور نشر مختلفة، وشركات طيران وشركات بحرية وشركات نقل بري وغيرها.. وتمت عملية الاختيار للمشتركين، سواء عن طريق الاتصالات أو اللقاءات مع من تقدموا للمشاركة.. وتمت عملية التنسيق مع الحكومة الزائيرية التي رحبت كثيرًا بالمشروع، ووعدت بأن تقدم كل ما يمكن من عون، سواء في مجال المال أو العتاد أو الأفراد.

تم إعداد خطة البحث وتقسيم الأفراد إلى مجموعات مختلفة، على رأس كل مجموعة قيادة مناسبة.. وفي وسط هذه المجموعات كان فريق البحث العلمي الذي هو الغرض الأساسي من العملية. وتم تقسيم فريق البحث العلمي إلى سبع جماعات هي:

جماعة الأبحاث الطبية

الأبحاث الأنثروبولوجية

الأبحاث النباتية

الحشرات

الأبحاث الجيولوجية

الأسماك

الحيوانات

وتم تجهيز كل ما يمكن أن يحتاجه الأفراد من ملبس أو مأكل أو مشرب، وسبقهم المبعوثون إلى زائير للتجهيز والاستقبال، وطار أفراد العملية إلى كينشاسا..

يقول المؤلف: "كانت خطتنا شجاعة.. لقد قررنا أن نتحرك خلال أربعة أشهر هي مدة العملية كلها بمجموعة كبيرة من أقرب موقع لمنبع النهر في اتجاه المحيط الأطلنطي- وقررنا أن نكون في النهر بقدر الإمكان طالما توفر لنا ذلك. وكان على المختصين بالأبحاث العلمية والطبية وهم يشكلون سُبعي المجموعة كلها أن يسافروا على النهر بالقوارب كلما كان ذلك ملائمًا، أو يعملوا في معسكرات منفصلة في أماكن متفرقة على الشاطئ بطول النهر.

ووضع چون بلاشفورد خطة لجماعات الدعم تقضي بتكوين ثلاث جماعات، قوام كل منها سبعة أفراد تغطي كل واحدة مسافة ثلاثمائة ميل من النهر، وتستخدم كل جماعة منها ما تقتضيه الضرورة من وسائل النقل والدعم، سواء الطائرات الصغيرة أو القوارب أو سيارات اللاندروفر، وتأخذ الجماعة مكانًا متقدمًا على الجماعتين الأخريين متى انتهت جماعة البحث من العمل في منطقة ما، وهكذا بطول النهر.. وعلى نفس المنوال ثم تقسيم جماعات الإدارة وخدمات النقل، هذا

في الوقت الذي تخلفت فيه جماعة طوارئ عسكرية في العاصمة كينشاسا. وكذلك تم تقسيم عشرين جنديًّا زائيريًّا على الجماعات المختلفة، فكان نصيب كل جماعة واحدًا منهم تقريبًا يقوم بدور المرشد أو الدليل. ودون الدخول في تفاصيل صغيرة عن الاستقبال في زائير، نقول إن أفراد العملية بدأوا من كينشاسا يأخذون طريقهم إلى حيث النقطة التي سيبدأ منها هذا المسح العلمي المتعدد الجوانب.. لم تكن هذه النقطة على نهر زائير نفسه بل على "لولابا"، الرافد الرئيسي لنهر زائير. وصلوا إليها وكان الوقت ليلًا. وهناك عرفت كل جماعة ما عليها، وأصبح مقررًا أن تعد كل جماعة نهاية كل يوم تقريرًا يحدد موقفها، سواء مما أنجزت أو ما عليها أن تنجزه فيما بعد. إن مجمل هذه التقارير هو الذي سيخضع للبحث والتحليل ليكون محصلة العملية كلها.

صور واقعية:

المصاعب التي واجهتها هذه البعثة كانت جمة.. ومن السهل أن نعرف خطورة الإبحار في نهر يلي نهر الأمازون في المرتبة، سواء في الاتساع أو في الطول. نهر يعبر بين مناطق غابات كثيفة ومخيفة. وتعترضه الشلالات العالية والجنادل الحادة والبحيرات المليئة بالتماسيح والحيوانات البحرية. من السهل أن نعرف ذلك كله لندرك الصعوبات التي واجهتها هذه البعثة.. ومثال واحد فقط يكون كافيًا، وهذا المثال هو أبسط الأمثلة.. فمن المنطقة التي أقاموا معسكرهم بها ليبدأوا مهمتهم، كان عليهم التوجه إلى منطقة مدينة (كونجولو)، كان أمامهم على النهر المنطقة التي تسمى (الريد جورج)، أو "الممر الضيق"، وهي تبدأ على النهر بالقرب من منطقة "بوزانجا "، بشلال ضخم. وبعد عبور هذا الشلال يتبقى في المضيق سبعة كيلومترات من الشلالات الصغيرة والخطيرة لتجاورها الشديد وتتاليها، فما يكاد القارب ينتهي من شلال حتى يجد الثاني مباشرة، دون أي فرصة للتفكير في تفادي أية كارثة يمكن أن تقع.. وبعد هذه الشلالات يفضي النهر إلى بحيرة مليئة بالتماسيح. كان عبور هذه الشلالات يقوم على خطة الإبحار بطريقة دائرية حول الشلالات. كانوا يرتدون سترات النجاة توقيًا لأي كارثة. وحين وصلوا إلى البحيرة لم يصدقوا أنهم أول من عبر هذه العشرين كيلومترًا على النهر، في الاتجاه الأكثر خطورة لنهر زائير.

لكن الصعوبات لم تكن ناجمة عن المكان فقط، بل هناك صعوبات نشأت فيما بين الأفراد والجماعات.. خلافات نشبت بين جماعات البحث العلمي والجماعات الأخرى التي كانت ترى أن المغامرة هي جوهر العملية كلها، وأن البحث العلمي يأتي في المرتبة الثانية... وخلافات نجمت بين الأوروبيين والجنود الزائيريين. لكن روح العمل كانت في النهاية تدفع الجميع لتجاوز هذه الصعوبات والاستمرار في العمل. فهناك الكثير من المصاعب تنتظرهم عبر مناطق السدود، وبوابات الجحيم وشلالات ستانلي!!

في هذا الوقت الذي تم فيه عبور الممر الأحمر كانت هناك جماعات أخرى خارج النهر. كانت جماعة الأبحاث الخاصة بالأسماك تقوم مع مجموعة الدعم الأولى بجمع الطعم، في أنهار حديقة يوبيميا وكان علماء الحشرات والنبات قد غادروا المعسكر إلى كولويزي مرة أخرى في انتظار التحرك إلى "يوكاما"، وكان هناك اثنان في كينشاسا يقومان بالاتصال مع السلطات لتوفير قطار يقل العلماء وبعض الباقين إلى يوكاما التي تعتبر نقطة التجمع الأولى بعد كينشاسا.. يتحدث عنها المؤلف فيقول:

لقد بدأ تدهور يوكاما منذ عام 1960 م، حين وجدت نفسها على خط الجبهة بين قوات تشومبي والقوات المعادية له. وخلال السنين الأربع التالية لم يحدث فيها شيء. هرب الأوروبيون ولم يبق بها غير بلجيكي واحد ويوناني واحد. ولا يبدو أن هناك محاولات قد بُذلت لإعادة بناء أي شيء منذ ذلك الحين. هناك مكتب بريد فقد قيمته. أطفال ودجاج يلتقطون غذاءهم من بين الخرائب.. بيوت ومحلات مغلقة. مصابيح كهربائية بلا كهرباء.

ويقف المؤلف أكثر من مرة على طول الرحلة ليصف لنا بعض القرى والمدن التي مروا بها. فبعد رحلة خلال أكثر من ثلاثين بحيرة وسلسلة من المستنقعات الطينية، وحين يصل الكاتب إلى قرية "أنكورو" يقول:

ولاحظنا الانحدار بعد الاحتلال - يقصد بعد انتهاء الاحتلال - ذلك الانحدار الذي حدث من جراء قتال عام 1960 م، كان واضحًا أن العمل الرئيسي في البلدة هو جمع المانجو من على الأشجار! أما السكان فكانوا إما جالسين في الحر، أو يقذفون الكلاب بالحجارة! المحلات مغلقة تقريبًا ولا توجد مياه صالحة للشرب. أما المستشفى الرائع الذي انتهى بناؤه عام 1960، فلم يستخدم.. إذ لا ماء، ولا كهرباء، ولا أطباء.

وحين يصل إلى بلدة "كونجولو" يقول:

بلدة تقف على الجانب الدموي من تاريخ الكونغو الحديث.. ففي أوائل نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1964 م، وقبل وصولنا - أي جماعة المسح العلمي - بعشر سنوات تقريبًا، خرجت القوات التشومبية منها لدفع الجنرال أولينجا ومتمرديه أمامها لمسيرة سبعمائة وخمسين كيلومترًا شمالًا إلى ستانلي فيل. وبالبلدة مستشفى ومحطة سكة حديد ومطار ومرسَى للقوارب ومعسكر ومركز تجاري. وكل ذلك انتهى الآن. شوارعها مليئة بالحفر والأحجار ومبانيها مشوهة وبحيرة السباحة التي بناها ثلاثمائة من البيض - يقصد الأوروبيين - أصبحت مليئة بالقاذورات.

ولا شك أن هذا الوصف من المؤلف للأماكن التي يعبرون بها جزء ضروري في كتاب كهذا.. ولا شك أن المؤلف يصف أشياء وحالات حقيقية، ولكن المؤلف في كثير من وصفه يبدو كمن يقول بلسان مستتر: إن خروج البيض - الأوروبيين - كان وبالًا على زائير.. وبرغم أن المؤلف يشير إلى الخطوات التي تقوم بها السلطات هناك لـ(تزئير) كل شيء.. إلا أنه لا يذكر هذا (التزئير) كثيرًا رغم إشارته إليه. هذا برغم أنه وضع ثبتًا بالكتاب لأسماء المناطق القديمة والأسماء الجديدة بعد (التزئير).

وحينها يتحدث عن الحرب الأهلية في الكونغو، يشير إليها فقط على أنها السبب في الخراب الذي يراه في بعض القرى.. ولم يفكر وهو باحث للتاريخ أن يتوسع ولو قليلًا في دواعي هذه الحرب، والدول التي كانت تقف وراءها! ولكننا على كل حال لا نريد أن نطعن المؤلف في نيته.. ولو كان قد حدد منهجه في مقدمته لأراحنا كثيرًا، خاصة وأنه يفرد صفحات تاريخية طويلة للحديث في الكتاب عن جهود المكتشفين الأوروبيين الأوائل.

طبعًا لا يمكن أن نعد وصف المؤلف لهذه الأماكن من قبيل البحث الاجتماعي ولا الأنثروبولوجي؟ على كل حال، هذان الجانبان من الجوانب التي لم يقف عندهما المؤلف بشكل كاف، رغم وجود جماعة للدراسات الأنثروبولوجية، وسوف نشير إلى ذلك في نهاية عرضنا بتفصيل أكبر. وواضح أن الحديث عن الصعوبات قد أسلمنا للتاريخ، والتاريخ في هذا الكتاب، وخاصة ما يتعلق بالنهر ومكتشفيه، حظيَ بنصيب طيب. ونقدم الآن جانبًا من الصورة التاريخية.

ليفنجستون - كاميرون - ستانلي - وصفحات عربية!

"نيانجوى"، هذه المنطقة لها تأثير السحر في المؤلف.. ما كاد يصلها حتى فتح عينيه على الماضي واستفاض في استرجاع طويل.. وهي تهمنا أيضًا، نحن قراء العربية، لأنها تفتح عقولنا على جهد أو نشاط أو تواجد.. أو سمه ما شئت من الأسماء المقبولة في العلم أو المرزولة بلغة البيروني، للعرب والإسلام.. يقول المؤلف:

وكانت نيانجوى مركزًا تجاريًّا عربيًّا عظيمًا في أواخر القرن التاسع عشر.. ظلت نقطة إشعاع وسط أفريقيا للتأثير الإسلامي لفترة طويلة. ذلك التأثير الذي كان يأتي عن طريق المحيط الهندي عبر زنجبار.. كانت سوقًا واسعة لتجارة العاج والعبيد. ومنذ أكثر من مائة عام كانت زيارة أول رجل أبيض لها.. ثم تبعه بعدها بعامين مكتشفان هما دافيد ليفنجستون عام 1871م، وفيرني لوفيت كاميرون عام 1874 م، وبعدهما هنري مورتون ستانلي عام 1876 م، وعند هذه النقطة رأى جميعهم النهر لأول مرة.

لقد سار ليفنجستون في أواخر مرحلة اكتشافه عبر مانيمبا من بحيرة تانجانيقا ووصل أواخر مارس / آذار عام 1971 م. ولم يكن متأكدًا ما إذا كان نهر لولابا هو الرافد الرئيس لنهر النيل أم لنهر الكونغو.. وكان الضابط ذو الثمانية والعشرين من العمر ف. ل. كاميرون قد أُرسِل إلى هناك - يقصد حيث يوجد ليفنجستون- من قبل الجمعية الجغرافية الملكية عام 1873 م، وفي طريقه إلى أوجين قابل ليفنجستون محمولًا إلى الشاطئ بواسطة رجليه المخلصين سوس وتشوما. لم يكن كاميرون يريد التراجع لذلك واصل سيره دون اعتبار لشيء، حتى وصل لولابا بقرب كازانجو في أغسطس / آب عام 1874 م.. استأجر ثلاثة قوارب وأبحر مع بعض مرافقيه إلى نيانجوى، وأصبح أول رجل أبيض يبحر صاعدًا مياه نهر زائير. رحب به تاجر عربي يدعى "تانجا نيقيا! وشغل كاميرون أيامه بأخذ المعلومات من تانجا نيقيا والآخرين. كان لا يعتقد أن نهر لولابا يغذي نهر النيل. وكتب يقول: "إن هذا الجدول الضخم يجب أن يكون واحدًا من روافد نهر الكونغو، ذلك أنه من أين يأتي هذا النهر العملاق بين الأنهار بمائتي مليون قدم من المياه التي تصب بلا انقطاع في كل ثانية في المحيط الأطلنطي!!". وهناك قابل كاميرون التيبوتيب أو "حامد بن محمد"Tippu-Tip ".

التيبوتيب اسم أطلق على هذا العربي لتقدمه ومن معه تسبقهم طلقات الرصاص. فالاسم أصلًا هو اسم صوتي مشتق من صوت الطلقات - أما ستانلي فقد سار من "كيانجايان، إلى قرية "مونا مامبا"، حيث قابل أيضًا التيبوتيب. وسأل ستانلي التيبوتيب، أو حامد بن محمد، عن مصب نهر لولابا. أفاد العربي أنه يجري في اتجاه الشمال بين غابات مخيفة مليئة بالأقزام وأكلة لحوم البشر..

وأقنع ستانلي حامد بن محمد بقوة رجاله، فعقدا اتفاقًا تلتحق بمقتضاه قوة التيبوتيب وقوامها مائتا رجل، بقوة ستانلي التي قوامها مائة وخمسون رجلًا، ليقطعا معًا مسيرة ستين يومًا. كانت نية ستانلي الواضحة هي أن يقطع النهر متتبعًا إياه إلى نهايته، سواء كانت في بحيرة أفريقية ضخمة أم في المحيط الأطلنطي. وسارا معًا أربعين ميلًا إلى نيانجوى. وهنا رحب بهم "موين دوجيمبي"، الذي كان أول عربي يصل المنطقة في عام 1868 م، وكان هو نفسه الرئيس القديم للمنطقة الذي قابل من قبل ليفنجستون وكاميرون.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يأتي فيها ذكر العرب أو المسلمين في الكتاب.. فمرة أخرى يقول المؤلف: "حين اقتربنا من نيانجوى، وكان ذلك في 13 نوفمبر / تشرين الثاني عام 1974 م، سمعنا قصصًا عن مقابر لبعض البيض على الشاطئ.. عادت ذاكرتي إلى المكتشفين الأوائل.. لم يكن مع ليفنجستون بيض في آخر رحلاته. ولقد مات اثنان ممن كانوا مع كاميرون شرق بحيرة تانجانيقا ومثلهما فريدريك باركر وإدوار بوكوك اللذان كانا مع ستانلي عام 1874م، وقررنا البحث.

وجدنا على المقابر ما يشير إلى ذكر الضباط البلجيكيين الذين ماتوا في بين عامي 1897 - 1908م، فيا بعد حرب أعوام 1892 – 1894 م، مع تجار العبيد هناك، التي حدثت بعد احتكاك مع الاستعمار البلجيكي بمقاطعة لولابا.. لقد سار ستانلي شمالًا عام 1876 م، وتبعه تجار العبيد بسرعة. وأصبحت "ريبا ريبا"، و"كيروندو"، على نهر لولابا، مفتاحي التجارة ومركزيها، وانتشر منها التأثير العربي غربًا إلى "لومامي"، وشمال غربي إلى مقاطعة شلالات ستانلي ونهر "أروويمي"، ولكن هذا التأثير انحسر إلى الخلف في نيانجوى، مع نهاية القرن التاسع عشر. وفي مارس عام 1893 م، عبر دانيس وجنوده البلجيكيون نهر لولابا وقاموا بهجوم واسع في إحدى الليالي على التيبوتيب ومن معه ودفعوهم إلى كازونجو. وهكذا بعد أن قضى تيبوتيب قرابة نصف قرن حاكمًا لـ"مانيمبا"، انسحب إلى زنجبار وهناك مات عام 1905 م.

ويرد ذكر العرب مرة ثالثة حين يصل أفراد العملية إلى شلالات ستانلي. تلك الشلالات التي ترتفع ثلاثمائة قدم، وتشغل ميلين عرضًا، وتشغل منطقة تمتد إلى نصف ميل، والتي قال ستانلي قبل أن يصلها بأربعة أيام: "أتمنى على الله أن
لا توجد شلالات أمامي!!"، هناك توجد حول الشلالات بلدة صغيرة ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر هي قرية "بونتيير فيل"، التي سميت على اسم القائد ب، ج، بونتيير من القوة الكونغولية العامة - بلجيكي بالطبع - والذي أخرج العرب منها ثم قُتل عام 1893 م.

على الجبهة العلمية:

لقد كان البحث العلمي هو العمل الرئيسي. وكثيرًا ما كان يتم على النهر أو في الغابات، وقد أسفر هذا المسح لنهر زائير عن نتائج جديدة.. وما تزال - حتى تاريخ نشر الكتاب عام 1978م - هناك دراسات تجرى في المعاهد العلمية بأوروبا وأميركا على ما توصل إليه العلماء الذين رافقوا هذا المسح، توضح الجهد الذي بذله العلماء في هذه العملية.. وعلى سبيل المثال ثم التعرف على "726" عينة من الأسماك. وتحديد الأنواع التي تعيش بالنهر بمائة وسبعة وعشرين نوعًا.. كما

أجرى العالم جيوفري هازلوود أبحاثًا من نوع خاص على العلاقة بين الصوديوم الأصفر الذي تفرزه الأسماك، وتاريخ تطور الفقريات. وأجرى العالم رولاند بايلي أبحاثًا عديدة على مياه الأنهار، وأخذ عينات من أربعة وعشرين مكانًا مع فريقه، وتوفرت له معطيات جديدة، وحصل على معرفة واسعة بنهر زائير وروافده مثل ليوفيرا لوفوا لوكوجا - إليلا. وبحيرات كاباممتا وزيمبابو. وقام عالم الحيوان سينكلير دونيت وأحد الخبراء الأوائل بين رجال المسح بأبحاث خاصة على الشمبانزي المعروف باسم بونوبو Bonobo، والذي لا يوجد في غير زائير.

كما قام جيرمي بأبحاث على غوريللا الجبال ذات الظهر الفضي. كذلك تم جمع مائتين وثمانية وثمانين طائرًا يشكلون تقريبًا مائة وثمانية وعشرين نوعًا، كان أكثرها متعة الطائر ذو الذيل القيثاري نسبة إلى القيثار الذي اصطاده مايك جاكلافر في غابة "ويكو"، وأعد الدكتور دافيد. ل. هاريسون دراسة مستفيضة بعنوان "أنواع جديدة من الخفاش حر الذيل الأفريقي"، أقامها على دراسة لنحو مائتي خفاش تم صيدها.

وفي المجال الأنتيمولوجي - علم دراسة الحشرات - جرت دراسات عديدة منها دراسة للدكتور ستيفن عن "الحشرات الطائرة في أعالي الغابات" ومن قبل لم يكن يُعرف أي الحشرات تطير في الغابات الاستوائية على ارتفاع عشرين أو ثلاثين قدمًا.. لقد كلف هذا البحث دكتور ستيفن جهدًا كبيرًا. وقام بحثه على دراسة سبعمائة حشرة طائرة تم صيدها بشراك علوية، وستظهر قريبًا نتائج أبحاث الدكتور ستيفن. ولأول مرة ستظهر نتائج دراسة عن تركيب وتوزيع الحشرات الطائرة في الغابات الممطرة في وسط أفريقيا. واشترك علماء الحشرات مع علماء النبات في دراسة أنواع الحشرات التي تعيش على نباتات البردي. كما وضع الدكتور ستيفن ولورانس كوك وبيتر هودسون مصنفًا عن الفراشات... لقد اصطادوا بشباكهم قرابة أربعة آلاف مجموعة تمثل حوالي ثمانمائة نوع، منها عشرة بالمائة على الأقل لم تكن معروفة من قبل ولم يسبق وصفها.

ومن بين هذه المجموعات وضعت ثلاثة آلاف مجموعة تقريبًا في المتحف البريطاني - قسم التاريخ الطبيعي - حيث يجري العمل للتعرف عليها. وفي مجال النباتات قام البرفيسور هارولد وول هاوس قائد جماعة البحث النباتي بدراسة في إقليم "شابا "، حول إمكانية زراعة مناطق النحاس، وقام الدكتور بيتر شوري بجمع عينات لدراسة الصفات الغذائية والصحية لكثير من النباتات والفواكه والمحاصيل الزراعية، وقدمت نتائج أبحاثها إلى منظمة الصحة العالمية. وقام كيت تومبسون بدراسة موسعة عن المستنقعات من الوجهة الإيكولوجية، أي دراستها من خلال علاقتها بالبيئة حولها. ومن الدراسات البارزة أيضًا دراسة عن النباتات التي تنمو في مناطق النحاس، مما يقدم فائدة كبيرة للجيولوجيين في بحثهم عن النحاس. ودراسة واسعة عن "عمى النهر"، ذلك المرض الذي يصيب عشرين مليونًا من البشر في آسيا وأفريقيا وأميريكا اللاتينية، يفقد منهم مليونان البصر تمامًا. وهو مرض تسببه ذبابة سوداء تعيش وتفقس في مياه الأنهار. لقد أجريت دراسات على هذا المرض في أكثر من مكان، في النهر وفي الغابات وفي مناطق السافانا. وأجريت تجارب كثيرة على مئات من المصابين، وتوصل العلماء إلى أن هناك أكثر من ذبابة تنقل هذا المرض، وأخذوا عينات منها إلى جامعة أكسفورد لإجراء دراسات مستفيضة عنها.

النهاية وملاحظات أخيرة:

حين نصل إلى نهاية الكتاب نجد أن المؤلف على طريقة الكتابة الأكاديمية قد ألحق بمؤلفه هذا أكثر من ثبت مرجعي، أحدها يضم أسماء الذين اشتركوا في العملية، والآخر يضم أسماء الكفلاء من الأشخاص والهيئات المختلفة، وكان قد فعل ذلك في أول الكتاب أيضًا حين ضمنه ثبتًا يسجل للرحلة يومًا بيوم، وآخر يضم أسماء المناطق المختلفة وأسماءها الجديدة بعد الاحتلال. وهذا لا شك يعطي الكتاب قيمة أكثر.. ولكن المؤلف ألحق بالكتاب في نهايته ثبتًا بالأغنيات، أو أكثر الأغنيات التي كانوا يسمعونها من أفواه الناس في الأماكن المختلفة يغنيها الأطفال والكبار معًا. ويلفت هذا نظرنا بشدة إلى معنى هذا الثبت، مما يجعلنا نتساءل إلى أي جانب من جوانب المسح تنتمي هذه الأناشيد والأغاني..الجانب الاجتماعي أم الجانب الأنثروبولوجي؟ وهنا نلاحظ أن هذين الجانبين هما أفقر جوانب الكتاب.. فنحن لا نعرف شيئًا ذا قيمة عن عادات هذه البلاد ولا عن فنونها. وهي بالتأكيد بلاد غنية شأن كل بلاد أفريقيا التي لم تزل تمثل إلى عهد قريب وبلغة عالم الاجتماع الفرنسي ليفي بريل، العقلية قبل المنطقية والعقلية الحسية التي هي عقلية فنية بالدرجة الأولى.

ألم يصادف المؤلف والفريق كله غير الأغاني الثورية الموجهة. إننا لا نجد أحاديث وافية عن الثقافات الشائعة ولا عن مصادرها، أي بلغة الأنثروبولوجيا، ولا نجد دراسات إثنولوجية كافية، ولا أحاديث عن الأصول الجنسية لأهل زائير ولا عن أشكالهم وانتماءاتهم الفيزيقية مما يمكن أن يدخل تحت الأنثربولوجيا الطبيعية.

كذلك لا نجد حديثًا عن المؤثرات الثقافية الجديدة في زائير بعد أن دخلها الأوروبيون، ولا عن الثقافات المتبادلة بينها وبين البلاد التي حولها، مما يدخل تحت معنى الاكتساب الثقافي، وهو أحد موضوعات الأنثروبولوجيا الثقافية. ناهيك عن الحديث عن المعتقدات السابقة والحالية هناك، والتي لا شك ليست بعيدة عن القرى التي مروا بها، إن لم تكن في قلبها، ويجب أن لا ننسى أنه كتاب يسجل مغامرة علمية - إذا جاز التعبير - قد تستهوي المؤلف كثيرًا ليتابع خطواتها ويستغرق ذلك منه صفحات كثيرة. وهذا ما حدث بالفعل، فأن تقرأ أكثر من مائتين وسبعين صفحة من القطع المتوسط تسجل مغامرة لأكثر من مائة وستين شخصًا في قلب نهر غامض في قلب قارة غامضة، أمر شديد المتعة بالتأكيد، وله فوائده رغم المآخذ التي أشرنا إليها.

"مجلة الفيصل السعودية"

الجحيم أو البحار العالية

تأليف: كلير فرانسيس

COME HELL OR HIGH WATER By Clare Francis

إنها مهارة عظيمة أن تضع قدراتك وإمكاناتك في مواجهة البحر. وأن يكون السباق فرديًّا، يعني أن تضيف إلى الرضا والشعور بالفوز أشياء أخرى! إن حفاوة الناس بعد الفوز تُعد من الأسباب الطيبة للاشتراك في السباقات. كما أنك خلال السباق تشعر بنوع غامر من السرور، يتجاوز الوحدة والرياح والأمطار والبؤس كذلك. إن هناك خطرًا في السباق، لا شك في ذلك، أن تصطدم بقاربك في جبال الجليد أو ينتابك المرض. أو تنزلق ساقطًا فوق السطح، أو يزعجك الطقس السيئ، لكن كثيرًا من أنواع الرياضة محفوف بالأخطار.. ثم إن المغامرة لا تكون كذلك إلا بالأخطار.. إن هذا هو الذي يصيبك بالخوف وسط البحر.. وهو نفسه الذي يمدك بالشعور الجميل بالراحة عند الوصول.

هذه هي ببساطة رؤية صاحبة هذا الكتاب في السباقات البحرية، وفي ركوب البحر بشكل عام. أما إذا سألها أحد: "ما الذي يجعل فتاة جميلة مثلك تفعل هذا؟" فالإجابة ببساطة هي "لأنني أحب ذلك" ومؤلفة هذا الكتاب البريطانية "كلير فرانسيس " كانت أول سيدة تعبر الأطلنطي، وكان ذلك في سباق عام 1976 الفردي لعبور المحيط من "بلايموث"، غربي بريطانيا حتى "نيوبورت"، شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

اشتركت قبل ذلك في سباقات مختلفة.. بعضها حول بريطانيا والبعض في جزر الأزور.. وكتبت مقالات عن السفن والسباقات البحرية.. وهي في هذا الكتاب الشيق تحكي قصتها مع تسعة وعشرين يومًا في المحيط. إنها لا تسجل الأيام يومًا بيوم على عادة جل كتاب المذكرات.

إن أيام البحر متشابهة في معظمها.. إنها تقص علينا في الأغلب الأعم من الكتاب، حالة امرأة وحيدة في قارب يكتنفه الضباب أو تدحرجه الرياح أو تنسكب فوقه الأمطار وتغزوه الأمواج.. بل وتلهو جواره وفوقه الدلافين والحيتان.

وهذه المرأة الصغيرة الوحيدة.. تعرض لنا كيف واجهت ذلك، وكيف كان الحلم بالوصول إلى نيوبورت - نهاية السباق وفي الموعد الذي حددته لنفسها هو قلقها الأكبر.

وأهم ما يميز الكاتبة في كتابها هذا أنها لم تتحول قط إلى بطل، أو "سوبرمان"! أو بالأحرى "سوبروومان"! لقد بدت دائمًا قلقة متوترة. وفي أكثر الأحيان بائسة ضعيفة. ولقد أعطى ذلك كتابها صدقًا كبيرًا، لأنها رغم ذلك، كانت بطلة بالفعل حين نجحت في عبور الأطلنطي.. ولكن ما الفائدة التي نجنيها من قراءة كتاب خاص بتجربة خاصة بامرأة ذات ظروف خاصة ولها أسلوب خاص؟

سؤال قد يبدو وجيهًا إلى حد كبير.. ولكن حين ندرك أن كثيرًا - إن لم يكن دائمًا ما تكون الحالات الخاصة، والتجارب الخاصة، والأساليب الخاصة في العمل أو السلوك، هي الباب الذي يدخل منه كثيرون من العامة - إذا جاز التعبير - آفاقًا أرحب.. وحين نسأل كيف يمكن أن يتصرف الإنسان في مثل هذه الظروف؟ وخاصة إذا كان امرأة؟ نعرف أننا أمام تجربة تستحق التأمل بالفعل، فهي بالتأكيد ممتعة.. وأكثر من ذلك مصدر قوة.. وفوق ذلك فهم لهذا الإنسان. فلنبدأ رحلتنا إذن مع هذه المغامرة البحرية ومع مائتي صفحة من القطع المتوسط للمرأة التي كانت أول من عبرت الأطلنطي وحدها من النساء والتي اسمها "كلير فرانسيس" وقد نجحت، وفي لغة طيعة حية، من أن تعكس مشاعرها وأفكارها على كل صفحة من صفحات الكتاب. حتى إن القارئ للكتاب ليشعر أنه أمام طفل حساس ذكي وموهوب ينفذ ببساطة إلى جوهر الأشياء.

الإعداد للإبحار ثلاثة آلاف ميل:

من ذا الذي يغامر ويوافق على أن يقدم قاربًا كي تعبر عليه امرأة صغيرة.. وأي عبور.. إنه الأطلنطي.. لا أحد.. لا شركة.. لا جمعية أو نادٍ يوافق على ذلك. كان هذا هو مجمل النتيجة التي وصلت إليها بعد محاولات عديدة لأن تجد كفيلًا يضمن لها اشتراكها في السباق على عادة ما يجري في هذه السباقات الكبرى.. عشرات الخطابات والرسائل كانت تعود إليها ولا يخرج الرد عن ذلك. وفي غمرة من انفعالها الشديد كانت تنسى أن تضع طوابع البريد على كثير من خطاباتها، فكانت تعود إليها، وتزداد توترًا لأنها تتصور أن من أرسلت إليه الخطاب لم يغامر حتى بفتحه! لكن ذلك لم يستمر حتى النهاية، فقد وصلتها رسالة من "مستر ومسز رون جرين" من بلدة "كرويدون" يعربان فيها عن استعدادهما لأن يكفلا اشتراكها في هذا السباق.. وأن يقدما إليها القارب وأن يساعداها في تجهيزه.. ولقد حدث وقامت ومعها صديقها المتعدد المواهب چاك، وهو فرنسي سنعرف خلال الكتاب أنه أكثر من صديق، بإعداد القارب، ويساعدهما في ذلك "مستر ومسز رون" بالمال والمشورة.

استغرق إعداد القارب أسابيع طويلة تمت فيها عمليات كثيرة، بدءًا من صيانة الأجهزة وتغيير بعضها حتى تزويده بأجهزة جديدة أخرى، مثل أجهزة قياس السرعة والرياح وارتفاع الموج وتحديد المكان، وأجهزة الاتصال بالراديو، سواء الإرسال أو الاستقبال، وغيرها.

بالإضافة إلى ذلك، كان عليها هي أن تعد نفسها بدنيًّا لهذه الرحلة الطويلة، التي ستكون شاقة بالتأكيد.. فواظبت على التمارين الرياضية التي تكسبها لياقة بدنية مناسبة.. ما كان عليها في سباق طويل كهذا أن تكون على دراية تامة بتشغيل أجهزة الإرسال والاستقبال - وهي أجهزة لم تستخدمها من قبل في السباقات الصغيرة التي اشتركت فيها ومن ثم تلقت دروسًا عملية ونظرية على ذلك في أحد فروع شركة ماركوني.. وأرسلت بعد ذلك صورًا لها وللقارب إلى مكاتب الاتصال اللاسلكي ومعها بيانات وافية عنها وعن القارب.. وكتبت على الصور والخطابات عبارة بسيطة وبليغة.. "أنصتوا إلى الصوت الصغير الهادئ وسط الليل قد يكون صيحة لي!".

بعد ذلك.. وقبل بداية السباق بقليل، جهزت القارب بالزاد الكافي طوال الرحلة التي قدرت لها أربعة أسابيع. وتسهب الكاتبة طويلًا في وصف أصناف المأكولات. الطازج منها والمجفف

والمغلف والمحفوظ، إسهابًا لا يقدر عليه إلا امرأة بالفعل!.. وقل مثل ذلك عن الثياب.. وكيف قامت بتصنيف وترتيب كل شيء في القارب بطريقة لا تسمح بالخطأ. وكان آخر ما فعلته هو اتصالها بمكتب الأرصاد البحرية لمعرفة ما إذا كان الأطلنطي يتعرض لتغيرات مفاجئة هذا العام.. وكذلك موقف الضباب وجبال الجليد.. وكانت الإجابة بأنه في الوقت الذي شهدت فيه السنوات السابقة آلافًا من جبال الجليد العائمة، فإنه في هذا العام لا يوجد أكثر من ثلاثين جبلًا كبيرًا في كل عدة آلاف ميل مربع.

ونتعرف معها على المتسابقين هذا العام. ونعرف أنهم خليط كبير من الإنجليز والفرنسيين والإسبان والبولنديين وغيرهم.. وأن من الشخصيات ذات التاريخ في السباقات السابقة "مايك ماكميلان" الإنجليزي وقاربه "الصيحات الثلاث"، وكذلك "چوك ماكلويد" وقاربه "الرون جلاس " الذي طلب من كفيله أن يكون قاربًا معدًّا لجنتلمان! وهناك القارب " جالواي بلازر" الذي طاف به بيل كنج وحده حول العالم، والذي صار الآن "لبيتر كروتر" الذي سجل من قبل الرقم القياسي في العبور البطيء للأطلنطي! ومن أصدقائها القدامى كان في السباق "مارتين ويلز " الفائز الثاني سابقًا في العبور البطيء للأطلنطي و"ريتشارد كليفورد" وقاربه "شمآل" و"جوستاف فير سليز" وقاربه "طيفون".

وآخر عهدها بالأرض قبل بداية السباق كانت المقابلة التي يجريها مكتب السباقات مع المشتركين، في هذا اللقاء لم يضايقها من الأسئلة إلا سؤال: "كيف تديرين قاربًا كبيرًا كهذا؟".. وحين سئلت عن الموعد الذي حددته لنفسها بالتقريب قالت: ثمانية وعشرون يومًا. والسبب هو أنها لا تريد أن تفوتها فرصة الاشتراك في الاحتفالات الأميريكية بالعيد رقم مائتين للاستقلال، الذي سيكون اليوم الرابع من يوليو (تموز) وهو اليوم التالي مباشرة للموعد الذي حددته. ثم مقابلة أخرى مع مراسل "الأوبزرفر" المسكين الذي حاول أن يجمع المشتركات في السباق وكن أربعة من الجنس الآخر فقط - في صورة تذكارية واحدة.. ولكنه بعد محاولات عديدة فشل وجلس حزينًا على الأرض وقد سقطت منه آلة تصويره.. وعلقت هي على ذلك قائلة: "كان على هذا البائس أن يعرف الكثير عن النساء قبل أن يفعل ذلك".

ونشرت عنها أول مقالة في جريدة الإكسبريس بقلم صديقها چاك هيل وهو غير چاك الفرنسي.. وأمضت ليلتها الأخيرة في الفندق تسأل نفسها، كيف سيمكنها أن تعبر ثلاثة آلاف ميل في المحيط دون مساعدة من چاك؟

البداية:

بعد قليل ستتحرك القوارب في مجموعات متجانسة بحسب أحجامها. حولها ستكون قوارب المشجعين الصغيرة من الأهل والأصدقاء، التي لن تلبث أن تعود حين تصل قوارب السباق إلى خط البداية. الأب يقول لها: "اعتني بنفسك من الآن.. لا تقلقي " والأم تقول : "لا تنسي الطعام" ومستر ومسز رون يقولان مشجعين: "ستكسبين السباق.. انتظري وسترين". أما بالنسبة لها فكان الأمر مختلفًا. تقول:

كانت ساعات انتظار التحرك هذه أسوأ الساعات. حين فكرت في أسرتي شعرت بالبؤس، ليس لوداعهم فقط، بل لأني سأتركهم في قلق شديد.. كان يجب بعد شهور الإعداد الطويلة أن تكون البداية بمثابة راحة كبرى لي. وكان يجب أن أكون قادرة على نسيان كل شيء خلال الإبحار.. لكن المسألة بالنسبة لجاك ولوالدي هي بداية لأربعة أسابيع شديدة القلق.. كان چاك معي على قاربي بعد. وحين فكرت في القارب الصغير الذي سيحمله عائدًا بعد قليل.. أحرقت قلبي أصوات موتوره.. لم أعد أستطيع أن أظل إنجليزية تعلقت بعنقه وانحدرت دموعي على وجنتي.

لكن السباقات لا تقف كثيرًا عند هذه المشاعر. بدأ السباق. وصلت خط البداية. لقد اختارت الطريق الذي يمر من شمالي الأطلنطي ووجهت القارب إلى "ليزارد".. حين اقتربت أضواء ليزارد اكتشفت أنها أخطأت الطريق.. كانت هذه أضواء "رأس سانت أنتوني" فكرت فيما لو استمرت في هذا الاتجاه الخاطئ.. كانت ستصل إلى "نوفا بورتو"، بالأرجنتين. عدلت خط سيرها بعد أن فقدت خمسة عشر ميلًا. رغم هذا الخطأ فلم يكن ذلك شيئًا صعبًا بالقياس لما سيحدث فيما بعد. تشجعت ووصلت ليزارد في الثالثة صباحًا.. حاولت بعد ذلك أن تنام.. إن النوم شيء خطر في بداية السباق. كانت بين الحين والحين تغفو ولو لثانية واحدة رغم إرادتها، أما الآن فإنها تسمع صوت چاك يهتف داخلها "الآن تستطيعين النوم" لكنها لم تستطع.

سار القارب بثبات وقوة وسط المياه.. حاولت الاتصال عن طريق الراديو بچاك وچاك هيل.. استغرق ذلك ثلاثة أرباع الساعة ثم تم الاتصال. اطمأنا عليها.. حاولت بعد ذلك أن تسجل شيئًا لمحطة الـ بي. بي. سي البريطانية على الأفلام التي كانوا أعطوها لها.. لم تفلح.. حين كانت تسمع ما سجلته كانت تسمع "مومومات وهاهات وهمهمات!" قالت لنفسها إنها لا تصلح للعمل في التليفزيون لو فكرت في ذلك. وحين قررت النوم خالجها شعور قوي بأنها ليست وحدها في القارب.. بالفعل قامت تفتش هنا وهناك. صعدت إلى السطح وجدت "حمامة" تحاول أن تحفظ توازنها على الحبال. حملقت الحمامة فيها طويلًا وبدت غاضبة. طارت واستقرت في إحدى الفتحات الجانبية جوار الروافع الصغيرة الخاصة بالأشرعة، وصوبت لها نظرات تهديد متواصلة كأنما تقول: "لا أحب الإزعاج"، ولأنه كان واضحًا أن كلًّا منهما يحتاج إلى الراحة وضعت لها بعض الماء والحبوب وعادت إلى سريرها بأسفل ونامت بعمق.

حين استيقظت كان قد مضى على البداية أربع وعشرون ساعة قطعت خلالها مائة وخمسة وأربعين ميلًا. وهي بداية طيبة إذا كان عليها أن تقطع مائة ميل في اليوم لتصل في موعدها. لكنها حزنت على فقدان الحمامة التي رحلت. وحين أقبل الصباح كانت قد خرجت من المياه القارية، ودخلت في مياه المحيط. الآن.. هناك على مسافة ألف وخمسمائة ميل تقع نيوبورت المنشودة.

أحاديث ودلافين وحيتان:

قطعت في اليوم الثاني مائة وخمسة وسبعين ميلًا، وهو رقم قياسي لا شك. ستصل إلى ربع الطريق في اليوم الخامس أو السادس.. ثم ثلث الطريق وبعدها تفكر قائلة: "مرتان مثل هذه وأجد نفسي هناك" إنها الآن في الثانية من صباح اليوم الثالث.. هواجس كثيرة تنتابها.. فالليلة حالك سوادها.. إنها لا ترى السماء..

لا شك أن سحبًا سوداء كثيفة تحجبها.. عليها إذن أن تستعد لكافة الاحتمالات.. تتأكد أن كل شيء في مكانه. غطت الملابس بالبلاستيك.. أعدت كريم الوجه والقطن.. الكريم مفيد للوجه أمام لفحات الرياح، والقطن لسد الأذنين مما يخفف من صفيرها.. وكانت بداية سيئة لصباح يوم جديد.. الرياح تتشاجر. الرعد له هزيم مرعب وبرق خاطف.. إنها ترى أقواس قزح تغرق في الأمواج العالية. وها هي الأمواج أيضًا تملأ مياهها السطح وتسقط من النوافذ.. لكن لم يزل القارب "جوللي" قاربها، ينساب ويخوض الصراع وتطقطق قلاعه! أما هي فقد جلست في حالة بائسة، ترتعد من البرد والرطوبة في غرفة المراقبة، واكتفت بمشاهدة المشهد غير السار..

بعد أربع وعشرين ساعة كاملة اعتدلت الرياح. صعدت إلى السطح لتغير الأشرعة.. أحست بضعف شديد.. أدركت أنه كان عليها أن تأكل جيدًا.. اتصلت بچاك. بعد ذلك حاولت الاتصال بچاك هيل مراسل الإكسبريس فلم تستطع.. كان رجال البحرية التجارية فيما يبدو يتصلون بزوجاتهم.. سمعت محادثة كان من الصعب أن تسد أذنها عنها.. طرفان يتحاوران:

- وماذا عن الهدية التي قدمتها إليكِ؟

- أية هدية !؟

- أنتِ تعرفين.. تلك الهدية.. الهدية التي أعطيتها لك..

ثم فترة من الصمت.

- أوه.. أنت تعني.... وليس الـ.... بروش الذي قدمته لي في رأس السنة الماضية.

في نفاد صبر.

- لا لا.. الشيء الخاص الذي أعطيته لك كي... كي... كي تذكريني... أعرفتيه!؟

وفي اليوم التالي كانت قد قطعت ربع الطريق.. ها هي برغم الرياح قد قطعت سبعمائة ميل في ستة أيام. وفي اليوم الثامن.. كانت من التعب في درجة تحس فيها كما لو أنها عائدة لتوها من مباراة مع محمد علي (تقصد محمد علي كلاي بطل العالم في الملاكمة)، وبينما كانت تجلس في الكابينة تفكر بعد حديث مع چاك وچاك هيل وتشعر بسعادة لا تقاس وبرغبة في الاستحمام.. بينا هي كذلك أقبلت الدلافين لتلهو.. توقفت تراقبهم.. تسمع إشاراتهم وهمساتهم.

كان على المتسابقين أن يقدموا تقارير عن الدلافين والحيتان التي تقابلهم. تطلعت إليهم بعناية.. كان أحدهم يدور حول القارب ويتحرك بسرعة بينما يتحرك الباقون بهدوء. حملقت فيهم بعمق.. فجأة شعرت بشيء غريب يخزها في ظهرها. كانت المفاجأة أن التي تخزها لم تكن دلافين.. إنها حيتان صغيرة!

تذكرت عدد اليخوت التي أغرقتها الحيتان في السنوات الأخيرة.. أسرعت إلى أسفل لتحضر دليلًا للحيوانات البحرية.. حملقت فيه.. جعلت تقلب صفحاته بسرعة وجنون. لم تكن من الحيتان القاتلة.. إنها من الحيتان البحارة التي لا تؤذي... تتميز بأنها تتبع قائدها.. تمنت لو تعثر على قائدها بسرعة.. بعد ساعتين كان هناك حوت على الجهة اليمنى من سطح القارب.. كان فيما يبدو نائمًا نوم القيلولة! لم تعرف ماذا تفعل.. هل تبتعد؟ هل تقترب وتقول له شيئًا مثل: "استيقظ يا مجنون"؟ وقفت متجمدة بلا حراك ولا قرار.. لحسن حظها شعر الحوت بها وأخذ طريقه إلى الماء بهدوء، ومال جانب القارب معه وهو يهبط إلى الماء وتنفست الصعداء.. في مساء ذلك اليوم اتجهت الريح جنوبًا وانعدمت الرؤية. فأرسلت عبر الراديو إنذارًا للسفن.

في ظهيرة اليوم التالي ابتعدت السحب وظهرت الشمس، لكنها لم تثق في تحسن الجو. بالفعل هبت الرياح. كان جهاز قياس السرعة يقرأ سرعة الرياح بمقدار يفوق خمسين عقدة في الساعة.. ومقياس الموج يحدد الارتفاع بثلاثة وثلاثين قدمًا في منطقة القارب، وأربعين قدمًا في مركز العاصفة الذي لم يكن بعيدًا.. بدأت تقلق على صندوق التروس الذي كلما ضربت الأمواج القارب أحست بأنه سيقفز من مكانه. وبالفعل تقلقلت جوانبه الحامية له.. حاولت أن تعيد تثبيتها فلاقت صعوبة جعلتها تكره هذه التروس.. بعد ساعة من الجري من أعلى إلى أسفل وبالعكس أنجزت عملها ونامت.. وجاء اليوم التالي لذلك فلم يختلف كثيرًا.. كان مليئًا بالسحب. إنها لم تستطع تحديد مكانها بعد.. لكنها رأت سفينة كندية بعد فترة لم تر فيها أية سفينة منذ دخلت مياه المحيط.. اتصلت بها.. جاءها صوت من السفينة الكندية أبلغها أنها بعيدة عن الشمال كثيرًا، وهذا ما كانت تخشاه.. لقد دفعتها العاصفة إلى الجنوب!

إلى كل السفن.. إلى كل السفن:

رغم كل شيء وصلت إلى ثلث الطريق. تستطيع الآن أن تنظف شعرها الذي بدا كالسلك! إن الحياة لا يمكن أن تكون بائسة! وحين تنتهي العاصفة ويهدأ كل شيء يبدأ تعبها.. إنها تقوم بتغيير الأشرعة والأعمال الروتينية في القارب، وتغيير الأشرعة ليس أمرًا سهلًا.. يحتاج إلى جهد وطاقة كبيرين، وهي تحتاج إلى ذلك! إنها الآن في اليوم الثاني عشر وقد قطعت ألفًا ومائتي ميل.. إنها على ثقة من أنها ستصل نصف الطريق بعد يومين، وها هي ترى سفينة.. في سباق جزر الأزور.. كانت ترى سفينة كل يوم وأحيانًا ثلاث سفن.. هنا.. في شمالي الأطلنطي
لا يغامر إلا من كانت سفينته معدة للإبحار وسط الجليد والضباب.. وخاصة بقرب "جراند بانك أوف نيوفاوندلاند " أو ضفاف نيوفاوندلاند الكبرى، التي ما تزال بعيدة. في اليوم الثالث عشر انقشع الضباب.. أسرعت إلى جهاز تحديد المكان.. عرفت أنها في الغرب لا الجنوب كما قالت السفينة الكندية. راودها الشك في الجهاز.. أعادت تشغيله.. لم تتغير النتيجة.. تعجبت كيف يمكن أن تخطئ سفينة كبيرة بها كل المعدات البحرية الحديثة.

في اليوم الرابع عشر وصلت إلى منتصف الطريق.. بدأت تتعرض إلى ضباب نيوفاوندلاند. ضباب كثيف يحدث نتيجة الاختلاف الكبير في درجة الحرارة بين المياه الباردة لتيار اللبرادور والرياح الدافئة التي تهب من القارة الأميريكية، ودهشت لأنها ما زالت تبعد ثلاثمائة ميل عن نيوفاوندلاند شرقًا.. لكنها وقد وصلت إلى منتصف الطريق قررت أن تحتفل بهذا اليوم.

ارتدت ثيابًا جديدة.. أشعلت المدفأة في الكابينة.. اكتنفتها بهجة عارمة.. قررت أن تأكل.. تقرأ.. تسمع الموسيقى.... وأحيانًا كان يراودها الخوف من جبال الجليد التي يحملها التيار في هذه المناطق.. يساورها القلق حول فرشاة شعرها التي فقدتها ولم تعثر عليها في أي مكان.. قرأت فصلًا من كتاب "عبر الطريق الأسرع" لفرانسيس شيتشستر أول من عبر الأطلنطي وحده، وبدأت تبث نداءات عبر الراديو للسفن.. لدهشتها، إذ لم تتوقع ذلك، جاءها صوت محشرج وضعيف وذو لكنة أجنبية.. تبادلا أسماء القوارب.. لم تسمع اسم قاربه جيدًا.. سألته عن أي معلومات عن الجليد.. قال:

- أي معلومات تريدين؟

- الجليد.. ا.. ل.. ج.. ل.. ي.. د.

- آه..

ثم تمنى لو كان لديه لكان ذلك مفيدًا وسط هذه الأماكن.

سألته:

- أليس لديك فكرة بالمرة..؟

- أنا آسف.. لا أفهم..

حينئذ سألته عن أي معلومات عن الطقس... قال:

- أعيدي..

قالت ببطء شديد :

ا.. ل.. ط.. ق.. س.

- آه... لا.

بدأت تفكر في أمر هذه السفينة. جاءها الصوت يسألها ما إذا كانت تعرف موقعها لأنه لم ير الشمس أيامًا.. راودها الشك.. هذه لا يمكن أن تكون سفينة. سألته ما إذا كان يمكن أن يعيد عليها اسم سفينته.. قال: "سبانييل" تطلعت إلى قائمة المشتركين في السباق.. وجدته.. إنه القارب رقم (110) الذي يقوده "كازيميرز شاوورسكي" البولندي. انتهت المحادثة بتبادل التمنيات باللقاء في نيوبورت.

بعد نصف ساعة من هذه المحادثة الطريفة نادت كل السفن مرة أخرى.. سمعت ردًّا من سفينة تسمى "آرد ستون "، نظرت إلى القائمة.. لم تجدها بينها.. ها هي قد عثرت على سفينته أخيرًا.. كانت سفينة نرويجية، أخبرتها أن هناك جبالًا جليدية رأسًا إلى الشمال والجنوب وليس في طريقها.. بعدها بدأت تستمتع بيومها أكثر.. فكرت أن تنام بعد الظهر.. لكنها بين الحين والحين كانت تنهض لتصعد إلى السطح ثم تعود للنوم من جديد. تقول عن ذلك : "حين أكون متعبة أنام أكثر بعد الظهر.. ولكن في يوم جيد أرتاح ساعة أو اثنتين ثم أعمل أو أقرأ.. لدي كمية مختلفة من الكتب تبدأ من "الحرب والسلام" - رواية تولستوي الشهيرة - إلى آخر ما أصدره جيمس هاريوت - روائي بريطاني معاصر - حاولت أن أقرأ الحرب والسلام منذ ثلاثة أعوام - هكذا تقول - وما زلت على ثقة من أن رحلة بحرية على انفراد هي المكان المناسب لقراءتها.. ورغم ذلك لم أستطع قراءتها هنا رغم الوحدة لأن هناك ما يشغلني من وقت لآخر. لذلك وجدت أنه من الأفضل أن أقرأ عملًا بسيطًا أستطيع أن أتركه حين أشاء لأعود إليه دون أن أتأثر بذلك. وعلى كل حال، كان أكثر الكتب التي لم ترضني قراءتها في هذه الرحلة هي رواية "نساء عاشقات"، لديفيد هربرت لورانس - الروائي الإنجليزي الشهير صاحب "أبناء وعشاق" و"عشيق الليدي تشاترلي"، وغيرها وجدتها كئيبة فألقيتها إلى آخر ركن بالقارب.

ونهضت بعد نومها تثبت آلات التصوير.. فهناك اليوم فرصة طيبة.. الجو صحو ولن تحتاج للحركات البهلوانية لذلك.. ثم تتابعت الدلافين والحيتان الصغيرة التي استمتعت بمشاهدتها وتصويرها.. بعد ذلك جلست في رضا وسعادة تستمع إلى الموسيقى.. استمعت إلى مقطوعة "موسيقى الماء" لهاندل ثم مقطوعة "البحر" لديبوسي.. وحين أظلمت الدنيا نامت.. وكانت الساعة العاشرة بالتوقيت الأطلنطي.. تقول إن أحلامها عادة تكون ثقيلة حين تنام بعمق، ولكنها في تلك الليلة رأت حلمًا على غير العادة.. تقول:

"رأيت نفسي على مقعد مريح مستلقية في يوم مشمس دافئ وحنون وأمامي كل الأطباق التي أشتهيها في العالم.. وهناك ساقي أتى إليّ حاملًا إناء ضخمًا مليئًا بعصير الفاكهة، وجعل يصب منه في قارورة عند قدمي ويغطيه بالقشدة. بدأت آكل.. بين كل ملعقة وأخرى أضعها في فمي يرفع الساقي عاليًا فرشاة شعر عملاقة بطول جسمه ويقول: كانت في حقيبة يدك طول الوقت.. ولكني حين استيقظت في صباح اليوم التالي كانت خيبتي كبيرة إذ لم أجدها هناك".

من فكي الأسد إلى نيوبورت:

كان الاتصال بالراديو هو وسيلتها الوحيدة كي تؤنس وحدتها.. ولكن هذا ليس متيسرًا دائمًا.. ورغم ذلك لم تكن تحس بالوحدة كثيرًا.. إنها تفهم الوحدة بطريقة خاصة.. تقول:

"لم تكن الوحدة شيئًا أعانيه في البحر كثيرًا.. إنني حقًّا أفتقد الناس.. لكن ذلك يختلف عن الوحدة، إذ سأراهم فيما بعد وأجدد الصحبة في المستقبل.. ثم إن البحر والقارب شبيهان بالأصدقاء القدامى وأشعر بالأمان في صحبتهما، رغم أن كلًّا منهما يعطيني إحساسًا مختلفًا عن الآخر.. إنني أشعر فقط بالوحدة في المدن الكبرى، أو غيرها من الأماكن، حيث يوجد أناس كثيرون ولكن
لا يوجد بينهم من تتحدث معه... إنني أكره أن أكون وحدي حقًّا، وحتى لو كان هناك أناس حولي

فإني أبحث عنهم! ولكن هنا حيث لا توجد فرصة كبيرة لتجد أحدًا تتحدث معه لا أشعر أني أفتقد شيئًا!.. إنه الفرق بين أن تذهب بنفسك على أمل أن ترى الأسرة وتشرب الشاي.. وحين تصل المنزل تجده خاليًا صامتًا وعليه لافتة تقول: ذهبوا إلى حفل أيضًا ولكن لا توجد أي إشارة أين ستكون الحفلة.

ولكن ذلك بالطبع لا يجعلها تضيع فرصة الاتصال بالآخرين. ها هي بعد أن عبرت منتصف الطريق تتحدث إلى جاك وجاك هيل.. ويقدم إليها هيل أخبارًا مثيرة كالآتي:

* توقف آلان كولاس في سانت چون بنيوفاوندلاند للإصلاح وسوف يبدأ من جديد بعد قليل.

* إريك تابارلي الذي يقود القارب "بن دويك السادس" يقترب من
نيو بورت.

وسرها ذلك. فتابارلي بحار رائع.. أكثرهم هدوءًا وعدم ادعاء ويحترمه الجميع. فاز بالسباق منذ اثني عشر عامًا بقاربه "بن دويك الثاني"، الذي كان طوله أربعة وأربعون قدمًا.. أما قاربه الحالي فطوله ثلاثة وسبعون قدمًا، وقد صمم بحيث يقوده اثنا عشر رجلًا.. أما كيف يقوده هو وحده فلا أحد يعرف، لكنها أيضًا كانت على ثقة من أن قارب "الصيحات الثلاث"، سوف يفوز أولًا رغم تقدم تابارلي. وفي اليوم التالي.. وكان السابع عشر.. صعدت بعد العشاء إلى سطح القارب. أحست بانقشاع الضباب.. لكنها رأت ما لم تفهمه عيناها في البداية.. جبال بيضاء لامعة في ضوء الصباح، وكأنها جزء من السماء. كان اثنان منها كبيرين طول أحدهما ربع ميل تقريبًا.. والثاني طويل جدًّا له نهاية محدودبة حادة.. ثم رأت عيناها الثالث.. كان رماديًّا ذا ظلال. كان طريقها بين الجبلين الكبيرين ونتركها هنا تتحدث عن مشاعرها في هذه اللحظات المخيفة:

"إنني لست متدينة كثيرًا. لكن هناك أوقات يحتاج الإنسان فيها لذلك.. تلوت صلاة من قلبي.. كنت في خوف عظيم من أن تتحرك الجبال عن طريقها.. تمنيت لو أن الله أعطاني عنايته قليلًا.. كان واضحًا أني في حاجة إلى مساعدة.. جلست أحملق في الجبال نصف ساعة حتى بدأت تختفي خلف الأفق.. وكمن تم إنقاذه من بين فكي أسد قلت فيما بعد، حقًّا إن الحياة ممتعة جدًّا، وبدأت العمل بهمة على القارب. كنت في حاجة شديدة للإسراع لأنهي ثلاثة أرباع الطريق، وكنت ما زلت في خوف من الضباب".

كانت تعرف فقط أنه يجب أن تصل نيوبورت بأي شكل.. اتصلت بجاك فأخبرها أنه من الضروري إصلاح التروس لأن الدفع الذاتي لن يكفيها. بدأت من جديد تحاول إصلاح التروس. ونجحت أخيرًا في ذلك. وأصبحت الآن في اتجاه نيوبورت.. أخبرت جاك وجاك هيل بذلك واشتعلت حرارة واشتعلت سرعة القارب.. إنها نيوبورت.

لكنها وقد وصلت إلى المرحلة الأخيرة إذا بعطل ينتاب التروس.. تمضي اليوم كله في محاولات مستميتة للإصلاح وتثبيت أساسها وجوانبها وتفشل.. تترك القارب يائسة لقوة الدفع الذاتي للرياح.. وإذا بالنوم يتكالب عليها وتحاول بقوة أن تقاومه.. إنها في حاجة لكل دقيقة الآن. لكنها تغفو دون

إرادتها من فرط التعب. وفي إحدى هذه الغفوات اللاإرادية استيقظت منها فإذا بها غارقة في الماء حتى منتصفها في الكابينة من أثر هياج الموج.. نزحت المياه لكنها عانت من برد ورطوبة شديدين ولم تلاحظ ذلك! ولم تعرف ماذا تفعل.

في يوم 29 يونيو (تموز) أخبرها چاك هيل أن تابارلي فاز بالسباق في ثلاثة وعشرين يومًا وعشرين ساعة.. تذكرت "الصيحات الثلاث" وحزنت لأن مايك لم يفز بالسباق. في الصباح التالي اتصلت بوالديها اللذين أصبحا الآن في نيوبورت وعرفت منهما أن القارب "نادي المتوسط" جاء ترتيبه الثاني. أما الثالث فكان "مايك بيرتسن"، بقاربه الصغير الذي لا يزيد عن ثلاثين قدمًا، وكان ذلك نصرًا عظيمًا له.. أما الرابع فهو الذي أثارها للغاية.. لقد كان القارب "سبانييل" لصاحبه البولندي.. فكرت في كارثة التروس التي عطلتها والتي لولاها لكانت مثله.. وعادت من جديد لتعرف أين كان "سبانييل" حين تحدثا معًا.. أدركت أنه كان على بعد مائة ميل فقط منها، وهذا يعني فارق يوم واحد.. لكنها التروس اللعينة التي لولاها لما حدث لها ذلك. قالت في نفسها: حقًّا إن السباقات مليئة بكلمات "لو" و"لكن" واستمرت في رحلتها.. وحين بقي أمامها يوم واحد وتصل نيوبورت، كان عليها أن تدور حول "نانتيكوت" وأتمت ذلك وأصبحت تندفع رأسًا إلى نيوبورت.

كيف ستبدو نيوبورت ؟ كيف ستحتفل بوصولها؟ كيف سيكون اليوم الرابع من يوليو؟ إنها ستصل في تسعة وعشرين يومًا، أي بزيادة يوم عن ما حددته لنفسها.. ولكن هذا لا يحزنها.. فلن تفوتها الاحتفالات الأميريكية.. والآن ها هي ترى أضواء "چاي هيدن".. الساعة الآن الخامسة صباحًا.. ثم ها هي الساعة تتقدم إلى السابعة وهي في سرور وابتهاج.. وها هي تتجه بهدوء إلى الميناء حيث تتوقع الوصول في التاسعة أو العاشرة.

ملاحظات أخيرة:

لم يكن لديها وقت.. هبطت إلى أسفل تتزين.. رأت وجهها وشعرها على حالة سيئة.. اهتمت أكثر بأن تكون مهندمة.. ورأت الأرض لأول مرة.. إن ذلك يغوص في قلبها.. فهذه أحسن أرض رأتها وتتمنى أن تحدق فيها لساعات. وجاءها صوت چاك من الراديو فأسرعت ترد عليه.. أخبرها أنه في الطريق، وحين وصل إليها كانت معه أختها الصغيرة.. بعده وصل بوب ساندرز وفريق إذاعة ال. بي. بي. سي. ثم فرانك بيج من جريدة الأوبزرفر الذي أبرق للصحف أن ترتيبها جاء الثالث عشر وأنها المرأة الأولى التي أتمت السباق حتى النهاية.

حضر والداها ومستر ومسز رون. وصاح مستر رون: "كنت أعرف أنك ستفوزين.. أنك تستطيعين" وقفز رجال الصحافة فوق القارب بعد أن قفز چاك بدقيقة واحدة، فلم يعطوهما أي فرصة، مما أشعلها غيظًا. ولكن سرعان ما قفز الجميع ووقفت بينهم تتحدث بعصبية. على الشاطئ كان هناك أصدقاء وصحافيون وضوضاء وفوضى.. ثم تقدمت إليها مدام "ماري توماس" بجائزة السباق الفضية، لكونها أول امرأة تتم السباق. تلك كانت خاتمة هذه الرحلة المثيرة والممتعة. ولا يفوت الكاتبة أن تقدم إلينا بعض الملاحظات البسيطة على السباق فتقول:

"من المائة وخمسة وعشرين قاربًا التي بدأت سباحة الأطلنطي عام 1976 م، رسميًّا أنهى ثلاثة وسبعون فقط.. خمسة في الوقت الرسمي وأربعون انتهوا إلى موانئ مختلفة حول الأطلنطي. كما أن هناك خمسة أُنقذوا من الغرق.. كما أنه ولأول مرة كانت هناك خسائر في الأرواح، فقبل وصولي بيومين عثر على قارب مايك فلانجان مقلوبًا ولا أحد به.. وفيما بعد عرفت أن حادثة أخرى وقعت كان من الصعب عليّ أن أصدقها. وهي أن قارب "الصيحات الثلاث" قد فُقد ومعه مايك ماكميلان رجل البحر الخبير. وكم كان ذلك محزنًا لي. والآن وقد انتهى كل شيء، أسأل نفسي: هل سأقوم بذلك مرة ثانية؟ مطلقًا.. إن مرة واحدة تكفي.. إنني أستطيع الآن أن أستمتع بمكاسب الفوز.. وربما فيما بعد حين أصبح في التسعين من العمر! وحين أكون عجوزًا أكبر من أن تقوى على فعل أي شيء، ربما حينئذ أنسى أوقات السباق العصيبة وأفكر أن أفعله مرة ثانية!!".

"مجلة الفيصل السعودية"

الهروب الكبير من سجن جلبوع.. كيف كنا في حاجة إليه؟

حينما قرأت عن الهروب الذي قام به ستة من السجناء الفلسطينيين من سجن جلبوع الإسرائيلي، شعرت أنها رسالة بقدر ما هي لإسرائيل عن البطولة الفلسطينية، بقدر ما هي لنا أيضًا، وضف إليها، عن عظمة الإنسان. أجل. نحن العرب للأسف نعيش في عصر الهزائم السياسية والاقتصادية والفكرية ولا تنتهي الهزائم.

لن أتحدث عن بلد بعد بلد لنعرف ماذا يحدث فيها، فالكل يرى الشعوب في كثير من الدول القديمة ذات الحضارة العريقة تهرب من بلادها إلى أوربا وغيرها، وصار البحر يحمل الآلاف كل يوم من الفارين من الموت المجاني الذي فرضه الحكام على الشعوب. حتى البلاد التي يبدو عليها الاستقرار لا يغادرها الإرهاب، ولا تتوقف السجون عن الانغلاق على أصحاب الرأي المخالف. هناك حالة تكاد تخيم على كل الشعوب العربية أنه لم يعد هناك جدوى لأي رأي أو انتفاضات أو مظاهرات أو ثورات، فكل ثورات الربيع العربي انتهت إلى القوى المضادة.

حلم أن تؤثر الثورات في الدول الأخرى انتهى، فلم تصل الثورات إلى نتيجة في البلاد التي قامت فيها. لقد تضافر عليها كل الأعداء من الداخل والخارج، من العرب والغرب وإسرائيل. أسموه بالربيع العبري بينما تطورت علاقاتهم مع إسرائيل إلى حد الجنون! فوصلنا إلى ما حولنا ولست في حاجة إلى تكراره. الاستسلام راية بدت في الآفاق كثيرًا في السنوات السابقة والآن. من ناحية أخرى ابتعد الناس كثيرًا عن قضية فلسطين وتكاد تدخل طي الكتمان. صحيح عادت بقوة إلى المشهد في الشهور السابقة حين طارت الصواريخ بين إسرائيل وغزة، ورغم الخراب الذي أحدثته إسرائيل، الدولة الغازية المحتلة، لغزة فقد أيقظت الغارات عرب 1948 الذين لايزالون بالداخل، وخسرت إسرائيل أكثر مما يبدو أنها كسبت. رغم عودة القضية الفلسطينية والقدس إلى المشهد، عادت القضية مرة أخرى إلى الخلف، ومارست إسرائيل علاقاتها بشكل عادي مع الدول المطبعة لها، وابتعد إعلام هذه الدول عن القضية الفلسطينية، لكن ظلت الميديا ميدانًا لا يتوقف عن المتابعة، يومًا بيوم وساعة بساعة، وربما دقيقة بدقيقة لما يحدث في فلسطين المحتلة – إسرائيل – أو في خارجها بالضفة وغزة.

من الميديا عرفنا خبر هذا الهروب العجيب من سجن جلبوع. طبعًا بدا الأمر صدمة كبيرة لإسرائيل فهذا أمر لم يحدث فيها من قبل، ولا في العالم العربي كله رغم سجونه عبر التاريخ. أمر جاءنا من الخارج. من رواية مثل الكونت دي مونت كريستو لألكساندر ديماس التي حُولت إلى أفلام كثيرة، والتي تم تمصيرها في أفلام عربية مثل أمير الانتقام لأنور وجدي أو أمير الدهاء لفريد شوقي وغيرها، وبالطبع جاءنا من أفلام مثل الهروب الكبير في الستينيات لستيف ماكوين، وهو الفيلم الذي عرفه جيلنا وكان يجري وراءه في السينمات، فلقد كان الهروب بالحفر تحت الأرض كما هو في المونت دي مونت كريستو من قبل. كان الهروب الكبير مأخوذًا عن أحداث حقيقية حدثت أثناء الحرب العالمية الثانية في سجون النازي. أفلام كثيرة عن الهروب من السجون تداعت إلى الذاكرة مثل "الخلاص من شاوشانك" لمورجان فريمان وغيرها.

اتسعت بسرعة مساحة السخرية من إسرائيل وحكامها وبدأت بعض المواقع الساخرة مثل موقع "الحدود" تنشر تعليقات لم تحدث طبعًا في العلن على لسان مسؤوليها مثل "هذا الثقب ليس في الأرض لكن في مؤخرتنا" أو صورفوتوشوب لبعض مسؤولي إسرائيل ينظرون إلى الثقب الأخير في الشارع يطلون على ما بداخله، وأبرزها صورة ليد خارجة من فتحة النفق هي مؤكد لفلسطيني، تشير لمن ينظر بالإصبع الأوسط وهي علامة معروفة في كل الدنيا. ومن أبرز الصور الساخرة صورة لأبي مازن نفسه يطل على الثقب وحدت بينه وبين قادة إسرائيل. وغير ذلك من صور الكاريكاتير للفنانين وأسميت أنا السجن بسجن جربوع! بدا الحديث واضحًا أن ما ستفعله إسرائيل للقبض على الهاربين سيشاركهم فيه أبو مازن والسلطة الفلسطينية وفقًا للاتفاقيات الأمنية بينهما. هكذا أدرك الجميع رغم ما أثاره الهروب في أرواحهم من قوة وأمل، إن الهاربين يواجهون أكثر من سلطة الآن. السلطة الإسرائيلية والسلطات الفلسطينية. ربما لو نجحوا في الوصول إلى غزة قد يختلف الأمر، وبالطبع لن يصلوا إلى أي دولة عربية محيطة بإسرائيل لأنها كلها لو حدث ذلك رغم صعوبته ستسلمهم إلى إسرائيل. هل كان الهاربون لا يعرفون؟ مؤكد كانوا يعرفون.

لماذا إذن فعلوا ذلك الأمر الذي استغرق شهورًا طويلة ولم يدركهم حراس السجن. لقد اختلف الحديث هل كان حفرًا أم كان استغلالًا لنفق للصرف الصحي وغير ذلك، لكنه حمل في النهاية اسم نفق الحرية وصار شعارًا. حين تعرف شيئًا عنهم وأسماءهم والأحكام التي هم محكوم عليهم بها تعرف قوتهم وقدراتهم غير العادية. هم محمود العارضة الذي يبلغ من العمر السادسة والأربعين ومعتقل منذ عام 1996، ومحمد العارضة الذي هو في التاسعة والثلاثين من عمره ومعتقل منذ عام 2002، وأيهم كممجي الذي في الخامسة والثلاثين ومعتقل منذ عام 2006، ويعقوب قادري الذي هو في التاسعة والأربعين ومعتقل منذ عام 2003، أما مناضل نفيعات فأصغرهم سنًّا إذ هو في السادسة والعشرين ومعتقل منذ عام 2019 وأخيرًا زكريا زبيدي الذي في الخامسة والأربعين ومعتقل منذ عام 2019. خمسة منهم ينتمون إلى حركة الجهاد الإسلامي وأربعة منهم يقضون حكمًا بالسجن المؤبد، وزكريا زبيدي كان قائدًا لكتائب شهداء الأقصى في جنين. ومتهمًا بأنه كان وراء تفجيرات انتحارية في إسرائيل في الانتفاضة الثانية.

لقد فعلوا ذلك وهم يدركون أن أمل الهروب غير موجود، لكن من يدري ربما يكون موجودًا. وأنا أكتب هذا المقال كان قد تم القبض على أربعة هم زكريا الزبيدي ومحمد عارضة وقبلهما بيوم، أيهم كممجي ومناضل نفيعات. وقد يتم القبض على الاثنين الباقيين قبل نشر المقال. يتوقع الجميع أن يتم القبض على الآخرين فليس أمامهم طريق مفتوح، أو كما قالت الباحثة الفلسطينية وأستاذة الفلسفة سمر البرغوثي صاحبة كتاب "طائر الأرجوان" عن تاريخ فلسطين بشكل خيالي وواقعي عبر السنين وكتاب "سمات النخبة السياسية الفلسطينية" وغيرها من الأبحاث والدراسات:

"لا تحكموا على الأمور ببساطة، طبيعي وبديهي أن الأسرى سيتم اعتقالهم جميعًا أو قتلهم للأسف، لا يوجد احتمال 1٪ أن يستمروا في الهرب، بلادنا مراقبة منذ عشرات السنين. لديهم أقوى أجهزة استخبارات في الكون، وأجهزة تجسس للعالم كله، وفلسطين مستباحة أمامهم، من معنا؟ شعوب مقهورة وحكومات مأجورة".

"لو نقعد نشرح نحن الفلسطينين أيامًا وشهورًا وسنين تفاصيل حياتنا مع الاحتلال وطرق مراقبتهم وسيطرتهم واختراقهم لأنفاسنا لا يمكن تتصوروا، وستعتقدون إما أنه كذب أو خيال أو جنون وطبعًا كله بالقانون والنظام (قانونهم ونظامهم) وشريعة الغاب".

أجل كان معروفًا أنه سيتم القبض على الجميع. ستعيد إسرائيل النظر في أمن سجونها، لكن سيظل هذا الهروب ملهمًا للجميع بإمكانية تحقيق الأمل في الحرية. ليس معنى ذلك أن هروبًا آخر على نفس الطريقة سيتم، فالمتابعة الإسرائيلية للسجون ستتغير، بل وستستفيد النظم العربية من الحادثة في متابعة ومراجعة سجونها لتكون أكثر إحكامًا، رغم أن أحدًا لا يهرب منها من السياسيين بالذات. لكن ما حدث سيظل مصدر قوة لكل أصحاب القضايا الحقيقية. كم كنا في حاجة إليه في هذا الزمن الميت!

"القدس العربي سبتمبر 2021".

حرب أكتوبر .. تبقى الذكريات

ما الذي يمكن أن يكتبه مثلي عن حرب أكتوبر؟ مضت ثمانية وأربعون سنة والنقاش يحتدم كل عام، هل كانت الحرب انتصارًا حقًّا أم معركة انتهت بالتعادل بعد الثغرة التي نفذت منها القوات الصهيونية إلى الضفة الغربية للقناة؟ الأغاني والمقاومة في السويس، وغير ذلك مما جرى في أيام الحرب التي فاجأتنا نحن كما فاجأت إسرائيل.

أشعر أن الحديث معاد ومتكرر فأنا من الجيل الذي عاصر الحرب وما بعدها، والذي بقدر فرحه بها كانت معارضته لاتفاقية السلام، وما جرى من تغير في مصر بعد الحرب، وبعد أن بدأ الرئيس السادات ومعه أجهزة الدولة يغير في شكل المجتمع المصري، فيأخذه إلى الوهابية من جهة الفكر والسلوك، وإلى الانفتاح الذي اعتبره أحمد بهاء الدين سداح مداح، فانقسم المجتمع إلى طائفتين؛ الأولى: المتحالفة مع السلطة، والتي فازت بالمصانع التي بدأ بيعها واستمر بعد السادات، أو بالأراضي أو بالقروض، والهروب بها من مصر، في الوقت الذي شحت فيه الوظائف والأعمال فبدأ الخروج الكبير إلى دول الخليج، وخاصة السعودية والعراق، وجرى ما جرى في الحياة المصرية مما كتبت فيه كثيرًا. باختصار كل من رأى مصر رغم الهزيمة قبل حرب أكتوبر، ورآها بعد ذلك، لا يصدق أن هناك تطورًا طبيعيًّا حدث في البلاد، بل تخريبًا متعمدًا. كيف يحدث ذلك في بلد عبر أصعب حاجز حربي وهو خط بارليف؟ هل كانت الحياة المصرية بعد أكتوبر بمثابة عقاب للمصريين؟ كيف إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لإسرائيل أو أمريكا، تساهم فيه الدولة المصرية بكل أجهزتها.

من هنا جاء الأدب خير معبر عن الحرب وما جرى بعدها. شعرًا وقصة ورواية. لن أمشي معه كثيرًا فلقد كتبت فيه من قبل لكن في الصفحة الأولى لمن كتبوا عن الحرب تجد جمال الغيطاني باعتباره كان مراسلًا عسكريًّا، في عمل مثل "حكايات الغريب" أو مثل "الرفاعي" كذلك الشاعر أحمد الحوتي في عمله "نقش على بردية العبور" وكذلك قاسم مسعد عليوة في مجموعات قصصية مثل "لا تبحثوا عن عنوان.. إنها الحرب " ولم تبتعد الحرب عن كل قصصه تقريبًا فضلًا عن مسرحيتين له.

وكان قاسم مسعد عليوة مثل أحمد الحوتي مقاتلًا أثناء الحرب. كان الحوتي في الجيش الثالث فناله الحصار بعد الثغرة، وكان قاسم مسعد عليوة شمالًا في الجيش الثاني، وشاركه أيضًا الشاعر أحمد عنتر مصطفى. هناك غيرهم تخونني الذاكرة كانوا مقاتلين وكتبوا عن الحرب، أو لم يكونوا، مثل محمود الورداني الذي كتب "نوبة رجوع " وفؤاد قنديل وغيرهم، وحتى فيما بعد أكثر من ثلاثين سنة استلهم الحرب كاتب مثل عمار علي حسن في رواية "زهرة الخريف".

الأعمال كثيرة مستوحاة من الحرب بعضها تحول إلى أفلام شهيرة مثل "الرصاصة لا تزال في جيبي" أو "العمر لحظة" أو "أبناء الصمت" لكن أكثر ما كتب كان عما جرى في مصر بعد الحرب. في ذلك اشترك جميع الكتاب تقريبًا في إدانة ما جرى، ومؤكد أن ذلك كان أحد أسباب تصدر الرواية للمشهد الأدبي، بعد أن كانت القصة القصيرة تتصدر المشهد منذ الستينيات. انفتح

مجال الحكي الواسع فتحول كل كتاب القصة القصيرة من الستينيين إلى الرواية مع غيرهم من الكتاب الذي أسموهم سبعينيين، بصرف النظر عن القسمة. صارت الرواية هي "مكة" التي يحج إليها الكتاب، وصارت ذاكرة العرب، بل ديوانه مقام الشعر من قبل.

كنت من الجيل غير المتفق مع ما جرى بعد الحرب. في عام 1975 نشرت قصة قصيرة في مجلة الطليعة بعنوان "تعليقات من الحرب" عبارة عن حديث بين جنديين محاصرين في الجيش الثالث. يقول واحد منهما وهو يرى زميله يفخر بما أنجزاه رغم الحصار: "ستنتهي الحرب ويأتي مقاولون وتجار خردة يفوزون بكل نتائجها" كنت أعرف من سياسة السادات أن ذلك سيتم. جاءت حرب أكتوبر مرة أخرى في روايتي القصيرة "قناديل البحر" فبطلها الذي كان مقاتلًا في حرب أكتوبر يذهب في التسعينيات لقضاء أسبوع مع أسرته على شاطئ العريش، فيذكره الطريق وكل شيء بالحرب والآمال التي ضاعت، بل وكيف تغير العالم نفسه فضاعت دول مثل العراق والاتحاد السوفييتي وغيرها. كل أحلام القومية أو الأممية ضاعت في العالم.

لكن بعيدًا عن حرب أكتوبر مباشرة فمثلي مثل بقية الكتاب، أعمالي عن أرض لم تكن هي الجنة الموعودة بعد الحرب. لكن لا بأس من شيء من الذكريات. في الخامس من أكتوبر كنت قادمًا من الإسكندرية لأسجل قصة في البرنامج الثاني – البرنامج الثقافي فيما بعد – وذهبت إلى حلوان لأبيت عند صديق من الإسكندرية. كعادتي لم أنم مبكرًا. قبل الفجر بقليل سمعت أصوات هادرة في الشارع، فخرجت إلى البلكونة لأرى رتلًا طويلًا من الدبابات، فقلت لنفسي مندهشًا هي الحرب بكرة واللا إيه؟ دخلت نمت لأصحو في حوالي الحادية عشرة، وأخذت طريقي من حلوان إلى الإذاعة المصرية. سجلت القصة وقابلت المذيعين كمال ممدوح حمدي وشوقي فهيم، رحمه الله، وغيرهما، وبعد تسجيل القصة ظللت جالسًا معهما، لكن في الساعة الثانية دخل موظف يطلب انصراف غير العاملين بالإذاعة. لماذا؟ لقد قامت الحرب وعبر الجيش القناة. كان الخبر مذهلًا ورائعًا، وعلى الفور تركت المكان مسرعًا إلى مقهى ريش أتابع الأخبار. وجدت نجيب سرور ومعه سليمان فياض وفاروق عبد القادر والتليفزيون الصغير للمقهى خلفهم في ناحية يبث الأخبار. جلست معهم أنا الذي كنت أعتبر نفسي تلميذًا لهم، فسألني فاروق عبد القادر عما أريد أن أشرب. كنت صائمًا فاليوم هو العاشر من رمضان. اعتذرت فهب في نجيب سرور أن أشرب، فلقد عبر الجيش وعلينا أن نحتفل. كنت أضحك وقال لي سليمان فياض اليوم رخصة للإفطار
يا إبراهيم. الحقيقة كان هذا كله هزار لكني ضعفت وشربت معهم.

ورحنا نتابع العبور في فرح عظيم. في المساء قابلت كمال مدوح حمدي في دار الأدباء حيث كان اجتماع الأدباء مع يوسف السباعي لإصدار بيان تأييد للحرب وأخذني معه إلى بيته في شارع الهرم. كان ذلك يحدث كثيرًا حين آتي من الإسكندرية. لكمال ممدوح حمدي الكاتب والمترجم عن اليونانية والمذيع قدرات غير عادية في الكهرباء، ولا أعرف كيف استطاع أن يضبط الراديو على محطة أجنبية تأتي بصوت المعارك في سيناء، وتركه معي في الغرفة التي سأنام فيها في بيته. ظللت طول الليل تقريبًا أتابع المعارك، بل أسمع أصوات الجنود أحيانًا. تابعت ما جرى بعد ذلك بعد أن عدت إلى الإسكندرية. حتى بعد الثغرة لم أيأس. ظلت الحرب أعظم ما رأيت في التاريخ الحديث، بعد أن رأيت أسوأه في هزيمة 1967.

ورغم حوار كل عام على الميديا الذي ازدادت فيه مساحة من يشككون في الحرب نفسها، خاصة مع التدهور الذي جرى في البلاد، إلا إني أحب أن أتذكرها بفخر رغم أني لم أكن مقاتلًا. أعرف عظمتها والخفي فيها وكيف توقفت في اليوم التاسع من أكتوبر حتى اليوم الرابع عشر، فكانت الفرصة كبيرة لإسرائيل أن تنفرد بسوريا التي كانت قد تقدمت في الجولان فعاد الجيش السوري إلى الخلف. صارت إسرائيل تحارب على جبهة واحدة بعد أن بدأت الحرب على جبهتين. في الوقت نفسه كانت أمريكا تنقل أعدادًا هائلة من الطائرات الحربية والدبابات إلى إسرائيل، وإلى مطار مدينة العريش التي كانت لا تزال تحت قبضة إسرائيل. انتهت إسرائيل من الجبهة السورية والتفتت إلى مصر التي صارت وحدها. والتي حين أرادت أن تتقدم أكثر، خسر الجيش الثاني في أول معركة مائة وخمسين دبابة أو أكثر، وأصيب قائد الجيش الثاني سعد مأمون بأزمة قلبية. لا أنسى ذلك. أذاعت الإذاعة المصرية أول بيان مضلل أننا نحن الذين دمرنا مائتي دبابة لإسرائيل، وقرأت بعد ذلك كيف هاتف إسحاق رابين جولدا مائير معلقًا: "لقد عاد المصريون كما كانوا وعدنا كما كنا " يقصد البيانات المضللة في حرب 1967.

لا أنسى ليلة أن خطب السادات معلقًا على الثغرة التي نجح في عبورها أريل شارون بين الجيشين الثاني والثالث المصريين ووصل إلى مدينة السويس، وكيف أنها ثغرة تافهة مثل معركة "أردين" في فرنسا، التي حاول أن ينفذ منها الجيش الألماني ليلتف على جيوش الحلفاء بعد أن نجحوا في طرد الألمان من باريس. لا أنسى أن التليفزيون أذاع ليلتها فيلمًا عن تلك المعركة، فرأيت الآلاف من الضحايا من الألمان والحلفاء، وتساءلت كيف يقول السادات ذلك. لقد تشاءمت تلك الليلة. لكني عشت كل ما جرى من مفاوضات بعد التوقف عن الحرب، لم نكن نحن اليساريين والناصريين مع السادات، وكيف انتهى الأمر إلى معاهدة كامب ديفيد. حتى الإخوان المسلمون الذين فتح لهم أبواب الحياة لم يعترفوا بكامب ديفيد وقتلوه. لكنها كانت أيامًا عظيمة رغم كل شيء.

لقد اختارت القيادات في مصر وسوريا شهر أكتوبر أكثر الشهور مناسبة من ناحية المناخ للحرب، اختاروا يوم السبت السادس من أكتوبر - العاشر من رمضان- ليكون يوم الهجوم فهو يوم عيد الغفران اليهودي، وفيه تتوقف الإذاعة والتليفزيون الإسرائيلي عن البث، كما أن شهر أكتوبر من ذلك العام كان الإسرائيليون منشغلين بالانتخابات البرلمانية. ستبدأ الحرب فتكون إسرائيل في حاجة لوقت أطول لاستدعاء الجنود الاحتياطي الذين يشكلون العدد الأكبر من جيشها. وخطة الخداع التي قامت بها مصر قبل الحرب بأيام، تجلت في تحركات الجيش وإجازات بعض رجاله بشكل يوحي إنه لا توجد نية لشيء. لكن في الساعة الثانية ظهرًا عبرت مائتا طائرة مصرية القناة على ارتفاعات منخفضة لتفادي رادارات الجيش الإسرائيلي، وضربت المطارات ومراكز القيادة ومحطات الرادار والإعاقة الإلكترونية وبطاريات الدفاع الجوي الإسرائيلي، وتجمعات الأفراد والمدرعات والدبابات والنقاط الحصينة في خط بارليف، ومخازن الذخيرة ومصافي البترول.

بعد عبور الطائرات المصرية بخمس دقائق، بدأت المدفعية المصرية قصف التحصينات والأهداف الإسرائيلية الواقعة شرق القناة بشكل مكثف تحضيرًا لعبور المشاة، وكانت عناصر سلاح المهندسين والصاعقة قد تسللت إلى الشاطئ الشرقي للقناة لإغلاق الأنابيب التي تنقل سائل النابالم

المشتعل إلى سطح القناة، واستمرت المدفعية في الضرب على مواقع خط بارليف وخلفه لتأمين عبور المشاة.

بدأ تذويب خط بارليف بمضخات المياه لتنفتح بينه خمس ثغرات، والجسور التي تتحرك عليها عربات الجنود والدبابات فوق القنال، ومشاهد الأسرى من الإسرائيليين، والمعارك التي لم يستسلم فيها المصريون حتى بعد الثغرة التي نفذ منها الإسرائيليون. المقاومة العظيمة في مدينة السويس.. النهار والليل والأمل والعالم الذي اتسع.

مشاهد العبور. مشهد الجندي أول من رفع ذراعيه والعلم في إحداها. لا أنسى بسمة الجندي وفرحته تملأ الدنيا حوله. أتذكر القادة مثل الفريق أحمد إسماعيل والفريق سعد الشاذلي واللواء عبد الغني الجمسي وقائد القوات البحرية اللواء فؤاد ذكري وحسني مبارك قائد القوات الجوية واللواء محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي ومحمد أبو غزالة وعبد المنعم واصل وأحمد بدوي وفؤاد عزيز غالي والشهيد أحمد حمدي مهندس كباري العبور الذي استشهد على أحد الكباري في الرابع عشر من أكتوبر، والشهيد إبراهيم الرفاعي قائد قوات الصاعقة الذي استشهد في التاسع عشر من أكتوبر، واللواء باقي زكي يوسف الذي اكتشف مسألة تذويب الثغرات في خط بارليف بالمياه. شخصيات مثل اللواء عادل سليمان الذي التقيت به مرة في أحد البرامج التليفزيونية، وكان مناصرًا لثورة يناير ومن مؤيدي عودة الجيش إلى ثكناته، وصرت أراه أحيانًا على تويتر، حتى توفي العام الماضي، وأحسست بسوء الحظ لأني لم أقترب منه كثيرًا.. لقد ابتعدت عن التليفزيونات والبرامج. كثيرون غيرهم يمكن أن أتذكرهم من أبناء الوطن العظماء. الوطن الذي انقطعت فيه السرقات من البلاد طوال مدة الحرب، وكيف جاء عيد الفطر فلم يصنع المصريون الكعك الذي اعتادوا عليه، لأن الحصار للجيش الثالث موجود.

من بين كل الأغاني الجميلة التي ظهرت مع الحرب، تظل أغنية لا تذاع كثيرًا للأسف هي الأجمل بالنسبة لي. أغنية راحة فين ياعروسة راحة أجيب سكر. بصوت شادية الجميل:

رايحة فين ياعروسة يا أم توب أخضر

رايحة أجيب الورد وأجيب سكر

تعملي إيه ياعروسة بالسكر

أعمل شربات ورد مكرر

وأصبه في دوارق فضة

وبإيدي أوزعه ع الحتة

إلى آخر الأغنية. أتذكر أن كل معارضي الرئيس السادات الذين خرجوا في مظاهرات كبيرة قبل الحرب مطالبين بها وعرفتهم السجون، كانوا على قلب رجل واحد أثناء الحرب. هكذا وحدت القضية الوطنية بين الجميع حتى انتهت الحرب وبدأت سياسة السادات التي أشرت إليها في بداية المقال، والتي عادت بالفرقة بين الناس. لقد احتفل كل المعارضين للسادات بالحرب، لكنه للأسف بعد النصر، ذهب بالبلاد إلى مكان آخر. ليس في السياسة فقط، لكن في الاقتصاد والاجتماع والثقافة والمكان والزمان.

"أخبار الأدب 2021"

ذات يوم في القدس

كتاب صغير للدكتورة سحر حمودة أستاذة الأدب في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية التي سبق لها أن أصدرت من قبل كتابًا عن الأمير عمر طوسون أمير الإسكندرية. والعضو النشط في الثقافة بالإسكندرية سواء بوضعها كمدير مساعد لمنظمة أليكس ميد "الإسكندرية البحر المتوسط " أو كمستشار في مكتبة الإسكندرية والتي أيضًا لها كثير من الأبحاث والدراسات في الأدب باللغة الإنجليزية. كتاب صغير وشديد الإمتاع والتأثير عنوانه "ذات يوم في القدس" ONCE UPON A TIME IN JERUSALIM يحكي قصة عائلة الفتياني العريقة عائلة الكاتبة منذ المنشأ إلى الخروج الكبير من فلسطين.

من خلال حكاية العائلة تستعيد الدكتورة سحر حمودة التاريخ الذي يكاد ينسى للأرض والبلاد من خلال بيت العائلة وما جرى للبيت "الدار" بما يحمله هذا المعنى من سكينة ومحبة واستقرار. الكتاب ليس تاريخًا علميًّا ولا هو رواية لكنه سيرة أرض وبشر، مكان وناس. ما يمكن أن تحمله السيرة من علم ومعلومات وخيال تحكيه أم الكاتبة السيدة "هند الفتياني" التي ستعرف كيف وصلت إلى ما وصلت إليه من علم وثقافة من خلال الكتاب. الدكتورة سحر
لا تكتفي بحكايات الأم التي يمتزج فيها الواقع بالروح الإنسانية للبشر في تجلياتها الواقعية والخيالية، لكن تدخل سحر حمودة بعد كل مقطع تحكيه الأم للتعليق بالتوثيق للحقائق، بحيث يبدو الكتاب مزيجًا من العلم والأدب. سيرة من نوع خاص تعطيها الأم سِحر الوجود الروحي وتعطيها الابنة قوة الوجود المادي، فهو إذن كتاب بقدر ما تستمتع وتحزن بقدر ما تتيقن أن ذلك جرى بالفعل، ولكن ذات مرة في القدس، وليس في العنوان إقرار بضياع الأرض بقدر ما فيه من قدرة على الاسترجاع من أول وهلة ثم باليقين من الحكي والتعليق.

المقدمة: كتب هذا الكتاب بواسطة ناس عديدين كما كانت دار الفتياني تضم ناسًا عديدين، فالمنزل كان هو الوطن. هكذا تفتتح الكاتبة مقدمتها للكتاب ولكن هذا لا يعني أنهم حكوا لها جميعًا، التي حكت هي الأم وقليل غيرها، ولكن الذي صنع الحكايات هم أهل الدار. تقول الكاتبة: حكايات أمي عن المنزل في القدس العتيقة كانت دائمًا جزءًا مكملًا لحياتي. كانت الحكايات التي لا تمل من تكرارها عن هذا المنزل هي الزاد الذي أمد خيالي وهكذا رغم انفصالي عن الدار نموت.. أحبها لأني دائمًا أراها في عينيها وأحس بها في شعورها.

لقد قررت أن أكتب هذا الكتاب وأنا أقوم بالتدريس في بيروت ما بين عامي1996-2000 كان هناك العديد من الطلاب الفلسطينيين لكنهم لا يعرفون من أي قرى أتوا ولا يعرفون شيئًا عن آبائهم وأجدادهم يعرفون فقط حاضرهم اللبناني، على العكس مني أنا التي تعيش فلسطين في كل زاوية من عقلها وبيتها. لذلك قررت أن أسجل قصص أمي آملة أن أشجع الآخرين على ذلك ليمسكوا بماضيهم ولا تضيع تواريخ عائلاتهم. أنفقت وقتًا طويلًا في المكتبات ومحلات الكتب أستجمع المادة التي أريدها لأني أعرف أن كتابي هذا ليس كتابًا تاريخيًّا ولا سياسيًّا عن فلسطين لكنه وثيقة اجتماعية عن أسرة عاشت هناك قبل النكبة عام 1948 لقد حاولت استكشاف الأسماء والتواريخ والتفاصيل التي بها أملأ فجوات حكايات أمي، ونجحت أيضًا في إثرائها بحكايات وذكريات من

أعضاء آخرين للعائلة من الذين سكنوا المنزل أو انتموا إليه بطريقة أو بأخرى، ومن ثم فأنا ممتنة لهم جميعًا لابتهاجهم بهذا المشروع كما ابتهجت أنا خلال السنوات العشر الماضية، كذلك أنا ممتنة لهم ولما أمدوني به من ذكريات وصور. إن الكتاب ملك لنا جميعًا، عائلة الفتياني، وهو محكي في صوتين، أمي الصوت الرئيسي وأنا أعلق عليها بحروف مائلة في الكتاب طبعًا ليعرف القارئ حديث الأم من حديث الكاتبة _ أو أقدم المعلومات الإضافية..

إنني واثقة من المعلومات التي جمعتها من خزانتي أو من الآخرين من عائلة الفتياني كما أنني فضلت في حكاية واحدة فقط الفن على الواقع فمثلًا بعد أن كتبت أن عمي عبد السلام كان مولعًا بالساعات والمنبهات عرفت أنه جدي الذي كان مفتونًا بذلك ورغم ذلك وجدت أن الفقرة تقرأ أفضل هكذا، وأن التاريخ لن يضيع بهذه التفصيلة الصغيرة لأني أعرف أن جدي وعمي اللذين لم أقابلهما أبدًا سيغفران لي هذا التجاوز البسيط لأن نيتي الوحيدة أن أكون صادقة مع روح المكان الذي أحباه بشغف والذي فيه أنفق الاثنان لحظاتهما الأخيرة على الأرض. هل عليّ أن أعتذر لأن الكتاب صغير؟ الكتاب مائة وثلاثون صفحة، لماذا؟ لقد مات عمي عبد السلام صغيرًا ولا أحد اعتذر عن حياته القصيرة. وحياة عائلتي في البيت والوطن قطعت وصارت قليلة ولا أحد اعتذر عن ذلك أيضًا ومن ثم؛ لا أعتذر عن صغر حجم الكتاب، فالمهم أن الكتاب يعيد بناء المنزل في فخر كما كان عبر الأربعمائة عام الماضية.

1- بيت القدس دار الفتياني..

"كل العائلات السعيدة متشابهة لكن العائلة التعيسة تكون تعاستها من نوع خاص".. بهذا المدخل الذي هو مفتتح رواية "أنا كارنينا" لتولستوي تفتتح الدكتورة سحر حمودة الكتاب مندهشة من كون أمها كانت سعيدة في طفولتها رغم قسوة الاحتلال البريطاني والحياة تحت الاحتلال، لكنها دار الفتياني التي جعلت من هذه الأسرة سعيدة. "الدار" التي يحمل اسمها المبنى والمعنى معًا، وتبدأ حكايات الأم التي ستعلق عليها. تصف الأم الدار اتساعها وتفاصيلها المعمارية وتُجملها في النهاية بجملة أنها كانت في الماضي مدرسة دينية وفيها مسجدان تحولا إلى غرف، وهكذا تعود أفراد العائلة مثلًا الإشارة إلى غرفة المعيشة بالجامع، وكل الغرف تطل على حرم المسجد الأقصى بما فيها غرفة المعيشة هذه التي تسمى بالجامع. الصلاة في الدار مثل الصلاة في المسجد أو تحت قبة الصخرة لأن الموجود في الدار يرى من البوابة المصلين في المسجد.

لقد دخل صلاح الدين إلى القدس عام 583 هجرية 1187 ميلادية ووزع المهام والأعمال على العائلات المقيمة في دور حول المسجد الأقصى وبواباته وخص عائلة الأم بالفتوى والجد بدور المفتي الذي كان له القوة الروحية الكبيرة والمركز الكبير في الأرض المقدسة. وأعاد صلاح الدين أسماء العائلات وفقًا لمهامها الجديدة، ومن هنا جاء لقب الفتياني للعائلة – من الفتوى - كما لحق لقب السقا بالعائلة المسئولة عن المياه مثلًا، وهكذا صارت الدار تلقب بدار الفتياني، لكن العائلات كالإمبراطوريات تزدهر مقدمة لبعض الوقت المتعلمين والقديسين والأنبياء والقادة والمحاربين ثم تضمحل، وهكذا بدأت عائلة الفتياني مع نهاية القرن التاسع عشر في الاضمحلال، فأنجبت الإناث أكثر من الذكور فذهبت الفتوى إلى دار الحسيني المتصدرة من الحاج أمين الحسيني المفتي والقائد السياسي العظيم ومنها عبد القادر الحسيني بطل المقاومة الشهيد في ثورة 1936 والذي أنجب

أيضًا ابنه فيصل الحسيني. لماذا اختار صلاح الدين عائلتهم للفتوى؟ لاشتهارها بالورع والتدين ولأنهم ينحدرون من نسل الحسن بن علي ابن أبي طالب الذين قدموا من الحجاز في زمن قديم، أجل ذلك على الأرجح سبب اختيار صلاح الدين للعائلة للفتوى، عائلة تنحدر من نسل الرسول وتعيش تقريبًا داخل الحرم الشريف للمسجد الأقصى فهي العائلة المؤهلة لذلك. وبعد حديث الأم تبدأ الدكتورة سحر حمودة في وصف تفصيلي ومعماري للمكان والدار وعلاقة الدار بالدور الأخرى، وتحقق ذلك بالرجوع إلى الكتب التاريخية فتقول: إن الكتب تؤكد أن الدار كانت مدرسة تسمى المدرسة العثمانية، وتقع على شمال الخارج من الحرم من "باب المتوضئ "وهي واحدة من بوابات الحائط الغربي للحرم. وعلى باب المدرسة نقشت هذه النقوش "باسم الله الرحمن الرحيم بنيت هذه المدرسة المباركة بأمر من السيدة الفاضلة أصفهان شاه خاتون المعروفة بالهانم ابنة المرحوم الأمير محمد العثماني... " إلخ.

إن التاريخ المنقوش على بوابة الدار - المدرسة. هو 480 هجرية -1437 ميلادية وهو عام وفاة السيدة شاه خاتون وهكذا فالعام يفسر مئذنة المنزل وكل المآذن حول الحرم التي تعود إلى العصر المملوكي الذي بنيت فيه كثير من المدارس، وفي الحقيقة، إن المنزل لم يكن مدرسة واحدة بل مدرستين متجاورتين، الثانية منهما كانت المدرسة السلطانية أو المدرسة الأشرفية كما كانت تسمى أيضًا، ولقد بنيت الثانية عام 885 هجرية – 1480 ميلادية بواسطة السلطان قايتباي الذي عرف أيضًا بالسلطان الأشرف، ومن هنا جاء الاسمان. وهكذا تستمر سحر حمودة في التأصيل التاريخي والإنساني للمكان.

ونعود إلى الأم فتقول: إن دارنا كانت أكثر عزلة من الدور المحيطة بالحرم، ففي الوقت الذي تؤدي فيه كل دار إلى ناحية ما أو سوق ما كانت دارنا تؤدي إلى الحرم عن طريق باب المتوضئ، ومن ثم فبعد صلاة العشاء كان باب الدار يغلق مع بقية أبواب الحرم فكأننا نعيش في فناء مقدس، وفي الصباح الباكر يعايش أهل الدار الملائكة البيض اللامعين الذين نراهم في كل صباح. وتحكي الأم أيضًا قصصًا عن الجنيات اللاتي كن يخاوين أهل الدار ومنهم واحدة رآها الناس المزدحمون حول المئذنة، وكانت امرأة ذات شعر طويل وعينين واسعتين أسموها جنية عبد الحميد الفتياني والد الأم وجد الكاتبة الذي لم تره.

كان الزوار لا ينقطعون عن الدار لأن أحد واجبات عائلة الفتياني كانت العناية بالحجاج الأفارقة والأفغان والكرد القادمين للأماكن المقدسة، وكان بعضهم رجال مقاومة في بلادهم أو سياسيين منفيين فكان طبيعيًّا أن يرحب بهم من العائلة التي فقدت ثلاثمائة شهيد في الحروب الصليبية كان منهم الطباطبائي والسامرائي من العراق والثعلبي من تونس، وهو الزعيم المقاوم الذي اعتاد أن يقضي الليل في الدار ومحمد صادق المجددي من أفغانستان. وتتذكر الأم من الثعلبي التونسي سمنته وكانت تفكر دائمًا كيف يستطيع صعود السلم الضيق ليصل إلى السطح ليطل على الصخرة المقدسة. كان إيجاد مقعد أو سرير مناسب له مشكلة وكانت هناك صورة له في حجرة الضيوف مع عبد الخالق الطوريس المنفى من المغرب والذي أصبح أول سفير للمغرب في مصر فيما بعد كما أصبح محمد صادق المجددي أول سفير لأفغانستان في مصر أيضًا، ولقد كان يأتي إلى القدس دائمًا في العشر الأواخر من شهر رمضان ليعتكف العبادة.

كان للحرم القدسي اثنتا عشرة غرفة مخصصة لسكن هؤلاء القادمين إليه من الأئمة والشيوخ والدارسين والمدرسين وغيرهم وكانت عائلة الفتياني تمتلك واحدة منها وفيها كان المجددي يقضي خلوته الرمضانية حتى مات، كان هناك أيضًا زائر أفغاني هو الحاج عبد الحميد الأفغاني تاجر السجاد الذي كان يعيش في يافا، ويأتي كل يوم جمعة للصلاة في الأقصى ويجلس لدينا يشرب الشاي ثم يعود إلى يافا في اليوم نفسه، وإذا تغير الطقس يبيت لدينا في الدار، كذلك زار الدار أمير شرق الأردن الملك عبد الله فيما بعد ونزلت على الدار زوجته وحاشيتها طوال زيارتها للقدس. كانت دار الفتياني منزلًا للضيافة والكرم حتى تشتتت العائلات المقدسية عام النكبة.

2- حياة العائلة:

بعد الحديث المستفيض عن الدار وتاريخها الذي نقلت إليك شيئًا منه تنتقل الكاتبة في الفصل الثاني للحديث عن الحياة العائلية في الدار فتقول الأم: كان الآخرون يختارون الخروج من المدينة القديمة إلى مناطق أكثر عصرية في المدينة الجديدة خارج الأسوار لكن عبد الحميد الفتياني آخر بطارقة الدار أو آخر أربابها ظل حيث كان أجداده. لقد ولد في بيت الأسلاف وولدت قبله أجيال كثيرة، وهنا سيموت.لقد كان الناسك المنحدر من عائلة مقدسة ولأنه ولد وفلسطين جزء من الإمبراطورية العثمانية أخذته السلطات العثمانية إلى إسطنبول ليدرس الهندسة ويعود فتوكل له مهمة إضاءة الشوارع بالكهرباء بدلًا من الزيت والقناديل فاعتمد على بطاريات من صنعه. أيضًا تعلم القرآن والحديث وكانت مكتبة العائلة غنية بالكتب والمخطوطات التي حفلت بها على مر الأجيال. أحب عبد الحميد الفتياني الفلك فبنى شيئًا كالمرصد أعلى الدار منه يمكن التنبؤ بالمستقبل. وكنت أنا - الأم يعني صاحبة الحكاية- أساعده أحيانًا في الإحصاء والرصد قبل أن يتنبأ بموت ابنه الأصغر عبد السلام بكثير وكان يحب الكيمياء على قواعد ابن سينا حتى أعد دواء لمرض السكر كان يسميه دواء السكرة.

كان هناك فرعان لعائلة الفتياني - تقول الأم، أحدهما يحمل الذكور فيه أسماء أحمد ومحمد ومرسي وحسن ومهدي، والفرع الثاني يحمل أسماء عبد الحميد وعبد الرحمن وعبد الرازق وطاهر، ونحن ننتمي للفرع الثاني، واسم أبي بالكامل عبد الحميد عبد الرازق عبد الرحمن الفتياني. أبوه كان جابي الضرائب في الفترة العثمانية، وكان مسئولًا عن قرى القسطل وعين كارم وسطاف. عام 1931 كان سكان - سطاف 383 نسمة ليس بينهم يهودي واحد. لقد هاجمها الإسرائيليون وسقطت عام 1948 وطرد منها أهلها. لقد تزوج الجد عبد الرازق جابي الضرائب ثماني نساء من سطاف، فلاحات طويلات جميلات كثيرات منهن لهن عيون زرقاء ويمكن تخيله كجابي ضرائب، وربما قُدمت له النساء بدلًا من الضرائب. لقد مُنعت نساء عبد الرازق وأطفالهن من الدار لأنهن لسن مقدسيات حتى موت عبد الرازق وابنه عبد الحميد فيما بعد فسمح طاهر عبد الحميد للأطفال بزيارة الدار. لم يكن عبد الحميد مزواجًا كأبيه. تزوج من مفتية نور الدين التي كانت رقيقة جدًّا تأكل القطة عشاءها حقيقة فلا تنهرها. وتعلق سحر حمودة بسرعة أن من هنا أتت رقتك اللامتناهية - تقصد الأم صاحبة الحكايات - ومن جدتي جاء حبي للحيوانات وخاصة القطط. لم يسبق لي رؤية جدي قبل كتابة هذا الكتاب وكنت أتخيله دائمًا كرجل يحكم البيت بقبضة حديدية، ولكن قبل صدور

الكتاب بأسابيع جاءني أحد أبناء الخال بهدية عظيمة هي صورة جدي عبد الحميد الفتياني "صورة سيدي" كما يقولون في فلسطين عن الجد.

زواج عبد الحميد الفتياني بمفتية نور الدين أثمر ولدين وأربع فتيات وكان لعبد الحميد ثلاث فتيات أخريات من زوجته الثانية فاطمة سعودية. هذا اسمها وكانت امرأة قوية حتى إنها عرفت باسم عائلة أمها "أبو السعود" بدلًا من عائلة أبيها لكن أصبحت المرأتان صديقتين رغم اختلافهما الشديد. هكذا تحكي الأم لسحر وتواصل الحكي.

ذات مرة تأهب عبد الحميد للخروج وما إن خرج حتى قالت فاطمة سعودية لمفتية سأذهب لزيارة أقاربي، هل تريدين الذهاب معي؟ ارتعبت مفتية وقالت: كيف نخرج بلا إذن منه؟ قالت سعودية: لن يكتشف الأمر سنعود قبله "جرت مفتية التي تأكل القطة عشاءها وخرجت مع ضرتها بسرعة قبل أن يشلها الخوف. لماذا حقًّا تظل حبيسة الجدران طوال حياتها؟ لماذا لا تستنشق هواءً نقيًّا؟ لكن عند العودة كانت البوابة مغلقة. لقد عاد الزوج عبد الحميد بسرعة قبلهما ولم يفتح لهما البوابة وظلتا حتى الصباح الباكر متكومتين أمام البوابة مخفيتين وجهيهما بغطاء رأسيهما حتى سمح لهما بالدخول.

وتعلق الدكتورة سحر حمودة : كانت الحياة في القدس محافظة لكن كانت هناك أيضًا من تطلقن لرغباتهن العنان، كانت هناك أيضًا قصص حب بين الجيران وقصص خيانة وغيرها.

وتعود الأم لتحكي كيف كان أبوها عبد الحميد يأتي متأخرًا في المساء فلا يراه أحد، نراه أمامنا فجأة، هكذا تقول. وقيل إنه تزوج فاطمة سعودية بأعمال السحر، وبعد أن أنجبت بناتها الثلاث توقف عن دخول حجرتها وسار طاهر ابن مفتية وأخو الأم التي تحكي وخال الدكتورة سحر فيما بعد هو الذي يعتني بهن، علاقة عبد الحميد بهند أثمرت بي. تقول الأم هند فتياني، وكنت أصغر أطفاله. سموني "الفاضلة" لأني كنت ضئيلة جدًّا قياسًا لإخوتي، وقالوا لي أني لم أولد مثل بقية الأبناء لكن وجدني "جاوا" وراء الباب، وجاوا رجل صيني قصير جدًّا يقضي كل وقته تقريبًا قريبًا من مئذنتنا. لماذا تجمدت العلاقة بين أبي وفاطمة سعودية؟ يقولون دائمًا إن السحر ينقلب على الساحر وهي التي سحرت له حتى يتزوجها في البداية.

أختي غير الشقيقة خديجة كانت الأقرب لي في العمر. أكبر مني بتسعة أشهر فقط. فكنا نلعب معًا وكانت هناك وسائل كثيرة للتسلية في البيت وأمام بوابة الدار المؤدية لفناء الحرم، وكنا نلعب بفناء الحرم كله، ونستمتع بأشعته واتساعه وأركانه المبهجة ونجري على السلالم الواسعة لساحة قبة الصخرة يقابلنا باب السلسلة الذي كما تنطقها "السنسنة "، وكان يلعب معنا بنات لأبي سعيد هداية وبنات المفتي الحاج أمين الحسيني.

وتعلق الدكتورة سحر حمودة: كمثل دار الفتياني كان منزل الحاج أمين الحسيني المفتي الكبير لفلسطين. كان في البداية مدرسة تسمى المدرسة التانكازية، بنيت عام 729 هجرية 1329 ميلادية في العصر المملوكي وكانت مدرسة عظيمة وسكن فيها السلطان فرج بن برقوق وفي عهد قايتباي صارت مكان الأحكام والقوانين ومحكمة في العصر العثماني حتى صارت منزل الحاج

أمين الحسيني خلال الاحتلال البريطاني. كل البيوت القديمة حول سور الحرم كانت منازل للعلم قبل أن تصبح بيوتًا للعائلات الكبيرة في القدس. ونعود إلى الأم التي تحكي: كنت أخاف أبي وأرتعب من كل شخص في الدار وكانت لخالتي ضرة أمي - فاطمة سعودية عادة غريبة هي تدخين السجائر، فكان لديها دخان وورق بفرة وتلف السجائر مع الصباح وتدخنها بلذة كبيرة. وذات مرة أخذتني خديجة ابنتها ورفيقتي في اللعب إلى غرفة أمها فاطمة وجعلنا نلف السجائر ولما لم نعرف ماذا نفعل بها ألقيناها على الأرض، اكتشفتها أمها فاطمة سعودية التي عاقبت ابنتها بسرعة ثم ربطتني يدين مع قدمين وعلقتني بالباب ليراني أبي ويتصرف معي. وهكذا بقيت معلقة لساعات ولم تستطع أمي التي تأكل القطة عشاءها أن تفكني، لكنه طاهر أخي هو الذي ما إن رآني حتى نهر أمي وضرتها فاطمة سعودية وأنزلني - هو الذي أنقذني من عالم الكبار الظالم. كان لأمي مفتية أختان أكبر؛ الأولى هي أم موسى، وكانت حين تزورنا تجعل حياتي بائسة إذ تعبث في أشيائي، ولما تزوجت من حسيني أي من العائلات النبيلة صارت ملكية أكثر من الملك، وازداد إزعاجها لي حين زيارتنا، بينما كانت الأخت الكبرى لأمي أم فتح الله هي ملاكي الحارس، كانت قديسة المظهر والسلوك، ملابسها دائمًا بيضاء بغطاء رأسها تذكرني بالراهبات والشموع. أحببت هذه السيدة الرقيقة التي كانت مثل أختها الأصغر أمي في رقتها وكان لأبي أعمال وواجبات تفرض عليه لقيمته العلمية والاجتماعية فمثلًا حين صدئت النجمة النحاسية في فناء كنيسة المهد في بيت لحم عهد إليه بتغييرها ولم يعهد بذلك لمسيحي ولم يكن ذلك غريبًا في القدس فمثلًا كانت مفاتيح كنيسة القيامة منذ عهد صلاح الدين مع عائلتين مسلمتين، دار نسيبة ودار جويدة.

حين ولادتي كانت النساء قد تناقصت في البيت. فأختي الكبرى حنيفة تزوجت وصارت أم علي بينما أختي الأكبر الأخرى فاطمة تزوجت بدورها وصارت أم أدهم. الأولى تزوجت من مصباح الدجاني والثانية من شكيب الحسيني، كانت أم علي تغطي شعرها بطريقة لا تتغير فتشبك شعرها خلف أذنها اليمنى بغطاء رأسها بدبوس أعلى وأسفل الأذن. بعد ذلك بسنوات ونحن في القاهرة ذهبنا نبحث عنها في معسكرات اللاجئين ووجدناها وأطفالها ودبوس الشعر تحت أذنها اليمنى، لقد فكرت إنه ربما هو نفس الدبوس القديم لا يصدأ ولا يضيع أبدًا، غادرت أم علي بعد زواجها إلى يافا مع زوجها وهي أقصى غربة للمرأة المقدسية التي إذا خرجت فقط إلى خارج القدس القديمة تعتبر نفسها في غربة.

وتعلق سحر حمودة: ماذا عن الفلسطينيين الآن وتجربة العيش خارج فلسطين كلها وليس مجرد القدس.

3- البريطانيون في القدس:

كان الوجود الإنجليزي يسمى بالانتداب، ولكنه في الحقيقة كان احتلالًا كاملًا، في كل ركن من القدس كنت تجد الجنود الإنجليز في كل زقاق ويحتلون المراكز والأعمال الحكومية ويدخلون بيوتنا ويخترقون كل الأماكن الخاصة وحيث يوجد النساء. كان أبي يقضي كل وقته بين معمله ومرصده أعلى البيت ولا يزعجه أي شيء، وأثناء الثورة الفلسطينية الكبيرة في الثلاثينيات حاصروا كل فلسطين والقدس خاصة ومعهم عصابات الصهيونية، الهاجناة وشتيرن. حاصروا القدس ستة أشهر ولم يهمهم ما إذا كنا نأكل أو يموت من يموت ويمرض من يمرض وفي أحد

الأيام وأبي يراقب من التليسكوب يحاول أن يكتشف مواقع الجنود وأعدادهم جاء طلق ناري حطم التليسكوب وأصاب أبي الذي قفز إلى الخلف في ذراعه، وأتذكر أنني كنت جالسة مرة في فناء البيت مستندة بظهري إلى الحائط فإذا بالرصاص يصيب أواني الورد المعلقة فوقي على الجدران ويرشق في الحائط، وسقط طمي كثير عليّ من الأواني لكني تعودت على الإنجليز ورصاصهم ولم أخفهم كما كنت أخاف مثلًا من ابن عمي الشاب الصغير الذي أدمن العقاقير، وكنت أتمنى حين أعود إلى المنزل ألا أجده، كان يخيفني أكثر من الإنجليز.

كان أخي عبد السلام موظفًا في هيئة المياه ومغرمًا بالساعات والمنبهات عادة ما يكون في محل ساعات، وكل من أراد ساعة ذهب لعبد السلام، كان يحب المشي في القدس مع أخيه الأكبر طاهر أو صديقه تاج الدين هداية. كان جميلًا معروفًا في القدس كلها كيوسف الصديق لجماله. أجل حدث مرة في القدس أن عاش شاب جميل إلى درجة لا تصدق. خارج القدس كان عرينه أشجار الزيتون والنوم على التلال والأماكن المفتوحة. كان هذا عبد السلام الآخر الصياد والرحالة الذي زاده البندقية والرصاص. كان مقاتلًا وعمله السري قتل المتعاونين مع الإنجليز.

لقد ظهر مرة في المساء في الدار ومعه رأس خائن. كان الجنود البريطانيون يبحثون عنه ولا يتركوننا نعيش في سلام لكنهم قبضوا عليه في الغابات وحوكم وسجن إلا أنه نجح في الهروب من السجن مع زميلين، وجاء إلى القدس في زي النساء، ملاءة ونقاب، أنا الذي فتحت له الباب، وحين رأيته حدثني قلبي أنه
عبد السلام وليس امرأة ثم غادر إلى دمشق صباح اليوم التالي، وتعلق الدكتورة سحر: حكت لي هيام ابنة خالتي أم علي الأصغر من أمي بسنوات قليلة كيف تذكر أنها في يافا كانت ذات يوم جوار النافذة فرأت عبد السلام ملتفًّا بالملاءة وأخبرها مبتسمًا بنفسه وارتاح قليلًا لديهم ثم واصل رحلته التي انتهت إلى مصر كما تقول الأم، حيث التحق بالأزهر ومنع من ممارسة أي نشاط سياسي.

كان هناك أيضًا وقت للمرح رغم الاحتلال، وكنا نؤمن إن الإنجليز سيرحلون كما رحل من قبل الصليبيون والرومان واليونان وستعود الحياة كما كانت. وكانت لدينا أعياد كثيرة أهمها الاحتفال بسيدنا موسى، وفي ذلك الوقت يحج الناس من فلسطين إلى القدس والحرم القدسي - يرقص الرجال الدبكة ومن كل نوع حسب القرى التي أتوا منها والذين لا يرقصون يتفرجون على الرقص ويغنون ويصفقون وعلى نفس الأهمية كان يوم الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من رجب الاحتفال بصعود النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة من قبة الصخرة التي لا تزال عليها آثار قدميه.

لم نكن نقوم برحلات صيفية كما يفعل الآخرون لكنا مرة أخذنا الأب
عبد الحميد جميعًا لنرى العالم الذي كان القاهرة، وكانت رحلة عمرنا. كانت هناك مدارس أجنبية في القدس أهمها مدرسة سان جورج البريطانية لكن لكراهية الاستعمار لم يرسلنا أهلنا إلى هذه المدارس - أبي أرسل طاهر إلى مدرسة الفرير الفرنسية بعدها سافر طاهر إلى السعودية للحج وبعدها سمي الحاج طاهر. كان عمره تسع عشرة سنة ولقد شجعني طاهر على القراءة وتابعني في

كل مراحل التعليم ولم أكن لأتعلم لولا وفاة أبي وأنا صغيرة فهربت من مصير أخواتي الأكبر مني اللائي زوجهن أبي بسرعة ولم يتعلمن جيدًا.

لقد أنهيت دراستي بسرعة وذهبت أكملها في بيروت. لقد كانت عيشة أختي "نوارة الدار" هي التي لم تتعلم لأنها تحب الدار أكثر من أي شيء آخر حتى إنها قاومت الزواج كي لا تترك الدار، لكنها انتزعت من دارها الدافئة إلى بيت زوجها في المدينة الجديدة التي كانت بيوتها سكنًا للموظفين الإنجليز وسكنت في الدور الأسفل بينما كانت في الدار من سكان الدور الأعلى. ورغم جمال البيت الجديد إلا أنها افتقدت الحوائط الحجرية والنوافذ العالية والجيران. افتقدت نفسها..وتعلق الدكتورة سحر: في عام 1948 استولى الصهيونيون على هذا البيت الجديد، لم يتم بيعه كما قالت الدعاية التي شاعت في العالم - الفلسطينيون لم يبيعوا أرضهم ولا بيوتهم، لقد تم احتلال بيت خالتي "نوارة الدار وبعد عام 1967 حين استطعت الذهاب ذهبت ورأيته، كانت به عائلات صهيونية من المهاجرين وفي كل غرفة أسرة وينامون على أسرة خالتي ويشربون الشاي في فناجينها.
لا شيء تغير غير السكان..

4- النكبة:

سبقت النكبة معاناة وبؤس كثير. أخي الجميل عبد السلام أصيب بروماتيزم في القلب من أثر أيام السجن القديمة والمعاناة وجاءنا مريضًا. أمي حلمت ذات ليلة إن أبي الذي كان قد مات جاء إلى الدار وسحب وسادة من فوق السرير الذي كان مخصصًا لعبد السلام، فأدركت أن الأب سيأخذ الابن عنده وأن عبد السلام سيموت ثم حلمت حلمًا آخر يؤكد حلمها السابق أن النور انقطع عن الغرفة وأظلمت. ألم يكن عبد السلام نور بيتنا؟ ألا يعني هذا أنه سيموت؟ مات في السادسة والعشرين من عمره ففقدت أمي صوتها والقدرة على تحريك أطرافها. ما أحزنها أنه لم يمت والبندقية في يده، لم يمت شهيدًا. بكته كل أورشليم الشاب الجميل الذي لم يعطه الوقت الفرصة للزواج.

كانت هذه مواجهتي الأولى والحقيقية للموت. لقد مات أبي العام السابق، مات في الثمانين من عمره ومرض قبلها لبعض الوقت، وكان دائمًا بعيدًا عني، كان رمزًا للخوف، أكثر مما هو رمز للحماية والرقة وكانت جنازته رهيبة. لم يكن عبد السلام كثيرًا في البيت كان غالبًا في المنفى، ورغم ذلك كان قريبًا مني. صار عمي أبو سعيد مثل كبير العائلة بعد موت أبي وكان ابن عمي أبو سعيد تاج الدين هداية أعز أصدقاء عبد السلام - الاثنان لم ينفصلا، كانا يضحكان معًا ويحلمان معًا ويخططان معًا وحين كان على أحدهما أن يغادر فلسطين كان الأمر بالنسبة لعبد السلام أن يفر بروحه من السجن وكان خروج تاج الدين ليدرس الهندسة بالجامعة الأمريكية بإستانبول، كانا يتراسلان بالخطابات والصور وحين تخرج تاج الدين عام 1937 سافر عبد السلام إلى إستانبول ليكون معه وقت نجاحه، الآن فصل بينهما الموت، بنى تاج الدين لعبد السلام مقبرة بيضاء خارج مقابرنا أملًا للحماية أن يعطيه السلام الذي لم يشهده في حياته.

حاول أخي طاهر أن يجمع شتات حياته، لقد فقد أباه وأخاه في عام واحد تقريبًا. الأب مات عام 1943 والأخ عام 1944، طاهر أيضًا منع من النشاط السياسي ومن ثم فكر في الصحافة والنشر

مع ابن عمنا وأخينا في الرضاعة موسى الحسيني الذي دخل اسمه التاريخ كمخطط مؤامرة اغتيال الملك
عبد الله ملك الأردن بعد صلاة الجمعة في جامع عمر يوم 20 يوليو 1951. في ذلك اليوم اقترب الملك عبد الله من البوابة ومعه ابنه حسين وفجأة انفجر شاب من بين الزحام وأطلق النار على الملك فمات. قتل البوليس الشاب بسرعة وقبض بعد ذلك على المخططين جميعًا وشنق واحدًا منهم فقط، كان اسمه موسى الحسيني. حين انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين وتركت للمواجهة بين الصهاينة والعرب كانت نهاية أحلام موسى الحسيني وأخي طاهر. ماذا تعني الصحافة والنشر إذا كانت الأرض قد ضاعت. لقد أتى الكونت برنادوت مبعوث الأمم المتحدة إلى فلسطين واختار موسى الحسيني كمنسق بين الأمم المتحدة في فلسطين والملك عبد الله في الأردن وعملا معًا برنادوت وموسى من أجل أن تكون القدس مدينة عالمية يحكمها موسى.

وتعود بنا الأم هند الفتياني لتحكي سنوات تعليمها في الجامعة الأمريكية في بيروت واشتداد الصراع في فلسطين، وكيف كان عام تخرجها هو عام النكبة وعمليات القتل الجماعي والترحيل الجبري للفلسطينيين في الوقت الذي كانت هي فيه تعاني عدم القدرة على دفع المصروفات في السنة النهائية وكيف ساعدها الأصدقاء السوريون الذين ذهبوا إلى رئيس الوزراء رياض الصلح وحكوا له قصتها فدفع مصروفاتها من جيبه الخاص وكيف تطورت الأحوال في فلسطين وشارك أخوها طاهر في العمل السياسي ونفي من البلاد، واستقر في مصر يعمل من أجل فلسطين. استطاعت هي في النهاية أن تحصل على فيزا لدخول مصر.

وتخصص الكاتبة الفصل الخامس والأخير للحياة في الشتات وتحكيه كله بصوتها هي وتحكي حياة أمها في عملها في مركز اليونسكو التابع للأمم المتحدة في قرية سرس الليان بالمنوفية وكيف قابلت هناك والدها عبد المحسن حمودة الذي يعمل في نفس المركز. كانت الأم في نهاية العشرينيات من عمرها وترفض الزواج إلا أنها قابلت شخصًا وسيمًا ورث وسامته من أمه التركية وأخذ الوضوح والصراحة وروح الفكاهة من مدينته الإسكندرية حيث ولد ويعيش. لقد تزوجت الأم من السكندري الوسيم وأنجبت منه الدكتورة سحر حمودة وأخاها أيمن حمودة الذي يعيش في أستراليا الآن وتعود الأم في آخر الكتاب لتقول: "في عام 2000 قابلت ابنتي – سحر - أصغر أبناء أخي طاهر "لولو" وفي ذلك العام سافرت لولو إلى القدس في الصيف وزارت الدار القديمة وقالت إن أبي ليس مدفونًا في القاهرة تقصد أباها طاهر أنه مدفون هنا وأنني أقسم على ذلك، وليس هذا غريبًا فعظام طاهر ربما لا تزال في مقبرته في القاهرة لكن روحه لابد طارت إلى الوطن حيث سنذهب نحن جميعًا بالتأكيد.

" أخبار الأدب "

قرن من الحروب

كتاب أطلس "تاريخ القرن العشرين"

Atlas of 20th Century History

للمؤرخ، وخبير الخرائط الإنجليزي، ريتشارد ناتكيل، Richard Natkiel يتناول جانب الحرب في القرن العشرين. يبدأ بحرب البوير، وينتهي بحرب الخليج الأولى. وهو كتاب أهوال ينتهي المرء منه فلا يصدق أن الإنسانية أفلتت وعاشت. وسوف نختار منه عددًا من أبرز المعارك والحروب التي ساهمت في تشكيل الحياة البشرية على كوكب الأرض في قرننا هذا.

كان العالم بسيطًا مع بداية القرن العشرين. ثلاث إمبراطوريات كبيرة، الألمانية والنمساوية المجرية، والروسية، تسيطر على أوربا شرقي نهر الراين، وثلاث أخرى تسيطر على العالم خارج أوربا هي البريطانية والفرنسية والعثمانية.

كان ممكنًا للعالم أن يمضي هادئًا لولا الإحساس العدائي المتبادل وتحلل الإمبراطورية العثمانية وانتقال ممتلكاتها إلى إنجلترا وفرنسا..

كانت هناك أيضًا القوميات البلقانية، الصرب والبلغار والرومان واليونان التي صارت دولًا بعد طرد الأتراك العثمانيين، بينما كان ينظر إلى التشيك والكروات والإيرلنديين باعتبارهم شيئًا مخترعًا لا بد له من الثورة باستمرار ليقدم الدليل على وجوده، كما شهد العالم منذ بداية القرن عدة حروب صغيرة بدا واضحًا منها كيف سيكون شكل هذا القرن.

كانت حرب البوير Boer في جنوب أفريقيا أولى هذه الحروب التي انتهت بانتصار الإنجليز على البوير - الناطقين بالألمانية - وعلى السكان الأصليين الذين تحالفوا مع البوير. كذلك ازداد النفوذ الأوربي في الصين التي كانت مركز جذب كبير منذ منتصف القرن التاسع عشر لإنجلترا وفرنسا وألمانيا، ودخلت اليابان وروسيا في صراع على منشوريا وكوريا فاشتعلت الحرب بينهما بهجوم مفاجئ لليابان، ببوارجها الحربية، على القوات الروسية المتمركزة بميناء آرثر بمنشوريا.

هجوم أشبه بالتمرين على معركة بيرل هاربور التي ستفاجئ بها اليابان أيضًا الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب الثانية، كان هذا الهجوم الياباني على الروس عام 1904، واندلعت في روسيا الثورة عام 1905، فأعطت اليابان الفرصة أكبر للتوسع في الصين على حساب الروس، في الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة قد تخلصت من النفوذ الإسباني في البحر الكاريبي وصارت دول أمريكا اللاتينية، نيكاراجوا، المكسيك، هاييتي، الدومينيكان، بنما، كوبا، بمنزلة الفناء الخلفي للولايات المتحدة. كذلك اندلعت الحرب التركية الإيطالية 1917 بعد غزو إيطاليا لليبيا في العام السابق، وفي عام 1912 أيضًا اتحدت الدول البلغارية الثلاث، بلغاريا وصربيا واليونان على حرب تركيا وطردها من بقية البلقان، واستولت اليونان على ميناء سالونيك، كما استولت مع صربيا على معظم مقدونيا، وهكذا قبل أن تنتهي حربهم مع تركيا قامت حرب أخرى بينهم بسبب

إدراك البلغار أن صربيا واليونان ستقسمان مقدونيا على حسابها، وكانت النمسا قبل ذلك قد استولت عام 1908 على البوسنة التي كانت خاضعة لتركيا، وبهذا بدا أنه لا نهاية للحروب في البلقان ودوله التي كانت تنقسم في ولائها بين الإمبراطوريتين العظميين، الإمبراطورية المجرية النمساوية والإمبراطورية الروسية.

لكن كان على الناحية الأخرى من الحروب، معاهدات وتحالفات سياسية مستقرة. التحالف الأول كان بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا على تبادل الدعم في حالة تعرض أي منها لهجوم من فرنسا.

التحالف الثاني كان بين فرنسا وإنجلترا وروسيا. كذلك كان هناك اتفاق قديم بين اليابان وإنجلترا يضمن للأخيرة حماية مصالحها في الشرق الأقصى.

لذلك، ووفقًا للتناقضات العسكرية السابقة، والتحالفات السياسية الموازية لها، حدث أنه حين أعلنت النمسا الحرب على "صربيا" قامت روسيا بدورها التاريخي لمناصرة الصرب - السلاف مثل الروس - فأعلنت الحرب على النمسا، وعلى الفور أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في جانب النمسا فأعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا في جانب روسيا ودخلت إنجلترا الحرب لمناصرة فرنسا وبالتالي دخلتها اليابان لمناصرة إنجلترا. وهكذا اشتعلت الحرب العالمية الأولى.

معركة السوم:

هي أكبر معارك الحرب الأولى: ولقد كان التحالف بين روسيا فرنسا قبل الحرب من الأمور التي شغلت الفكر العسكري الألماني، وبصدد هذا التحالف وضع القائد العام للجيش ألفريد فون شليفن خطة عرفت بـ (خطة شليفن)
عام 1905.

كانت هذه الخطة تقوم على سرعة مهاجمة فرنسا من الشمال والجنوب ومن داخل بلجيكا لتجاوز الجيوش الفرنسية، ومن ثم تطويقها، ثم الانتقال بسرعة إلى باريس قبل أن يستطيع الروس نقل قواتهم شرقًا إلى الحدود الألمانية. وبعد الوصول إلى باريس يتم نقل الجيوش إلى الغرب لمواجهة الروس. لكن في عام 1914 كانت الظروف قد تغيرت بحيث صار في مقدور الروس نقل قواتهم إلى الغرب بسرعة. ورغم ذلك تم تطبيق هذه الخطة ولم تنجح. هجمت ألمانيا على فرنسا في الثالث من أغسطس 1914 ودخلت جيوشها الأراضي الفرنسية لكنها هزمت في موقعة المارن ولم تصل جيوشها إلى باريس ولم تتحرك بسرعة إلى روسيا.

في عام 1916 كانت الحرب قد اتسع نطاقها. وخططت القيادة الإنجليزية الفرنسية لهجوم كبير من الصيف. وكانت القوات الإنجليزية المشاركة مع الفرنسيين قد امتدت في الجبهة الغربية إلى جنوب نهر السوم Somme.

كان على الفرنسيين المشاركة بثماني فرق تهاجم على جبهة تمتد لثمانية أميال، بينما يهاجم الإنجليز بأربع عشرة فرقة على جبهة تمتد ثمانية عشر ميلًا بالإضافة إلى ثماني فرق احتياطية.

لقد تم التمهيد للمعركة بضرب مدفعي متواصل لمدة أسبوع، أطلقت فيه أكثر من مليون قذيفة على الخنادق الألمانية، وحين توقف القذف المدفعي خرج الجنود من خنادقهم يهاجمون الجنود الألمان الذين كانوا قد خرجوا من خنادقهم أيضًا. لقد تم استقبال الصف الأول من المهاجمين الإنجليز بالبنادق والمدافع، وكذلك الصف الثاني، وفي نهاية اليوم الأول كان هناك عشرون ألف قتيل إنجليزي وأربعة آلاف جريح وتم الاستيلاء على أجزاء من خطوط الدفاع الألمانية، وكان الفرنسيون على جبهتهم قد أحرزوا تقدمًا أفضل لأنهم أخذوا الألمان على غرة، وبعد ذلك عاد القتال بالمدفعية حتى نوفمبر، وفي سبتمبر استخدمت الدبابات لأول مرة وبأعداد قليلة لكنها لم تتقدم كثيرًا لبطئها، وانتهت المعركة بعد أن تكبدت القوات الإنجليزية والفرنسية ستمائة ألف قتيل وتكبدت القوات الألمانية أيضًا خسائر فادحة، لكن خسارة الألمان الكبيرة بحق كانت في ضباطهم مما خرب الجيش الألماني وأضعفه بعد ذلك.

ولقد دخلت تركيا الحرب في أكتوبر عام 1914 إلى جانب ألمانيا. تركيا
لا تنسى دعم إنجلترا وفرنسا للبلقان ولا استيلاءها على كثير من البلاد الخاضعة للنفوذ العثماني في الشرق. وقامت إنجلترا بهجوم بحري على تركيا في فبراير 1915 عند جاليبولي، لكن هذا الهجوم الذي استمر عامًا تقريبًا انتهى بالانسحاب في يناير 1916. لذلك فالمعارك الحقيقية بين الإنجليز والأتراك لم تكن هناك في تركيا، إنما هنا في الشرق الأوسط. إنها المعارك التي ستؤثر بعد ذلك في قيام الثورات العربية، والتي أيضًا ستأتي بالاحتلال في شكل الانتداب أو الوصاية على هذه الممتلكات العثمانية، أي الدول العربية. وكانت حملة ما بين النهرين أبرز المعارك. ففي نوفمبر عام 1914 عسكرت قوات إنجليزية هندية على رأس الخليج العربي وفي نيتها الزحف شمالًا عبر وادي الرافدين. ونجحت الحملة في البداية بأكثر مما هو متوقع لها، فقد استولت على البصرة ثم القرنة لتأمين البصرة ثم العمارة والناصرية والكوت Kut.

وكان من الضروري بعد ذلك التقدم للاستيلاء على بغداد والانطلاق منها شمالًا لتهديد تركيا ذاتها في الأناضول، أو التقدم إلى سوريا وفلسطين. كما كانت بغداد هي نهاية خط سكة حديد الشرق (برلين - بغداد) ذي الأثر الأسطوري الدال على نفوذ الألمان بالشرق الأوسط. لكن القوات الإنجليزية وهي تقترب من بغداد كانت قد طالت خطوط إمداداتها، وأحس الجنود المدربون على المناخ الهندي بالتعب في الوقت الذي كان فيه بإمكان الأتراك استدعاء التعزيزات.

وفي الثاني عشر من نوفمبر عام 1915، أي بعد عام من بداية الحملة، وقد صار الإنجليز على بعد أربعة وعشرين ميلًا من بغداد، عجزوا عن اختراق خط الدفاع التركي، بل وشن الأتراك هجومًا مضادًّا حمل الإنجليز على الانسحاب حتى دفاعات الكوت في الجنوب من جديد، بل حاصرتهم القوات التركية فاستسلموا والقوات الهندية. لم يكن قد تبقى من الإنجليز غير ألفين وستة آلاف من الهنود. كان الروس قد تقدموا في إيران حتى كيرمنشاه ولم يستطيعوا الالتقاء بالإنجليز بسبب فيضان نهري دجلة والفرات مما هيأ الفرصة لانتصار الأتراك الساحق في الكوت. لكنه كان انتصارًا مؤقتًا لأن الروس تقدموا مرة أخرى من القوقاز هذه المرة، وفي مناخ أفضل فاستولوا على مدينة إرز يروم Erzerum، وكانت قد تمت تقوية القوات الإنجليزية على رأس الخليج وفي البصرة فعادت في نهاية عام 1916 تتقدم مرة أخرى إلى الشمال فاستولت على الكوت في فبراير

ثم بغداد وتقدمت إلى الرمادي شمالًا وفي نهاية العام 1917، في أكتوبر بالتحديد، مني الجيش السادس التركي بهزيمة كبيرة في الموصل التي سقطت في يد الإنجليز، في ذلك الوقت كانت الثورة البلشفية قد اندلعت في روسيا فتوقف الهجوم الروسي على تركيا وإيران، لكن هزيمة الأتراك بين الرافدين أثرت في وضعهم في العالم العربي، وبدأ زمن أفول الإمبراطورية العثمانية. وتوالت الحملات الإنجليزية الفرنسية فتم طرد الأتراك من كل العالم العربي الذي وقع تحت الانتداب أو الوصاية الإنجليزية أو الفرنسية.

في تلك الفترة حدثت حرب أخرى مهمة هي الحرب الأهلية الروسية، وأهميتها ليست في انتصار الثوار فقط، ولكن في أن أولئك الثوار أقاموا أول دولة اشتراكية، ووضعوا النظرية الشيوعية موضع التنفيذ. صحيح أن الأمر انتهى الآن إلى زوال، لكن شكل العالم اختلف كثيرًا بعد قيام الاتحاد السوفييتي عنه قبل قيامه.

لقد نجح البلاشفة في القضاء على النظام القيصري في روسيا وفي عام 1917، عام اندلاع الثورة، استولوا على بتروجراد، التي صارت لينينجراد ثم عادت بطرسبورغ أخيرًا، ثم قرروا بعد الاستيلاء على بتروجراد الانسحاب من الحرب العالمية الأولى فأبرموا مع ألمانيا معاهدة "برست - ليتوفسك" في ربيع عام 1918. لقد ضمنت المعاهدة لألمانيا سيطرتها على أوربا الشرقية لكنها جعلت حلفاء روسيا الأول، إنجلترا وفرنسا، أعداء لها. لقد اعتبر الحلفاء القدامى الأمر خيانة كبرى، هذا فضلًا عن اختلاف المبادئ السياسية والاقتصادية بين الدولة الجديدة الشيوعية والحلفاء الرأسماليين. لكن سرعان ما خسر الألمان الحرب وأقيمت دول جديدة في شرق أوربا على حساب أراضي الإمبراطورية الألمانية وتوسعت الدولة البولندية الجديدة على حساب روسيا في الشرق، وصارت فنلندا ودول البلطيق دولًا بعيدة عن النفوذ الروسي، وساعدت الدول المنتصرة الجيش الأبيض الموالي للمناشفة والنظام الروسي القديم فغزت المواني الشمالية لمورمانسك وأرشانجل كذلك موانئ البحر الأسود. لكن الجيش الأحمر بقيادة تروتسكي زحف مسرعًا حتى أبواب وارسو قبل أن يصل إليها الفرنسيون. كذلك ساعد الحلفاء أوكرانيا على الانفصال لكن لم يسعدهم الحظ. وفي ربيع 1920 تمت تمامًا هزيمة قوات التحالف والجيوش البيضاء وأثبت الجيش الأحمر للدولة الجديدة أنه الأقوى دائمًا وثبتت أقدام أول دولة شيوعية في العالم الذي لم يعد ممكنًا أن يعود كما كان.

الحرب التي أشعلت الحرب الثانية:

لقد قيل دائمًا إنه في اليوم الذي انتهت فيه الحرب الأولى بدأت الحرب الثانية. واليوم بعد عشرات ومئات، بل آلاف من الدراسات لم يعد لدى أحد شك في هذا.. لقد ظهرت مع نهاية الحرب (عصبة الأمم) التي صار التفكير فيها خلال الحرب من قبل الإنجليز والأمريكان، وبالذات الرئيس ودرو ويلسون. لقد قامت عصبة الأمم لتمنع وقوع الحرب وتحل المشكلات الدولية بالطرق السلمية، ولم يكن لديها من وسيلة للتأثير على الدول غير سلاح المقاطعة السياسية والاقتصادية لكن هذا السلاح فشل تمامًا فيما بعد. لم يظهر له أي قوة حين هاجمت اليابان منشوريا في الصين أو حين غزت إيطاليا الحبشة، ولم يفلح تمامًا في وقف الحرب الأهلية بإسبانيا، الانتصار المبكر للفاشية، ولا في منع تقسيم إيرلندا، وتقريبًا لم تفلح عصبة الأمم في مواجهة أي مشكلة تأخذ مظهر القتال.

كذلك لم تكن معاهدة فرساي معاهدة صلح حقيقية، لكنها كانت معاهدة فرضت فيها الدول المنتصرة شروطها على ألمانيا المنهزمة فتخلت ألمانيا عن كل مستعمراتها في أفريقيا والمحيط الباسيفيكي وتم تقليل جيشها - إلى الثلث وصار عليها تقديم تعويضات مالية لا حدود لها للمنتصرين كذلك تخلت ألمانيا عن إقليم الإلزاس واللورين لفرنسا وأضيفت لبلجيكا أربعمائة ميل من ألمانيا أيضًا فضلًا عن حق فرنسا في احتلال الضفة الغربية لنهر الراين خمس عشرة سنة واقتطعت أراض أخرى أضيفت لبولندا مع ممر دانزج Danzig لتطل بولندا على البحر، وهو ما عرف بعد ذلك بالممر البولندي Polesh Corridor، وذهبت مدينة ميمير Memer إلى ليتوانيا، وأضيف مائة واثنان وعشرون ميلًا إلى تشيكوسلوفاكيا الدولة الجديدة والتي قامت مع يوغسلافيا والمجر وبولندا على حساب الإمبراطورية النمساوية المجرية، ومنعت معاهدة فرساي أي اتحاد مستقبلي بين ألمانيا والنمسا. وهكذا أهينت ألمانيا أكبر إهانة يمكن أن توجه لمهزوم فلم يتبق لها أي مظهر من مظاهر الكرامة مما تسبب في صعود الشعور القومي كرد فعل عنيف على هذا الإذلال، وهكذا ظهر هتلر والحزب النازي - القومي - في مناخ موات تمامًا فتقدم بسرعة مذهلة ليصل إلى السلطة عام 1933 ليقرر إخراج ألمانيا من عصبة الأمم التي سبق ووافقت على كل إجراءات معاهدة فرساي، وبدأ يعد العدة للانتقام مستقبلًا التناقض الجديد في العالم بين الدول الرأسمالية، والدولة الشيوعية الجديدة، ومستغلًا أيضًا التراخي الذي سيطر على سياسة الدول المتحالفة القديمة بعد الحرب.

لقد بدأ بإعادة احتلال أراضي الراين، وفي عام 1938 ضم النمسا ثم ابتلع تشيكوسلوفاكيا كلها عام 1939 بعد أن كان يدعو فقط لضم إقليم السوديت الذي يضم المتحدثين بالألمانية. لقد تخلت إنجلترا وفرنسا عن تشيكوسلوفاكيا فراح يطالب بالممر البولندي، ولما لم يجد إجابة، هاجم بولندا في أول سبتمبر عام 1939. وهنا لم تستطع إنجلترا ولا فرنسا الوقوف موقف الحياد. أعلنت كل منهما الحرب على ألمانيا وبدأت الحرب العالمية الثانية تأخذ طريقها الجبار. لقد كانت معركة بولندا إعلانًا عن القوة الجبارة لألمانيا حيث سقطت وارسو بعد أسبوع وانهارت المقاومة البولندية بعد يومين مخلفة وراءها خمسة ملايين قتيل من الشعب البولندي. لقد كان أغرب ما في الهجوم على بولندا أن الاتحاد السوفييتي أيضًا، وباتفاق مع ألمانيا، قام بغزو بولندا من جهة الشرق بعد بداية الغزو الألماني، ومن ثم قامت الدولتان بتقسيم بولندا بينهما. وقبل أن ينتهي العام كان الاتحاد السوفييتي قد غزا فنلندا أيضًا في الشمال، واحتل دول البلطيق الثلاث، لاتفيا وأستونيا وليتوانيا، وضم بعض الأراضي الرومانية، وكل ذلك بمباركة ألمانيا التي أجلت نواياها العدوانية ضد الاتحاد السوفييتي لبعض الوقت.

سقوط فرنسا:

صارت الخطوة التالية لهتلر هي النرويج والدانمارك. لقد حققت البحرية الألمانية هنا انتصارات مذهلة، وفشلت القوات المتحالفة، الإنجليزية والفرنسية، في مساعدة النرويج والدانمارك. لقد ظهرت ألمانيا في هذا الغزو وقد امتلكت أكبر بعث عسكري مخيف عرفته البشرية على حد تعبير تشرشل.

كان هتلر قد أجل ضربته الكبرى، أي غزو فرنسا، إلى مايو 1940. لقد انتهى من النرويج والدانمارك وحبس العالم أنفاسه، وفي ألمانيا تم إحياء خطة شليفن مع تعديلات جديدة. أخذت

الخطة الجديدة اسم (ضربة المنجل)، وقامت على فرض أن الهجوم على هولندا وبلجيكا يتم بالمجموعة (B) فيتم سحب الإنجليز والفرنسيين إلى الأمام من مراكزهم على الحدود البلجيكية الفرنسية، وفي الوقت نفسه فإن التقدم الألماني الرئيسي يكون بالمجموعة (A) تقودها الدبابات وتتحرك بسرعة إلى لوكسمبورج عبر قطاع الأردين Ardennes المليء بالغابات إلى نهر الموز Meuse لتعبره ثم تستمر في القتال عازلة الجيوش البلجيكية والهولندية والقوات المتحالفة. ولم يكن الإنجليز والفرنسيون يتوقعون شيئًا من هذا. ففي نظرهم أن قطاع الأردين لا يصلح للحرب لذلك تركوا في مواجهته أضعف قواتهم. لقد كان للحلفاء في هذه المواجهة (149) فرقة مقابل (136) للألمان، وثلاثة آلاف دبابة مقابل ألفين وسبعمائة للألمان لكن لم يكن هناك وجه للمقارنة بين مستوى التدريب والقيادة والتنظيم والتكتيك الذي يحسب للألمان. كذلك كان للألمان التفوق الجوي، ثلاثة آلاف طائرة (لفتواف) عليها طيارون مدربون مقابل (2000) طائرة للحلفاء قد تزيد أثناء القتال بدعم من إنجلترا.

كان التعاون بين الدبابات والطيران أساسيًّا في الخطة الألمانية فكانت القاذفات تلعب دور المدفعية فتمهد بالقصف الطريق للدبابات لتخترق خطوط العدو وتتركها وراءها وهو ما عرف بالحرب الخاطفة Blits krieg التي برع فيها الألمان.

بدأ الهجوم الألماني في العاشر من مايو بهولندا وبلجيكا واخترقوا منطقة الأردين وأقاموا رؤوس جسور على نهر الموز وصدوا هجومًا فرنسيًّا مضادًّا ثم اندفعوا إلى البحر تاركين القوات المتحالفة خلفهم. لم يبق للقوات المتحالفة إلا الانسحاب من دنكرك والموانى القريبة وساعدهم على ذلك توقف الهجوم الألماني بأوامر هتلر لمدة أربعة أيام. لقد قيل إن هتلر كان يفتح الباب للإنجليز للتفاوض إذ يعطيهم فرصة الفرار بحوالي ثلاثمائة وخمسين ألف جندي هم خيرة جنود الإمبراطورية البريطانية. ولقد تم بالفعل نقل هذا العدد الضخم بكل الوسائل البحرية الممكنة، في ظروف قاسية من الفوضى، إلى الساحل الإنجليزي. وبينما كان يتم الانسحاب من دنكرك كان الفرنسيون ينظمون دفاعهم عند منطقة السوم لكن القوات الألمانية اخترقت هذه الدفاعات في الخامس من يونيو وتقدمت ناحية باريس. في السادس عشر من يونيو استقالت حكومة رينو وألف المارشال بيتان الحكومة الجديدة التي وقعت مع ألمانيا معاهدة صلح في الثاني والعشرين من يونيو. وانقسمت فرنسا إلى قسمين، قسم يحتله الألمان، وقسم غير محتل يحكمه بتان من فيشي Vichy لكنه يتعاون أيضًا مع الألمان. وفر الجنرال الشاب ديجول إلى بريطانيا معلنًا نفسه قائدًا لفرنسا الحرة حاملًا معه شرف الأمة الفرنسية.

بيرل هاربور:

لقد جعلت طبيعة الحياة اليابانية للقوة العسكرية الأثر الأكبر في الحياة العادية. وبعد الحرب الأولى كانت أولى تحديات اليابان ظهور البعث القومي الصيني، ثم الحرب في منشوريا عام 1931، وخروج اليابان من عصبة الأمم عام 1933 ثم انفجار الصراع مع الصين عام 1937 مما جعل اليابان تحتل كثيرًا من الموانى الصينية مما أثار قلق الولايات المتحدة التي راحت تعارض التوسع الياباني. بعد ذلك عقدت اليابان مع الاتحاد السوفييتي معاهدة عدم اعتداء واتجهت إلى الجنوب لاحتلال الهند الصينية فشنت إنجلترا وأمريكا عليها حربًا اقتصادية. وعندما قامت الحرب الثانية

عليها ظلت أمريكا على الحياد بعض الوقت، ثم سمحت ببيع السلاح للحلفاء، لكن في الساعة السابعة والخامسة والخمسين في اليوم السابع من ديسمبر عام 1941 هاجمت القاذفات الجوية اليابانية القاعدة الرئيسية للأسطول الأمريكي في "ميناء الدر Bearl Harboarr" بالمحيط الهادي. لقد امتلك اليابانيون زمام المبادرة وأغرقوا للأمريكان خمسة طرادات من ثمانية بالأسطول، وحوالي مائتي طائرة تم تدميرها لكن الغارة فشلت في ضرب حاملات الطائرات الأمريكية التي كانت غائبة عن الميناء كما فشلت في ضرب خزانات الوقود بالميناء. كان ذلك هو (يوم العار) كما أسماه الرئيس روزفلت لكنه أيضًا كان اليوم الذي أقنع الأمريكان بضرورة دخول الحرب.

بعد ذلك انطلقت اليابان تهاجم الممتلكات البريطانية والأمريكية في المحيط الهادي فاحتلت الملايو وسنغافورة في فبراير 1942 في أسوأ كارثة حربية للإنجليز كما قال تشرشل حيث قُتل مائة وأربعون ألف جندي إنجليزي وأسترالي وهندي وعشرات الآلاف من الأسرى ماتوا في معسكرات الاعتقال اليابانية، ثم طرد الجيش الأمريكي من الفلبين وسقطت المستعمرات الهولندية وبورما في يد اليابان. وقامت معارك حربية كبيرة مع الأسطول الأمريكي الذي سجل انتصارات في بحر الكورال وميدواي.

العلمين.. الانتصار الأول..

دخلت إيطاليا الحرب حليفة لألمانيا أثناء غزو فرنسا فاشتعلت الحرب في الصحراء الأفريقية. كانت إيطاليا تحتل ليبيا فانطلقت جيوشها بقيادة جرازياني تحاول احتلال مصر، وبدأت الغارات الجوية الكثيفة على مصر عامة وعلى الإسكندرية بشكل خاص. لكن الإيطاليين فشلوا في مشروعهم، بل وأبيد جيشهم تمامًا.

واحتل الجيش الثامن البريطاني، وجنوده من أستراليا والهند ونيوزيلانده وفرنسا بالإضافة إلى إنجلترا، احتل مساحات كبيرة من ليبيا، وقضى على مستعمرات إيطاليا بالصومال والحبشة فأقيل القائد الإيطالي الشهير جرازياني، وحل محله القائد الألماني إيروين روميل القادم من الجبهة الفرنسية، وصار قائدًا لما عرف بالفيلق الأفريقي Deutsches Afrika أو (Dak) على سبيل الاختصار. في يناير 1942 بدأ روميل هجومه المضاد وفي أقل من ثلاثة أسابيع تراجع الإنجليز أمامه إلى خط الغزالة - بير حكيم وأوقع فيهم كثيرًا من الإصابات.

في مايو كانت ضربة روميل الخاطفة الثانية، وفشل الهجوم المضاد للجيش الثامن الإنجليزي الذي خطط له الجنرال ريتشي Ritchie وتراجع أمام روميل الذي حاصر طبرق وخلفها وراءه متوغلًا في الحدود المصرية فاستسلمت حامية طبرق وبداخلها ثلاثون ألف مقاتل استسلامًا مهينًا. ذاعت أسطورة روميل ثعلب الصحراء، وبدا أنه لا سبيل إلى وقفه. فهو ما يكاد يبدأ المعركة إلا ويكون خلف الخصم في تكتيك رائع من الالتفاف والاختراق.

لم يتوقف روميل وانسحب أمامه الجيش الثامن حتى العلمين حيث عنق الزجاجة بين منخفض القطارة والبحر المتوسط لا يسمح بالمناورة كما أن خطوط روميل كانت قد طالت خلفه. كان قد تم

تغيير الجنرال ريتشي وحل محله الجنرال أوكينليك Auchinleck الذي قام بهجوم ضاغط على الفيلق الأفريقي، وخاصة جناحه الإيطالي وكبده خسائر كبيرة لكن تشرشل قام بتغيير أوكينليك وحل محله الجنرال ألكساندر كقائد عام للشرق الأدنى يساعده مونتوجمري قائدًا للجيش الثامن. كانت مهمة مونتوجمري الأولى هي أن ينهي أسطورة روميل من أذهان الجنود ويرفع روحهم المعنوية ويعودوا للتدريب العنيف. وحاول روميل الهجوم عند (علم حلفا) لكنه ووجه بدفاع إنجليزي قوي مما اضطره للانسحاب في أول سبتمبر. لقد أظهرت (علم حلفا) نقص البترول بالنسبة للألمان فقرروا خوض المعارك القادمة مدافعين بدلًا من أسلوبهم الهجومي الذي كان علامة مسجلة عليهم. وقبل المعركة كان روميل قد سافر إلى ألمانيا للعلاج تاركًا خلفه الجنرال شتومي Shtumme.

وبدأ مونتوجمري هجومه بقصف مدفعي عنيف لفتح ممر بين حقول الألغام تمر منه الفرقة العاشرة لتدمير الدبابات الألمانية على الأرض المفتوحة. وكان لديه معاونة حقيقية من الطيران الملكي الإنجليزي. مات الجنرال شتومي بأزمة قلبية بعد فشل الهجوم الألماني المضاد في اليوم الخامس. عاد روميل فوجد الحال ميئوسًا منه فطلب من هتلر الإذن بالانسحاب. اعترض هتلر لكن في الرابع من نوفمبر ازدادت خسائر الألمان فتحتم الانسحاب الذي استطاع روميل أن يجعله منظمًا. وكانت هذه أول معركة يكسبها الحلفاء، بعدها لم يخسروا معركة كما كانوا قبلًا لم يكسبوا معركة. لقد طارد مونتوجمري الفيلق الأفريقي، في الوقت نفسه نزلت قوات أمريكية بالمغرب وجاءت من الغرب لتطبق عليه، وانتهى الأمر بطرده من أفريقيا تمامًا مما مهد الطريق بعد ذلك للحملة على إيطاليا من الصحراء لتحريرها.

ستالينجراد..

لا يمكن أن تذكر العلمين دون أن تذكر ستالينجراد. فهي الخسارة الكبيرة الثانية للألمان. كانت هناك معاهدة بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي لكنها لم تستمر طويلًا. لم يكن هتلر يكره شيئًا قدر الشيوعية واليهود. في 22 يونيو 1942 بدأ بالهجوم على الاتحاد السوفييتي في خطة عسكرية ضخمة حملت عنوان (باربا روسا) حدد هدفها في تحطيم الجيش الأحمر. لم ينتبه السوفييت لكل التحذيرات التي وصلتهم ففاجأهم الألمان في حرب كاسحة وأطبقوا على الآلاف من الجنود السوفييت. في كييف وحدها استسلم نصف مليون جندي أخذوا سجناء. كان الهجوم على هيئة كماشة. وصل في الشمال إلى لينينجراد فحاصرها بعد أن استولى في طريقه على دول البلطيق، ووصل في الجنوب إلى ستالينجيراد فحاصرها أيضًا، وفي الوسط وقف الألمان على أبواب موسكو في نهاية نوفمبر من نفس العام. وكما حدث أيام نابليون تدخلت العناية الإلهية فانخفضت الحرارة إلى أربعين تحت الصفر.

لم يكن لدى الألمان الثياب الكافية، وتجمدت آلاتهم، الدبابات والطائرات وغيرها، ووصلت التعزيزات السوفيتية من سيبيريا والمساعدات من أمريكا وإنجلترا ووقعت معركة العلمين وما تلاها من مطاردة الألمان في أفريقيا فبدأ السوفييت يلتقطون أنفاسهم ثم شنوا هجومهم المضاد. كان هتلر قد أمر بالاستيلاء على ستالينجراد، المدينة التي تحمل اسم ستالين وملتقى الطرق البرية والنهرية، ومستودع صناعة الدبابات، فحشد الألمان حولها ثلاثمائة ألف جندي وبقيت ناحية لم

يستطع الألمان السيطرة عليها هي ناحية نهر الفولجا الذي عجز الألمان عن عبوره، تقدم الألمان إلى المدينة شبرًا شبرًا واستدرجهم السوفييت إلى حرب الشوارع داخلها ثم شنوا هجومهم المضاد على الجناح الشمالي الغربي الذي يحميه الإيطاليون والرومانيون، والجناح الجنوبي الذي يحميه الرومانيون فقط، وهؤلاء وأولئك كانت روحهم المعنوية منخفضة. نجحت الخطة واخترق الروس الحصار واتصلوا بستالينجراد وصار الألمان المتمركزون غرب ستالينجراد هم المحاصرين فاستسلموا في الثامن من فبراير 1943 بأعداد ضخمة مما كان فضيحة حقيقية للجيش الألماني. بعدها بدأ الزحف الأحمر الكبير نحو ألمانيا..

نورماندي:

مالت الحرب نحو الحلفاء بعد العلمين وستالينجراد. كانت اليابان لا تزال تحقق انتصارات في آسيا، لكن كان رأي تشرشل أن هزيمة ألمانيا أولًا هي التي ستحسن الحرب، أما اليابان، فالتجارب النووية السرية التي تجرى في أمريكا ويشترك فيها علماء من إنجلترا وأمريكا معًا، هذه التجارب ستخرج اليابان من الحرب إلى الأبد. لذلك بدأ التجهيز لعبور المانش والنزول على الساحل الفرنسي. وبدأ ذلك في السادس من مايو 1940 بأكبر عملية إبرار حربي يشترك فيها أسلحة من البر والبحر والجو وثلاثة ملايين جندي. كان القائد العام هو الجنرال أيزنهاور يعاونه جنرالات كبار من أمريكا وإنجلترا مثل باتون ومونتوجمري وبرادلي، وكانت الخطة تقوم على غزو منطقة نورماندي وعزلها عن فرنسا حتى يتم نقل كل القوات المطلوبة ثم بعد ذلك يبدأ تطوير الهجوم لتحرير أوربا ودخول ألمانيا. كان روميل الذي صار قائدًا للقوات الشمالية بفرنسا وهولندا بعد أن ترك ميدان الصحراء، كان يرى أنه من الضروري مهاجمة القوات على الساحل قبل أن تقوم بتطوير هجومها، وكان رونشتاد القائد العام يرى أن الدفاع عن السواحل ليست مهما ويمكن للقوات الألمانية وسط فرنسا أن ترد القوات المهاجمة إلى الساحل مرة أخرى وتكبدها خسائر فادحة. تدخل هتلر فلم يعط روميل فرصة تقوية الدفاعات الساحلية، وأعلن نفسه قائدًا لقوات الاحتياطي في وسط فرنسا. وخلال شهري مايو ويونيو كانت قوات الحلفاء كلها قد انتقلت إلى نورماندي - استطاعت أن تنقل في اليوم الأول فقط مائة وخمسين ألف جندي بمعداتهم - وفي الوقت نفسه بدأ غزو فرنسا من الجنوب. في نهاية يوليو بدأ التقدم من نورماندي، ولم يفلح أي هجوم ألماني مضاد.

كانت قوات الجنرال باتون أيضًا قد نزلت إلى جنوب فرنسا وأخذت طريقها إلى الوسط وهكذا تم حصار القوات الألمانية من كل جانب فقتل منهم عشرات الألوف والتقت قوات نورماندي مع قوات باتون وتقدم الجميع بسرعة إلى السين Seine بينما بدأت المقاومة الفرنسية تحرير باريس. بعد عبور الحلفاء لنهر السين صار تقدمهم سريعًا إلى نهر الراين وتم تحرير بلجيكا ولم يعد شيء يقف في طريقهم إلى ألمانيا ليلتقوا مع الجيش الأحمر الذي كان يكمل زحفه إلى برلين في مايو 1945.

معارك إقليمية:

انتهت الحرب العالمية الثانية بظهور القوتين العظميين، أمريكا والاتحاد السوفييتي. وانتهى عصر الإمبراطوريات القديمة، البريطانية والفرنسية. وحصلت كثير من الدول على استقلالها ابتداء من الصين والهند حتى جنوب أفريقيا أخيرًا - الكتاب يقف عند نهاية الثمانينيات - وخلال هذه المسيرة

كان واضحًا أن زمن الحرب الكونية قد ولى بعد ظهور السلاح النووي وامتلاكه عند أكثر من دولة. أخذ العالم شكل الحرب الباردة بين القوتين العظميين اللتين أخذ قتالهما مظهرًا جديدًا هو الحروب الإقليمية. سواء كانت هذه الحروب من أجل الاستقلال أو لتوسيع النفوذ الشيوعي أو الأمريكي، وشكل الانقلابات العسكرية التي تؤدي أيضًا إلى الحروب الإقليمية. كذلك تركت دول الاستعمار القديم وراءها مناطق نزاع لا تخمد في العالم، إسرائيل في الشرق الأوسط، كشمير في الهند، جنوب أفريقيا في أفريقيا، وهكذا لضمان عدم استقرار هذه الدول الناشئة. بهذا المعنى يمكن تفسير كل المعارك التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية ونختار منها ثلاث معارك لها دلالتها وأهميتها.

معركة الصين:

كما انتهت الحرب الأولى بظهور الاتحاد السوفييتي كأول دولة شيوعية انتهت الحرب الثانية بالحرب الأهلية الصينية لبعث ثاني دولة شيوعية على الأرض. كانت الصين قد ظلت لوقت طويل بلا دولة حقيقية بعد الإطاحة بأسرة مانشو MANCHU عام 1911. قام صراع جديد بين الأمراء الإقطاعيين والحزب القومي، الكومنتياج. وفي عام 1921 تأسس الحزب الشيوعي فدخل حلبة الصراع. تحسن موقف الكومنتياج بزعامة شان كاي شيك وتفوق على الشيوعيين في القوة، وكانوا قد فشلوا في المدن فراحوا يؤسسون الخلايا الشيوعية الجديدة في الريف حسب نظرية زعيمهم ماوتسي تونج حتى إنهم بدأوا منذ عام 1931 الدعاية للجمهورية السوفييتية الصينية! في مقاطعة كيانجسي KIANGSI.

هاجم شان كاي شيك قواعدهم فبدأوا في عام 1934 مغادرة كيانجس فيما عرف باسم المسيرة الطويلة GHE LONG MARSH حيث قطعوا سيرًا على الأقدام ستة آلاف ميل مات خلالها الكثيرون حتى وصلوا إلى بلدة ينان Yenan ، حيث قاعدة ماونسي تونج كاد شان كاي شيك يلاحقهم لكن وقع الغزو الياباني عام 1937 للصين فانشغل شان كاي شيك عنهم وعندما انتهت الحرب الثانية كان الشيوعيون قد كسبوا أنصارًا جددًا وصار لهم جيش قوامه مليون جندي. كانوا ربع قوة الكومنتياج الذي تسلم أمريكا لكنهم كانوا يتمتعون بروح عالية فصاروا في نهاية عام 1947 نصف قوة الكومنتياج ثم تفوقوا عليه حتى إنه في نهاية الحرب الأهلية كان مليونان من جنود الكوفتياج قد انضموا إلى الشيوعيين الذين استولوا أخيرًا على منشوريا عام 1948 وطردوا شان كاي شيك وقواته المتبقية إلى فورموزا (تايوان) وظهرت الصين كثاني دولة شيوعية كبرى في العالم.

ديان بيان فو:

كان أول مظهر من مظاهر قيام الصين الشيوعية هو التأثير الإيجابي على دول الهند الصينية التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي وشجعها على الاستمرار في الثورة. كان الفرنسيون يحتلون فيتنام وكان الحزب القومي بقيادة هوشي منه يطالب بالاستقلال يعاونه قواته من جنود العصابات الذين يقودهم قائد كبير هو جياب GIAP في عام 1950. أعلن هوشي منه نفسه رئيسًا لحكومة فيتنام واعترفت به الصين والاتحاد السوفييتي لكن الولايات المتحدة رأت في ذلك اتساعًا للنفوذ الشيوعي

وكذلك فرنسا، وهاجمت القوات الفرنسية الموجودة بفيتنام قوات جياب الذي استمر في حرب عصابات لا تنتهي منذ عام 1951 حتى عام 1953. في هذا العام غير جياب من خططه وهاجم لاوس مبتعدًا عن القوات الفرنسية في فيتنام ثم عاد وانسحب وظل الفرنسيون هناك ينتظرون هجومه على لاوس مرة ثانية لكنه كان قد اختار قاعدة "ديان بيان فو" للعملية القادمة. وهي قاعدة فرنسية كبيرة شديدة التحصين بها 18000 مدافع من فرنسا والبلاد الخاضعة لنفوذها.

كان لجياب التفوق في المبادأة والأسلحة بما فيها الأسلحة المضادة للطائرات التي تمده بها الصين. لقد دافع الجنود عن القاعدة بشكل رائع حقًّا لكنها سقطت في النهاية معلنة انتهاء النفوذ الفرنسي في الهند الصينية حيث عقد على الفور مؤتمر في جنيف وافق فيه الفرنسيون على تقسيم فيتنام إلى شمالية وجنوبية - وهو ما انتهى أيضًا فيما بعد ما بعد حرب طويلة مع الأمريكان الذين أخذوا مواقع الفرنسيين في فيتنام الجنوبية. وصار "هوشي منه" رئيسًا لفيتنام الشمالية، كذلك حصلت كمبوديا ولاوس على استقلالهما..

حرب أكتوبر 1973:

لم تكن أهمية حرب أكتوبر في أنها آخر الحروب العربية الإسرائيلية، فما زالت الحرب قادمة وإن كانت في أشكال غير نظامية، لكن أهميتها كانت في ظهور العرب بمظهر القوة الكبيرة المتحدة التي يمكن أن يكون لها شأن في العالم. لقد حدث لأول مرة قتال مع إسرائيل على جبهتين في وقت واحد، ولأول مرة تدفقت جيوش عربية على مصر وسوريا للمعاونة في الحرب في الخطوط الأمامية والخلفية. ولأول مرة يدير العرب معركة البترول إدارة علمية مؤثرة على سير المعارك على الجبهة السياسية. في اليوم السادس من أكتوبر عام 1973 حقق الجيشان: المصري والسوري مفاجأة بالنسبة لإسرائيل فعبر المصريون قناة السويس وخسر الإسرائيليون مناطق كبيرة من الجولان وأرسل العراق قوات لمساعدة سوريا وكذلك الأردن وكذلك الكويت والسعودية واستقبلت مصر بعض الطائرات العراقية والأسلحة المغربية والجزائرية مع جنودها في الوقت نفسه لم تتوقف الإمدادات الأمريكية لإسرائيل ولا السوفييتية لمصر وسوريا وأظهر الجيش المصري أنه جيش قتالي كبير وكذلك الجيش السوري. وبرغم الهجوم الإسرائيلي المضاد على الجولان، وعبور القناة من ناحية البحيرات المرة فيما عرف بالثغرة إلا أن الحرب أثبتت لإسرائيل والعالم أنها لا تستطيع أن تظل محتلة للدول العربية.

لقد حفظت إسرائيل وأمريكا الدرس من هذه الحرب، وكان عمل كيسنجر وزير خارجية أمريكا في ذلك الوقت، هو أن يمنع هذا المظهر الجماعي للعرب مرة أخرى. وذلك يفسر لنا حرب لبنان، وحرب الخليج. أما على جبهة البترول فقد نجحت الدول المستوردة في حربها ضد " الأوبك " في تخفيض أسعاره بعد أن وصل إلى أرقام فلكية بعد حرب أكتوبر كانت تكفي لتنمية الأمة العربية وتحضيرها. ساعد على ذلك نظم شمولية عربية جرت العرب إلى حروب
لا طائل وراءها بددت طاقاتها وثرواتها فعملت دون أن تدري بما أراده كيسنجر وأرادته إسرائيل.

"مجلة العربي الكويتية يناير 1996"

صحـة الأمـم..أو..حـرب الـدواء

الصراع الوحشي في سوق الدواء العالمية

تأليف : مـايـك مـولـر

تدور الآن حرب خفية خلف كواليس تجارة الدواء في السوق العالمية، أبطالها شركات الدواء المتعددة الجنسيات، وضحاياها إنسان العالم الثالث. من هنا تأتي خطورة الكتاب الذي قدمه مايك مولر تحت عنوان "صحة الأمم "، وصدر عام 1982 عن دار "فابر آند فابر" الإنجليزية.

The Health of Nations

A North – South Investigation BY Mike Muller

وتقدمه تحت هذا العنوان الذي يعبر عن استقصاء الأمر بين الشمال والجنوب. شمال العالم الغني وجنوبه الفقير. لكنه يكشف عن طبيعة الصراع الوحشي الدائر حول استغلال إنسان العالم الثالث واعتباره حقل تجارب، وبيع السموم له مغلفة تحت أسماء متعددة من الأدوية، ومعاملته معاملة الحيوان، بقصد تحقيق أقصى ربح ممكن من ورائه، فانفتاح دول العالم الثالث على إنتاج الغرب من الأدوية جعل منها سوقًا رائجة حتى للمحرم تداوله عندهم. إن شركات الدواء العالمية، تعمل جاهدة على قتل الصناعات الدوائية الوطنية، ومحاولة تكميم أفواه الشركات الوطنية.وإذا كانت بعض دول العالم الثالث قد حاولت النجاة من هذا الطوق الخانق بتأميم صناعة الدواء فيها، كما حدث في مصر عام 1963، وفي الهند، إلا أن الشركات العالمية حاولت أن تنفذ إلى مستهلكي هذه الدول بطرق أخرى ملتوية.

من أين تبدأ القصة؟ من هذين التصريحين..

"لا نشك أن هناك مصالح متبادلة بين الصناعة الدوائية في العالم الغني وبين العالم الثالث. لكن حتى الآن لم نلاحظ غير الاختلافات".

كان هذا تصريح البروفيسور، سوليانتي مماروسو وزير الصحة الأندونيسي أمام اجتماع قادة صناعة الدواء الذي عقد في طوكيو عام 1978.

"يمنع بيع العقاقير في البلاد التي أنتجتها، أو يتم سحبها من الأسواق لبعض أسباب الأمان وعدم الفاعلية، بينما يصرح بتصديرها وبيعها في الدول النامية، ويشمل ذلك عقاقير انتهى مفعولها. ذلك يعد عملًا غير قانوني فى الأساس، لكنه أيضًا غير أخلاقي "وكان هذا تصريح هالفدان ماهلر، مدير عام منظمة الصحة العالمية عام 1970 وهما يعكسان وجهًا من وجوه الصراع بين الشركات الدوائية والعالم الثالث. الأول يلخص القضية برمتها الثاني يكشف جانبًا منها. ولكن ما هي التفاصيل؟

حكاية كارول:

كارول هو اسم الفتاة التي أهداها المؤلف كتابه. فبينما كان يعمل في موزمبيق، في أحد برامج المياه التابعة للأمم المتحدة، وفي ظهر أحد الأيام طرقت كارول باب مكتبه طالبة منه أن يعيدها إلى بيتها فهي لا ترى جيدًا، وتعاني منذ أسبوع من صداع تحول إلى التهابات في الزور وحمى. أعادها إلى البيت لكنها بالليل عادت وطرقت بابه طالبة أن يذهب بها إلى طبيب أسنان، حيث سقطت أجزاء من لثتها مع فرشة أسنانها أثناء تنظيفها العادي.. بعد ذلك لم تصلح المضادات الحيوية مع كارول. ساء حلقها وتورم وجهها وازدادت الآلام في عروقها، وأثبت تحليل الدم نقصًا شديدًا في كرات الدم البيضاء. نقلت كارول إلى المستشفى في مدينة "بييرا"، ثاني مدن موزمبيق. لم يكن بالمستشفى وسائل تشخيص جيدة، فأُرسلت كارول إلى - جوهانسبرج - بجنوب أفريقيا، حيث عزلت في مستشفى الحميات تحت عناية فريق من الأطباء. لكن كارول لم تتحسن. انتقلت العدوى إلى كل جسمها.

وأظهرت أشعة "إكس"، وجود خراريج في رئتيها، وسقط لحم شفتيها، وظهرت عظام الفك وتساقطت أسنانها. وبعد عناء من فريق الأطباء تساءلوا أيّ دواء تناولته كارول من قبل؟ قالت إنها حين أصابها الصداع ذهبت إلى إحدى الصيدليات المحلية، فنصحوها بتعاطي أقراص شائعة في هذه الحالات تسمى "سبالجين"، وأنها أخذت قرصًا منها. لم يكن ضروريًّا أن تقول كارول أكثر من ذلك، فلقد كان العقار ممنوعًا من التداول في جنوب أفريقيا. ذلك أن "الأميدوبرين" وهو العنصر الفعال في السبالجين، قد ثبت منذ ثمانية وخمسين عامًا أنه يؤدي إلى أعراض جانبية خطيرة. وهو ما حدث لكارول عام 1979.

كيف حدث ذلك؟.. الحقيقة أنه برغم التقارير المختلفة عن "الاميدوبرين"، كعامل مسبب للموت منذ وقت طويل، فإن الشركات التي تنتج أدوية تحتوي عليه، وهي أكثر من عشر شركات في العالم، ترفض الموافقة على هذا. بعضها يقول إنه من بين مائة وعشرين مريضًا يتعاطون الأميدوبرين بانتظام، يعاني واحد فقط من ردود الفعل. والمعروف أنه في عام 1977 انسحبت شركات "سيبا جايجى" و"هوتشست" و"ساندوز" من إنتاج العقاقير التي تحتوي على هذه المادة. لكن في عام 1979 أشار المعجم الطبي لجمهورية الدومنيكان أن منتجات "سيبا جايجي"، التي تحتوي عليه، منتشرة هناك في دول أخرى لأمريكا الوسطى. وفي عام 1980 أشار الفهرست الشهري للتخصصات الطبية لأفريقيا، أن نفس المادة ما تزال موجودة في منتجات الشركات الثلاث، وفي منتجات الشركة البولندية "بولفا". وفي عام 1979 كان واضحًا أن شركة سيبا تبيع عينات حرة من "السبالجين" في عاصمة موزمبيق فأخذت كارول قرصًا منها. لكن ليس السبالجين هو المثال الوحيد. ومن الأمثلة الأخرى ما أثير حول "الكلورام فينيكول" فلقد استخلصته شركة "بارك ديفز" الأمريكية من بعض البكتريا الطبيعية عام 1947 وقامت بتركيبه عام 1949، ثم طرح في الأسواق تحت اسم "الكلورام ميستين"، كمضاد حيوي لبعض الأمراض المعدية كالتيفويد. لكن ظهرت بعض الأعراض الجانبية له، خصوصًا أمراض دم خطيرة وأنيميا حادة، مما جعل الإدارة الأمريكية للغذاء والعقاقير تقرر عدم استعماله إلا في الحالات الحادة وتحت إشراف الطبيب. لكن كان تأثير ذلك ضيقًا فازداد استعماله في أمريكا فعادت نفس الإدارة وحظرت استعماله في فقرة

مطبوعة على الدواء، ورغم ذلك كان المستهلَك منه عام 1967 خمسة وخمسون مليون جرام، وارتفعت نسبة ضحاياه إلى ألفين كل سنة. وعندما انتهت مدة التصريح باستعماله للشركة عام 1966 كانت قد باعت منه أربعين مليون جرام على الأقل في الولايات المتحدة و" 257" مليونًا خارجها. وفيما باعته الشركة للخارج أهملت الإشارة إلى آثاره الجانبية، بل شجعت على استخدامه في أمراض مختلفة، مما أدى إلى ظهور حالات أنيميا دم خطيرة في دول أمريكا اللاتينية. ففي كولومبيا ظهرت خمس وثلاثون حالة ما بين عامي 61 و 1965. وما يزال هذا الدواء يستخدم في أمريكا الوسطى كعلاج لبعض حالات التهابات الزور والأذن.

يقول ميلتون سيلفرمان، وهو صحفي وصيدلي: إنه ليست شركة ديفز وحدها التي تفعل ذلك في أمريكا اللاتينية. بل هناك ثلاث شركات كبرى أخرى تفعل نفس الشيء وتصف الدواء على طريقتين. واحدة للولايات المتحدة والأخرى لأمريكا اللاتينية.. وعن نفس القضية يقول الدكتور. جون. س. يودكين من جامعة دار السلام بتنزانيا أنه اكتشف حالات مماثلة في دول غير أمريكا اللاتينية، بل وإنه حين قارن طبعة المعجم الشهري للتخصصات الطبية الإنجليزية، بالطبعة الموضوعة لأفريقيا، وجد اختلافًا في المعلومات عن الدواء الواحد الذي تنتجه الشركة الواحدة. فبعض المنشطات الممنوعة في الدليل البريطاني، مُصرح بها في الطبعة الأفريقية، لشركات مثل سيبا جايجي، وونثروب، وشيرنج، كعلاج لسوء التغذية وفواتح للشهية ومقويات عامة في مدارس الأطفال. نفس هذه المنشطات مصرح بها في سيريلانكا كما جاء في تقرير مراسل الـ ب.ب. س. عام 1979.

عدم وجود قوانين منظمة لتجارة الدواء:

ما الذي يساعد شركات الدواء الكبرى على أن تفعل ذلك؟ أحد الأسباب الهامة عدم وجود قوانين واضحة من قبل البلاد المستهلكة في هذا الشأن. كثير من البلاد لا تضع قوانين واضحة تنظم تجارة الدواء، أو تضع قوانين محدودة. أو تكون قدرة الشركات متعددة الجنسيات على تجاوز ذلك أكبر، بلاد مثل كندا وجواتيمالا وكولومبيا والمكسيك لا تهتم بما إذا كانت هناك نشرة دوائية مع العبوة أم لا. بل إن المكسيك لا تطلب ذلك إلا لثلاثة أنواع من المضادات الحيوية، وهذا بالطبع يشجع الشركات على أن تروج لمنتجاتها بالطريقة التي تحقق لها أرباحًا طائلة.

وفي عام 1977 جاء في تقرير الاتحاد الدولي لجمعيات الصناعات الدوائية ما معناه، أننا نقدم المعلومات التي يطلبها القانون، وليس علينا مسئوليات أكثر من ذلك، فلماذا التغيير؟! ولكن حتى لو قبلت الشركات في المستقبل تقديم معلومات دقيقة عن الأعراض الجانبية لأدويتها، فهذه حركة تكتيكية محسوبة، إذ ليس للمعلومات الكاملة تأثير كبير على بيع الأدوية. هناك شعور بأن توضيح المعلومات بالتفصيل له تأثير قليل، حيث لا يهتم به أحد. فدواء "الريزوتشين" الذي تصنعه شركة "باير" الألمانية عليه ثلاثة عناوين للاستعمالات، وثلاثة وثلاثون سطرًا عن الأعراض الجانبية بعضها خطير جدًّا، ورغم ذلك فهو من الأدوية الواسعة الاستعمال في أفريقيا وآسيا حيث تنتشر الملاريا. ثم إن شركات الدواء الكبرى تستطيع أن تهرب من أثر القانون، بأن توكل لغيرها من الشركات الأصغر، أن تفعل ما لا تريد هي أن تفعله.

أدوية لها آثار جانبية خطيرة:

إذا كانت الأمثلة السابقة دليلًا على أن كثيرًا من الأدوية ذات الأعراض الجانبية الخطيرة، تتسرب بشكل أو بآخر إلى العالم الثالث، فالوجه الآخر هو الأدوية ذات الأعراض الجانبية الخطيرة والقليلة الفعالية.. فالحقيقة أن أدوية النموذج السابق لها تأثير شديد على الأمراض التي تعالجها أصلًا، وإن تسببت في أمراض أخرى. وهذا الوجه الثاني هو النقد الأساسي الذي يوجه إلى شركات الدواء الكبرى. أي بيع أدوية غير مؤثرة، ومدمرة للصحة في نفس الوقت. يظهر ذلك بوضوح في الأدوية المخصصة لعلاج حالات الإسهال الشديد والنزلات المعوية عند الأطفال. وأشهر الأدوية في هذا المجال كما تقدمه الشركات الكبرى هو "الليموتيل"، الذي تقول عنه أنه يقلل إفرازات المعدة. وهو دواء لا يستخدم إلا بأمر الطبيب. ورغم ذلك يصل بطرق ما إلى السوق السوداء في كثير من بلدان العالم الثالث. ويستخدمه الأطباء باتساع في مستشفيات مانيلا بالفلبين، حيث تقدمه إليهم شركة "سيرل". ويقول د. كولين نوربي أستاذ صحة المجتمع في كلية الطب بجامعة نيروبي: "إن الليموتيل يباع بطول البلاد وعرضها في كينيا بدون تصريح. ولقد رأيت كثيرًا من الأطفال قد تسمموا به. إنه يشل الأمعاء، ويجعل إفرازاتها داخلها مثل بحيرة، ويؤدي إلى الاختناق والموت" والحقيقة أن الليموتيل لا يخفف من إفرازات المعدة كما تقول شركة "سيرل" التي تصنعه، بل يمنع خروج هذه الإفرازات فقط. والحقيقة أيضًا أن شركة سيرل هذه اكتسبت بعض السمعة في الولايات المتحدة على أنها تبيع عقاقير قليلة الفعالية والتأثير.

ولقد تسربت عام 1976 وثائق للصحافة تكشف كيف تعمل هذه الشركة في العالم الثالث. ففي الهند أنفقت خمسة وأربعين ألف دولار لتنظيم مؤتمرات علمية "مستقلة". تقول: إن دورها فيها مجرد تنظيمها!! وفي إيران نظمت زيارة إلى مصانعها لمراكز الصحة الإيرانية التي تطلب منتجاتها. وفي لبنان دعمت مجلة طبية تروج لمنتجاتها. ومع الليموتيل يتساوى دواء اللازكس، الذي يستخدم أصلًا لعلاج ارتفاع ضغط الدم. ولكن لأن له تأثيرًا في طرد المياه الزائدة على الجسم، فقد وُجد له في العالم الثالث استعمال آخر بالنسبة للأطفال الذين يعانون من التورم الناتج من سوء التغذية. يستخدم اللازكس لتقليل هذا التورم فيؤدي إلى الوفاة السريعة. وتبيع هذا الدواء وتروج له في العالم الثالث بشكل غير مباشر شركة "هوتشس" الألمانية. قال أحد رجال الصحة ببنجلاديش في تقرير لمراسل الـ ب. ب. سي. أن وكيل الدواء حاول إقناع صغار الأطباء بأن اللازكس عقار جيد للأطفال المصابين بالانتفاخ والتورم، ولكن حين بدأ الأطفال يتعاطونه فعلًا ويقل تورمهم ماتوا، فقال وكيل الدواء: "حسنًا، كانوا سيموتون بأية طريقة!".

لقد عرفت كثيرًا من الدول خطورة اللازكس والليموتين، والآن ينتشر العلاج عن طريق المحاليل المعطاة للأطفال من مرضى النزلات المعوية عن طريق الفم أو الحقن في الوريد. لقد بدأ الاستعمال الواسع للمحاليل عام 1971 خلال الحرب الهندية الباكستانية وسط معسكرات اللاجئين، وأثبت نجاحًا هائلًا، فانخفضت نسبة الوفيات من 30% إلى 1٪. والآن يشيع استخدام هذا العلاج في الهند وبنجلاديش وإندونيسيا وكوستاريكا والفلبين مما زاد الصراع مع شركات الأدوية، خاصة أن المحاليل سهلة التركيب ويمكن توفيرها من الموارد المحلية. الحقيقة أن سلسلة التضليل لا تقف عند وصف الدواء الواحد لحالة واحدة غير فعال لها أصلًا، علاوة على آثاره الجانبية الخطيرة، بل

كثيرًا ما يُروّج للدواء على أنه فعال في حالات عديدة. فمثلًا "الفينيل بوتازون"، وهو من إنتاج سيبا جايجي، يباع في أمريكا وعليه توضيح صلاحيته لثمانية أمراض، بينما يباع في أمريكا اللاتينية كدواء صالح لعشرين مرضًا مختلفًا وكذلك "الأندوسيد" ، من إنتاج "شارب ودوهم"، يوجه في أمريكا لأربعة أمراض، وفي أمريكا اللاتينية إلى عشرة، وهكذا في كثير من الأدوية.

خبراء السوق والنقد وراء اللعبة:

ينتقل الكتاب إلى مناقشة قضية هامة. فالعالم الثالث سوق كبيرة لأدوية الشركات الكبرى وهو أيضًا موطن واسع لكثير من الأمراض. ودراسة هذه الأمراض تؤدي بالتأكيد إلى اكتشاف أدوية جديدة، لكن الحاصل عكس ذلك. هناك أولويات عند شركات الدواء، والقائمون على تحديد هذه الأولويات ليسوا من محترفي الطب، ولا من رجال الشركات، ولا من نقادها. إنما من خبراء السوق والنقد الذين يقدمون النصائح لوكلائهم عن أين يكسبون وأين يخسرون..

خبير السوق هذا يجد إن مضادات الشركات أكثر رواجًا في اليابان. ليس لأنه أكثر انتشارًا بها، ولكن لأن الأطباء اليابانيين اعتادوا على وصف العقاقير الغالية لمرضاهم، وأدوية السرطان من أكثر الأدوية ارتفاعًا في السعر، لذلك تستهلك اليابان وحدها 50٪ من مجموع المستهلك من مضادات السرطان في العالم يقول كيروشيتا موتو مدير شركة "تاكيدا" أكبر شركات الدواء في اليابان أن نشاط البحث لتنمية مضادات السرطان في اليابان يرتفع كثيرًا وبشكل خاص. وهذه هي الحقيقة البسيطة التي تكمن خلف بحوث شركات الدواء الكبرى.

تقول هذه الشركات أنها تتبنى بحوثًا عديدة عن مشاكل العالم الثالث الصحية، ولقد صرح هازن ريتشارد سون الرئيس الحالي لشركة بارك ديفز الأمريكية، وهي جزء من مجموعة وارنر - لامبرت أن 50٪ من بحوث الشركة موجهة أساسًا إلى أمراض العالم الثالث. ولكن تبقى الحقيقة السابقة، أي احتياجات السوق، هي محرك البحوث، وفي العادة لا تأتي البحوث إلا بتغيير طفيف في الدواء، ولا يحكم مسألة إحلال دواء محل آخر أن الجديد أفضل من القديم. لكن تحكمها قدرة الشركة على الدعاية للصنف الجديد وخلق جو من الصدق حوله. ارتفاع أثمان أدوية السرطان مثلًا يعني قوة مفعولها! لذلك يقول هالفران ماهلر مدير منظمة الصحة: إن العائد النقدي المتوقع هو أحد المحددات للأولويات في جهود البحث العلمي في صناعة الدواء. فتطوير وتسويق دواء غير ضروري لإزالة الأعراض في الحالات الصغيرة قد يأخذ الأولوية، لأنه سيدر عائدًا أكبر من دواء ضروري للأمراض الخطيرة ومؤثر في ملايين الناس على الأقل في العالم الثالث. نفس الموقف تجده عند الشركات الأوربية.

ففي عام 1976 كرست الشركات الأوربية عشرين مليون دولار للبحوث الموجهة لأمراض الدول النامية، بينما بلغ إجمالي إنفاقها على
البحوث 2000 مليون دولار. ومن بين 339 دواء جديد أنتجته هذه الشركات بين
عامي 1937 – 1977 كان للأمراض الطفيلية المدارية الشائعة في البلاد النامية تسعة أدوية جديدة فقط أي 2,7 % بينما كان هناك ثلاثون دواء، أي 8,8% لعلاج الروماتيزم، وأربعة وعشرون دواء أي 7,2% لعلاج الاكتئاب والأعصاب، وتسعة عشر دواء أي 5.9٪ لعلاج

السرطان، وبالطبع تزداد المشكلة صعوبة إذا أدركنا أن معظم هذه المنتجات قليلة التأثير. ففي عام 1980 وجد أنه من بين 1087 دواء فُحصت في الولايات المتحدة بواسطة إدارة الغذاء والدواء كان هناك 2.4% تمثل علاجًا هامًّا، 8.4٪ تعطي نتائج متوسطة، والغالبية كانت ذات تأثير علاجي ضئيل.. ليس تكنيك البحث، أي كيف تستخرج عقاقير جديدة هو القضية، ولكن لماذا؟ يقول مدير منظمة الصحة العالمية: البحوث تحرك مهارة الأدوية الموجودة، لا تحسنها، بل ببساطة تنتج أخرى مشابهة لها. وإذا جاءت الجديدة جيدة فإن إدارة السوق سوف تكون مسرورة بلا شك، ولكن حتى إذا جاءت عكس ذلك، أي مثل الأصلية، فإن الشركة بما لها من قوة بيع تستطيع أن تظل في الأسواق.

وفي تقرير نشره مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية يقول الطبيب الهندي سنجايالال: إن شركات الأدوية العالمية تحقق أرباحًا هائلة من تجارتها مع العالم الثالث، بينما احتياجات الصحة لفقراء العالم مهملة من قبل برامج بحوثها. أما الجمعية الملكية للأدوية المدارية فتقول في أحد تقاريرها تعليقًا على التقدم في اكتشاف علاجات لبعض أمراض الحيوانات: "إن فرصة العالم الثالث أصبحت الآن تعتمد على التقدم في الميادين الأخرى ونقصد ميادين الحيوان فذلك سيساهم في توفير ما يحتاج إليه من عقاقير". وتضيف أن حرب فيتنام أتاحت الفرصة لإجراء بحوث لإنتاج أدوية تزيد فعالية الجنود الأمريكان في هذه المناطق من العالم الثالث، وبلا شك يستفيد سكان هذا العالم الفقير من نتائج هذه البحوث التي حتمتها الحروب.

الربح هدفهم الوحيد:

الربح دائمًا هو الموجه للسياسة الدولية لشركات الدواء الكبرى، وهو الموجه لبحوثها، وهو في النهاية أساس السوق. وفي مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية عام 1975، وقف سنجايا لال يقول: إن شركات الدواء القائدة، تمتلك درجة عالية من قوة السوق، وقوة السوق هذه تكلف الدول النامية كثيرًا، فمن الناحية المباشرة تكلفهم الفوائد المكثفة من عائدات البيع، وتشمل ميزانية الإنفاق على البحوث التي تُحمّل على أسعار الدواء رغم أنها لا تهتم بمشاكل صحة هذه الدول النامية. أما التكلفة الاقتصادية والاجتماعية غير المباشرة، فمنها الترويج لأدوية غير ملائمة وغير مؤثرة، والقمع الناتج من المنافسة المحلية، وخنق البحوث الدوائية المحلية.

الحقيقة إن الصناعة الدوائية ليست الصناعة الوحيدة لكثير من الشركات. فهي أيضًا تعمل في مستحضرات التجميل والصناعات الغذائية. لقد تجاوز إنتاج الدواء في العالم في نهاية السبعينيات خمسين مليارًا من الدولارات استثمرت فيه خمس وعشرون شركة النصف. وليس متوفرًا معلومات أكيدة عن شكل الاستثمار هذا، فالشركات غالبًا ما تقدم معلومات ناقصة، كما أن كثيرًا منها يختفي تحت أسماء شركات أخرى. فمثلًا - جونسون آند جونسون، تمتلك الشركة البلجيكية "جانسين"، والأمريكية " ماكنيل.

ولم تصبح شركات الدواء شركات كبرى في غمضة عين. فبعضها أو كلها بلا استثناء ما عدا الأمريكية، يمتد بجذوره إلى القرن التاسع عشر أو قبله وبدأت نصف هذه الشركات الخمس والعشرون الكبرى عملها في وقت كانت فيه تجارة الدواء قليلة القيمة وخطيرة. ولقد كانت

الصناعات الكيميائية في الأساس في دخول الشركات الأوربية عالم الدوائيات، بينما حصلت الشركات الأمريكية في البداية على امتيازات العمل بهذه الصناعة، ثم اكتسبت المهارات الضرورية مع تقدمها. ازداد نمو هذه الشركات حتى أصبحت اليوم ضمن الشركات متعددة الجنسيات الكبرى في العالم. فهي شأن كل شركة متعددة الجنسيات تملك وتتحكم في منتجات وتسهيلات خارج حدود الدولة الأصلية لها.

بعض هذه الشركات يميل إلى افتتاح فروع جديدة له بالدول النامية، لكن هذا يحدث حين تكون الصناعة في حاجة إلى كثافة عمالية. إن رخص اليد العاملة في العالم الثالث يشجع، لكن الذي يشجع أكثر هو التسهيلات الضرائبية.. كما أن انتشار فروع لهذه الشركات يوفر لها قدرة التحكم في الأسواق، ويؤمن لها تفادي الخطر الناجم عن تركيز الإنتاج في مصنع واحد. وقوة السوق التي تحدث عنها سنجايا لال تنبع أساسًا من التخطيط في هذه الشركات كما يقول هانز جاريز رئيس القسم الدوائي بشركة هوتشست الألمانية: "إن صناعة الدوائيات هي الصناعة التي تعيش على التخطيط. إن ما نخترعه اليوم يمكن أن يباع خلال عشر سنوات أو أكثر. أما بحوث السوق التي تخبرنا فقط عن كيف ينمو السوق حتى اليوم فهي عديمة الفائدة لنا".

وفي بحوث عديدة تبين أن العالم الثالث هو سوق المستقبل لهذه الشركات، فاستهلاك الدواء في أفريقيا سينمو 12 مرة بالنسبة لاستهلاكها عام 1980 ليصل في عام ألفين إلى 13.000 مليون دولار. وفي أمريكا اللاتينية سيصل إلى 55.000 مليون دولار، بينما سينفجر في آسيا بفعل الزيادة السكان الرهيبة. وإذا كان اليوم يشكل 25 %من حجم السوق العالمية ففي تقدير لمنظمة التنمية والتعاون الاقتصادي أنه في عام 2000 سيساهم العالم الثالث بحوالي 40% من سوق الدوائيات في العالم، والقيمة الكبرى للعالم الثالث ليست في كونه سوقًا واسعًا فقط، بل وأيضًا فرصة لإنتاج أكبر لهذه الشركات في بلادها.

ويتلخص أسلوب شركات الدواء في خلق وتقوية أسواقها في الدعاية حيث تنفق الشركات 20 % على الأقل من عائد مبيعاتها لترويج منتجاتها والابتداع.. حيث تستغل الشركات الحديثة من التحسينات المستهدفة وغير الموجودة حقيقة في منتجاتها الجديدة للتشجيع على تبني منتجاتها، والأسماء التجارية حيث يتم الدعاية للعلامة التجارية أكثر من الأسماء العلمية للدواء، لتجنب خلق أسواق تستطيع أن تنافسها فيها شركات أخرى تنتج نفس النوع بسعر أقل وحقوق الامتياز التي تحمي الشركات من شركات أخرى تفكر في استعمال طرقها في بلاد أخرى. ثم السيطرة على مواد خام معينة لمنع الشركات الوطنية المنافسة في البلاد النامية من الوصول إليها، والنظم حيث تستطيع الشركات الكبرى بمصادرها التكتيكية والمالية أن تتغلب على الطرق البيروقراطية الموضوعة في كثير من البلاد، والتي قد تجدها شركات أخرى أصغر معقدة أو مكلفة.

وحشية قوة السوق:

تظهر هذه الوحشية في السياسة السعرية. فالسوق القوية هي التي تستطيع الشركة أن تبيع فيها أكثر من منافسيها حتى لو كان سعرها أعلى. وإذا استطاعت الشركة أن تقنع عملاءها بحاجتهم إلى أدويتها حتى لو كانوا يريدون شيئًا غير ذلك. لهذا نجد اختلافًا في سعر الدواء بين شركة وأخرى.

ففي عام 1976 وجد أن سعر" الأيزونيازيد "من الشركة السويسرية يزيد في الجزائر تسمع مرات عنه من الشركة الفرنسية. والاستربتومايسين القادم من فرنسا يزيد أربع مرات عن القادم من المكسيك. والأكثر من ذلك أننا نجد كثيرًا اختلافًا في سعر الدواء الواحد تنتجه الشركة الواحدة.

إن نيجيريا من البلاد التي تتجلى فيها وحشية قوة السوق. فتعدادها
70 مليونًا وهي منتجة للبترول، ولكنها حديثة الاستقلال، فليس بها صناعة دوائية قومية، لذلك تستورد 90 %من حاجاتها الدوائية من الخارج. ويرتفع سعر الدواء بها في الأسواق الخاصة بنسبة تتراوح بين 250٪ و400٪ للمريض عن سعر الاستيراد، وهناك يبيع الصيادلة الدواء مباشرة لمرضاهم، وتكتب الشركات على عبواتها عبارات مثل: "يعطيك القوة، الحياة الطويلة، السعادة، الحيوية، الانتعاش الدائم، والرضا التام"، وأكثر الشركات استخدامًا لذلك شركة ساندوز، ويشتري النيجيريون الدواء على هذا الأساس ويستمرون في شرائه. لذلك ليس غريبًا أن نجد شركة مثل "فايزر"، تروج لمنتجاتها عن طريق المسابقات في الصحف. وكل ما يحتاج إليه دخولك للمسابقة، وقد تكسب 3000 دولار، هو أن تقدم الرقم الصحيح لعلبة الكومبانترين الفارغة. لكن هذا كله من جانب واحد، هو جانب شركات الدواء الكبرى في الشمال، فماذا عن الجانب الآخر العالم الثالث في الجنوب. وخصوصًا في السنوات التي نعيشها. أي الثمانينيات.

"هل أنتم مستعدون لتقديم سياسات رشيدة وصحيحة في بلادكم بروح المبادئ التي تبنيتموها في المنظمة؟! هل أنتم مستعدون لتأسيس مطالبكم في التعاون مع المنظمة على السياسات التي تبنيتموها في المنظمة، وعلى هذه السياسات فقط؟! هل من هم في موقع العمل منكم على استعداد لإمداد العون المادي للبلاد الأخرى بروح تلك السياسات؟! هل أنتم مستعدون للتأثير في قطاعات أخرى على المستوى القومي والدولي لتتحرك لتنمية الصحة على ضوء هذه السياسات؟! أتمنى أن تكونوا مستعدين، لأني ما زلت أعتقد أن إجابة مؤكدة على هذه الأسئلة هي جوهر القضية" هكذا خطب "هافدان ماهلر" مدير منظمة الصحة العالمية عام 1980 في جمعية الصحة العالمية. كان المجتمعون من الخبراء والعاملين في مجال الصحة بالدول النامية.. "القضية هي كيف تتطور الدول النامية في مجال العناية الأولية بالصحة؟ كيف تواجه شركات الدواء متعددة الجنسيات؟ كيف نستجيب عمليًّا لشعار منظمة الصحة العالمية "الصحة للجميع عام 2000"؟

"أنتم تستحقون دعم المنظمة لكم ليس فقط في تحديد سياستكم الصحية وفقًا لحاجات شعوبكم، بل أيضًا في تحقيق هذه السياسات، لكن كي تحصلوا على ما تستحقونه فذلك يعتمد عليكم، وعليكم وحدكم"!!

المسألة إذن، وهذا صحيح، إن حكومات ودول العالم الثالث تتحمل النصيب الأوفى في تحقيق التقدم في مجال الصحة لشعوبها، وهي مهمة صعبة، نجحت في بعض الدول بخطى طيبة وما تزال متعثرة في دول أخرى. أحد أسباب التعثر الأساسية بالطبع هو سياسات شركات الدواء متعددة الجنسيات. ولكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي وبالتالي الصحي في البلاد النامية سبب أساسي.

سلم الحرمان:

حين نقول إن فشل الخدمات الصحية في توفير الحاجات الصحية لشعوب العالم الثالث سمة عامة، لا نتجاوز الحقيقة. وأبسط صورة للوضع الصحي في العالم الثالث هي ما يسمى بـ"سلم الحرمان". إن ثلاثة أرباع سكان البلاد النامية يعيشون في الريف، وثلاثة أرباع المنصرف على العناية الطبية يجري في المناطق الحضرية. في المدن حيث يعيش ثلاثة أرباع الأطباء. وفي بلاد عديدة يزداد الموقف سوءًا. في هندوراس وكولومبيا وجامايكا والفلبين وپاكستان يزيد أطباء المدن ست وسبع مرات عن أطباء الريف. في غانا والسنغال يزيدون عشر مرات. في هاييتي خمسة وعشرين مرة، في تايلاند إحدى وثلاثين مرة! الفجوة بين المدينة والريف هي في الحقيقة فجوة بين الغنى والفقر. وهي موجودة أيضًا داخل المدن حيث كثير من الأطباء يعملون في عيادات خاصة لحسابهم كما في البرازيل!! وسوء توزيع الأطباء ليس وحده سبب الخلل في العناية الصحية. أيضًا تكاليف العناية بالمستشفيات والمعاهد الطبية أكثر مما يُوجه إلى الوحدات المحلية الصغيرة في الريف. المستشفيات الموجودة بالمدن الكبرى تستهلك نصيب الأسد من ميزانية الصحة وتعالج عددًا أقل من المرضى. الوحدات الصحية بالريف تأخذ نصيبًا أقل وتعالج أعدادًا أكبر، وهكذا يتدرج حرمان السكان من العناية الطبية من المدينة إلى الريف. في غانا تكاليف العناية والعلاج التي تنفقها مستشفيات المقاطعتين يمثل 57٪ من كل الإنفاق الصحي في المقاطعتين، وفي كل المقاطعات يعد المرضى المترددون على الوحدات الصحية المحلية أكبر مرتين من المترددين على المستشفيات الكبرى. في كينيا رغم الإعلان عام 1964 عن شعار "الخدمات الصحية للجميع" كأساس لخطة التنمية الصحية، فالحاصل أن ظل توزيع الأطباء كما هو بين المدن والريف يزيد سبعًا وخمسين مرة.

يقول د. ف. م. امبورو من قسم صحة المجتمع في جامعة نيروبي أنه لسنوات عديدة مضت، ولسنوات عديدة قادمة سيظل من 85 إلى 90 %من سكان كينيا ريفيين. ويمكن أن ترى أن 87 %من الممرضات و53 %من الممرضات غير المسجلات، و70 %من القابلات الحرة، و54٪ من مفتشي الصحة يخدمون من 10 إلى 15% من تعداد السكان.

هناك فجوة الآن بين السياسة المعلنة والسياسة المنفذة. وتظهر هذه الفجوة في حجم الإنفاق في خطة 74 –78 في كينيا للتنمية الصحية. إذ خصصت 52 % للمستشفيات، 6% فقط للصحة العامة، 23 % فقط للصحة الريفية. وهذا الوضع يتكرر في سائر دول العالم الثالث.

عام 2000 عام الصحة للجميع:

هذا الوضع الأفريقي المتكرر في آسيا وأمريكا اللاتينية أدى إلى صيحات بضرورة بحث العناية الأولية بالصحة في العالم الثالث، وهي صيحات لا ترفعها الحكومات الراديكالية في العالم الثالث فقط، ولكن أيضًا مؤسسات في العالم الغني، هذا فضلًا عن منظمة الصحة العالمية، ولقد تبنى البنك الدولي عام 1974 سياسة رسمية للصحة لأول مرة. وقد وجد تفسيرًا فنيًّا لمشاكل العالم الثالث الصحية بناه على مصطلحات تختص بمتوسط الأعمار "في أفريقيا يبلغ متوسط عمر الأفراد 47 سنة. ويموت مائة طفل من كل ألف طفل في عامهم الأول، ونفس الصورة في آسيا. بينما يبلغ مستوى العمر في أمريكا اللاتينية 11 سنة. أي تقف بين أفريقيا وآسيا معًا، والعالم الغني الذي يتجاوز فيه متوسط العمر إحدى وسبعين سنة. لكن الصحة لا تقاس حقيقة بهذا المقياس، فالأمراض

الشائعة في العالم الثالث لها تأثيرات مدمرة، فهي اقتصاديًّا واجتماعيًّا تهدر الوقت وتضيع إمكانية العمل للعامل والتحصيل للطالب، وخصوبة وإنتاجية البالغين. ولو نظرنا إلى أكثر الأمراض انتشارًا لعرفنا فداحة هذه الآثار، في المقدمة تأتي الأمراض الطفيلية، والحميات بأنواعها، ملاريا، تيفود، حمى شوكية. وفي المرتبة الثانية تأتي أمراض الصدر من السل إلى الأنفلونزا. ثم سوء التغذية ومرض النوم والأمراض الجنسية كالزهري والسيلان، فضلاً عن بدء ظهور السرطان بين سكان المدن. ولقد كان صوت منظمة الصحة العالمية أعلى الأصوات لإعادة بحث الصحة بالعالم الثالث. لقد أعلنت أن عام 2000 يجب أن يكون عام الصحة للجميع.

يقول مدير المنظمة: "إن العناية بالصحة الأولية هام جدًّا وأساسي للفرد والأسرة في المجتمع، وملتقى موافقتهم، وعليهم المشاركة الكاملة فيه بمشاركة من المجتمع والدولة".

لقد حدد مؤتمر ألما آتا معنى العناية بالصحة في البلاد الفقيرة كما تراه منظمة الصحة العالمية. إنه باختصار الابتعاد عن أسلوب الدول الغنية في الصحة.. فأسلوب الدول الغنية يخدم قلة من الناس. وفي تصور منظمة الصحة فإن العناية الأولية بالصحة في الدول النامية تعني مياهًا نقية في المنازل، والتطعيم ضد الدفتريا والتيتانوس والسل والحصبة، وتوفير عشرين دواء على الأقل في أماكن لا تبعد أكثر من ساعة من المشي أو السفر. ثم توفير أشخاص مدربين على ملاحظة الحمل والولادة والعناية بالطفل حتى سنة من العمر على الأقل.

هذا تصوير بسيط للقضية. وإذا عدنا إلى خطاب هافدان ماهلر الذي اقتطفنا جزءًا منه في البداية سنجد أنفسنا نتساءل: ما هي السياسات التي يشير إليها مدير الأمم المتحدة، وكيف أن تحقيقها يعتمد بالأساس على الدول النامية وحدها. إن الحديث عن هذه السياسات، ما تم منها وما يتم وما ينتظر، يعطينا صورة أوسع عن حركة الدول النامية ومحاولتها في هذا المجال.

تأميم صناعة الدواء لماذا ؟!

في بلد مثل سويسرا حيث صناعة الدواء حرة، فإن الدولة لا تدفع للتأمين الصحي إلا على سبعة آلاف نوع من الدواء، من أكثر من ستة وثلاثين ألف نوع متداولة في الأسواق. إن اختيار الدواء وتحديده، من بين أهم الأسس للعناية بالصحة عمومًا. ذلك يعني أن الأموال مدفوعة في دواء يعطي الفائدة القصوى للمجتمع، وهذا بالطبع تحدٍّ كبير لشركات الدواء متعددة الجنسيات، فكثير من الأدوية أقل فائدة للصحة.

ولقد خلقت دعاية هذه الشركات حاجات أكبر من الحاجات الفعلية، لدرجة أن أكثر من 40 % من ميزانية الصحة في البلاد النامية قد تُنفق على الأدوية، والنتيجة هي زيادة تكاليف العناية بالصحة أو نقص في الأموال المطلوبة لخدمات صحية أخرى. في سيريلانكا خفضت الحكومة عدد العقاقير من 2100 إلى 590 منذ عام 1959 في نشاط الدولة الطبي وليس في القطاع الخاص، وفي البرازيل أنقصت الدولة العقاقير إلى 347 نوعًا، وفي معظم دول أمريكا اللاتينية تحدد في 287 دواء. هذا كله في مجال القطاع العام. أي الأجهزة التابعة للدولة. وبالطبع تأتي دولة مثل موزمبيق في طليعة الدول النامية، ليس فقط لتحديدها للأدوية، ولكن لأنها أنتجت منذ يناير 1977 الأدوية الضرورية، فإذا عرفنا أنها حصلت على استقلالها عام 1975 أدركنا أهمية خططها في العناية بالصحة. لقد كان من أهم سياسات حزب فريليمو الحاكم "تأميم العلاج ومنع ممارسته من أجل الربح" وخلال سنوات الكفاح كان شعاره أنه "في المناطق المحررة يأخذ الطب الوقائي الأولوية على الطب العلاجي، وعلى الناس أن ينظموا أنفسهم ليدافعوا عن صحتهم الخاصة". وبعد الاستقلال أصبح ما كان عقيدة ثورية هو إيديولوجية الصحة الرئيسية. تجربة موزمبيق لبنة صغيرة في بناء العالم الثالث.

مواجهة قوة السوق:

أول ما ستقابله الدول النامية في سياستها لتحديد الدواء، هو قوة السوق التي تتمتع بها الشركات الدوائية متعددة الجنسيات، التي تعود عليها بنصيب الأسد من أرباح المبيعات، ومواجهة قوة السوق لا تتم إلا بتنظيم قوى الشراء في الدول النامية. إن تأسيس هيئة مركزية للشراء، سواء للقطاع الخاص أو العام، أو لهما معًا، هام جدًّا للدول التي تريد الفائدة من وراء سياستها الدوائية، والأمثلة على ذلك واضحة. ففي سريلانكا وفرت الشركة الدوائية التابعة للدولة 40 % من الأسعار في الستة أشهر الأولى من وجودها، بالمقارنة بما دفعه مستوردو القطاع الخاص عن نفس الأدوية في ستة الأشهر السابقة، وفي البرازيل أنقذ مركز الدوائيات
60 ٪ من قيمة الأسعار، وفي بيرو 34 % وفي موزمبيق انخفضت النسبة كثيرًا عن طريق تركيز الاستيراد في شركة "ميجيموك"، وفي مصر فإن دور الهيئة المصرية العامة للصناعات الكيمائية والدوائية واضح بشكل كبير منذ عام 1963 وهو العام الذي أممت فيه الدولة صناعة الدواء، وفي الهند نفس التجربة المصرية حيث تسيطر شركة الدوائيات الكيمائية على مراكز استيراد المواد الخام والأدوية.

الترويج بأسماء تجارية:

تروج شركات الدواء لمنتجاتها تحت أسماء تجارية. هذه الأسماء التجارية تمنع منافسة الشركات الأخرى، لكنها في نفس الوقت ذات تأثير ضار بالصحة. لقد اعتبر مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وكذلك البنك الدولي، الاسم التجاري للأدوية أحد أسباب فشل العناية بالصحة في الوصول إلى أغلبية الناس في البلاد النامية. وتعتبر منظمة الصحة العالمية الدعوة إلى التسمية النوعية للدواء مطلبًا أساسيًّا، والحقيقة أن الأسماء التجارية مربكة للمستهلك، فمثلًا الأمبيسللين والكلوكساسيللين والكاربنسلين أسماء نوعية لثلاثة أدوية. لكنها في نفس الوقت تشير إلى أنها جميعًا بنسلين فيسهل على الطبيب والمريض تحديدها أو الاختيار بينها إذا لم يتوفر إحداها. لكن الأسماء التجارية لهذه العقاقير الثلاثة على التوالي هي بينبريتين، أوربينين، وبيونين، والأسماء التجارية الثلاثة لا تدلنا على أنها بنسلين!! أكثر من ذلك أنه كثيرًا ما يكون للدواء الواحد أكثر من اسم تجاري فيصعب على الطبيب حفظها جميعًا.

ضبط الواردات الدوائية:

ما الذي يجعل تأسيس صناعة دوائية في البلاد النامية أمرًا مرغوبًا فيه. يقول ميشيل بورستال في تقرير له أمام منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي، إن الإجابة بتوفير العملة الصعبة، والتصور عن الكفاية الذاتية، اللتين يمكن أن تكونا جذابتين من الناحية الإستراتيجية. هذه الإجابة هي العامل الثاني. السبب الأعظم شيوعًا في نظره هو الحاجة إلى ضبط الواردات.

والحقيقة أن الدول النامية قطعت أشواطًا متفاوتة في الصناعة الدوائية. ويمكن تقسيم الدول النامية حسب مستويات إنتاجها إلى خمس مجموعات. المجموعة الأولى هي أقلها إنتاجًا، والخامسة هي أكثرها. والمجموعة الأولى تضم هوندوراس ومنغوليا وموزمبيق واليمن، والثانية تضم جواتيمالا والفلبين وسيريلانكا وزيمبابوي، والثالثة تضم الجزائر وغانا والعراق وبيرو، والرابعة تضم مصر والأرجنتين وپاكستان، أما الخامسة فتضم البرازيل والهند والمكسيك. ولقد نظر المؤتمر الثاني العام لمنظمة التنمية الصناعية التابعة للأمم المتحدة في مشكلات الدعاية والتصنيع للمنتجات التي تخدم الحاجات الأساسية للبلاد النامية في مجال الدواء، ووضع هدفًا واضحًا وهو أنه سنة 2000 يجب أن يكون 25 %من إنتاج الدواء في العالم منتجًا في البلاد النامية، وهذا هدف كبير حقيقة. ففي عام 1977 كانت مساهمة العالم الثالث الإنتاجية 11.4 ٪ من الإنتاج العالمي. وحيث إن إنتاجية العالم الغني ستزداد، فهدف العالم الثالث 25 %يعني أن ينتج ست مرات مثل ما ينتجه اليوم.

إن الشركات متعددة الجنسيات، التي يقول مديروها عادة، أن العالم الثالث ذو فائدة هامشية لهم، هذه الشركات تبدي دائمًا اعتراضًا على بيع التكنولوجيا الدوائية للبلاد النامية دون شروط تضمن تأثير شركاتها على السوق. ولقد فرض هذا على البلاد النامية أن تلجأ إلى نوع من التعاون فيما بينها. لكن حتى الآن لم تستطع هذه الدول أن تنجو بشكل كبير من نشاط الشركات متعددة الجنسيات. وحتى في بعض البلاد التي بها صناعة دوائية، نجد وجودًا متزايدًا للشركات متعددة الجنسيات. ففي البرازيل هناك توازٍ بين نشاط الدولة ونشاط هذه الشركات، وفي سيريلانكا

انحرفت الصناعة المحلية إلى طريق الشركات متعددة الجنسيات، فأصبحت تركز على منتجات ذات قيمة صحية هامشية، لكنها تقدم أكبر عائد فوري لتشجيع الصناعات القومية في مجال الدواء، قد يساعد على بناء قدرة دوائية، لكنه ليس بالضرورة خالقًا لصناعة مسئولة عن حاجات الصحة في البلد. وراء ذلك بالتأكيد تحكم الشركات متعددة الجنسيات في الوسائط الكيمائية والخبرة التكنولوجية وهذا ما سيحتدم الصراع حوله في الثمانينيات.

الأهم دور الدولة:

اختلاف اعتماد البلدان النامية على الشركات متعددة الجنسيات في مجال الدواء هو الذي يعطي صناعتها الدوائية المحلية قيمتها. فكل من البرازيل والهند، وطبقًا لتقسيم منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية، يقعان مع المكسيك في المجموعة الخامسة من دول الصناعات الدوائية. أي تعتبر الدول الثلاث أكثر دول العالم الثالث تقدمًا في هذه الصناعة. ولكن الواقع أن الهند أكثر تقدمًا من الدولتين، والسبب أن سيطرة الدولة في الهند على سوق الدواء مركزة، فهي لا تسمح للشركات المتعددة الجنسيات بممارسة نشاطها إلا بشروط، بينما في البرازيل فسياسة الباب المفتوح تُنفذ جنبًا إلى جنب مع مساهمة الدولة في الصناعات الدوائية. لذلك نجد أن الهند تصنع من خاماتها المحلية من خمسة وثلاثين إلى ثلاثة وأربعين دواء أساسيًّا، بينما تفعل البرازيل ذلك في خمسة مضادات حيوية، وتفعله المكسيك فقط في ثلاثة مضادات.

ولقد وقعت مصر في المجموعة الرابعة، ووقعت الفلبين في المجموعة الثانية. في مصر 590 عالمًا مدربًا ومهندسًا فنيًّا في صناعة الدواء. وفي الفلبين التي هي أقل نموًّا من مصر. كيف تخلفت الفلبين عن مصر إذن؟ دور الدولة في الفلبين هو الذي تخلف، فالشركات متعددة الجنسيات تجد لها منافذ واسعة لتمارس نشاطها في الفلبين، برغم أن عائلة ماركوس الحاكمة تمتلك بعض الشركات الدوائية، أو لعل ذلك من أحد الأسباب. ولكن إذا توفر لدولة كبيرة مثل الهند أو مصر قدرة على التدخل في سوق الدواء لصالح شركاتها وشعوبها، فماذا تفعل الدول النامية الصغيرة.

الكوبتكس مجال تعاون الدول النامية:

الطريق الوحيد أمام الدول النامية الصغيرة هو التعاون مع بعضها في مواجهة شركات الدواء متعددة الجنسيات، والتعاون مع جيرانها حيث لا توجد شركات متعددة الجنسيات إلا في ظروف خاصة. وهذا ما أشار إليه الطبيب الهندي سنجايا لال في بحثه المقدم لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية عام 1975. اقترح سنجايا لال صيغة "تعاون الإنتاج الدوائي ومراكز التكنولوجيا" أو ما أصبح معروفًا باسم الكوبتكس Copptecs، والأمثلة على نجاح هذا التعاون كثيرة. ففي مواجهة الشركات متعددة الجنسيات نشبت معركة حامية عام 1980 في أمريكا اللاتينية، حين أرادت الشركات المحلية لعشر دول الخروج من سيطرة منظمة الشركات المتعددة الجنسيات المسماة بالفيفارما Fifarma، وتأسيس منظمتها المستقلة المسماة أليفارما Alifarma، وهي المنظمة التي نادت باعتماد دول أمريكا اللاتينية على مواردها الذاتية، ونادت بضرورة دعم الدولة لها، ودعتها إلى إصدار قوانين تحمي منتجاتها الدوائية وتوفر لها الدعم بالمواد الخام.

ولقد حقق التعاون الإقليمي نجاحًا أيضًا في الشرق الأوسط. فالشركة العربية لصناعة الدواء والمستلزمات الطبية Acdima بدأت بداية طيبة، وهي شركة تضم عددًا من الدول العربية للتعاون في هذا المجال، وهي الآن بصدد ثلاثة مشاريع كبرى. مشروع لإنتاج المضادات الحيوية في العراق. آخر لبعض الصناعات الدوائية في الكويت. والثالث لإنتاج الزجاج الطبي في سوريا. وهناك بعض الدول الكاريبية ما تزال تعمل من أجل تأسيس مركز الكاريبي للصناعات الدوائية، برغم الفوارق السياسية بين بلاد مثل غيانا الاشتراكية، وجامايكا التي تحكمها حكومة موالية لأمريكا. إن طريق التعاون هذا سائر ومستمر، وبلاد أكثر تقدمًا مثل الهند والمكسيك والبرازيل تستطيع أن تقدم خبرتها للدول المتعاونة. فالهند مثلًا تقدم مساعدة فنية للجزائر والإمارات العربية، وأقامت لها مراكز بحث في بلاد أخرى مثل مركز رانباكسي في نيجيريا، كذلك موَّلت منظمة الأمم المتحدة لتنمية الصناعات مشروعًا كبيرًا تقيمه أكبر شركات الدواء في الهند، شركة سارابهاي Sarabhai في كوبا لإنتاج خمسين دواء من المواد الخام إنتاجًا كاملًا.

ثمن التكنولوجيا:

عند تنفيذ صناعة دوائية، لا يبدو الأمر هنا سهلًا. تجد الدول النامية مفردة أو متعاونة أن المعرفة النظرية لا تكفي وحدها. المعلومات والخبرة العملية شيء هام وأساسي، وهي متفاوتة عند الدول النامية. وهنا تجد الشركات متعددة الجنسيات فرصتها أيضًا. ودول العالم الثالث تحب أن تشتري هذه التقنيات الفنية مباشرة. مثال على ذلك ما فعلته الشركة الهندية المحدودة للدوائيات، وهي شركة مملوكة للدولة. فوفقًا لسلسلة من الاتفاقات مع شركات سويدية وسويسرية وإيطالية اشترت التكنولوجيا اللازمة لتصنيع عدد من المضادات الحيوية وغيرها. دفعت مثلا 58000 دولار لإنتاج الدوكسيكلين، و500 ألف دولار لإنتاج البنسلين شبه المركب، وغير ذلك. ووفقًا لهذه الاتفاقات تقوم الشركات الأجنبية بالتصميمات وتقيم المنشآت وتبدأ العمل، حتى يتم اكتساب المستوى المطلوب من الكفاءة.

لكن هذا النوع من التكنولوجيا المحمولة ليس جذابًا للشركات متعددة الجنسيات التي تمتلك كثيرًا من أسرار العمل. إنها تفضل العمل وفقًا للمشاركة، أو إعطاء التراخيص. والترخيص كطريقة لنقل التكنولوجيا ليس فعالًا للدول النامية، فهو يسمح للشركة متعددة الجنسيات بأن تظل مالكة للمعرفة، وغالبًا ما يحدد للمرخص له بألا يقوم بتصدير منتجاته، وكثيرًا ما يجبر على شراء المواد الخام من بائع الترخيص. وعمومًا تضغط الشركات متعددة الجنسيات على أن تكون مساهمة كشريك في تحويل التكنولوجيا، حتى تستطيع أن تحدد مدى ضغط المنتجين الآخرين في السوق، وتحدد الربح الذي يجب بلوغه. وفي كل الأحوال ثبت أن شراء التكنولوجيا مباشرة كما فعلت الشركة الهندية مهما كان الثمن، أرخص من كافة الأشكال الأخرى للعمل. لكن ذلك يحتاج إلى قدرات ضخمة حتى في المفاوضات. إنه حتى عام 1978 لم يكن لدى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، ولا منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية،
ولا منظمة الصحة العالمية، أي إستراتيجية رسمية أو مطبوعة في وثيقة، أو معلنة عن طريق السكرتير العام للأمم المتحدة، أو حتى بواسطة واحدة من الوكالات الكبرى في الأمم المتحدة، عن المجهودات المبذولة لمساعدة دول العالم الثالث في هذا المجال، لكن الآن هناك برنامج لذلك. ولقد

نبع هذا النشاط في أجهزة الأمم المتحدة من التعاون بين الدول النامية، لتنمية اكتفائها الذاتي في مجال صناعة الدواء. لكن التغير في مجال الصناعات الدوائية فيه سرعة، وهو يتحدد أيضًا في المعامل كما يتحدد في المؤتمرات. إن سرعة التغير التكنيكي، والأساليب التكنولوجية، التي تتحقق عند الأمم المتقدمة، ستعطي الشركات متعددة الجنسيات يدًا قذرة أو حسنة، في اللعب. ولن يغير طبيعة اللعبة. وهو ما سوف يجدد عناصر الصراع.

رأينا حتى الآن جانبًا من صورة العلاقات بين شركات الدواء العالمية متعددة الجنسيات، ودول العالم الثالث في مجال الصحة والدواء. وهو الجانب الذي يختص بنشاط هذه الشركات الذي يدور حول محور تحقيق أكبر ربح ممكن لها بالسيطرة على الأسواق بصرف النظر عن موضوع الصحة نفسه إلى حد كبير. إن لم يكن بصرف النظر عن الصحة بشكل عام. وهو الأمر الذي تم تلخيصه في أن للسياسة الدوائية لهذه الشركات العالمية وجهين. وجه تتعامل به مع الدول الصناعية الكبرى، دول الشمال، حيث توجد هذه الشركات أصلًا، ووجه تتعامل به مع دول وشعوب العالم الثالث، دول وشعوب الجنوب. وهو الوجه القبيح دائمًا.

رأينا ردود فعل دول ومنظمات العالم الثالث، ومنظمات الأمم المتحدة المختلفة، ودول العالم الثالث التي استطاعت الخروج من الدائرة الجهنمية لشركات الدواء العالمية متعددة الجنسيات، والدول التي لا تزال ترزح تحت نفوذها. رأينا سبيل الخروج من أزمة الصحة والدواء في العالم الثالث، ثم السياسات الجديدة لهيئات الأمم المتحدة، ودول العالم الثالث في مواجهة هذه الشركات خاصة منذ النصف الثاني للسبعينيات. لكن ردود فعل العالم الثالث وهيئات الأمم المتحدة، وبصفة خاصة منظمة الصحة العالمية، لم يكن سهلًا مرورها. فعلى الجانب الأول ما تزال الشركات متعددة الجنسيات تراقب هذه السياسات الجديدة لأعدائها! ولا بد أن يكون لها استجابات بدرجات متفاوتة وردود أفعال أيضًا، وهذه هي حلقة الصراع الجديدة التي بدأت منذ أن ظهر لدول العالم الثالث ردود فعل جماعية، وهي حلقة الصراع التي نشطت مع بداية الثمانينيات والتي ستستمر، وهي أيضًا التي تحدد صورة الصحة والدواء في العالم عام ألفين. وهذا هو الموضوع الأخير من هذا الكتاب القيم والمثير.

الرد على التحدي:

"برغم أن سوق العالم الصناعي صغيرة، فإنها تقدم الفرصة الأكبر لنشاط شركات الدواء، لكن أيضًا فالعالم الثالث هو السوق الواسعة لنا. هذه البلاد تحتاج إلى العناية بالصحة، ومن ثم تحتاج إلى عقاقيرنا لكن هناك عراقيل كثيرة للعمل في كثير منها. إن عملنا يتأثر بالسياسات السلبية لحكومات العالم الثالث. إن الشركات متعددة الجنسيات في مجال الدواء مرهقة ببيروقراطية العالم الثالث.

إنها بلاد تعيد السياسات التي تحطم الاقتصاديات!" ويستمر "روبرت دي" رئيس شركة "سميث كلاين" الأمريكية التي تنتج "التاجاميت" علاج القرحة المتوقع له أن يكسب أكثر من ألف مليون دولار عام 1983 – في الحديث "إن الأقلية المبدعة يقصد الدول الصناعية الكبرى، دول الشمال هذه الأقلية المالكة لتكنولوجيا العالم، والمنتجة لمعظم غذاء العالم وبضاعته، في موقع تحد الآن من

الأغلبية العدائية يقصد دول العالم الثالث وسياساتها الاستقلالية في مجال صناعة الدواء - وفي رأيي كما يقول - إن هذه الأغلبية العدائية لا تريد التجارة بمقاييس السوق، بل تريد التجارة بمقاييسها، ومقاييسها لا يمكن إلا أن يسميها العقلاء ابتزازًا!". لكن روبرت دي وهو يصور هذا الوضع القتالي لا ينسى أن يقدم حلولًا بسيطة لمديري شركته.

أولًا: لا نستطيع أن نتعامل مع العالم الثالث كمستهلك واحد. يجب أن نتعامل على أساس مبدأ "بلد بعد بلد". أي يجب أن نشجع البلاد التي تظهر بها سياسة اقتصادية رشيدة.

ووصيتي الثانية هي أن نضغط بكثافة على الأمم المتحدة، ووكالاتها الصحية لتقدم نصائح واقعية، لا غير واقعية، للبلاد النامية. لأنه في هذا العام والذي بعده، فإن 70 % من ميزانية منظمة الصحة العالمية ستدفعها "13" دولة صناعية. فقط "13" دولة من "156" دولة هم أعضاء المنظمة. بالتأكيد يحتم هذا أن يقف العالم الصناعي أمام منظمة الصحة. يجب أن نملك الإرادة الكافية لنفعل ذلك.

وهكذا، فبالنسبة لمستر دي فإن "العصا والجزرة"، و"فرق تسد"، و"أنت تحتاجنا أكثر مما نحتاجك" هي محاور الاستجابة الواضحة للشركات متعددة الجنسيات أمام سياسات الدواء في العالم الثالث. إنها استجابة هجومية توضح تمامًا الاتجاهات بالنسبة للعالم الثالث في السياسة الأمريكية الجديدة التي أعلنها رونالد ريجان، والتي تقوم على أن "دعم الولايات المتحدة للبلاد النامية يجب أن يوجه إلى أولئك الذين لهم علاقات وثيقة مع العالم الحر. لكن ليس صوت مستر دي هو الصوت الوحيد، فكما في كل القصص الجيدة هناك أصوات منخفضة أيضًا. مقابل هذا الصوت المدوي لمستر دي هناك النغمة الهادئة لمستر "و. كلارك ويسكو" رئيس شركة "ستيرلينج" الأمريكية حيث يقول: "الرغبة من جانب كل الدول في تحويل التكنولوجيا مفهومة - يقصد الدول النامية ورغبتها في تكنولوجيا الدول الصناعية - والرغبة من جانب كل دولة في تصدير الدواء أيضًا مفهومة، والرغبة من جانب كل أمة للمشاركة في إنتاج الدوائيات من المواد الخام مفهومة، حتى لو لم تكن عملية أو اقتصادية. هناك عوامل محددة لكل هذه الرغبات. لكن هناك حاجة كافية للجميع للمشاركة في صنع المستقبل. إنها مسئوليتنا أن نخطط كيف نصل إلى هناك، وكيف نخطط للتعامل مع كل منها، ومع مشاكل الصحة في العالم بالعدل. عدل للصناعة، للحكومة، للشعب. الصناعة غارقة في المشاركة في إعطاء دفعة جديدة وخلاقة على أساس عادل. أنا، من أجل صناعة واحدة من صناعات الولايات المتحدة، أحب أن أكون مشاركًا خلاقًا في هذه الدفعة الخلاقة".

نظرة جديدة إلى السوق العالمية:

لعل نظرة الشركات متعددة الجنسيات للسوق الآن، واختلافها عنها في الماضي، تعطينا مثالًا عن الأفكار الجديدة لهذه الشركات، أو التخطيط للمستقبل الذي تحدث عنه مستر ويسكو.

إن كلاوس فون جريمر أحد الاقتصاديين الكبار في شركة سيباجايجي يوضح ذلك. يقول إنه في الماضي كانت الشركات الدوائية تركز كثيرًا على المنافسة فيما بينها لتحصل على مشاركة أكبر في السوق وعائدات أكبر. الآن اكتشفت هذه الشركات وتحققت أنه من المهم أن تترك حجم السوق

يتحرك. قديمًا كانت السوق مثل الصندوق المعلق في الرافعة، وكان التنافس داخل هذا الصندوق. لكن الشركات الآن تحولت إلى سائقي الرافعة. السائقون اليوم هم السياسيون مديرو الصحة. المهنيون. الصحفيون. هؤلاء هم أصحاب التأثير على سياسة الصحة وإدارتها التي تجعل قيمة السوق تعلو وتنخفض. ومن ثم فحين تنظر الشركات متعددة الجنسيات في السياسات المقترحة بالعالم الثالث، فهي تنظر لترى أيها سيسبب نموًّا في السوق أو العكس.. ثم تنظر في أي السياسات تساعدها على الوصول إلى زيادة حجم مشاركتها في السوق، وأيها سيساعد منافسيها. يتسع إذن نظر الشركات المتعددة الجنسيات ليواجه السياسات القائدة للبلدان النامية، لكن لا بد من تحديد أكثر. لننظر إذن في بعض الاستجابات المباشرة وغير المباشرة.

سويسرا مثال جيد لاستجابة الشركات للتحديات التي يفرضها العالم الثالث في عالم الدواء. الصناعة السويسرية لا تشبه غيرها في الدول الغربية. فهي ذات أهمية قومية كبرى. وسويسرا كمركز للنقد الدولي لها دور حيوي في عمليات الشركات الدوائية في البلاد الأخرى، وبعض شركاتها لها فروع دولية. كما أن سويسرا أيضًا هي بيت ومكان مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، ومنظمة الصحة العالمية، والاتحاد الدولي لجمعيات الصناعات الدوائية. تتوزع الشركات الدوائية والمنظمات الدولية بين مثلث مدن بازل - زيورخ جنيف. ومن ثم فهذا المثلث هو مركز ظهور الاستجابات في أي شكل.

إن الشركات الثلاث الكبرى: هوفمان - لاروش - سيباجايجي، التي تعتبر اسميًّا متنافسة، تتعاون بشكل وثيق من خلال المنظمة التي تربطهم. منظمة "إنترفارما". هذه المنظمة تخطط، وتضع إستراتيجيتها في مجال العلاقات العامة، كما تدير العمليات الاقتصادية والمعلومات الاقتصادية، وفي نفس الوقت فإن الاستجابات الفردية لأي من الشركات متروكة، لأنها تضيف أرضية جديدة لمركز التجمع هذا. من ذلك هجوم شركة روش السويسرية على مطالب الطبيب الهندي "سنجايا لال" التي قدمها إلى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، وطالب فيها بسياسة تحديد عدد الأدوية، وإلغاء الاسم التجاري للدواء وإحلال الاسم النوعي أو العلمي محله. اعتبرت الشركة هذا الهجوم شيئًا غير عقلي، وفي نفس الوقت تحاول الشركات بعملها الجماعي أن تكشف عجز منظمة الصحة عن تنفيذ سياستها. من ذلك مثلًا ما يقوله الاتحاد الدولي لجمعيات الصناعات الدوائية من أنه يرغب في تشجيع شركاته الأعضاء، في المشاركة في برنامج عمل متعاونين مع منظمة الصحة العالمية. فبهذه الطريقة لن يكونوا فقط سببًا في المساعدة، ولكن سيعملون كثيرًا على تلافي النقد الذي يقول إن الشركات تبدي قليلًا من المسئولية الاجتماعية.

إن أبرز صياغة لمحاولة الشركات استعادة المبادرة جاءت في حديث الرئيس الجديد لرابطة الصناعات الدوائية الأمريكية لويس انجمان، الذي قال بعد أن تولى المنصب بقليل: "أعتقد أنه على الهيئات التجارية أن تمتلك تأثيرًا إيجابيًّا على السياسة العامة" وبهذه الروح اقترح الاتحاد الدولي لجمعيات الصناعات الدوائية خطة للعمل التسويقي تتبناها بقوة الجمعيات الأعضاء في كل دولة. خطة تملك قدرات متغيرة كافية. وتقارير عن الاتصالات في مجال الدعاية مؤسسة على وضوح علمي كاف. عناية خاصة بجانب الأمان في المنتجات الدوائية، والأعراض الجانبية، والاتصال

بالتنظيمات الطبية والقانونية في كل بلد. إمداد الطبيين والمحترفين بالعينات وتمكينهم من اكتساب الخبرات في التعامل مع المنتجات. ولكن..

الدعاية السوداء والتهديد بالتجويع:

كما جاء في الحلقة الأولى حول سيطرة زيمبابوي على سوق الدواء المحلية وإلغاء نظام العلاج الخاص وتطوير صناعتها الدوائية. وتحديد استيراد الدواء مركزيًّا عن طريق شركة "كابس" لذلك قامت الدعاية ضدها من قبل الشركات متعددة الجنسيات. "انظر إنه من الخطر أن تشتري من هؤلاء" بلد سوداء ستشتري أي دواء من أي مكان!" هذه هي الدعاية السوداء التي تواجه بها شركات الدواء العالمية محاولات العالم الثالث. ومن ثم انتقلنا خطوة من سحب المبادرات وانتهازها إلى المواجهة. هذه الدعاية أيضًا واجهتها صناعة الدواء الهندية، وخصوصًا التشكيك في جودة الأدوية الهندية. بل وأدوية أوربا الشرقية. لكن الدعاية خطوة واحدة في المواجهة يمكن أن تتصاعد.. وفي عام 1972 قررت حكومة سريلانكا تركيز استيراد الدواء وتحديد أنواعه، وإحلال الأسماء العلمية محل الأسماء التجارية، والسماح بإنتاج الدواء المناسب للصحة محليًّا،
لا المناسب لاحتياجات السوق كما تريده الشركات، وفيها تعمل خمس شركات متعددة الجنسيات مباشرة أو عن طريق فروع صناعية صغيرة لها. هذه الشركات بدأت معركتها على الفور لتشويه سمعة الإنتاج الوطني، واستدرجت بعض الممارسين للطب، واشترك الأطباء الخصوصيين في الهجوم على تحديد قائمة الدواء، ووصلت الأزمة إلى غايتها في ترشيد الإنتاج، حيث كان هدف الحكومة هو إنتاج أربعة وثلاثين دواء أساسيًّا، بينما يتم استيراد المواد الخام مركزيًّا من خلال شركة تابعة للدولة، للتأكد من معقولية الأسعار المدفوعة.

بعد مفاوضات صعبة وافقت أربع من الشركات المتعددة الجنسيات على التعاون بتحفظ كبير، بينما رفضت شركة فايزر وقاومت لأربع سنوات، واعترضت على إجبارها على استخدام المواد الخام المشتراة من قبل الدولة، انطلاقًا من أرضية أنها غير مضمونة كيفيًّا. برغم أن الشركة التي كانت تشتري الدولة منها هي شركة هوتشست. والدواء هو التيتراسيكلين، الذي تتساوى سمعة هوتشست فيه مع سمعة فايزر. لكن الحقيقة الأساسية هي أن شركة فايزر المحلية كانت تدفع بشكل دائم للشركة الأم تسعة وتسعين دولارًا لكل كيلوجرام من المواد الخام، بينما كان عرض شركة هوتشست عشرين دولارًا للكيلوجرام. اضطرت الحكومة إلى التأميم كإجراء أخير لإجبار شركة فايزر. قابل السفير الأمريكي رئيس وزراء سيريلانكا، وقال: إن إمدادات المساعدات الغذائية من بلده ستوضع في محك خطير بمثل هذا الموقف. وبالطبع كان هذا تهديدًا خطيرًا لبلد تعاني أزمة حادة في الطعام، فتراجعت الحكومة وانتهت تجربة سيريلانكا عام 1977 بعودة باندرانيكا إلى الحكم حيث لم تتعاطف كثيرًا مع السياسة السابقة!

التكتيكات المتأخرة:

مثال سريلانكا يوضح طريقة مقاومة الشركات متعددة الجنسيات. إنها تواجه في البداية الموقف منفردة، ثم تلجأ إلى حكوماتها حين يكون استخدام العصا الغليظة مطلوبًا لحسم الموقف. في الهند حدث موقف مشابه حين اقترحت الحكومة ضرورة تحديد الأسماء النوعية للدواء، فقالت الشركات

الألمانية أن ذلك سيؤثر في اتفاق التجارة بين الهند وألمانيا. في تنزانيا بدت ألمانيا الغربية وكأنها تعتبر سفارتها كملحق لشركتها الدوائية. في البرازيل كانت السفارة الألمانية هي التي احتجت على تحديد أسعار الأدوية، وهددت بأن هذا قد يهدم التعاون الألماني البرازيلي في مجالات صناعية أخرى. وحين طالبت نيجيريا بضمان جودة الأدوية المصدرة إليها عن طريق استخدام إحدى الهيئات الدولية لفحصها من ناحية الجودة والسعر، احتج العضو الإنجليزي في البرلمان الأوربي على ذلك.

ولكن التكتيكات المتأخرة على كل الجبهات أصبحت جذابة للشركات متعددة الجنسيات. لقد اعترفت أخيرًا هذه الشركات بالحاجة إلى معالجة جديدة. وكما أكد لويس انجمان رئيس رابطة الدواء الأمريكية عام 1979 من أن الصناعة الدوائية لا تستطيع أن تظل في حالة رد فعل دائمًا. بل يجب أن تكتب "أجندتها"، إذا أرادت أن تتحكم في مجرى الأحداث يجب أن تبتعد عن القتال الناري، وتبحث عن تأثير إيجابي جديد على السياسة العامة. يجب أن تساعد على تشكيل تفهم عام للقضايا الكبرى. كما أكد انجمان على أهمية الحديث مع النقاد. ففي نظره أنه من الصعب على شخص ما أن يهاجمك في اجتماع عام إذا كنت في الصباح قد دعوته على مائدة الإفطار. حتى لو لم تكن قد وافقت أثناء الإفطار على قضية واحدة له. هذا ولقد كانت استجابة الولايات المتحدة الفعلية لمشاكل الصحة والدواء قد بدأت في يناير عام 1979 بمؤتمر عن الدوائيات في الدول النامية تم تنظيمه تحت رعاية معهد العلاج التابع للأكاديمية القومية للعلوم. كان رئيس هذا المؤتمر هو السناتور إدوارد كينيدي واقترح فيه د. وليم هوبارد رئيس شركة إيجون إستراتيجية جديدة لزيادة دور الشركات الأمريكية في حل احتياجات الصحة في البلدان الفقيرة.

الخطوة الأولى في هذه الإستراتيجية هي وضع برامج المساعدات لتوصيل الأدوية للشعوب التي لا تجدها، ولكي يتم ذلك كما يقول فإنه من الضروري أن نعيد تقوية الخدمة الصحية بحيث تشمل الحاجة الزائدة للأدوية كموضوع أساسي.

وانتهى المؤتمر بتكوين "قوة عمل" يكون من مهامها تأسيس شركة لتنمية الأدوية والتطعيم لتساعد منتجات الأبحاث الأكاديمية، وكذلك تأسيس محكمة علمية لحل المسائل المتعلقة بالأمان والفاعلية للأدوية الموجودة، والترويج لبرنامج تستطيع به شركات الأدوية الأمريكية أن تبيع منتجاتها للدولة، لتقوم بتوزيعها على بلاد العالم الثالث، بنفس الطريقة المتبعة في برنامج مساعدات الغذاء. وأيضًا اقتراح تأسيس برنامج اكتشافي في إحدى الدول لمعالجة الأمراض الخاصة باستخدام عدد محدد من الأدوية.

وحتى ينجح هذا البرنامج، وهذه القرارات، كان من الضروري إيجاد من يشارك فيها من العالم الثالث. ويقول د. هوبارد أن هذه الإستراتيجية لن تُظهر أي فوائد خلال السنوات الخمس الأولى. وفي مارس عام 1981 جاء في تقرير مقدم لاجتماع قوة العمل أن شركة تنمية الدواء والتطعيم قد تم تأسيسها تمامًا وتشكلت وأصبحت الآن ترتبط بعديد من نشاطات البحث لمؤسسة روكفلر. نفس الشيء يمكن أن يقال عن التحول في برامج المساعدة الدوائية. فيما أن مشكلة الدعم الدوائي للعالم الثالث تركزت على النقص في المال بشكل عام، والنقص في المال بالنسبة للصحة بشكل خاص،

مما يؤثر على المبيعات الدوائية ورغبات الشركات متعددة الجنسيات في إنتاج أدوية جديدة للأمراض السائدة في العالم الثالث.

وحيث إن الدول الأقل تنمية يمكن أن تقدم دعمًا لأدوية الأمراض المدارية، أمراض العالم الثالث، إذن فأهمية الصناعة للإمداد بهذه الأدوية تكمن في خلق أسواق نائية تنوب عن الشركات، وذلك بمساعدة برامج دولية أو قومية تشمل تكلفة الإمداد بالدواء الأساسي. وفي نوفمبر عام 1980 أخذ الاقتراح شكله على أساس قاعدة مشابهة لبرنامج الطعام من أجل السلام لحكومة الولايات المتحدة. برنامج المساعدة في الدواء يهدف إلى تحسين توافر الدواء بالعالم الثالث. كما أن الولايات المتحدة ستقدم القروض لدول نامية تختارها لتغطي تكلفة استيراد الدوائيات، سواء مباشرة من الولايات المتحدة، أو من فروع شركائها في البلاد النامية.

هذا عن برامج الولايات المتحدة مما سنعود لنرى الأسس الأكثر فاعلية في هذه البرامج فيما بعد. كذلك فقد تم اختيار مجموعة عمل عام 1977 تابعة لشركة سيبا جايجي السويسرية لتأسيس هيئة تعمل في الإمداد بالأدوية التي يتم اختيارها بواسطة منظمة الصحة العالمية للعالم الثالث. وفي عام 1978 تم افتتاح هذه الهيئة تحت اسم "سرفيفارما" تحت شعار "الجودة العالمية بأسعار اقتصادية". وقيل إن الهدف ليس إمداد البلاد بالأدوية فقط، بل بالمعرفة الفنية، غير التخطيط والتوزيع والتخزين والاستيراد. بل والإنتاج. "إننا نستطيع أن نترك الدول النامية تستفيد من معرفتنا بأسرار المهنة وخبرتنا. دون أن نؤذي أنفسنا". أما من أين تأتي سرفيفارما بالمنتجات فهي تعيد تعليب منتجات الشركات الأخرى، أو تشتري المواد الخام وتصنعها في مصانع سيبا فتشتغل الآلات الواقفة! وترى شركة سيبا أن إسهامها في برامج الصحة للمجتمع سيساعدها على اكتساب أعمال جديدة.

إن "سرفيفارما" نشطة في ستين دولة، ويُتوقع لها أن تحظى بقبضة كبيرة على سوق العالم الثالث، وهي لا تعطي تفصيلات عن حجم مبيعاتها الحالي. لكن هل يعني ما تقدم أن شركات الدواء متعددة الجنسيات سواء في أمريكا أو أوربا أصبحت إيجابية تمامًا. بالطبع لا. إن أي خسارة في أسعار الدواء تتحملها المنظمات العالمية التابعة للأمم المتحدة في برامج هذه الشركات. ومن ثم يظل الصراع كما هو خصوصًا إذا عرفنا أن برامج هذه الشركات أيضًا لها شروط.

إلى سنة 2000:

برامج المساعدة التي سبق الحديث عنها مشروطة في أغلب الأحيان. فالولايات المتحدة تقدم مساعداتها أساسًا إلى أصدقائها. لذلك لن نجد موزمبيق في برنامج المساعدة مثلًا بينما نجد مالاوي. في مالاوي فإن "باندا" رئيس الدولة جعل نفسه خلال عشرين عامًا مضت، شريكًا كبيرًا في تجارة الدواء من خلال شركاته الخاصة، تاركًا العناية الصحية لشعبه لأنفسهم ومواردهم القليلة، وللبعثات التي ما تزال تنتشر حول شواطئ ما كان يسمى بحيرة ليفنجستون. ستكون هناك مساعدة للسلفادور حيث أصدقاء الولايات المتحدة مع عدم الأخذ في الاعتبار إهمالهم لحياة شعوبهم. وكذلك ستكافأ الفلبين بينما ستوضع بلاد أخرى في جنوب شرق آسيا في القائمة السوداء. أما شركة سيبا وكثير من الشركات الأخرى، فقد اختارت التوازي بين مقترحاتها وبرامجها،

وأنشطة الأبحاث الموجودة في مجال الزراعة. أي الاشتراك في مجال الكيميائيات الزراعية، سواء في شرق آسيا أو وسط أفريقيا. أي أنها توزع منتجاتها الكيميائية الخاصة بالزراعة في هذه البلاد وفقًا لبرامجها الدوائية. وعلى نفس هذه المنتجات الزراعية الانتقادات التي على نفس الأدوية الموجهة للعالم الثالث. هذا بشكل عام وأساسي أكبر ما يهدد برامج المساعدة الصحية، ويهدد أيضًا شعار الصحة للجميع سنة 2000. ولكن هل معنى ذلك أن الصراع سيظل مشتعلًا، وأنه لا مستقبل للتعاون في إنقاذ صحة العالم الثالث.

يتفق الباحثون الممثلون للعالم الغني والفقير معًا، أن مستقبل الصناعات الدوائية ذو جانبين. فيه تتولى الشركات الكبرى أعمال البحث لإنتاج عقاقير جديدة، بينما يكون على الشركات الصغرى أن تقنع بإنتاج نوعية رخيصة من الدواء، وهكذا سيتم خدمة العالم الثالث بالأدوية الرخيصة، بينما يستمر العالم الغني في شراء العلاجات الغالية من الأسواق الحرة. وفي هذا العالم ذي الجانبين أو "الصفين" ستظل السوق غير الحكومية للعالم الغني إعلانًا دائمًا للشركات، وهدفًا يتمناه العالم الفقير الذي لن يصدق الفلاح الفقير فيه أن الأدوية الأساسية التي يحصل عليها من مركز الصحة، جيدة أو أفضل من الفيتامينات الغالية. إن التمايز بين الشركات على هذا الأساس لن يظل في صورة شركات صغيرة وشركات أكبر. بل سيزداد حجم الشركات متعددة الجنسيات لتصبح شركات كونية إذا جاز التعبير. وستكون علاقتها بدولها كبيرة جدًّا، وستدعمها حكوماتها بأقصى ما تستطيع. وهكذا سيساهم هذا الجنوح القومي في زيادة الموانع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسيكلوجية لتحقيق الصحة للجميع في المستقبل المنظور.

"مجلة المصور المصرية في ثلاث حلقات عام 1983"

القسم الثالث

علامات مضيئة من الأدباء والمفكرين

"كيف غاب هذا الكاتب عن النقاد وتاريخ الرواية المصرية؟

الكاتب الذي سأتحدث عنه هنا يحمل اسم "سعد الخادم". وهو اسم يحيل على الفور إلى أستاذ التراث الشعبي والفنان التشكيلي العظيم سعد الخادم، صاحب الأيادي البيضاء الكثيرة على الثقافة الشعبية، الذي نشر فيها حوالي تسعة عشر كتابًا، وله متحف باسمه واسم الفنانة عفت ناجي في منطقة الزيتون بالقاهرة، يحتوي على نماذج من تراثهما الفني، والذي توفي عام 1987. ربما كان هذا من أسباب غياب الكاتب الذي سأتحدث عنه. لكن حتى لو كان كذلك فلماذا لم يتحدث أحد عن رواياته باعتبارها للفنان سعد الخادم فيتحمس من يضيء الحقيقة؟

بدأت المسألة برسالة خاصة على الفيس بوك من صديقي الدكتور محمد عيسى، الأستاذ السابق للغة والأدب العربي والدراسات الإسلامية، في جامعة شيكاغو ونورثوسترن وميشيغان، والذي يعيش الآن في شيكاجو. سألني هل سبق وعرفت أن للفنان سعد الخادم روايات؟ سألت أكثر من فنان صديق. الكل احتار. سألت السؤال على صفحتي على الفيس بوك ووجهته للنقاد وباحثي تاريخ الأدب. اثنان قالا لي أن هناك سعد الخادم آخر عاش في كندا خارج مصر. الأول منهما هو الصحفي الكبير عمرو خفاجي والثانية هي الدكتورة منار عمر المترجمة ومدرسة الأدب الألماني بجامعة حلوان، وأرسلت لي صفحة بالإنجليزية في جريدة الدراسات الإثنية الكندية Canadian Ethnic Studies Journal للكاتبة إليزابيث دهب Dahab Elizabeth، وهي بالمناسبة صاحبة كتاب "كتّاب عرب كنديون.. أصوات المنفى ،Arabic Canadian writers Voices of Exile "

المقال بعنوان:

“Poetics of Exile and Dislocation in Saad Elkhadem’s Wings of Lead (1971), the Plague (1989), and Trilogy of the Flying Egyptian
(1990-1992) "

"أجنحة من رصاص" شعرية النفي والخروج في رواية سعد الخادم، التي نُشرت عام 1971 وترجمها سعد الخادم بنفسه، و"الطاعون" التي نُشرت عام 1989 وترجمها سعد الجبلاوي، و"ثلاثية المصري الطائر" التي نُشرت ما بين عامي 1990-1992 وترجمها سعد الجبلاوي أيضًا.

ترجم سعد الخادم كذلك بنفسه روايته "رجال وخنازير" ، التي كتبها عام 1967.

وله أيضًا "ثلاثية يوليسيس" The Ulysses trilogy، التي كُتبت ونُشرت بين عامي 1985-1987 وهي ثلاث نوفيلات في كتاب واحد عن رحلات أكاديمي مصري عبر عشرين عامًا

وترجمها سعد الجبلاوي، استوحى فيها سعد الخادم رواية "أوليس" لجيمس جويس، وطريقته في تداعي الأفكار والأحداث، لكنها طبعًا صغيرة جدًّا جدًّا قياسًا على أوليس جيمس جويس.

من المقالة عرفت أن سعد الخادم مصري ولد في مصرعام 1932 وتوفي في كندا عام 2003. لقد حصل على بكالوريوس في الفنون من مصر ثم الدكتوراه من النمسا.

في عام 1968 أُعير كمدرس مساعد للغة الألمانية في جامعة برونسويك الجديدة Brunswick New في كندا، وكذلك لتدريس الأدب المقارن. هناك أمضى بقية حياته. من هنا عرفته الدكتورة منار عمر المترجمة ومدرسة الأدب الألماني. لقد أنتج أكثر من ثلاثة وعشرين كتابًا بينها أربع عشرة رواية. أما سعد الجبلاوي فهو أيضًا مصري عمل أستاذًا في كندا للأدب واللغات، ولد في مصر عام 1927 وتوفي عام 2002 في تورنتو بكندا.لقد حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية، ثم على الدكتوراه من جامعة ليفربول، وهاجر إلى كندا عام 1968 وقام بترجمات كثيرة من الأدب العربي، منها قصص قصيرة لنجيب محفوظ إلى الإنجليزية.

وصلني نص رواية واحدة بالعربية لسعد الخادم من الصديق الدكتور محمد عيسى. هي نوفيلا "الطاعون". ومقدمة الترجمة الإنجليزية التي كتبها سعد الجبلاوي المترجم، والنصان منشوران معًا في كتاب واحد أصدرته مطبعة يورك York Press في كندا، في سلسلة كتابات ودراسات في الأدب العربي، وهي السلسلة التي نشرت بالإنجليزية أعمالًا كثيرة عن الأدب المصري، وكتابًا عن الأمثال والأقوال الشعبية المصرية ترجمها سعد الخادم، وأسماه "الدنيا زي الخيارة" Life is like a Cucamber.

ترجم سعد الجبلاوي نوفيلا "الطاعون" وكتب لها مقدمة تحليلية وفنية عميقة. لكني أحببت أن أقرأ النص الأصلي بالعربية للرواية واكتفيت بالمقدمة الإنجليزية. وجدت أني أتوافق مع سعد الجبلاوي في علامات واضحة في النوفيلا، وهي أنها عبارة عن مونولوجات وسرد من الخارج متداخلين لعشر شخصيات، سبعة رجال وثلاث نساء، في مكتب للهجرة للحصول على تأشيرة الخروج في عصر جمال عبد الناصر. أسهل شيء أن تصل إلى ما وصل إليه المترجم من أن المقصود بالطاعون هو عصر عبد الناصر نفسه، الذي أراد فيه كل من يملك عقلًا ويفكر في الرأي والمعارضة أن يطير عابرًا البلاد. يقول المترجم أن ذلك يذكره بالديكاميرون لبوكاشيو، حيث هروب عشرة أشخاص، سبعة رجال وثلاث نساء أيضًا، من الطاعون في القرن الرابع عشر في فلورنسا، وهكذا في مصر بعد عام 1952 وما فعلته ما سميت بثورة يوليو كما يقول الكاتب. والتي يرى أنها حولت مصر إلى معسكر اعتقال كبير. أمة تحت الأسوار. كارانتينا للعزل. وبيوت للقبض على الناس فيها. إلخ.

نعرف حكاية كل منهم من رجال ونساء. الأول يتحدث قائلًا: "اسمي محمد إسماعيل" ولا ينتظر المؤلف فيدخل بالسرد المباشر ليتحدث عنه. فتى في الخامسة والعشرين يستمر في وصفه من مواليد القاهرة، وعلى الفور مونولوج لمحمد إسماعيل بلغة غير متوقعة "هو إنت شايف إني من مواليد الأناضول يابن الـ... يا غبي" كأنه يرد على المؤلف بشتائم فظيعة. ويستمر محمد إسماعيل في الحديث عن أهله وعن نفسه، فتعرف أن أباه كان كبير مهندسي شركة الكيماويات بحلوان،

وهي في الأصل كانت مصنعًا يملكه يوناني، تم تأميمه وتغيير اسمه وأفلست. الحديث يستمر عن الفساد وعن السرقة والنساء والجرسونيرات – الشقق الخاصة – بالمسؤولين لمعاشرة النساء. محمد إسماعيل يريد الخروج أصلًا خوفًا من الموت بعد التخرج في حروب عبد الناصر التي انتهت بالهزائم. يمشي الحديث في ثلاث طرق متداخلة. ضمير المتكلم. مونولوجات سريعة أو حوارات مكتومة للآخرين، ثم المؤلف، وتفاجئنا عبارات كثيرة من نوع: "إنتم عايزين مننا إيه يا ولاد الـ...." وكثير جدًّا مما يمكن أن تتصور من شتائم بالجنس تعرفها العامية المصرية.

نعرف كيف استقر أخوه في أمريكا بعد أن تزوج من امرأة عجوز هناك وكيف يعيش معها في مزرعتها، ويبدأ الحديث عن المرتبات في مصر وأمريكا، وكيف أن من يذهب لا يعود، ففي أمريكا "العربيات المستعملة بتتباع في شوادر زي شوادر البطيخ هنا، شاطرين بس يقولوا الأمريكان يا ريس، دول حبة كلاب يا ريس".

ثم يتابع محمد إسماعيل في أمريكا وما جرى له، فالتجنيد إجباري هناك وقتها، وتنفجر فيه قنبلة في أحد التدريبات، ويعيش مشوّهًا لكن مكرّمًا من الدولة الأمريكية مع أخيه وزوجته بالمزرعة.

الثاني مجدي نعيم في الثانية والثلاثين من عمره ومدرس لغة فرنسية. يعني "عضمة زرقا"، كما يسمع عن المسيحيين!

ينتقل بنا المؤلف على طريقته المتداخلة في السرد عن الحال السيئ بين المسيحيين والمسلمين وإن كان مكتومًا، وعن هجرة المسيحيين الكثيرة هربًا من الفقر والقهر والعنصرية، وكيف تُرفض تأشيرات خروجهم كثيرًا، وسعيد الحظ هو من يجد طريقه إلى كندا أو أمريكا أو أستراليا. مجدي نعيم كان مدرسًا بالصعيد، وضاقت به البلاد بسبب إنه عضمة زرقا ويتحدث في مونولوج غاضبًا: "أنا مش عضمة زرقا، إنتم اللي نزلتم على خير وادي النيل زي الجراد أكلتم خيراته، وغيرتم عاداته، وقضيتوا على أمجاده. دول نسوان الفراعنة كانوا بيشربوا بيرة ويلعبوا تنس ويحطوا أكلادور في إيديهم ويتجوزوا عن حب، جيتوا انتم حبستوهم في البيوت وخوفتوهم من الرجالة وعملتوهم عبيد تخدم عليكم أو بقر يولد لكم، والأكتر كمان إنكم عاملتم أهل البلد الأصليين إنهم خونة وجواسيس وعُملا، طيب آديني سايبها لكم اعملوا فيها اللي انتم عايزين تعملوه، قسموها بينكم، بيعوها لروسيا، اعملوها جمهورية عربية إسلامية، ما هو كله مكسب، وكله داخل جيوبكم ما دام بتقولوا الدين الرسمي للدولة هو الإسلام" طبعًا يقصد دخول العرب إلى مصر كما يراه هو، ويستمر معترضًا أن يكون الدين مرجعًا للحياة الواقعية وهو أفكار روحية..إلخ، ويدين الأزهر وأحد المشايخ الذين عرفهم.

الكاتب نشر النوفيلا عام 1989 ورأى ما جرى في عصر السادات، والحديث هنا في عصر عبد الناصر، لا يعد استشرافًا لما حدث، لكن تأكيدًا عليه - ويتابعه في رحلته وكيف لم يوفّق في الحياة الزوجية مع يولين الكندية التي تعرف عليها في القاهرة، ويعود من جديد بعد أقل من عام، ليمضي حياته ذليلًا يتنقل بين البلاد في مصر، وحيدًا بلا زوجة أو ولد، حتى يلقى ربه حين يترقى ناظرًا لمدرسة!

نظل نتنقل بين الشخصيات بنفس طريقة السرد ثلاثية الأضلاع إذا جاز التعبير وبنفس تداعي اللاشعور. وسأقف فقط الآن عند امرأة مهاجرة وعند رجل الأمن الأخير.

المرأة هي كوثر سلامة التي يرى البعض أنها ممثلة معروفة بسلوكها المنحرف، ويرى الآخرون أنها مقدمة برامج منحلة، والأغلب أنها مُباحة لطوب الأرض! هذه مونولوجاتهم الداخلية وأكثر. المهم أنها سيدة أنيقة في آخر الثلاثينيات من عمرها، ستسافر إلى فرنسا للاشتراك في مهرجان السينما، ومنه إلى إيطاليا لحضور مؤتمر التليفزيون الثقافي الدولي "آه أنا بس أحط رجلي برّة مصروأقدم على الفيزا الأمريكاني من الخارج علشان ماحدش من السفاحين يشتبه فيَّ، تلاقيني في يوم وليلة بقيت جاسوسة أو متسللة إسرائيلية أو عميلة شيوعية أو مديرة بيت دعارة، هم يعني حيغلبوا" المهم إنها تصل إلى أمريكا وتحاول العمل في السينما وتفشل فلابد أن تتنازل عن الكثير من جسدها وروحها، فتبدو عكس ما قاله الواقفون ينتظرون تأشيرة السفر عنها. الكل مرعوب من الكل. ينتهي بها المقام في مدينة ديترويت. تجد عملًا في أحد الفنادق وتخطط في هدوء للأيام القادمة، لكن صباح أحد الأيام بعد ثلاثة أشهر من حضورها، يجدها البوليس جثة ملقاة في الشارع ممتلئة بالطعنات. من قتلها؟ أكثر من سيناريو محتمل لكن كل الإشارات الهامسة في الرواية تقود إلى مصر.

أختم حديثي عن الشخصيات بالسابع من الرجال والأخير، أي العاشر بينهم. الضابط الذي كان يقوم بتعذيب المعتقلين في السجون. يقدمه بما يليق به فهو ينظر إلى الجميع بتعالٍ واشمئزاز. إنه حسن صفوت، في الخامسة والأربعين، ذكرني لقبه صفوت، بصفوان لقب الضابط خالد الذي قام بدوره كمال الشناوي في فيلم الكرنك الذي تم إنتاجه عام 1975. يتساءل في نفسه هل يعرفونه، وتأتي الردود مونولوجات قصيرة من بعضهم أنهم يعرفونه ورأوه في الصحف. إنه وحْش السجن. ويشتمونه بأحط الألفاظ دون صوت ويندهشون "إزاي ولا دعوة من الدعوات اللي الناس دعتها عليك صابتك". هو الآن بعيد عن السلطة يتصورها فترة نقاهة، واستعدادًا لمرحلة قادمة، ومسافر للعلاج في لندن. يقول في نفسه كعادة المؤلف: "تعرفون أني بعيد الآن عن التأثير لكن حين أعود سأكون الحارس الأمين لمبادئ الوطن"، لكنه يخشى أن يتحالف النظام مع الإخوان المسلمين – مرة أخرى حدث ذلك في عهد السادات لا عبد الناصر، ومن ثم ليس استشرافًا في الرواية، لكن تأكيدًا وإن بطريقة غير مباشرة – أو "يتقربوا من أمريكا ويعملوك كبش فدا، أو ينبسطوا مع الشيوعيين – واضح إنه قام بتعذيب جميع التيارات – لكن أنا مش حاستنى وتاخدوا كل حاجة ببلاش يا ولاد الـ...، أنا كنت باعمل دا علشان مين". وهكذا بأحط الألفاظ يستمر.

يحصل على تأشيرة السفر للعلاج على نفقة الدولة، وبعد ثلاثة أشهر يجده خادم الفندق جثة ينزف منها الدم في غرفته، وسيكون البيان الرسمي للدولة المصرية أنه راح ضحية أزمة قلبية فاجأته أثناء نومه.. طبعًا هذا يذكرك بما حدث لأكثر من شخصية مصرية هامة في برج ستيوارت في لندن قبل وبعد الرواية.

روايات هذا الكاتب سعد الخادم التي ترجمت للإنجليزية أو القراءة عنها، تؤكد أن كسر التابوهات مسألة أكثر من عادية عنده. هل كان حديثه بالعامية الفجة الذي يشترك فيه الجميع حنينًا في الغربة؟ ربما. هناك اختلاف ثقافي بينهم كان يمكن أن يغيّر اللغة. كما أنّ الحديث عن أن بالكتابة

الجديدة ميزة كسر التابوهات يبدو ضعيفًا أمام طريقته، فلم يترك لفظًا إباحيًّا إلا واستخدمه، واستباح السلطة بكل أجهزتها والمؤسسات الدينية ورجال الدين.

سؤالي هو كيف لم يعرفه النقاد في مصر؟ كيف لم يكتب عنه أحدهم؟ المدهش أن صديقي الدكتور محمد عيسى لم يجد أي ذكر له في الويكيبيديا العربية ولا أنا. لقد أرسل لي مقالًا كتبه محمود المنزلاوي بالإنجليزية عن ثلاثية "المصري الطائر" في مجلة الأدب الكندي، وهي مجلة فصلية في النقد الأدبي، وهو مقال يوضح كيف أن الرواية أيضًا إدانة كاملة لعصر عبد الناصر وطبعًا بها من الأوصاف غير المعتادة الكثير، ورغم أني قرأت المقال بالإنجليزية لكنه ينضح بهذا المعنى مثل مقال إليزابيث دهب.. على أي حال الباب مفتوح الآن لمن يشاء للبحث عن أعماله ودراستها، فهذا ليس من عملي حتى لو عثرت على بقية رواياته، لكنها مهمة النقاد ودارسي الأدب. وإذا لم يجدوا الروايات على الإنترنت مثلي فهي مطبوعة في الخارج. في كندا. فليرسلوا لشرائها. أو فليتقدم من كتب عنه بالعربية ولا نعرف ليقول لنا. كاتب له ثلاثة وعشرون كتابًا بينها أربع عشرة رواية تُرجمت للإنجليزية كيف يغيب هذا الغياب؟ وهل كانت آراؤه التي تحملها شخصياته عن عصر عبد الناصر هي السبب؟

"أخبار الأدب "

رسالتان من المعري وأبي حيان

في رسائل الأدباء مجال كبير للمعرفة. معرفة أحوال الأديب النفسية، وأحوال العصر الذي عاش فيه، وفي رسائل الأدباء أيضًا فرصة كبيرة للمتعة الروحية والذهنية.

وفي هذا المقال لا أحدثك عن أنواع الرسائل، والطرق المختلفة التي اعتمدها الأدباء في كتابة رسائلهم، وإن كنت مع القائلين إن الرسائل فن قائم بذاته بين فنون الأدب، لكني أريد أن أقف بك قليلًا عند رسالتين اتفق لي أن قرأتهما منذ وقت طويل، وظللت لسنوات أفكر في أن أكتب شيئًا عنهما. الرسالة الأولى هي رسالة أبي حيان التوحيدي لأبي الوفا المهندس، والثانية هي رسالة أبي العلاء المعري إلى أهل المعرة.

غاية القهر:

يقف تاريخ الأدب حزينًا دائمًا عند أبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي المشهور بأبي حيان التوحيدي. ومصدر الحزن هو أن هذا الكاتب الفيلسوف، الأديب العظيم عاش عيشة ضنكًا دائمًا، ومات منبوذًا بعد أن أحرق بنفسه كل كتبه، وكادت كتب التاريخ الأدبي تهمله إهمالًا. لقد اختلف المؤرخون في ولادته وموته، لكنهم اتفقوا جميعًا أنه عاش في القرن الرابع الهجري، ولقد حدد المرحوم أحمد أمين حياته وموته بين سنتي 312 هـ، 400 هـ، وبين الميلاد والموت عاش التوحيدي حياة صعبة مارس فيها مهنًا مختلفة حقيرة كلها
لا تتناسب مع قدراته العلمية والثقافية. وعاش وحيدًا لم يتزوج، ولا عرف نعمة الاستقرار، أو كما قال عن نفسه: "فقد الولد النجيب، والصديق الحبيب القريب، وصار غريبًا في وطنه، معتادًا الصمت، ملازمًا للحيرة، متحملًا للأذى يائسًا من جميع ما يرى"، أو كما قال أيضًا: "فقدت كل صاحب، والله لربما صليت في المسجد فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق، فبقال أو عصار أو قصاب. وقد أمسيت غريب الحال، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة".

ولقد كان مصدر غربته هو القرن الرابع الهجري نفسه الذي كان عصر اضطراب سياسي كبير في الدولة العباسية، اضطراب أشاعته طبقة القادة الترك، وطبقة الوزراء، وطبقة الحريم، وكثرت فيه مؤامرات البلاط، وانتشرت فيه الفتن والمجاعات، وتبخرت رهبة الخلافة، واستوى الأمراء على البلاد واستقلوا ببعضها، حتى لم يبق للخليفة العباسي سوى بغداد وما يلحق بها. وفي وسط هذا المناخ حاول التوحيدي مثل غيره الاقتراب من بعض الأمراء، إلا أنه فشل دائمًا في الحفاظ على صلة دائمة طيبة بأي ممن لحق بهم، مثل الوزير المهلبي أبي محمد الحسن بن محمد الذي كان مقصد الأدباء، ولكنه كان شيعيًّا متزمتًا، في الوقت الذي كان فيه أبو حيان مفكرًا حرًّا يميل إلى الاعتزال - أي مذهب المعتزلة - فنفاه الوزير المذكور من بغداد. كذلك اتصل بابن العميد، الوزير البويهي في الدولة البويهية في فارس، لكن نزق ابن العميد الشاب لم يرق
لأبي حيان، وحدث الشيء نفسه مع الصاحب ابن عباد، الوزير البويهي أيضًا الذي خلف ابن العميد بعد مقتله، وكان بينه وبين ابن العميد عداوة قديمة. في هذه المرة لم يستطع التوحيدي

مصانعة ابن عباد بالنفاق كما يفعل من حوله من الملتحقين ببلاط الوزير من الأدباء، بل ومدح مرة ابن العميد أمام ابن عباد، برغم ما كان من خلاف بينهما.

لقد ترك أبو حيان الصاحب ابن عباد وعاد إلى بغداد دون أن يعطيه
ابن عباد درهمًا واحدًا على ثلاث سنوات قضاها عنده، وكتب أبو حيان فيما بعد رسالة في "مثالب الوزيرين". بعد ذلك قام أبوالوفا المهندس صديق أبي حيان، والذي اكتسب لقبه من صناعته، قام بالتقريب بين أبي حيان والوزير أبي عبدالله العارض، فأصبح أبو حيان من سُمَّار الوزير وندمائه لأربعين ليلة، طلب منه بعدها أبوالوفا المهندس أن يدونها له في كتاب، وهدده إن لم يفعل ذلك بقطع ما بينه وبين الوزير، فكتب أبوحيان تحت الخوف والقهر كتابًا من أجمل الكتب العربية هو "الإمتاع والمؤانسة". وفي نهاية الكتاب الرسالة التي أردت أن أحدثك عنها والتي مهدت لها كل هذا التمهيد والتي أنقل إليك بعض فقراتها:

"أيها الشيخ، سلمك الله بالصنع الجميل، وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول، وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك عليّ، كسابق اهتمامك بأمري، حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد أشبع كل جائع، وكسا كل عار، وتألف كل شارد، وأحسن إلى كل مسيء. ولم يبق في هذه الجماعة على فقره وبؤسه غيري، مع خدمتي السالفة والآنفة، وبذلي كل مجهود، ونسخي كل عويص، وقيامي بكل صعب، والأمور مقدرة، والحظوظ أقسام، والكدح لا يأتي بغير ما في اللوح "لكن الظروف كانت أصعب مما يحتمل فهو لا يلبث أن يكشف عنها بالتوسل قائلًا:

"خلصني أيها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر، استرني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، اكفني مؤونة الغداء والعشاء. إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع. أيها السيد ارع زمام الملح بيني وبينك، وتذكر العهد في صحبتي، ودعني من التعليل الذي لا مرد له، والتسويف الذي لا آخر معه. ذكِّر الوزير أمري، وكرر على أذنه ذكري، وابعثه على الإحسان إلي". ويظل أبو حيان بعد ذلك يعدد مناقب الوزير ومناقب صديقه أبي الوفا المهندس ثم ينتهي في يأس قائلًا: "أنا الجار القديم، والعبد الشاكر، لكنك مقبل كالمعرض ومقدم كالمؤخر، وموقد كالمخمد، تدنيني إلى حظي بشمالك، وتجذبني عن نيله بيمينك، وتغديني بوعد كالعسل، وتعشيني بيأس كالحنظل".

رسالة غريبة من كاتب كبير اتسم بالصراحة الزائدة، لكنه أيضًا رضي في وقت ما أن يلتحق بالساسة وفقًا لشروطهم، دون أن يعرف قواعد لعبتهم، لذلك لم يفز منهم حتى بالإياب. اشتد القهر بأبي حيان فأحرق كتبه بعد أن قال عنها في رسالة أخرى إلى القاضي علي بن محمد: "اعلم أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًّا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس ولطلبي المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرقت ذلك كله. وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد، ولقد اضطررت بينهم - بعد الشهرة والمعرفة - في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم...".

لعل هذا الجزء من رسالة التوحيدي يكشف عن نصيبه هو أيضًا في الخطأ، ولكن النصيب الأكبر كان للعصر نفسه الذي دفع هذا العالم إلى الجوع والعري الدائم، ولنا أن نتصور كيف استطاع أبو حيان أن يشارف التسعين من العمر بعد كل هذا الشقاء. لقد انتقم من العصر كله حين أحرق كتبه، وكان حرق الكتب أيضًا شكلًا من أشكال الانتحار.

لكن الرسالة الثانية لأبي العلاء المعري تقدم لنا نموذجًا مختلفًا، ولونًا آخر من ألوان الاحتجاج الحقيقي، نوعًا آخر من الاغتراب.

اغتراب إرادي:

رسالة أبي العلاء التي أقصدها هنا هي رسالته إلى أهل المعرة عند خروجه الحزين من بغداد. رسالة غير مسبوقة ولا ملحوقة في تاريخ الأدب والأدباء. مجمل الرسالة أنه أزمع العودة إلى المعرة، والدخول إلى بيته دخولًا لا خروج بعده إلى الأبد. والأهم هو أنه لا يريد لأحد من أهل المعرة أن يخرج لاستقباله. يا إلهي، ما الذي دفع أبا العلاء إلى ذلك حقًّا؟ لا بد أن للعمى نصيبًا في ذلك، ولموت أبيه في صباه مما أورثه الحزن، ورحلته إلى بغداد، ثم موت أمه وهو في طريق العودة إلى المعرة موطنه الذي اشتهر به. ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ما أجمله طه حسين عنه من أنه "خلق إنسي الولادة وحشي الغريزة ".

لقد كان أبو العلاء يدرك سجن العمى، لكنه كان يدرك سجنًا آخر أقسى هو سجن الروح في الجسد، وإذا أضفنا إلى ذلك معرفة أبي العلاء بعصره، وهو نفس القرن الرابع، والنصف الأول من القرن الخامس الذي ازدادت فيه أحوال الخلافة العباسية سوءًا، عرفنا كيف لم يسع أبو العلاء سعي التوحيدي إلى أي من الأمراء. سعى إلى سجن ثالث هو البيت. لقد قرر أبو العلاء مواجهة اغتراب العصر باغتراب إرادي ومنذ وقت مبكر. لقد عاش أبو العلاء بين عامي
363- 449 هجرية قضى منها حوالي خمسين سنة في بيته. تقول الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب إلى السكن المقيم بالمعرة، شملهم الله بالسعادة، من أحمد بن عبد الله بن سليمان خص به من عرفه وداناه. سلم الله الجماعة ولا أسلمها، ولم شعثها ولا آلمها، أما الآن فهذه مناجاتي إياهم منصرفي عن العراق مجتمع أهل الجدل، وموطن بقية السلف، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت، وودعت الشبيبة فمضت، وحلبت الدهر أشطره، وجربت خيره وشره، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة، عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سائح النعام، وما آلوت نصيحة لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي، فأجمعت على ذلك، واستخرت الله بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم فكلهم رآه حزمًا، وعده إذا تم رشدًا".

كان أبو العلاء في حوالي الأربعين أو يزيد عليها قليلًا حين كتب هذا الكلام، ورأى أنه بعد أن بلغ هذه السن يكون قد عرف الكثير من أحوال الدنيا بما يكفي أن يعتزل عنها. والحقيقة أن الأمر يتجاوز المعرفة بالدهر إلى موقف أعمق، إلى موقف فلسفي وروحي من الدهر نفسه، واعتزال أبي العلاء هو هذا الموقف.

لكن في هذه الفقرة من الرسالة عبارة شديدة الخطر هي "واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم فكلهم رآه حزمًا، وعده إذا تم رشدًا".

إذن استشار أبو العلاء عددًا من الناس ممن يثق في سلوكهم ورأيهم فوافقوه، بل ورأوا في الاعتزال حزمًا وعقلًا. وبالطبع لا يمكن أن يوافقه هؤلاء العقلاء لأنه أعمى أو لحزنه على موت أمه أو لعودته من بغداد أو لأنه يرى روحه تعيش في سجن جسده، ولكن لا بد وافقوه لأنهم رأوا الدهر كما رآه هو، عصرًا شديد الوطأة على الأديب الحر يدفع دفعًا إلى الاغتراب. ومن ثم أراد أبو العلاء أن يواجهه بنفس السلاح، بل ويعلو ويتفوق على العصر، يعتزله نهائيًّا. وتعود الرسالة إلى مزيد من تفسير الأمر، فيقول أبو العلاء:

"وهو أمر ليس بنتيج الساعة، ولا ربيب السهر، ولكنه غذي الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل".

وهنا يعلن لأهل معرة النعمان رغبته في ألا يلقاه أو يقابله أحد حتى إذا لم يخرج إليه فلا يتعرض للوم. ولا يذكر أحد من المؤرخين ما إذا كان أهل المعرة قد خرجوا لاستقباله أم لا. ولكن المؤكد أن أبا العلاء بعد أن دخل بيته لم يستطع منع الناس من زيارته، فكان له تلاميذ يستمعون إليه ومريدون، لكنه لم يخرج من البيت إلى شأن من شئون الدنيا غير ثلاث مرات، كما قيل، كان في خروجه فيها مضطرًّا عبر خمس وأربعين سنة.

لقد عاش التوحيدي وأبو العلاء عصرًا واحدًا، وشهد أبو العلاء النصف الأول من القرن الخامس الهجري، أي شاهد مزيدًا من التفسخ للدولة العباسية، ورسالته ورسالة التوحيدي وجهان لعملة واحدة هي العلاقة بين المثقف وعصره. المثقف الحقيقي في عصر أهم ما يميزه مؤامرات الحكام وأطماع الجيران.
أبو حيان هو صورة المثقف الذي لا يرى له طريقًا خارج المؤسسة الحاكمة فكانت نهايته الفاجعة حين اكتشف أن هذا الطريق مفتوح لعديمي الموهبة فقط، أما الموهوبون فلا يستطيعون التعايش مع جو النفاق السائد، ينتحرون. وأبو العلاء هو صورة المثقف الجبار الذي يحدد من البداية موضعه فوق العصر والحكم وحكامه، فيعتزل الجميع اعتزالًا مثمرًا لا اعتزال المنفصل عن العصر، إنما اعتزال الغريب الذي وهو يدرك أن جسمه سجن لروحه، يدرك أن العصر سجن لطاقته وقدراته العقلية والأدبية، ومن ثم وجب الاغتراب وبالإرادة.

ترى هل وعى أبو العلاء درس التوحيدي؟ ربما ولا بد أنه قد بلغته أخباره أو قابله في بغداد. على أي حال لقد كان وعي أبي العلاء بالعصر أكثر، وفي وقت مبكر، ولقد قدم أبو العلاء درسًا جبارًا عن الإرادة الإنسانية لو وعاه الأدباء في العصور اللاحقة لما ظلوا تحت رحمة السلطان ولما تمكن منهم حكم ولا حكام.

أبو حيان وأبو العلاء يصلحان إذن نموذجين لشكل العلاقة بين المثقف وعصره، ونموذج أبي حيان خالد ومتجدد دائمًا، لكن نموذج المعري هو ما نحتاج إليه ولا نجده في عصرنا هذا، إنه نموذج من نوع خاص تتجلى فيه الإرادة الإنسانية في جوهرها النقي العميق. على أن المثير في الرجلين حقًّا

هو غزارة إنتاجهما رغم ما مرَّا به من شرور وآلام. وإذا كان اعتزال أبي العلاء ساعده على غزارة وعمق الإنتاج فما بال أبي حيان لا تعطل آلامه واشتراكه الفعلي في الحياة السياسية والتحاقه بالأمراء، لا تعطل غزارة إنتاجه. لقد كان أبو حيان موهبة جبارة أرادت أن تخضع العصر لها فانكسرت وانتصر العصر. وكان أبو العلاء موهبة جبارة أيضًا لكنه عرف مبكرًا أن أفضل طريقة للنزال مع العصر هو إعلان الاغتراب عنه.

"مجلة العربي الكويتية فبراير 1993"

كيف تكتب عن فيصل دراج ؟

سؤال تداعى إلى روحي وأنا أتهيأ لكتابة هذه الشهادة وهو صاحب المسيرة الرائعة والكتب والأعمال الباهرة. لكني تركت روحي تكتب.

لا أستطيع أن أفصل بين ما قرأته من أعمال لفيصل دراج وبين لقاءاتي القليلة به. رأيت فيه شخصًا يتسع صدره لكل ما حوله من نقاش، ويبدو دائمًا مهمومًا بما هو أكبر. يعيد إليّ صورة نقاد كبار مثل علي الراعي وشكري عياد في لقاءاتي بهم، وكيف كان اهتمامهم بما هو جميل فما أسهل النقاش حول الرديء من الأعمال وكيف هي كتابة لاجدوى منها. مؤكد إنه كان مفاجئًا لي يومًا أني قرأت له مقالًا عن روايتي القصيرة "ليلة العشق والدم" مع رواية إبراهيم أصلان "مالك الحزين" في الثمانينيات في إحدى المجلات العربية، وكيث ثار في نفسي سؤال كيف لناقد لم ألتقِ به من قبل، أن يكتب عن عمل صدر في دار نشر صغيرة في مصر ولا أعرف كيف وصل إليه وأنا بعد أبدأ خطواتي. أدركت من يومها إنه يتعامل مع الأعمال لا مع أصحابها وليس كما كان يُشاع حولي وقتها في الحياة الأدبية في مصر باستثناءات الكبار الذين ذكرت اثنين منهم وهناك طبعًا غيرهم. في كل الأحوال كان حظي أكبر مع الكتاب والنقاد العرب في بداية حياتي.

لقد وضعني محمود درويش على خريطة الأدب العربي حين نشر لي رواية كاملة في مجلة الكرمل عام 1984. هل لو قلت لكم أن مجموع الكلمات التي دارت بيننا أنا وفيصل دراج منذ ذلك الزمن وحتى اليوم لا تزيد عن ألف كلمة، كانت فيها ابتسامته تشغل من الفضاء أكثر من أي شيء ستصدقون؟ هذا ما جرى حتى إني كنت كثيرًا ما ألوذ بالصمت. حتى حين كنت عضوًا في لجنة جائزة محمود درويش لثلاث سنوات وهو رئيسها ونحن نلتقي في عمّان حيث مجاله الحيوي، إذا جاز التعبير، أكثر اتساعًا فنحن في الأردن والحديث عن فلسطين. كانت معرفتي به ككاتب وناقد ومفكر من خلال كتبه رغم أني لم أقرأها كلها ومن خلال معرفتي بوجوده في مناصب وهيئات مهمة مثل مجلة شئون فلسطينية أو مديرًا لقسم الأبحاث والدراسات في المركز العربي للدراسات الإستراتيجية في دمشق وغيرها.

قرأت يومًا أنه حصل على الدكتوراه من فرنسا في موضوع "الاغتراب بين ماركس وهيجيل" وهو موضوع يشغل المبدعين أكثر من المفكرين وكان أمرًا جميلًا لي، وللأسف لا أعرف هل تمت ترجمة هذه الدراسة وطبعها أم لا، فيقيني إنها ستكون مفتاحًا لكل ما كتب، فالذي يكتب كتابًا كهذا عن الاغتراب كان يمكن أن يكتب روايات أيضًا، فدراسة كهذه لا بد تركت أثرها على روحه ورأى موضوعها حوله في كل شيء. كيف أجلت سؤالي له عن هذه الرسالة كل هذه السنين؟ لا أعرف. هل هو الصمت أم هل الاغتراب الذي إذا تذكرته ابتعدت عما حولي؟ لا أعرف. قرأت له بعض كتب أخذتني عناوينها ومن ثم آراؤه فيها مثل "ذاكرة المغلوبين" أو "الرواية وتأويل التاريخ" أو "نظرية الرواية والرواية العربية"، ولا أنسى مقالًا له عن عبد الرحمن منيف وسعد الله ونوس يقول فيه مقولة قالها له سعد الله ونوس: "أرجو أن لا نشبه في شجاعتنا آخر الموهوك"، وهي القبيلة الهندية التي ضاعت في أمريكا والتي رأيت عنها فيلمًا مدهشًا يومًا ما. كما حكى في المقال بعمق كبير وصدق يوسع في الكلمات عن محبته

لسعد الله نوس وعبد الرحمن منيف وكيف كان ذلك تشخيصًا لحالتنا عند
سعد الله ونوس، أو أن الكتابة فعل لا ينتظر مكافأة ولا يعد بالتغيير. وهي عبارة لا يعرفها إلا المبدعون الكبار الذين يمتلكون العالم أثناء الكتابة ولايريدون أو ينتظرون شيئًا بعد ذلك. كلام سعد الله ونوس وجد صدى عميقًا في روحه لأنه يعبر عنه أيضًا.

إن ما قدموه في كتاب "قضايا وشهادات" سيظل علامة على البحث العلمي والإنساني في مسيرة التنوير العربي في عصور الهزائم والانتصارات، إذ حفل الكتاب بكتّاب قدموا الكثير وعاشوا غرباء، موتى وأحياء وليس أجمل من قوله عنهم: "أتصور ونحن نستقبل الأموات في كتابنا أننا نكتب معًا "دراساته في الرواية العربية لم تفصلها عن عصر النهضة العربية، بمعنى أنها أيضًا – الرواية - كانت مثل أصحاب الأفكار الكبيرة تسعى إلى النهضة ممثلة في الحرية والمساواة، ولم تكن مجرد تقليد للغرب فقط، رغم أن كل شيء حولها كان يعزز السلطة الدينية وبلاغة اللغة التقليدية ووضع خطوط حمراء في الوجدان الإبداعي لكن جاءت الرواية لتتخطى ذلك. للأسف زادت الخطوط الحمراء في حياتنا منذ السبعينيات رغم ما جرى من تطور في الشكل والبناء الروائي، وعرف الكتاب هجومًا رجعيًّا واتهامات بالكفر، وسادت رؤى تريد أن تجعلهم مدرسين للتربية الوطنية، بينما الرواية تواصل طريقها في البحث عما هو مفارق للواقع وغيرمتوافق معه -عن الاغتراب.

لقد كان ذلك بفعل انتشار الوهابية والجماعات الإسلاموية والأنظمة السياسية معًا التي أرادت للناس أن يكونوا خرافًا يمشون خلفها هي التي تمسك بحزمة البرسيم في يدها.. تعدد القراء لرواية يعني محفلًا للديموقراطية، بينما أولئك يريدونها لقارئ ساذج يمسكونه بحبل من عنقه ليمشي خلفهم. هذه لغتي أنا الغريب! أزمة الرواية أنها مائدة ديموقراطية وتعرف أن العالم العربي حولها يدمر هذه المائدة كل يوم لولا وجود مفكرين مثل فيصل دراج. كان حديثه عن الرواية التاريخية هو اختلافها عن رؤية المؤرخين السلطوية باعتبار الرواية هي حياة المقموعين أو ذاكرتهم يمشي معي فالرواية حقًّا تعيد روح عصرها القديم كما عاشه الناس الذين لا تذكرهم كتب التاريخ. المهمشون هم صناع الرواية بينما المؤرخون يبحثون عن الزعماء والقيادات.

روح أي عصر هي في مهمشيه. كنت دائمًا أشعر أن قيمة الرواية التاريخية هي أن تأخذك إلى هناك ولن يحدث لك ذلك إلا بحميمية المهمشين. كنت أشعر بذلك وأنا أكتب روايتي "لا أحد ينام في الإسكندرية" قبل أن يصدر هو كتابه "الرواية وتأويل التاريخ". أسعدني كتابه فيما بعد ولم أجد تفسيرًا غير ما أراه على وجهه دائمًا من انتظار المبدعين أو انشغالهم بأفق بعيد. كتابه ذاكرة المغلوبين يبدو أمام القارئ حديثًا عن أدباء فلسطينيين وكيف حفلت كتبهم بما يمكن أن تقوم الحركة الصهيونية بإخفائه وكيف تجلت العلاقة بين المثقف الفلسطيني والصهيونية أدبيًّا عند جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفاني وإميل حبيبي ومعين بسيسو ثم كيف تجلت عند آخرين مثل إسحاق موسى الحسيني ومحمد عزة دروزة وخليل سكاكيني. يمكن الحديث باستفاضة عن الهوية الفلسطينية في مقابلة الصهيونية لكن المهم هو كيف كان بعضهم مثل جبرا إبراهيم جبرا يشعر أو يقدم القوة بينما إميل حبيبي وغسان كنفاني يقدمان القلق والهزيمة. والمهم لي أنا الذي قرأت لهؤلاء الثلاثة أكثر وفتنت بهم وبأعمالهم أنه وهو يكتب عنهم بدا لي يضع الذاكرة أمام القارئ في كتاب واحد يمكن

بعده أن يبحث عن تجلياتها عند الآخرين ممن كتب عنهم ومن لم يكتب. أليس فلسطينيًّا مثلهم وانشغاله بكتاباتهم هو انشغال بالقضية الفلسطينية يجمع القراء حول مائدة حافلة رغم أنها كتاب.

الذاكرة بتجلياتها يمكن أن تتبعثر بين الكتَّاب فيفوت القراء الكثير منها لكن يأتي كتاب فيصل دراج ليضعها أمامك. فضلًا عما يتأكد لي أنه هكذا تتجلى روحه الإبداعية في كل دراساته.. سعادتي كبيرة بالمشاركة في الاحتفال به أنا الذي عشت أرى إنكارًا في نهاية العمر، غالبًا ما يحدث من المبدعين للنقاد. الاحتفال بفيصل دراج كناقد ومفكر هو احتفال بالإبداع أيضًا ليس للأسباب التقليدية من كون النقاد علامات طريق للكتّاب والقراء، لكن لأن الكبار من النقاد والمفكرين مثل فيصل دراج وهم ينشغلون بما ينتجه الآخرون من المبدعين يخوضون معركة كبرى من أجل الغرباء والمهمشين، ويضعون المبدعين الذين كتب عليهم الافتتان بالهامش، في قلب المتن الثقافي للأمة. الوجه الحضاري الذي تتكالب عليه أفكار وصراعات سياسية ليختفي. يضعون روح الأمة الغائبة على موائد القراء التي تتوالى عليها الصراعات والحروب والمظالم التي تبدد الأرواح طاردة كل أمل.

ثروت عكاشة . التاريخ المعاكس

قبل الحديث عن ثروت عكاشة من المهم جدًّا أن ندرك أن من كانوا مع ثورة يوليو من عسكريين نشأوا في الفترة الملكية وتعلموا فيها، وهي الفترة التي كانت فيها الحركة الليبرالية تصعد شيئًا فشيئًا مهما شابها من تدخلات سياسية من الملك أو من الإنجليز. لو نظرنا إلى كيف لم يستطع حزب الوفد وهو حزب الأغلبية الوصول إلى الحكم غير ثلاث مرات سريعة لم تتجاوز مدتها كلها سبع سنوات، ثم تأملنا الإنجازات التي تمت في الثقافة والفنون والعمارة والصناعة وغيرها، عرفنا كيف تمت في وقت حكم أحزاب الأقلية، وسندرك أن مسألة الليبرالية لم تكن تخص فريقًا عن فريق. وأن النهضة كانت هم الجميع واختلافاتهم السياسية كانت حول الاستعمار البريطاني وطرق التخلص منه، والحصول منه على أقصى ما يمكن من درجات الاستقلال، وأيضًا وضع الملك الدستوري. وحين يقوم رئيس وزراء مثل محمد محمود أو إسماعيل صدقي بإيقاف العمل بالدستور لا تتوقف المظاهرات ضده ولا يطول الوقت ولا يصبح ذلك نظامًا ساريًا.

كان التعليم هو هدف الجميع. كانت المدارس يبنيها الباشوات أو الجمعيات الأهلية وتتبرع بها إلى وزارة المعارف، ومنها جمعيات دينية مثل "العروة الوثقى". في قلب التعليم كان تعليم اللغة الإنجليزية والفرنسية، ومن الحياة ومن الجاليات ومن مدارس البعثات الأجنبية، يمكن الإلمام بلغات أخرى مثل اليونانية والإيطالية وغيرها. كان المنتهي من التعليم الابتدائي يعرف ما العلم وما الفلسفة وما الأدب.. إلخ، فضلًا عن إتقانه للغة أجنبية أو لغتين، وإليك في عباس العقاد خير مثال. في هذا الجو العالمي تعلم المدنيون والضباط وإليك قليل من الأسماء الشهيرة من رجال البوليس والجيش مثل عز الدين ذو الفقار وصلاح ذو الفقار وسعد الدين وهبة وأحمد مظهر ويوسف السباعي وغيرهم كثير، حتى إن مؤلفًا للأغاني من أجمل الشعراء هو محمد علي أحمد كان ضابطًا للمرور. ثروت عكاشة كان واحدًا من ذلك الزمن. هذا حديث أراه مهمًّا لأن ما حدث بعد يوليو من توجه شمولي للحكم لم يكن ممكنًا أن يمتد للثقافة والعلوم بسهولة، فظلت المدارس على نفس

نظامها وإن تغيرت مناهجها. أعني بنظامها وجود ملاعب كرة قدم وكرة سلة وكرة طائرة وجماعة رحلات وجماعة موسيقى وجماعة رسم وجماعة للشعر فضلًا عن حصص القراءة الحرة.

لقد كنت أنا من هذا الزمن فدخولي المرحلة الابتدائية كان عام 1952. توجه الدولة الشمولي ظهر في السياسة بإلغاء الأحزاب ثم إقامة حزب يمثل السلطة وهو الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي فيما بعد، وتأميم الشركات والتخلص من الأجانب تحت دعوى التمصير ثم التأميم. وبعيدًا عن الاقتصاد فقد كان الخفي في الأمر أن الأجانب يمثلون وجهات نظر أخرى للشعب، سواء في أحاديثهم أو صحفهم أو ملابسهم وعاداتهم، فكانت الناس تسعى لتقليدهم في كل شيء، وأراد الحاكم أن ينتهي هذا ويصبح الناس على قلب رجل واحد هو قلب الزعيم! هذه الشمولية التي انفتحت فيها السجون للمعارضة وبالذات اليساريين الذين لم يعارضوا بالمؤامرات والسلاح مثل جماعة الإخوان المسلمين، لم يكن ممكنًا لها أن تمحو أثر هذه الفترة الليبرالية في الثقافة والفنون.

لم يكن أمام الثورة إلا من تعلموا من رجالها معنى الثقافة أو من المدنيين مثل يحيى حقي وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم كثير جدًّا. وهكذا لم يكن غريبًا بعد أن صارت في مصر وزارة للثقافة والإرشاد يتولاها ثروت عكاشة عام 1958 ثم رئيسًا للمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام 1962 ثم وزيرًا للثقافة عام 1966 وعام 1970 أن تكون مشروعاتها متصلة بالفن في العالم، فأنشأ أكاديمية الفنون التي شملت المعاهد العالية للكونسيرفاتوار والباليه والموسيقى والنقد الفني لتكون مصر في قلب العالم الذي عرفته مصر طبعًا من قبل، لكن الباليه مثلًا كان طلقة مصرية جديدة. حتى بعد أن تم إنشاء مؤسسة السينما كقطاع عام استفادت من كل كوادر الكتاب والفنانين القدامى، وطورت في السينما وموضوعاتها. رأينا في الستينيات والسبعينيات كل أنواع السينما الترفيهية والاجتماعية السياسية رغم الرقابة ومشاكلها. أفلام مثل اللص والكلاب - ميرامار- جفت الأمطار – زائر الفجر – الكرنك – المذنبون – شيء من الخوف الذي أنتجه صلاح ذو الفقار – أرض النفاق – الأرض – زوجتي والكلب – قنديل أم هاشم – بئر الحرمان -
لا وقت للحب –العنب المر – القاهرة 30 – سيد درويش- الزوجة التانية- السمان والخريف – قصر الشوق – الرجل الذي فقد ظله – يوميات نائب في الأرياف – حمام الملاطيلي – ومئات غيرها وحدث تعاون بين المؤسسة والمنتجين القدامى أيضًا.

تم تحويل ما كان يسمى بالثقافة الجامعة التي بدأت قبل 1952 على يد الأديب الكبير أمين الخولي، وكان هدفها توصيل التعليم لكافة الشعب، وكانت تابعة لوزارة المعارف، إلى الثقافة الجماهيرية واتسعت فأنشئت قصور الثقافة في ربوع مصر، وانظر من الذي اختير لها. الفنان اليساري سعد كامل الذي كان مثقفًا صاحب موقف وطني وانحياز اجتماعي واضح للفقراء والمهمشين وللثقافة التقدمية دائمًا، ومناضلًا ضد الاحتلال البريطاني، وعضوًا في الحزب الوطني بقيادة فتحي رضوان قبل يوليو 1952. انظر إلى بعض معاونيه، وكانوا شبابًا كلهم طبعًا. الأديب والفنان عز الدين نجيب مديرًا لقصر ثقافة كفر الشيخ. الكاتب المسرحي علي سالم مديرًا لقصر ثقافة أسوان، وهاني جابر في السويس ومحمد غنيم في دمنهور ومحمود دياب كاتب المسرح في الإسكندرية والفنان هبة عنايت في أسوان أيضًا ويعقوب الشاروني في بني سويف وهكذا.

صار المسرح وهو تاريخ عريق طبعًا، يقدم مسرحيات عالمية بشكل كثيف. من بينها مسرحيات العبث لصامويل بيكيت وأرابال ويوجين يونيسكو وغيرهم. لم يجد فيها ثروت عكاشة ومن يتعاونون معه أي تضاد مع الفكر الاشتراكي الذي قفز مع بداية الستينيات في الوقت الذي كان فيه الإتحاد السوفييتي يمنع هذا المسرح. ظهر مؤلفو مسرح عظماء مثل سعد الدين وهبة ونعمان عاشور ويوسف إدريس وميخائيل رومان ومحمود دياب وألفريد فرج وغيرهم. شاهدنا قضايا جديدة تتعلق بالإنسان وبالطبقات المطحونة، وكثيرًا ما كان يتم انتقاد ما يحدث كما شاهدنا التجديد في شكل المسرح والنزوع إلى كسر الحائط الرابع مثلًا وصار جوار المسرح القومي مسرح الطليعة ولم تتوقف المسارح الخاصة وظلت تنتج مسرحياتها الضاحكة وصار التليفزيون ينقل ذلك كله إلى الناس كل أسبوع. شاهدنا مسرحيات مثل الزوبعة وباب الفتوح والغرباء لا يشربون القهوة وليالي الحصاد وغيرها لمحمود دياب، والعرضحالجي وكوم الضبع وهوليود البلد وليلة مصرع جيفارا لميخائيل رومان والسبنسة وكوبري الناموس وسكة السلامة وسبع سواقي وغيرها لسعد الدين وهبة، والمغماطيس والناس اللي فوق والناس اللي تحت وعيلة الدوغري وغيرها لنعمان عاشور. ولألفريد فرج شاهدنا سليمان الحلبي وحلاق بغداد وعلى جناح التبريزي وتابعه قفة والزير سالم وعسكر وحرامية وغيرها وليوسف إدريس شاهدنا جمهورية فرحات والفرافير والمهزلة الأرضية وغيرها.

المجلات الثقافية التي صارت في يد الدولة كان يشرف عليها كتاب مثل يحيى حقي وفؤاد زكريا وعبد القادر القط. وأقيم أول معرض دولي للكتاب عام 1969، وكان الشعار وقتها كتاب كل ست ساعات، وأنشئت الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1971 لتضم دار الكتب والوثائق القومية والهيئة المصرية للتأليف والنشر، وصدرت سلاسل كتب هامة مثل روائع المسرح العالمي ومن الفكر السياسي والاشتراكي وأعلام العرب وغيرها بأسعار زهيدة جدًّا، ورغم وجود الرقيب إلا أن الكتب طافت في كل العالم. هذا الجو كان طبيعيًّا لا يمكن إيقافه وأدرك ذلك ثروت عكاشة فهو ابنه، فكان صعبًا أن يكون شموليًّا مثل غيره من رجال الحكم. ولم يكن لغيره إمكانية منعه فهو رفيق معهم في الثورة، ثم إلى من سيلجأون؟

لن أتحدث هنا عن أعمال ثروت عكاشة العظيمة تأليفًا أو ترجمة لكني أحاول الإجابة على سؤال: لماذا لم يمسك بالاتجاه الشمولي في الثقافة وهذه إجابتي. طيب إذا كان الأمر كذلك. أين ظهرت شمولية الدولة؟ ظهرت في الاقتصاد والسياسة كما أوضحت وفي الإعلام لم تسمح بغير الصحف الشهيرة الأخبار والأهرام ثم الجمهورية والمساء وفي البرامج السياسية في التليفزيون والراديو. ورغم شمولية الفكر السياسي ظلت مساحة الثقافة كبيرة لأن من تولوها كانوا من ذلك الجيل مثل مصطفى وعلي أمين وفتحي غانم ومحمود أمين العالم وإحسان عبد القدوس وصلاح حافظ وغيرهم كثير من كبار الكتاب. كثير منهم اصطدم مع النظام سياسيًّا وعرفته السجون لكن حين تواءموا لم تجد الدولة غيرهم وهم وجدوا في الثقافة والفن الفرصة الأعظم.

" مجلة فنون"

مع محمد حسنين هيكل ... ذكريات وشغف قديم

بمناسبة إعلان الفائزين بجائزة محمد حسنين هيكل للصحافة هذا العام، التي تنظمها مؤسسة محمد حسنين هيكل للصحافة العربية، وهي المؤسسة التي أنشأها هو نفسه عام 2007، وهذا هو عامها الخامس في إعلان الفائزين، وجدت في نفسي رغبة أن أكتب شيئًا عن الراحل الكبير. إعلان الجائزة يوافق ذكرى ميلاده الثالث والعشرين من سبتمبر، وفاز بها هذا العام الصحفية البحرينية نزيهة سعيد، على تفردها في تغطية قضايا المرأة في بلدان الخليج، والصحفي المصري محمد أبو الغيط المقيم في لندن، عن تحقيقاته الهامة في الشأن السوري. محمد أبو الغيط الشاب النجيب الذي أدعو له كل ساعة بالشفاء، فأنا من المحبين الكبار لكتابته.

لا يتصور أحد أن ما أعنيه من ذكريات هو لقاءات مع الكاتب والصحفي الكبير محمد حسنين هيكل. للأسف لم يحدث أن قابلته وجهًا لوجه إلا مرة واحدة لا أذكر في أي عام، وكانت دار الشروق تقيم حفلًا في أحد الفنادق الكبرى، ووصلت أنا مثل الكثيرين مبكرًا فجلست في الصف الأول. بعد قليل توافد الحضور، وفوجئت بالأستاذ هيكل يأتي ويجلس خلفي. وقفت أطلب منه أن يجلس مكاني لكنه رفض، ورغم تصميمي أن يفعل ذلك أصر على رفضه، وجلست مكاني وانتهت الليلة. شيء في الحياة مشى معي دائمًا وهو أني أمام الكبار في القيمة والفكر والفن، لا أجد شجاعة أن أقترب منهم، رغم حبي الشديد لهم واعترافي بقيمتهم.

لم يحدث مثلًا أن اقتربت من نجيب محفوظ إلا مرات قليلة جدًّا قبل عام 1996، وهو العام الذي فزت فيه بجائزته من الجامعة الأمريكية. كان الكتّاب يتحلقون حوله في مقهى ريش ثم في كازينو قصر النيل ثم في جلسته بعد ذلك في فندق شبرد أو في المعادي، ولم أذهب إلا مرتين تقريبًا لم يتكررا في مقهى ريش، ومرتين في كازينو قصر النيل حتى فزت بجائزته في أول عام لها من الجامعة الأمريكية ولم يكن هناك تقديم لها، بل كانوا هم من يختارون الفائزين، ودعاني إلى بيته في العجوزة ثم لقاء في فندق في المعادي، وتكررت زياراتي لبيته في العجوزة على مسافات زمنية طويلة ولم أعلن ذلك أبدًا. الأمر نفسه حدث مع يوسف إدريس الذي جمعتنا السفريات أو لقاءات معرض الكتاب الدولي بالقاهرة، لكني لم أذهب إليه في الأهرام أبدًا رغم المحبة بيننا. تستطيع أن تقيس ذلك على كل المشاهير. كانت لقاءاتي بهم بهجة أشعر بالاكتفاء بها
ولا أسعى لتكرارها إلا أن تأتي صدفة. حتى الفنانين لم يكن أسهل من أسعى للقاء سعاد حسني أو شادية أو تحية كاريوكا أو فريد شوقي، أو من تشاء، وأنا في سن الشباب أكتب حرًّا في الصحافة، وأدير الحوارات أحيانًا، لكني كنت أسأل نفسي هل بعد أن ألتقي بشادية مثلًا، أو سعاد حسني سأظل كما أنا؟ كل الحوارت التي أجريتها ذلك الوقت كانت مع من تعودت أن ألقاهم في مقهى ريش، مثل فاروق
عبد القادر ونجيب سرور وأمل دنقل وسليمان فياض وغيرهم. أي مع من تعودت عليهم. مؤكد أني خسرت الكثير لكن هذا ما جرى. هكذا ظل محمد حسنين هيكل بالنسبة لي قمة أنظر إليها من بعيد، وإن كنت أصعد درجاتها مع كل مقال أو كتاب أقرأه له.

لقد أتيت إلى القاهرة للاستقرار التام عام 1975، وكان هو قد ترك جريدة الأهرام بأمر من السادات، ولم يكن صعبًا الاتصال والالتقاء به لكني لم أفعل. حين ظهرت الأحزاب والصحف كنت أكتب في جريدة الأهالي أحيانًا، وجريدة العربي الناصري كل أسبوع، ولم يكن أسهل من الاتصال به أو زيارته، وأنا من كتاب جريدة العربي الناصري في عهدها الذهبي. ظللت مرتكنًا إلى الذكريات والقراءة لأعماله. أول الذكريات هو كيف كنت في الستينيات صبيًّا أو في بداية شبابي أخرج إلى شاطئ المكس مبكرًا جدًّا قبل الساعة السابعة يوم الجمعة، لأحصل على جريدة الأهرام قبل أن تنفد أعدادها، وأعود لألتهم الملحق الأدبي لها، الذي كان ينشر فيه توفيق الحكيم وبنت الشاطئ ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ولويس عوض. إنه الملحق الذي كان ثروة ثقافية بما ينشره من فكر أو إبداع. كان الفوز بالعدد هو أجمل ما أبدأ به يومي. كنت أقرأ مقالته "بصراحة"، ثم أستمع إليها بشغف كبير في الإذاعة في المساء. ظل بالنسبة لي الصحفي الكبير الذي قل مثله حتى وقعت في غرام كتبه السياسية وما أكثرها! ويكفي أن تعرف أن أول كتاب كتبه كان عام1951 وعنوانه "إيران فوق بركان" وكان عمره آنذاك لا يتجاوز 28 عامًا، وهذا يوضح لك طموحه الفائق. وكانت له تجارب عملية في إيران وفي الحرب الكورية الأمريكية. ويعتبر هذا الكتاب في رأي صديقي الكاتب والباحث صلاح زكي هو الأهم عن الثورة الإيرانية الأولى.

لم يكن يكتب بالعربية فقط لكن كان ينشر كتبه مسلسلة في صحف إنجليزية ويقوم هو أو غيره بترجمتها إلى العربية. كان ما دفعني إلى كتبه أكثر هو الحالة السياسية في مصر والصراع بين أنور السادات والقوى الوطنية. تابعت المسيرة مع القراءة وصارت كتبه طريقًا أمشي فيه دائمًا بعد أن توقف عن كتابة المقالات، أو لم تعد هناك فرصة لنشرها في مصر. ومع أول ذهاب لي إلى جريدة الأهرام في مبناها الجديد وكل ذهاب حتى الآن، لا بد أن أتذكر أن هذا الصرح الجديد كان من أعماله. في كتب محمد حسنين هيكل ومنها تجد معلومات مهمة جدًّا، بل وخطيرة في بعض الأحيان، وصل إليها في فترة بحكم قربه من جمال
عبد الناصر رأس الحكم، وبحكم قيمته في الصحافة العالمية، فكان يمكن أن يصل إلى كثير من المعلومات التي تبدو بعيدة عنا. هذه المعلومات لا يستطيع أحد أن يشكك فيها أبدًا. لم تكن من خياله ولا من اختراعه. حتى لو اختلفت أحيانًا، وليس كثيرًا من فضلك، مع ما انتهى إليه من تحليل ودراسة لموضوعه،
لا تستطيع أن تشكك لحظة واحدة في أي معلومة. والاختلاف الذي أقصده هو اختلاف المفكرين ونادرًا ما قرأت شيئًا منه، وليست أحاديث الميديا التي تفسر كل شيء على راحتها، دون قراءة في الكتب وتاريخ نشرها وزمانها وظروفها، وما كان في العالم وفي مصر وقتها. هذه كانت وستظل قيمة كتب ودراسات محمد حسنين هيكل. فبسعيه ووضعه يومًا ما، وصل إلى هذا الكم النادر من المعلومات، ولم يتفاخر بها، بل أنشأ بها بيوتًا وصروحًا، أعني الكتب، التي لا تمل قراءتها والاستفادة منها.

شيء آخر تميز به محمد حسنين هيكل أكثر من غيره، فهو كصحفي لم يترك نفسه لإغراءات الكتابة الصحفية السريعة، بل كان قارئًا كبيرًا للأدب العالمي والأدب العربي، ومن ثم أخذت لغته طعمًا مختلفًا. إيقاعها إيقاع السرد الحكائي ومضمونها علمي في أي مجال تتحدث فيه، سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، ومن ثم فهي وهي تثير ذهنك بالتفكير؛ تثير روحك بالمتعة الأدبية. هيكل

ومسيرته تؤكد كيف في هذا الوطن بنى العظماء لنا القصور لنعرف ونتعلم. هذا المقال كما قلت ملأ به روحي الإعلان عن جائزة موسسته للصحافة العربية، وليس كافيًا أبدًا للحديث عنه، لكني وددت فقط الإعلان عن شغفي الذي مشى معي في الحياة وعن تقديري لهذا العقل المصري العظيم.

"القدس 2021"

صلاح عيسى.. كتابة من ذهب

في الإسكندرية طبعًا كان تكويني وجنوحي إلى اقتراف ذنب الأدب! وفيها أحببت معاصرين محترمين كثيرين يعيشون في القاهرة ومنهم الكاتب والمؤرخ الكبير صلاح عيسى. كان كتابه "حكايات من مصر" ملهمًا بقدر ما ألهمنا كتاب "أيام لها تاريخ" لأحمد بهاء الدين. عرفت من الأحاديث التي تتناثر حولي ومن كتابات صلاح عيسى طبعًا أنه من اليسار. ومثل غيره وقع عليه عسف كبير فكان رهن الاعتقال أكثر من مرة في عهد عبد الناصر وفي عهد السادات. التقيت به طبعًا في القاهرة. كان يدير مكتبًا للمراسلات الصحفية ومعه المرحوم سيد خميس وكنت أحد الكتاب المتعاملين معهما قبل أن أكف عن الكتابة الصحفية وأتفرغ للرواية.

كانت الكتابة في الصحف العربية ذلك الوقت هي الأفضل، وكنا عازفين عن صحافة السادات. لم تكن كامب ديفيد قد حدثت بعد ومن ثم كانت مكاتب هذه الصحف مشروعة. لم يطل الوقت بصلاح عيسى ولا بهذا المكتب طبعًا بعد القطيعة بين مصر والعرب بعد كامب ديفيد وظلت علاقتي به كقارئ متيم بأعماله. صلاح عيسى الحاصل على بكالوريوس في الخدمة الاجتماعية عمل في الوحدات الاجتماعية بالريف المصري ولابد رأى ما لا يراه أحد من حياة الناس لذلك انعطف بسرعة من كتابة القصة إلى كتابة الدراسات السياسية والاجتماعية والتاريخية.

كان للحكاية في بعضها البطولة الكبيرة فهو قادم من عالم الأدب كما هو في الحال في كتاب "حكايات من دفتر الوطن" أو كتاب "البرنسيسة والأفندي"، الذي يؤرخ فيه ويبحث قصة زواج البرنسيسة فتحية صغرى شقيقات الملك فاروق من القبطي رياض غالي السكرتير الثالث في القنصلية المصرية في مارسيليا في ربيع عام 1950، وما أثاره ذلك من عواصف سياسية وطائفية وثورة وخلاف في العائلة الملكية، وكيف انتهت القصة بالمأساة بأن أطلق "رياض أفندي غالي" ثلاث رصاصات على رأس زوجته البرنسيسة "فتحية" ثم الرابعة والأخيرة على رأسه هو. أو كتاب "حكاية مقتل مأمور البداري" وهي التي جرت وقائعها بعد أن تولى إسماعيل صدقي الوزراة عام 1932 والاعتداء على الدستور وتكميم الأفواه والمظاهرات العارمة التي كانت ضده، وإطلاق يد الشرطة في التنكيل بالمعارضين فأصبحت إهانة الكرامة والتعذيب في أقسام الشرطة أسلوبًا معتادًا ثم مقتل مأمور البداري على يد اثنين من أبناء مركز البداري، وقد حكمت محكمة جنايات أسيوط بإعدام واحد منهما وبالأشغال الشاقة المؤبدة على الثاني، وعند الطعن بالنقض في الحكم اكتشفت محكمة النقض أن جريمة القتل كانت بسبب قيام المأمور بتعذيب المواطنين الذين يقبض عليهم، وكان من بين من تعرضوا للتعذيب الرجلان اللذان قتلاه، حيث قام بتعذيبهما وتعريتهما وهتك عرضهما أمام الأهالي. وأدانت المحكمة برئاسة عبد العزيز فهمي باشا في حكم تاريخي لها صدر يوم 5 ديسمبر سنة 1932 فساد النظام وأفعال رجال البوليس التي وصفتها بأنها "إجرام في إجرام"، وقالت المحكمة أيضًا: "إن من وقائع هذه القضية ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال الشاقة، وإنها من أشد المخازي إثارة للنفس واهتياجًا لها ودفعًا بها إلى الانتقام". ورأت محكمة النقض أن ما جعلته محكمة جنايات أسيوط موجبًا لاستعمال الشدة كان يجب أن يكون من مقتضيات استعمال الرأفة.

وفي كتابه مثقفون وعسكر حكايات عن الصراع بين لغة الكلمات والعقل للمثقفين ولغة القوة والاعتقال وأحيانًا الرصاص فيروي شهادته وتجاربه عن المثقفين في ظل عبد الناصر والسادات.

صلاح عيسى الذي لم يفكر في الحصول على الدكتوراه للعمل بالجامعة وأخلص إخلاص العلماء وراح يستجلي الغائب من دراسة الأصول الاجتماعية والاقتصادية للأحداث الكبرى مثل الثورة العرابية وغيرها. وكان هذا هو السحر في أعماله فلديه دائمًا الجديد المقنع من الفهم والتفسير. كما كان إخلاصه لمنهجه وهو الصحفي الذي يمكن أن تغريه الصحافة بالسهل والانتشار، لكنه يعرف منذ وقت مبكر أن الصحافة ليست بالأمر الساذج لكنها يمكن أن تكون ضميرًا للأمة وهكذا كان في كتاباته الصحفية أو مسؤولياته عن صحف أدارها. كتب كتابًا من أعظم ما كتب إن لم يكن الأعظم والأوحد حتى الآن عن ريا وسكينة بعنوان "رجال ريا وسكينة" كتاب تحفة في العلم والفن والحكي جدير بأن يطبع بحروف من ذهب. ولن أحدثك عن كل كتبه ولا حتى بعضها مثل " شاعر تكدير الأمن العام" شهادة حية على شعر وحياة أحمد فؤاد نجم ولا "تباريح جريح" ولا "شخصيات لها العجب" وغيرها فكلها متاحة، لكن صلاح عيسى رغم هذا التاريخ لم تحتفِ به الدولة ولم يحصل على أي تكريم أو جائزة وهو الجدير بكل التكريم والجوائز. وهذا من عجائب مصر والله..

في محبة آل النقاش

في الثالث من سبتمبر مرت عليّ ذكرى ميلاد أستاذ الأجيال رجاء النقاش الذي ولد في مثل هذا اليوم عام 1934 وتوفي في الثامن من فبراير عام 2008. كثير جدًّا يمكن قوله عن رجاء النقاش كناقد ساهم كثيرًا في تطور الرؤي النقدية، وعن الذين قدمهم لنا في مصر مثل محمود درويش وسميح القاسم والطيب صالح، وبعد أن عرفناهم تغيرت الكتابة الأدبية واتسعت لمجالات أرحب من الإنسانية. أو الذين كتب عنهم مقدمات لعمل لهم مثل أحمد عبد المعطي حجازي في ديوانه الأول "مدينة بلا قلب". لقد تولى رجاء النقاش مناصب عديدة في الصحافة المصرية يطول الحديث عنها من أبرزها رئاسة تحرير مجلة الهلال ومجلة الكواكب ومجلة الدوحة في بدايتها.

الحديث عن رؤاه النقدية يمكن تلخيصه أنه كان الأكثر رحابة في فهم النصوص الأدبية، يسعى للبحث عن خلفياتها الفلسفية قبل أي خلفيات اجتماعية وسياسية واضحة، ولقد فعل ذلك فيما كتبه عن نجيب محفوظ بشكل عظيم. أتذكر جلستنا معه نحن الكتاب الجدد في دار الهلال مرة كل أسبوع وكم كان كريمًا معنا ويقرأ لنا بعض أعمالنا قبل النشر، ثم تأخذ طريقها إلى مجلات عربية مثل الدوحة وقضايا عربية فضلًا عن مجلة الهلال. أذكر ممن كانوا معنا محمد المنسي قنديل
عبد الرحمن أبو عوف وعبد الوهاب الأسواني وكيف كان يتحمل رأي
عبد الرحمن أبو عوف الماركسي النزعة الذي كانت أحكامه على من يختلف معه قاطعة، بينما الأستاذ رجاء النقاش يشرح له بهدوء ما لم يصل إليه من أفكار الكاتب، فالرؤية من منظور محدد سلفًا لا تصلح في فهم الفنون.

انتهت الجلسة الحميمة بعد سفره إلى قطر للعمل في مجلة الدوحة وحين عاد كنا أصبحنا كتابًا معروفين وانتهت تقريبًا الجلسة وإن لم تنتهِ اللقاءات. كنت في تلك الفترة قد تعرفت على الأستاذة فريد النقاش، وكان لنا نشاط ثقافي كبير في الثمانينيات في حزب التجمع ولم تنتهِ علاقتي أبدًا بآل

النقاش الذين كنت عرفت منهم قبل أن ألتقي بأي منهم وحيد النقاش بكتاباته وترجماته حتى خطفه الموت مبكرًا في شبابه عام 1971. لقد جئت لأعيش في القاهرة في بداية السبعينيات وخلفي محبة كبيرة لآل النقاش مما قرأت لوحيد أو رجاء أو فريدة، وكانت مقابلتي مع رجاء النقاش وفريدة النقاش وزوجها الكاتب حسين عبد الرازق مثل كهف سحري على الحركة من أجل حياة أفضل وعلى الفكر في تجلياته الإنسانية. التقيت قليلًا مع فكري النقاش لكن معرفتي بفريدة قربتني من أمينة النقاش ومن ثم زوجها صلاح عيسى الذي كان لنا بابًا للتاريخ العظيم لمصر والمصريين.

هكذا وجدت نفسي في محفل إنساني عظيم من ناحية الفكر، وفي محفل يملؤه الأمل في حياة سياسية أجمل بما يفعله صلاح عيسى وفريدة النقاش وحسين عبد الرازق الذين عرفتهم السجون في ذلك الوقت. أحتاج مئات الصفحات لأحكي كيف كان لقائي برجاء النقاش يضعني في قلب الأدب الحقيقي وكيف كانت لقاءاتي بفريدة النقاش تضعني في قلب الأمل في الحراك السياسي. طال الوقت وكبرنا وفقدنا رجاء النقاش وصلاح عيسى وفقدنا كاتبًا مسرحيًّا رائعًا هو فكري النقاش صاحب الأعمال الرائعة مثل "سيف ووسادة" و"مهزلة مملوكية" و"المتنبي في الطريق إلى بغداد" وغيرها. لن أستطيع أن أكتب لكم كل أعمال رجاء النقاش أو فريدة النقاش فهي لديكم في جوجل لكن أحببت أن أعبر عن محبتي لآل النقاش التي تمشي معي في الحياة، وحتى الآن هي من أهم ما يدفعني للكتابة والاستمرار..

الإنسان ومراحل حياته

المؤلف: إلكساندر تولستيخ

علم نفس العمر Age related Psychology، أحد ميادين علم النفس المهمة. إنه يدرس المراحل العمرية، وكيفية الانتقال من مرحلة إلى أخرى. إن فهم مراحل العمر يساعد كثيرًا على فهم الإنسان لنفسه، وعلى تقدم أمثل للإنسان في الحياة. هنا عرض لهذا الكتاب.. Man and His Stages of Life الذي كتبه Alexander Tolstykh الصادر عن : Imported Pubn 1989

جوانب فلسفية وتاريخية ونفسية للموضوع:

الزمان، مكان الشخصية الإنسانية. والشخصية الإنسانية حقيقة موضوعية تتطور بتقدم الزمان، وفي الزمان نفسه، بفعل عوامل مختلفة متشابكة، وليس لمجرد تتابع السنين. علم نفس العمر يدرس تغيرات النفس ونمو وتكوين الشخصية منذ الميلاد حتى الموت. فعلم نفس العمر إذن قريب الصلة بعلم نفس الشخصية، بل ويكونان معًا وحدة واحدة وميدانًا كبيرًا في الدراسات النفسية.

وفي هذا الميدان هناك اتجاهان شهيران للدراسة؛ الأول هو الاتجاه البيولوجي الذي يعلي من شأن العامل الوراثي في تكوين الشخصية عبر مراحل النمو، والثاني هو الاتجاه الاجتماعي الذي يعلي من شأن العوامل المكتسبة.

في الاتجاه البيولوجي يحمل الطفل كل بذور النمو "الطفولة والصبا والشباب.. إلخ"، ويصبح النمو النفسي عبارة عن نمو كمي لما يحمله الطفل من خصائص نفسية. هذا الاتجاه يقع على نظرية التكوين المسبق Preformism لكن عشرينيات هذا القرن شهدت نظريات تقول إن الإنسان ينمو وفقًا لمحصلة ما يتعرض له، فهو ينمو كيفيًّا.

استمر الصراع بين الاتجاهين، حتى ظهر اتجاه ثالث، اتجاه وراثي اجتماعي، يدور محوره حول القول بأن العامل الرئيسي في التطور الإنساني هو تكيف الإنسان مع البيئة الاجتماعية، فالبيئة الاجتماعية هي العامل الحيوي في تطور أو نمو الطفل.. لكن ما هي العملية النفسية الكائنة خلف نمو الشخصية؟ ما هي القوى المحركة لنمو الإنسان؟ ماذا يفسر الانتقال من مرحلة إلى أخرى؟.. هذا ما نجد تفسيره عند عالم النفس الروسي ليف فيجوتسكي Lev Vgotsky وزملائه ألكسي ليونتيف Alexei Leontiev وسيرجي روبنشتين Sergei Rubinshtein حيث النشاط النامي للفرد هو السبب الرئيسي لنموه كفرد متكامل ذي هوية. هذا النشاط يتلخص في اللعب والتعليم والعمل. هذه هي العناصر الثلاثة التي تتحكم في نمو الفرد، من لعب الطفل، حتى تعليم المراهق، إلى عمل البالغ..

الطفولة:

تبدأ الحياة البشرية مع الطفولة، ودراسة الطفولة تحتل تسعة أعشار الدراسات النفسية، فما هي عناصر نمو الشخصية الأساسية خلال الطفولة؟

إن "فردية" الطفل تظهر منذ لحظة الميلاد، وبالتعامل مع التغيرات المعاكسة تظهر شخصيته، لا كتراكم كمي ولكن كعملية كيفية. الطفل لا يستطيع البقاء وحده فهو لا يملك غرائز الحيوانات، لذلك فالعلاقة بينه وبين والديه مهمة للغاية. وهي تتجاوز الغاية بالمأكل والملبس إلى "الاتصال الإنساني". فلقد لوحظ أن أطفال الملاجئ أو الدور الحكومية الذين ينعمون بالغذاء والعناية بالملبس، لا يبتسمون كأطفال البيوت الذين يحظون بعناية أقل في الغذاء والكساء، ولكن لوحظ أنه حين تحمل الممرضة الطفل في الملجأ لفترات طويلة يبتسم. تنتقل إليه حرارة جسمها ويتوحد معها. إن عدم الاتصال الإنساني في تربية الطفل ينتج عنه مرض يسميه علماء النفس Hospitalism، واكتشاف أهمية الاتصال الإنساني يؤكد مقولة فيجوتسكي بأن الطفل كائن اجتماعي منذ ولادته.

وللطفل في الأسبوع السادس حركات للذراعين والقدمين وبسمات وأصوات بسيطة، تأخرها أو ضعفها يعني إصابة الطفل بالهوسبتاليزم. هذه الحركات والأصوات ترد إلى ما يسمى بمركب النشاطية Activiration Complex، أو مركب القدرة على النشاط، وهذا المركب ليس رد فعل لحركات الآخرين، بل هو إرادي العمل، إذ يلاحظ أن حركات الطفل تزداد حين تقل حركات الكبار حوله وتقل حين تزداد حركتهم وأصواتهم.

بعد الآخرين، الوالدين أو غيرهما، هناك عنصر ثان في نمو شخصية الطفل، هو علاقته بلعبته. ولقد قال هيجل: "إن أفضل ما يفعله الطفل بلعبته هو تحطيمها". والطفل ينتقل بعد ستة أشهر من محاولة إمساك اللعبة إلى محاولة التأمل فيها عندما يبلغ عامًا من العمر.

وتشغل الطفولة المبكرة الأعوام حتى الثالثة، حيث يبدأ الطفل في الإدراك الذاتي Self Cognition ليس على طريقة الفلاسفة بالتأمل الداخلي، ولكن بالتعرف على الأشياء وتكرار حركات معينة لها دلالة. ويبدأ الطفل الصحيح بكسر اللعبة ليرى ما بداخلها، ويتعرف على محتويات البيت ويعتبرها ملكًا له، وينتقل إلى عالم الإشارات واللغة والكلام فيدخل عالم العلاقات الإنسانية، وفي نهاية السنة الثالثة تبدأ أزمة أخرى جديدة إذ يتحول الطفل في ديكتاتور بعد أن يلاحظ ردود فعل الوالدين من سخط أو رضا، ويفعل دائمًا عكس ما يطلب منه. لكن هذه الأزمة الجديدة تمر بسهولة لأنها تذوب في نشاط جديد هو اللعب..

"اللعب " يردم الفجوة بين "ما يريد" الطفل و"ما يستطيع". الطفل الآن لا يريد اللعبة، بل السيطرة عليها. يركب العربات ويقطع بها الرحلات داخل الغرفة فيخلق مساحة من النمو لقدراته وشخصيته معًا باللعب.. وألعاب سن ما قبل المدرسة مهمة للغاية إذ بها يتعرف الطفل على الشرطي واللص والمدرس والطبيب فيكتسب معرفة بالعلاقات بين الأشخاص. فاللعب إذن ينمي الذاكرة والإدراك والإرادة. وهكذا حتى سن السابعة، سن المدرسة، حيث تظهر أزمة جديدة، فالطفل يريد مركزًا جديدًا في الحياة الاجتماعية، والطفل مشوق للغاية للمدرسة، مفتون بالزي الرسمي للتلاميذ لذلك يتحول اللعب إلى نشاط جديد هو التعليم. في المدرسة يفتقد الطفل التسامح العائلي. إنه الآن فرد بين أفراد في نظام صارم. المدرسة انتقال من حياة عائلية إلى مجتمع مدني. لذلك تمثل السنوات

من 7 إلى 11 سنة مكانًا مهمًّا في تكوين شخصية الفرد، حيث يتم الانتقال من الإدراك الحسي إلى التفكير المجرد. الطفل يظهر هنا ككائن مفكر، إنه يتعلم أن يتعلم! لكنه بعد هذه السنوات الأربع يجد المدرسة مملة روتينية، والحقيقة أنه يدخل في مرحلة الهدوء الذي يسبق العاصفة. إنه ينتقل إلى مرحلة المراهقة..

ما بعد الطفولة – المراهقة:

إن عبارة "لم يعد طفلًا، لم يصبح راشدًا" تعبر تمامًا عن حياة المراهقين. فالمراهقة هي مفارقة لحياة الطفولة الجميلة، لكن دون اكتمال عالم النضج، هي عتبة فارقة بين شيء يختفي إلى الأبد - الطفولة- وشيء يتوقع في المستقبل، هو اليفاعة أو الرشد Adulthood.

ومن خصائص المراهقة الخيال والخيال الخالق Creative. الخيال موجود لدى كل الناس بدرجات، وموجود عند الأطفال، فالطفل، كما قال جوته: يستطيع أن يحول كل شيء في لا شيء. والخيال يعتمد على الخبرة التراكمية، لذلك هو أكثر كثافة عند المراهقين، وله دور بارز في تكوين الشخصية، وللعلم دور في إذكاء الخيال، فلقد كان ليوناردو دافنشي يشجع على تنمية المخيلة بدراسة البقع والشروخ على الحوائط والسحب وإدراك تشابهها بالأفراد والحقول والمعارك الحربية. إن المراهقين مثاليون يتصورون القدرة على إعادة بناء العالم، ويتصورون العالم غير قادر على التعرف على مثلهم، ومن ثم ينتهي الانسجام الذي كان بينهم وبين العالم حين كانوا أطفالًا.

يقال دائمًا إن المراهقة فترة صعبة، ولكن فولتير قال: إن "الصفة" عدو "للاسم". فالصفة لا تفسر شيئًا وحدها لذلك لا بد من فهم تفاصيل الصعوبة. وفضلًا عن التفاصيل السابقة يفكر المراهقون في اختيار مهنة المستقبل، فهذه المهنة هي التي ستحدد مسار الشباب بعد ذلك، ولكن جوته قال: "الإنسان الذي يريد أن يفعل شيئًا عظيمًا عليه أن يتعلم كيف يحدد لنفسه شيئًا يفعله". إن من يريد أن يفعل كل شيء لا يفعل شيئًا. واختيار المهنة بالنسبة للمراهق ظاهرة اجتماعية وأخلاقية أيضًا، فليس المهم من يرغب أن يكون الإنسان قبل التفكير في أي نوع من الناس يجب عليه أن يكون..

الشباب:

الدراسات النفسية لمرحلة الشباب أقل من دراسات الطفولة أو الشيخوخة. وفي روسيا هناك معهد الدراسات الشبابية "juvenology " وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية juvenis بمعنى شاب young. فالمصطلح إذن يعني علم دراسة الخصائص النفسية للشباب. هكذا بدقة. الشباب أيضًا جماعة سِنيه خاصة، وفي تحديد مراحل الحياة يشار إلى الطفولة والمراهقة والنضج والشيخوخة، ولا يشار بشيء إلى الوجه الشبابي للشخصية. وهكذا يرى بعض العلماء المراهقة فترة ممتدة من 14 سنة إلى 21 سنة، والآخرون من 10 سنوات إلى 23 سنة أو من 12 سنة إلى 25 سنة ولا حديث عن الشباب. لكن تولستوي تحدث عن حياته في ثلاثة أجزاء: سمى الأول "الطفولة"، والثاني "الصبا"، والثالث "الشباب"، وهي سيرة تبدأ بسن الخامسة عشرة، ومن جهة أخرى فإن بطل قصة "الشاب البريء" لدستويفسكي كان في الواحدة والعشرين، وهكذا قد تتعقد الأمور في

تحديد سن الشباب، لكن من المهم التأكيد أن الكلمة اللاتينية juveul تشير إلى ما بعد المراهقة أو بداية الشباب. ولقد لوحظ في نمو الشخصية في هذه المرحلة نوع من التسارع في النمو النفسي والجسدي، وذلك خلال الستينيات والسبعينيات مما تجاوز كل إنجازات النمو المسجلة قبل ذلك. ظهر جيل من الشباب الطوال، الأصحاء النفس والبدن بطريقة مثيرة، وتم إرجاع ذلك إلى الغذاء والتعليم والراديو وزواج الجماعات العرقية المتباعدة، لكن ظاهرة التسارع انحسرت في الثمانينيات، وعاد النمو النفسي والبدني لمعدلاته الطبيعية. لكن لوحظ أنه في مقابل التسارع في النمو يعاني الشباب من مرض الردة الطفولية infantilism، حيث يبدي نوعًا من الكسل العقلي، والقلبي، وتصبح هذه الردة الطفولية ظاهرة اجتماعية مؤلمة. إذن كيف يكون النمو الطبيعي للشخصية؟ يكون بالتزامن بين النمو الجسدي والنفسي. هنا تظهر حالة الطفل المدهش wonder child الذي ليس عبقريًّا، فالعبقري يتميز عادة في ميدان واحد مثل موتسارت في الموسيقى، وأينشتاين في الرياضة، ولكن الطفل المدهش تظهر قدراته في أكثر من ميدان معًا. الموسيقى والرياضة وفنون الحرب مثلًا.

والشباب يوصف عادة بالسن المثالي للزواج. فبالنسبة للمرأة يكون الإنجاب المثالي عضويًّا بين عمري عشرين وخمس وعشرين سنة، وهو الوقت المناسب لزواج الكثيرين وزمن الطاقة الجنسية الكبيرة عادة.

والطاقة الجنسية هنا غير الحب الذي يمكن أن ينطلق في أي وقت. كانت "هيلين" في الأربعين حين أحبت "باريس"، وكانت كليوباترا في الثلاثين حين أحبت أنطونيو، وكانت جولييت في الثالثة عشرة حين أحبت روميو.. وهكذا.

وللزواج تأثير على الشخصية ونموها الروحي، فالطفل يعطي الأب الشعور بالرجولة ويعطي الأم الشعور بالأنوثة، ويغير عاداتهما، إذ التحقا الآن بعالم الآباء، والأسرة نفسها التحقت بالعملية الخالدة لتكوين الأجيال.

ومصطلح الجيل مهم جدًّا هنا، وحياة الفرد هي تاريخ تكونه ونمو في مجتمع بعينه في فترة تاريخية بعينها وجيل بعينه. فالجيل الذي ينشأ وسط الحرب يختلف عن الجيلين السابق واللاحق. ولقد ظهرت مثل هذه المشكلة بحدة في الغرب بعد الحرب العالمية الأولى وخلدتها أعمال هيمنجواي وإريك ماريا ريمارك وجرترود شتاين التي أطلقت على جيل الحرب الأصلي "الجيل الضائع". إن ارتباط المعرفة النفسية للشباب بالمصير التاريخي أمر مهم جدًّا، والمشاكل الناجمة من الموقف التاريخي لها أثرها على الجيل.

إن هذا العصر هو عصر الشباب بالنسبة لمسيرة البشرية، وفيه يرفع الإنسان شعار الشباب الدائم، لكن الإنسان في سن الثلاثين يكتشف أن تصوراته بين العشرين والثلاثين لم تكن صحيحة كلية. تتوقف الحياة عن بساطتها، وتتحطم القواعد المستقرة والبناء الداخلي للشخصية. تحدث أزمة ناجمة عن عدم الاستعداد الكافي للحياة. لكن في سن الثلاثين أيضًا يكون الإنسان قد أسس نفسه واكتملت شخصيته وأصبح صادقًا مع هويته True to his identity ومستعدًّا للتمييز بين الناس والنظر

في نفسه وفهمها. يدخل الإنسان إذن في إعادة تقييم للنفس، وتحدث أزمة الثلاثين سنة من العمر والتي يبدأ بها الفرد العقد الأربعيني.

النضج:

"في منتصف الطريق لحياتنا هذه الفانية" جملة كتبها دانتي في كتابه الكوميديا الإلهية وهو في الثالثة والثلاثين. هو إذن رجل ناضج ليس في أول العمر ولا في آخره، في المنتصف. ويشير الإغريق القدماء لهذا العمر بكلمة "Acme" أي "Peak" أي قمة الشيء حيث يكتسب الفرد هويته identity ويصبح النضج ازدهارًا للشخصية. لكن إذا كان النضج خاتمة النمو للشخصية فما معنى العمر المتقدم؟ ماذا نقول عن سن التسعين حين وقف مايكل أنجلو على أبواب الكوليزيوم في يوم بارد عاصف ولما سأله الكاردينال: لماذا يقف في مثل ذلك اليوم قال: "أنا أتعلم". إن أنجلو يؤكد بذلك حق الإنسان في امتلاك القوة على الكمال النفسي دائمًا.

إن المعرفة بالمسئولية والكفاح من أجل امتلاكها هي العامل الحاسم في النضج. وفي رواية " أفكار مارس The Ides of March" يربط ثورنتون وايلدر الكاتب المسرحي الأمريكي بين المسئولية والحرية ويلاحظ أن الحرية مسئولية Freedom is responsibility، ولكن السؤال عن الإنسان كرباط بين الطبيعة والإرادة الحرة كان من قبل هيجل الذي قال: إن الحرية كطبيعة للروح لا تكون إلا في حالة الروح الخالص بعيدًا عن الضرورة الحسية، والحرية في النهاية هي ضرورة مدركة. النضج إذن يمثل قضية الحرية والضرورة، والناضج يتحول - بتعبير هيجل - من ذاتية شريرة في فردية تؤكد نفسها في العالم على قاعدة من المسئولية. وفي علم النفس فإن "المقياس" أو المعيار لا يوضع في الاعتبار فهو لا يكشف إلا عن نشاط إنساني واحد، ولكن المهم هو المنهج، أي طرق البحث، وهي هنا عديدة ومختلفة للكشف عن جوانب الشخصية. ولقد لوحظ أن الناس لا تعترف بأعمارها أو تخفيها، وإلى المجموعة الثانية تنتمي النساء والمسنون. وهناك أيضًا من يبالغون في أعمارهم، فالأطفال. لا يعترفون بأنهم أطفال، والمراهقون لا يعترفون بأنهم كذلك بل كبار، وهكذا يبدو كل الناس
لا يحبون الكشف عن أعمارهم.

وفي اختبار العالمة النفسية الفرنسية بيانكا زازو Bianca zazzo على أطفال بين 6 - 12 سنة وجهت إليهم أسئلة حول أي عمر يفضلون: أن يكونوا أطفالًا صغارًا؟ أو في أعمارهم الطبيعية؟ أو يكونوا بالغين؟

شمل الاختبار أبناء العمال والموظفين وأبناء الممثلين لمراكز عليا في المجتمع. في الإجابات ظهرت آثار البيئة على الاختيار. أطفال المراكز العليا قالوا إنهم يفضلون أن يكونوا كبارًا. الأطفال الأكبر سنًّا فضلوا أعمارهم الطبيعية. أطفال الموظفين وقفوا موقفًا وسطًا. أطفال العمال قالوا إنهم يفضلون أن يكونوا أصغر. فسَّرت "زازو" ذلك بوجود "انفتاليزم" ردة طفولية أكبر بين أبناء العمال، ونمو أكثر لدى أبناء المراكز العليا.

على أي حال، فإن الأوهام والشكوك تنتمي أيضًا لمرحلة الشباب. وفي بحث حديث أظهر عدد من الأفراد الناضجين ما يمكن تسميته بأزمة الهوية، وهو ما يتعلق بسؤال الإنسان لنفسه عن: من هو؟ كما يصوره الآخرون ومكانه في المجتمع والجماعة؟ هذا مفهوم مناسب للأطفال والصبية، وهناك مغالطة في تطبيقه في حالة الناضجين، لكن لا تزال المناقشات حول تطبيقه مستمرة. ولقد لاحظ هيجل أن هناك ظاهرة مرتبطة بتغيرات العمر الخاصة بالأفراد ووصف الظاهرة بأنها مثل الاكتئاب Hypochondria. فالرجل الراشد يهتم أولًا بالأشياء المادية ويفرق في تفصيلاتها إلى حد مؤلم، وحين يعجز عن تحقيق أفكاره يصيبه الاكتئاب.

إن الراشدين بين سنتي 40 - 50 سنة يمثلون المركز المتوسط بين الآباء والأطفال وهم يحتلون المركز الرئيسي في المجتمع، في العملية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية..

وفي إحدى المراحل يجد الإنسان نفسه على خط حدود النضج مع الشيخوخة لكنه لا ينتمي إلى أي منهما. هذه المرحلة تسمى قبل الشيخوخة Pre - senile ولكن الإنسان هو ما يفعله بنفسه، وشخصيته إنتاج لنشاطه الخاص. هكذا يقول هردر الفيلسوف الألماني، لذلك فالشيخوخة نتاج حتمي لانعكاس مجرى حياة الإنسان. إنها ملخص أولي للحياة، لأن نشاط الحياة لم ينته بعد، رغم النشاط الخلاق للجيل التالي. ولإعادة تدعيم هوية الإنسان خلال التقدم في العمر على أن يظهر أنشطة عملية ويحرك إرادته وخصائصه الروحية هادفًا إلى "روح صحيحة" في جسد معتل يقترب كثيرًا من المرض. إن الإنسان في السن المتقدمة يتأمل نفسه. ولقد قال الكاتب الروسي أوليشا Yuril Olesha": إن الحياة حتى سن متقدمة تجربة فائقة، لأنه بعد كل شيء فأنا لم أعش طويلًا، ولكني عشت، وكم يكون خلابًا، أن أشعر أني مرئي من الآخرين، ذلك أن قدرتي على أن "أرى" تستمر في وظيفتها كما لو كانت في الطفولة، وإنه بالشعور بالشباب، والطزاجة، أدرك نفسي اليوم شيخًا، وهذا الشيخ جديد علي، فأنا لم أره من قبل، ولم أفكر أني سأراه لكنه - هذا العجوز - فجأة ينظر إلي من المرآة. إنه أمر خيالي Faurastic.

الشيخوخة.. الأسئلة الأخيرة:

هي أكثر مراحل العمر تناقضًا للإنسان. إنها زمن الأسئلة الأخيرة فلا فرصة هناك للأوهام. هناك في التاريخ حكايات عن كره الشيخوخة، لكن الناس الآن يبدون منسجمين مع قول أندريه موروا الساخر: إن "الشيخوخة عادة سيئة لا وقت عند النشطين من الناس لها". لكن ما هي الشيخوخة وما هو وضعها في مراحل حياة الإنسان؟

البعض يقول إنها مرحلة ليست أفضل أو أسوأ من المراهقة أو الشباب، والبعض يرى أنها مرحلة تفكك الشخصية وعدم تكاملها والحقيقة أنه منذ العصور القديمة والناس مغرمون بالمقارنة بين الشيخوخة والطفولة. فالطفولة "فجر" الحياة والشيخوخة "غسق الحياة" والطفل ينزع من الواقع كما قال سارتر في كتابه: "الكلمات - Les mots" وكذلك مرحلة الشيخوخة، لأن التقاعد عن العمل ليس قانون الطبيعة، لكنه موقف اجتماعي في مجرى المدنية. فالشيخ هو غير القادر على العمل، هكذا تاريخيًّا، لكن في عالمنا المعاصر يختلف الأمر. فالشيخوخة لا تكون بين سن الخمسين

والستين، بل في سن الخامسة والسبعين، ومن ثم فإن العديد من سكان العالم مسنون وخاصة في المجتمعات المتقدمة.

وهكذا يعيش الناس من 10 إلى 20 سنة بعد خروجهم إلى التقاعد، ومعروف أن الذي يعمل أكثر يعيش أطول، ولا بد أن الشيوخ يقولون مع الفيلسوف الفرنسي ميشيل مونتين Michel Montaigne ": إنه يرغب في أن يموت وهو يعمل".

لقد قال ليوناردو دافنشي: إن العمل يولد الخبرة، والخبرة تولد الحكمة التي هي ابنتها، ومن ثم يجب ألا نقلل من شأن الحكمة كتكوين نفسي مهم في الشيخوخة. الحكمة هنا حالة نوعية للروح مؤسسة على خبرة الحياة الواسعة تعمل من أجل تأسيس الاتصال بين الأجيال.. فهي رؤية الماضي والمستقبل كما هي رؤية الحاضر.

إن الشيخوخة فترة محددة من الحياة تصل إلى ذروة طول العمر. هذا العمر الذي يتوقع له الزيادة عشر سنوات في عصرنا مع التقدم العلمي الأخير. وطول الحياة يأتي من معرفة الإنسان كيف يستخدمها، ولا معنى من شكوى الطبيعة فهي تدير نفسها جيدًا.

ومن قبل قال سينيكا الروماني إن: "الحياة كخرافة قيمة ليس لطولها ولكن لمادتها". هذه كلمات حية في علم الشيخوخة gerontology الذي لم يعد همه إضافة سنوات جديدة إلى الحياة، ولكن إضافة الحياة إلى السنين؟

"مجلة العربي الكويتية يوليو 1992"

ازدواجية الرؤية . العبقرية والتنقل بين الفنون

:The Duality of Vision

Genius and Versatility in the Arts

تأليف : والتر سوريل Walter Sorell

هذا كتاب فريد في نوعه للكاتب والتر سوريل نشرته دار تيمز وهدسون عام Thames 1970 & Hudson، يبحث ظاهرة من أكثر الظواهر حيرة، لكن أهميته ليست فيما يقوله عن هذه الظاهرة، إنما تكمن أهميته في أمرين؛ الأول: إن مؤلفه اختار مظهرًا واحدًا من مظاهر العبقرية وعالجه بحيث يكشف عن تجلياته المختلفة فقدم دراسة تطبيقية. والثاني: إن الكتاب يكاد يكون موسوعة فنية وأدبية.

لكن ما هي هذه الظاهرة المميزة التي يبحثها والتر سوريل؟ وما الذي يجعل من هذا الكتاب فريدًا في نوعه ؟

على هذين المحورين تكون إجابتنا، ويكون تقديمنا لهذا الكتاب القيم والكبير ورأينا فيه كذلك..

المؤلف والكتاب:

أما الظاهرة التي يبحثها الكاتب فهي ظاهرة العبقرية. وقد يبدو ذلك ليس جديدًا، فهي ظاهرة طالما ناقشها الفلاسفة وعلماء النفس، فمنذ أفلاطون الذي اعتبرها نفحة إلهية، وحتى علماء الاجتماع المحدثين الذين جعلوها تعبيرًا عن تفاعلات اجتماعية في عصر بعينه، لا نجد فيلسوفًا ولا مفكرًا هامًّا إلا وأدلى فيها برأي. ويكفي أن تعرف أن فيلسوفًا مثل توماس كارليل جعل التاريخ كله من صنع العباقرة لتعرف أهمية هذه الظاهرة.

وهناك من ربطها أيضًا بالبيئة الجغرافية ربطًا لا فكاك منه مثل أصحاب مذهب الحتمية الجغرافية، وأيضًا هناك من جعلها في خلفية الصورة مثل الفلاسفة الماديين، أو على الأقل أسقط عنها تفسيرهم هيبتها، وهناك من اكتفى بمجرد وصفها لغويًّا، أو وصف مظهرها، فقال في معرض التمييز بينها وبين الموهبة، أن الموهوب يصنع ما يمكن، لكن العبقري يصنع ما يجب، أو أن الموهوب يصنع بسهولة ما يصنعه الآخرون بصعوبة، بينما العبقري يصنع المستحيل. أو أن الأشخاص العاديين ينزفون الدم حتى ينتجوا ما لا قيمة له، بينما يخلق العباقرة الأشياء المدهشة بلا مجهود كما يقول أناتول فرانس..

وهناك أيضًا من ربط العبقرية بصفات في الجسم والبنية وحجم مخ الإنسان، مثل العلامة الإيطالي لومبروزو، ولكن في كل الأحوال ظلت ظاهرة العبقرية والعبقري مدهشة ومحيرة. والتر سوريل مؤلف هذا الكتاب يتقصى العبقرية في ميدان واحد بشكل رئيسي هو ميدان الفنون. وإن كان ذلك لا

يمنعه أحيانًا أن يوضح تجليات عبقرية الفنان في ميادين أخرى.. وهو حين اختار هذه الزاوية لتحليل العبقرية وظواهرها، نأى بنفسه عن كثير من المشكلات الفلسفية المعقدة عن هذه الظاهرة.

لقد كرس الكتاب كله ليدفع لنا مظاهر العبقرية في الفن، وجعل العنوان الفرعي لكتابه "العبقرية والتنقل بين الفنون" فحدد موضوعه بشكل أعمق.. إنه إذن سيتناول عباقرة الفن وإبداعاتهم المختلفة في الفنون المختلفة معًا. ولهذا فإن كتابه فريد من نوعه.. إنه يتناول فصيلًا واحدًا من فصائل العباقرة في التاريخ ويتقصى مظاهر عبقريتها. والمؤلف فيما يبدو ينطبق عليه ما يقوله في دراسته.. فهو من ناحية أحد رجال التدريس بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، وله مؤلفات عديدة معروفة هناك، وهي في جملتها مؤلفات شيقة وطريفة، أذكر منها على سبيل المثال "الرقص على مر العصور" و"قصة اليد البشرية" وله أيضًا مسرحية بعنوان "كل إنسان اليوم"، بالإضافة إلى إنتاج متعدد في القصة والمقالة والشعر.. فواضح أنه فنان متعدد المواهب، يطمح أن يكون كأحد العباقرة الذين يتحدث عنهم.. لقد شغلته عدة أسئلة من نوع ما الذي يدفع الكتَّاب إلى أن يرسموا؟ والرسامين إلى أن يكتبوا ويؤلفوا الموسيقى، والنحاتين إلى أن يكتبوا أو يرسموا؟ وما هي حاجة الفنان كي يهرب من مجال بلغ فيه القمة إلى مجال آخر للإبداع؟ وهل هناك علاقات داخلية بين الوسائط الفنية المختلفة، التصوير والموسيقى والشعر والنحت.. إلخ.

هل يكفي أن نقول إن العبقرية هي الكامنة وراء هذا كله؟ أم أن هناك عوامل أخرى تغذي ذلك وتساعد عليه؟ وما هي صلة هذه العوامل بالعبقرية، وبالتالي بالفنان؟ وهكذا. وللإجابة على كل هذه الأسئلة قسَّم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء وصلت بعدد الصفحات- بعد إضافة ثبت المراجع واللوحات المصورة- إلى ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير.

الجزء الأول يبحث موضوع الموهبة والعبقرية وخاصية الإبداع متعددة الأوجه. ويبحث تحت هذا الموضوع قضايا سر خاصية الإبداع، والبيئة كمثير للإبداع، ثم يخصص فصلين أحدهما بعنوان "باسم الموسيقى" يتحدث فيه عن الموسيقيين الذين أبدعوا في وسائط فنية أخرى أو أدبية. والثاني بعنوان "فنان الأداء"، ويتحدث فيه عن الراقصين والممثلين الذين أبدعوا في مجالات أخرى غير فنون الأداء هذه.

أما الجزء الثاني فيخصصه كله لموضوع المصورين الذين كتبوا، بدءًا من عصر النهضة حتى العصر الراهن. ويدخل مع المصورين النحاتين أيضًا. ثم يخصص الجزء الثالث للكتاب الذين رسموا. أو صوروا.

سر الإبداع والوحدة بين الفنون:

يقدم والتر سوريل لكتابه ببحث طيب عن سر خاصية الإبداع، وبتتبعها من أكثر من زاوية، سواء الزاوية النفسية أو الاجتماعية التي تدخل فيها البيئة كأحد العوامل أو العامل الرئيسي في التأثير. فإيمان سوريل بالعبقرية شديد أقرب إلى إيمان نيتشه بها، باعتبار العباقرة هم الشيء الوحيد المستمر في الحياة في نظره، وهو مؤمن أيضًا بأن إبداعات العباقرة هي اللبنات التي يُبنى فوقها أو بها العالم.

ويبدأ بحث سر خاصية الإبداع بالحديث عن الزاوية النفسية. ويناقش كثيرًا من الآراء التي قيلت في ذلك.. ويعتبر علم النفس الفرويدي قاصرًا عن فهم هذه الخاصية. وما يقوله فرويد عن أن الرغبة في الأنثى والقوة، وحب المرأة بشكل عام، يكمن خلف الإرادة المبدعة للفنان، يعتبر مجرد ملاحظة انطباعية
لا تكفي لتفسير خاصية الإبداع.. ويسوق كثيرًا من آراء المفكرين مثل سيزار بيفيس الذي قال: "أن تكون عبقريًّا يعني أن تمتلك الخبرة الخاصة والجسم والإيقاع والذكريات" أو سير فرانسيس جالتون الذي قال: إن "العبقري
لا يستطيع أن يظل مختفيًا، بل من الضروري أن يؤكد نفسه" ويقصد أن هناك دافعًا داخليًّا قاهرًا يحقق العبقرية، أو يخرجها من حالة الكمون إلى حالة التجلي. أو بلغة الفلسفة إخراجها من حالة القوة إلى حالة الفعل، وكذلك رأى الفيلسوف الروماني سينيكا الذي يربط بين العبقرية والجنون، إذ لا يوجد عبقري عظيم دون لمسة جنون. ولا يمنعه حديثه عن الزاوية النفسية من أن يذكر الآراء القديمة عن العبقري ككائن يلبسه شيطان أو روح حارسة أو استلهم عبقريته من الموسيات راعيات الفنون في الأساطيرالإغريقية.

لا يتبنى سوريل رأيًا من هذه الآراء، ولا يفضل أحدها على الآخر، والمسألة في نظره أعقد من ذلك. حقًّا إن معجزة فعل الإبداع والدافع للتغيير الفني يمكن اقتفاء أثرهما وبحثهما، وإعادة بحثهما وتفسيرهما. لكن ما تحصل عليه في النهاية هو رمال تجري بين أصابع الفرد. حقيقة إننا إذا اكتشفنا المفتاح السيكولوجي لخاصية الإبداع عند الإنسان سوف نعرف سرها، لكن المسألة تبدو أقرب لما قاله والتر ميرنج من أن شرح العملية الفنية سيكولوجيًّا يعد بمثابة تناقض في ذاته، فروح الفن عنده تصعد من "الجشتالت" من "الكل" من الوجود كله.

إذن، إذا لم نكن وصلنا من الناحية النفسية إلى اكتشاف سر خاصية الإبداع بشكل محدد وقاطع، وبصفة خاصة الإبداع متعدد الأوجه الذي يجعله والتر سوريل صنو العبقرية، هل يمكن أن تكون هناك علاقات متبادلة بين الفنون المختلفة؟ وهل تساعدنا هذه العلاقات قليلًا في كشف سر القدرة على الإبداع المتعدد الأوجه. يؤمن والتر سوريل بالعلاقات المتبادلة بين الفنون. وينطلق في ذلك من مقولة بسيطة للغاية، هي أن الكلمات المتداولة التي نستخدمها غالبًا لنقول أشياء غير ضرورية أو حتى ضرورية، يمكن أن تتحول إلى شعر.. وأن سر اللوحة الفنية الجميلة يكمن داخل قطعة خشب أو حجر أو رخام، وأن الألحان والألوان القليلة يمكن استخدامها كثيرًا، وأكثر من مرة في إيقاعات أو أشكال جديدة ومختلفة.. حقًّا إن لكل فن أدواته ووسائله التي تجعل منه عالمًا في ذاته، لكن كل فن يخدم نفس الغرض، ألا وهو "إعلاء شعورنا بالوجود".. أن يتحدى وأن يزعج – الفن بالطبع – وأن يقدم المعنى الحي وراء ما هو واضح، وأن يبني الجسور.

والفن العظيم هو الذي يقترن فيه القلب بالعقل. لكن الفن الأعظم هو أن يرى الفنان بالعين الداخلية للشاعر.. إن الصورة الشعرية كامنة في جذر كل الفنون، وليس من الضروري أن يكشف الشعر فقط عنها.. إنه يكشف عن إحدى صورها فقط أو تجلياتها.. إنها كامنة في كل شيء في الحياة حتى في الصيغ الرياضية.. فجوهر الحياة هو الشعر كما أن جوهر الفن هو الشعر وبنفس الدرجة.. وبمعنى آخر فإننا نستطيع أن نرى الأصوات ونسمع الألوان ونلمس الألحان.

إن العلاقات المتبادلة بين المحسوسات أكبر مما نتوقع أو نعرف، ولقد قال صمويل بيكر الشاعر الإنجليزي: إنه "في الجوهر فإن فنون الموسيقى والتصوير والكتابة هي شيء واحد، وكذلك العمارة والنحت. كلها شيء واحد، فالنحت عمارة عظيمة".

ويؤكد سوريل على هذه الفكرة، فكرة وحدة الفنون كثيرًا، ويسوق كثيرًا من الآراء المؤيدة لفنانين ومفكرين كبار مثل نوفاليس وآرنست بارلاخ وهربرت ريد وروبرت شومان الذي أجمل كل هذه الفكرة حين قال: "إن الموسيقي سيكون قادرًا على دراسة ما دون رافاييل بصورة عظيمة، كما سيفعل المصور حين يدرس سيمفونية لموتسارت. وأكثر من ذلك فإن النحات يرى الممثل كتمثال، ويدرك الممثل أعمال النحات كأشكال حية. كما أن القصيدة عند المصور تتحول إلى صورة، بينما يحول الموسيقار الصورة إلى أصوات".

إذن - في نظر سوريل - تساعد هذه الوحدة بين الفنون في تفسير ظاهرة الخاصية الإبداعية المتعددة الأوجه.. ولا يصبح غريبًا أن نرى فنانًا يكتب أو موسيقارًا يرسم. لكن لم يزل أمام سوريل عنصر آخر له تأثير كبير على العبقرية، أقصد البيئة. وهو يؤكد على العلاقة الطردية بين البيئة والفنان. فالبيئة المزدهرة تساعد على تفجر العبقرية، والبيئة الضحلة تخنق الفنان، بل إنه يجعل أثر البيئة سابقًا على الفنان. أو كما يقول إن لكل عصر نابليونه ولكن ليس لكل نابليون عصر. إن المناخ الثقافي والاجتماعي لفترة ما أو منطقة ما له علاقة كبيرة بالخاصية الإبداعية. ويضرب على ذلك أمثلة من عصور النهضة والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي جرت في أوروبا في ذلك الوقت، وأطلقت عبقريات أو هيأت المناخ لعبقريات رجال مثل دافنشي أو ميشيل أنجلو.. ثم ما حدث في القرن السابع عشر، والمناخ العلمي المزدهر الذي هيأ فرصة كبيرة للعقل، فأتاح بدوره الفرصة للتقدم العلمي والآراء العلمية، حتى أصبح ذلك القرن عصرًا ذهبيًّا للعلوم، إذ فيه تجلت عبقريات جاليليو ونيوتن وكثير من الفلاسفة العقلانيين أمثال ديكارت وهوبز وسبينوزا وجون لوك وباسكال. وكيف كان الهجوم الضاغط للعلوم والفلسفة في ذلك الوقت له أثره السلبي، إذ لم يسمح بنمو الموهبة المتعددة الأوجه في الإبداع. حتى الاستثناءات كانت قليلة لا تتجاوز ميلتون وموليير.. ثم جاء القرن الثامن عشر.. أو ما يعرف بعصر التنوير الذي بدأت فيه الرومانتيكية. إنه العصر الذي حطم كل بقايا العصور الوسطى، وأظهر فيه الإنسان إرادته في الحرية من خلال الثورات المتعددة. الثورة الفرنسية والحرب الأمريكية من أجل الاستقلال. لقد كان عصرًا مناسبًا تمامًا لظهور الموسوعيين أمثال فولتير وديدرو وروسو.

كان عصر ظهور البرجوازية وظهور الرواية وكتابة الرسائل، حيث تقدمت فيه العلوم الموجودة، ونُظمت المعرفة، وتقدم التشريح والبيولوجيا على يد سويد كارلوس لينوس.. ولذلك ليس غريبًا أن يظهر في هذا العصر رجل مثل بنيامين فرانكلين يجمع بين العلم والأدب والسياسة والفلسفة والصحافة والخطابة والعمل التنظيمي.. وترك فولتير بصماته على العصر حتى سمي بعصر فولتير، وكذلك روسو وجوته الذي يعد آخر العمالقة من العباقرة الذين تركوا أثرًا في كل مجال. وكان عصر الثورة الصناعية والرومانتيكية التي حاولت الهروب منها، والتي افتتحها جوته بروايته "آلام فرتر" عام 1774. أما المثل الأخير على أثر البيئة فيأخذه بعد العشر سنوات الممتدة في الفترة من 1895 حتى 1905.

وفي نظره أن هذه العشر سنوات هي التي مهدت للقرن العشرين، ففيها تم اكتشاف علم الميكانيكا واكتشافات الزوجين كوري وأديسون وموجات ماركوني والسيارات وطائرة الأخوان رايت اللذين حققا حلم دافنشي القديم، وآينشتاين وفرويد ورحلته في اللاشعور، وبيكاسو والتكعيبية، وستانسلافكي في المسرح.. ويعتبر سوريل هذه السنوات العشر هي التي فتحت الباب لكل المنجزات التالية خلال القرن العشرين.. ولم يعد أمام سوريل بعد أن مهد لبحثه بتوضيح العوامل المؤثرة في نمو وازدهار العبقرية بشكل عام، والعبقرية في الفن بشكل خاص، لم يعد أمامه إلا أن يقدم شواهد على ما يقول.

وبعد هذه الدراسة التمهيدية ينفتح الكتاب ليصبح موسوعة غنية بالمعرفة، عن الفنانين العباقرة الذين تجلت عبقرياتهم في أكثر من مجال، في موسوعة حافلة بالمعلومات الجديدة عن مشاهير عرفناهم في مجالهم الرئيسي.. وأكاد أقول: إن الجهد الرئيسي لهذا الكتاب هو في هذا الحشد الهائل من الأسماء الفنية، وإظهار كبير لجوانب خفية في حياة وأعمال كثير من المشاهير والعباقرة في عالم الفن والإبداع الأدبي.

الرحلة من الفنون المختلفة إلى فن الأدب:

إن أي محاولة لإيجاز ما كتبه سوريل عن الفنانين المختلفين الذين تجلت عبقرياتهم في فنون مختلفة لن تكون ناجحة. فمن جهة هناك كم هائل من الفنانين الذين تناولهم أو ذكرهم المؤلف، ومن جهة أخرى فإن ما كتبه عن كل مؤلف بذاته هو شيء موجز. كثيرًا ما يبدأ بالتعريف بالمؤلف أو العصر الذي وجد به ثم لماذا ترك مجاله الأساسي إلى مجال آخر من الفنون.. هل للهرب من المجال الأول..؟ هل لأن هناك حاجة داخلية لذلك في نفس الفنان؟ وهل وفق الفنان في المجال الثاني، أو في المجالات الأخرى غير مجاله الأساسي؟ وهل كان إبداعه فيها على مستوى إبداعه في مجاله الأصلي؟ وهل تغيرت رؤيته أم أننا في النهاية نجد أنفسنا أمام فنان يعبر بطريقتين فنيتين عن رؤية واحدة؟ إلى غير ذلك الأسئلة.

وبالطبع فإن المؤلف في كثير مما يقدم من الفنانين، بذل جهدًا كبيرًا في تفسير وتأكيد وحدة الفنون، رغم اختلاف الطرق الفنية. لقد أشار إلى ذلك في حديثه عن سر الخاصية الإبداعية، وأكده بأقوال كثير من الفنانين والمفكرين، ولكنه الآن يؤكده تطبيقيًّا.. إن ذلك يظهر بشكل واضح عند حديثه عن الكتاب الذين رسموا أو عن المصورين الذين كتبوا.

وهو يبدأ رحلته بالحديث عن الموسيقيين، أو بمعنى أدق الكتاب الموسيقيين. ويذكر منهم الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، فنيتشه كان يرقص بالقلم كما أن لغته في جوهرها موسيقى خالصة، تجسد حساسية الأذن الداخلية كما قال عنه توماس مان. وبالموسيقى ارتبطت قراراته الداخلية لشعوره، هو إذن المثال الأول على الموسيقي المحبط الذي ظهرت نزعته الموسيقية وشعوره الموسيقي ووجدا لها شكلها التعبيري المتسامي في الكتابة.

أما. ريتشارد فاجنر فهو مثال على الموسيقيين الكتّاب.. مثال مقابل لنيتشه. وهو كما يراه الكاتب يحمل وجهي فاوست ومفيستوفيليس معًا.. كان فنانًا حالمًا بالدراما الكاملة. وكانت نتيجة هذا الحلم

تركيبًا رائعًا من الموسيقى والدراما اللذين ألفهما معًا في أوبراته الشهيرة.. وفاجنر أيضًا مثال على الشاعر.. فهو نفسه الذي قال عن نفسه: "مع الاعتبار لكل أعمالي الدرامية فإني للوهلة الأولى كنت شاعرًا.. فقط في عملية استكمال عملي في القصيدة صرت موسيقيًّا ".

أما الموسيقيون النقاد فهم كثيرون.. منهم روبرت شومان "1810-1856" وفريدريك شوبان، وهيكتور برليوز(1803–1869) وكلود ديبوس (1862-1918) وأكثرهم تفوقًا إيجور سترافينسكي الذي يعتبره المؤلف مع بيكاسو أكثر الفنانين المبدعين وحده خلال هذا القرن. موسيقاه صوت بالحضور.. وهي مدهشة نقية دائمًا.. ونقاء عقله ووضوح بنائه يظهران أيضًا فيما كتبه "سيرة ذاتية" عام 1936 "شاعرية الموسيقى" 1942 "محادثات مع إيجور سترافينسكي" 1959 و"ذكريات وتوليفات" 1960 و"محاورات ويوميات" عام 1963.

ونعرف حين يتحدث عن فناني الأداء أن سارة برنارد ممثلة المسرح الفرنسي الشهيرة كانت ترسم، وكذلك جوزيف لانج الممثل وشقيق موتسارت النمساوي وكذلك الممثل النمساوي جوزيف كينز.. الأول عاش ما بين عامي (1751-1831) والثاني (1858-1910) أما الممثلون الذين كتبوا للمسرح أدوارًا لهم أو لغيرهم فهم كثيرون. ولقد بدأت هذه الظاهرة منذ سوفوكليس ويوريوبيدس. وظهرت كذلك في شكسبير وموليير وبعدهما نويل كوارد وهارولد بنتر في العصر الراهن، وكذلك برتولت بريشت قبلهما وبيتر ستينوف الذي يمثل ويخرج ويكتب للمسرح ويرسم وانتونين ارتو (1895-1948) الذي فاقت عبقريته كل تصور عبر التحققات المسرحية، فلقد تحول من ممثل إلى مخرج مؤلف ومنظم استبعد المسرح الأرسطي والمسرح الملحمي وعاد إلى البداية، مثل بيكاسو قبله في فن التصوير، ليخرج لنا بمسرح القسوة.

ويتأنى والتر سوريل كثيرًا عند المصورين الذين كتبوا بدءًا من ليوناردو دافنشي. ويعزو ما فعله دافنشي في الكتابة وكذلك ميشيل أنجلو وجورجيو فاساري وبنفينوتو سيليني إلى عبقرية عصر النهضة بشكل عام. ومن أكثر فصول هذا القسم إمتاعًا، القسم الخاص بالمصور حين يكشف نفسه أو يميط عنها اللثام.. إنه يتحدث في هذا الجزء عن الأسباب التي تجعل الفنان المصور يترك ريشته وألوانه ليمسك بآلة أخرى هي القلم، ليتحدث ويعبر بأداة أخرى هي اللغة... إن لدى الفنان دائمًا رغبة داخلية أن يكشف نفسه ويعريها.. ورسوماته دائمًا تعبير عما في نفسه في الأساس، أو بها جزء كبير من ذلك مهما تخفت وراء الموضوعية. ولكن حين يرسم الفنان لوحة شخصية "بورتريه شخصي" فإنه هنا رغم استخدامه لنفس أدوات فنه الأساسي كمصور، إنما يريد أن يقف لحظة مع نفسه يناقشها.. يريد أن يعبر عن نقطة بلغها في تطوره العام، ويبحثها ويتقصى أعماقها، لينطلق بعدها إلى مرحلة أخرى أو شوطًا آخر من التطور.. هذا هو المعنى الخفي للبورتريه الشخصي وأهميته.

ولكن الفنان قد يلجأ إلى اللغة ليعبر بطريقة أوضح عن نفسه.. طريقة أسهل وصولًا إلى الجماهير.. ومن هؤلاء من يكتب النقد والآراء الجمالية – دافنشي مثلًا أو الإنجليزي وليام هوجارت (1697 - 1764) الذي ترك كتابًا عن "تحليل الجمال" كان فيه أول من صاغ الجمال في مصطلحات تجريبية، أو الفنان الأمريكي المعاصر بن شاهْن (1898 -1969) الذي ترك في علم الجمال بحثين هامين؛ الأول: عدة محاضرات في جامعة هارفارد بعنوان "شكل المضمون"،

والثاني بعنوان "بيوجرافيا التصوير"، وكذلك من الفنانين من كتب السوناتات الشعرية أو الملاحظات مثل كورو وديلاكروا وديجا، أو التعليقات والرسائل المختلفة مثل جوجان وفان جوخ، أو السير الذاتية مثل مارك شاجال وسلفادور دالي. وكيف أننا سواء في السوناتات الشعرية أو التعليقات والرسائل أو السير الذاتية لا نجد أنفسنا بعيدين عن الوحدة بين الفنون..

كل ما هناك أن الفنان انتقل إلى وسيط آخر لكن بنفس الروح ونفس الرؤية.. في رسائل فان جوخ يشع منها نفس التفجر والاشتعال الذي شع من ألوانه، وسيرة الحياة لشاجال بعنوان "حياتي" التي كتبها عام 1922 كتبت بنفس الأسى الذي يرسم به، حتى ليمكن القول بعد قراءة سيرة حياته أن رسوماته شكل من سيرته الشخصية. ونفس الأمر تراه في سيرة حياة سلفادور دالي "الحياة السرية لسلفادور دالي" حين نقارنها بلوحاته السيريالية.. إن فان جوخ يعبر عن ذلك أحسن تعبير حين يقول عن الوحدة بين الفنون، أن هناك رمبرانت في شكسبير وديلاكروا في فيكتور هوجو، ثم هناك رمبرانت في العهد الجديد والعهد الجديد في رمبرانت وكما تشاء، فستصل دائمًا إلى نفس النتيجة..

ثم ينتقل المؤلف إلى القرن العشرين ويتناول بنفس الرؤية كتابات مصورين عباقرة مثل بولكلي وكوبان وبيكاسو وأوسكار كوكوشكا المصور النمسوي الذي سبق بكتابه "الأولاد الحالمون" مانفيستو أندريه بريتون السيريالي بربع قرن، والذي ساهم مساهمة فعالة في الكتابة المسرحية وتحديد موضوعها بشكل يذكرنا بأنتونين آرتو في ثلاثينيات هذا القرن فيما بعد.. ولا يفوت المؤلف وهو يتحدث عن كتابات المصورين أن يتحدث أيضًا عن كتابات النحاتين المعاصرين مثل "السيرة الذاتية" للسير جاكوب ايبشتين (1880 -1959) وكذلك السيرة الذاتية لإسامو نوجوشي الذي ولد عام 1905 والياباني الأصل، أو جان آرب الذي ولد عام 1887 بستراسبورج وكان أحد المنتمين للمدرسة الدادية بزيورخ ثم انتقل منها إلى السيريالية فيما بعد، والذي كتب كثيرًا من القصائد والمقالات منها مقاله بعنوان "عالم الذاكرة والحلم" أو الميل إلى الكتابة الذي ظهر متأخرًا عند إرنست بارلاخ (1870-1938) الألماني الأصل.

من الأدب إلى فن التصوير:

وفي مقابل فناني الموسيقى والتصوير والنحت والأداء "التمثيلي والرقص" الذين تجلت عبقرياتهم أيضًا في الكتابة، يخصص والتر سوريل الجزء الثالث من الكتاب، عن الكتاب الذين رسموا. يتحدث في هذا الجزء عن الرسومات التلقائية التي تصدر عن الكاتب أو الشاعر وهو في حالة تفكير. تلك الخطوط غير الواضحة التي يجري بها القلم على الورق حين يفكر الإنسان. ويفرد فصولًا كاملة عن"الإدراك البصري للكاتب" وعن الزمن المماثل للموهبة المماثلة، وعن كتاب الفكاهة والهزل والمعنى العميق لرسوماتهم الكاريكاتيرية.. وربما كان الفصل الخاص عن الإدراك البصري للكاتب هو أكثر الفصول توافقًا مع روح الكتاب. وأكثر الفصول أيضًا متعة. فيه يحلل المؤلف رسومات كتاب كبار مثل جوته وهوخمان الألمانيين وفيكتور هوجو ورسومات الفرنسيين وكذلك ويليام ماكبيس ثاكري الروائي الإنجليزي صاحب الرواية الشهيرة "دار الغرور" وكذلك هرمان هسّه الألماني صاحب الرواية الشهيرة "لعبة الكريات الزجاجية" و"ذئب البوادي"، وغيرهما.. وأيضًا رسومات كاتب المسرح العبقري ستريندبرج، والروائي الإنجليزي دافيد

هربرت لورانس صاحب "أبناء وعشاق" و"قوس قزح" و"عشيق الليدي تشاترلي" وغيرها، وهنري ميللر ووالتر ميرنج وجورج تراكل..

تعرف من هذا الفصل أن جوته أحاط بكل مظاهر النشاط الإنساني، فلم يترك شيئًا إلا عاينه عن خبرة وأدلى بدلوه فيه، وكانت له دراسات في الطب، ونظرية عن البناء العظمي للجمجمة، ودراسات عن المناجم والزراعة والنباتات، فضلًا عن قصائده ودراساته الأدبية ومسرحياته وإدارته المسرح، وفوق ذلك كان يرسم أيضًا، واستطاعت عبقريته أن تستوعب اللغات العبرية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية، وكان أيضًا مغرمًا بالآداب الشرقية وخاصة الإسلامية. باختصار لم يكن هناك شيء غريب عليه.

أما هوجو الذي لم تظهر عليه علامات التصوير وهو صغير قط، فقد كان يرسم أيضًا، وكثير من رسوماته تمت خلال تفكيره أثناء الكتابة. وكما اعتاد أن يستعمل أي قطعة ورق تقع في متناول يده ليكتب عليها أفكاره، كانت رسوماته أيضًا لها طابع الحضور للعقل غير المحكوم الذي يبحث عن وسائل للتعبير. وكانت رسوماته تحمل غرامه بخيال العصور الوسطى ممتزجة بروح الرومانتيكية. وكان كما قال عنه الكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه: "أينما سافر رسم الرسومات لكل شيء يصطدم بعينيه، خطوط التل، انكسار الأفق، قبة الحرس القديم. إن أيًّا من هذه الأشياء يكفي مادة لرسم جيد سوف يُرى هوجو في نفس المساء منكبًّا عليه".

أعطى ستريند برج وقتًا أكثر لفن التصوير.. وهو يقول، أي المؤلف: إن ستريندبرج "هذا المعذب، المتشوق، الباحث، الخارج على النظام، المسرحي المتألق، الشاعر، الروائي، كاتب المقال، الذي انطلق من الطبيعية إلى الرمزية إلى الصوفية، يمكن أن يفهم أكثر وأفضل إذا رأينا عذاباته منقولة إلى لوحات، وبنفس هذه الرؤية يكون لورانس الذي نقل اشتعاله إلى لوحاته. وتمضي مع الكتاب حتى نضحك في النهاية مع الكتاب الفكهين وهم يرسمون بريشتهم ما يريدون التعبير عنه بالقلم، ولا ترى خلافًا بين النتيجة في أي من الطريقتين.. وينتهي الكتاب وقد قطعنا معه وبه رحلة طويلة ومتعة.. واطلعنا من خلاله على جوانب كانت خافية علينا، ذلك أننا ما زلنا نعرف العباقرة من خلال ما اشتهروا به، وبالأحرى من خلال ما يصلنا عنهم من غيرنا، ولا نملك إلا أن نتقرب من هذا الجهد الضخم الذي بذله المؤلف، ونتمنى لو وُجدت دراسة عربية تحاول أن تتقصى الجوائب غير المعروفة في حياة مشاهير كتابنا وفنانينا.. وعباقرتنا أيضًا.

ويظل الكتاب يتحمل بعض الأسئلة.. فالكاتب رغم أنه يقول عن عمله إنه يكشف لنا عن بعض العبقريات غير المعروفة أو المشهورة، وأن هذا شيء هام، إلى جانب الطريقة الموسوعية في تقديم موضوعات الكتاب، أو أن هذا هو ما قصد إليه، رغم ذلك فإن الطريقة الموسوعية في صياغة الكتاب جعلت من متعتنا به قصيرة في إطار قراءة كل فنان على حدة..

ثم إن المؤلف رغم جهده الكبير جدًّا فإنه أوقف هذا الجهد على أبناء الجزء الغربي من العالم ولم يمثل الجزء الشرقي منه إلا النحات الياباني إسامو نوجوشي.

ربما شفع للكاتب أنه لم يشأ أن يقدم بحثه منفصلًا في العبقرية، إنما أراد أن يلقي الضوء على بعض ما قيل فيها، بما يخدم هدفه الأساسي في الكتاب، وهو أن يوضح الوحدة بين الفنون، وأن يطلعنا على الجوانب غير المشهورة في حياة وإبداع عباقرة الفن. قد يبدو المؤلف ليس صاحب قضية فلسفية إنما هو محب غاية الحب للفن ومتحمس له غاية الحماس لذلك أوقف له كتابًا كاملًا دليلًا على عبقرية الفنانين وعبقرية الفن التي لا تحدها حدود.

"مجلة الفيصل يونيو 1978"

الوادي المقدس .. من هداية النفس إلى هداية الأمم

الدكتور محمد كامل حسين علم كبير في الثقافة المصرية والعربية، قرّاؤه كثيرون، لكن في صمت، ونقّاده قليلون على غير عادة النقاد دائمًا.

ولد عام 1901 وتوفي عام 1977، وأمضى حياته مشتغلًا بتدريس الطب، وكان أول طبيب مصري ينال ماجستير جراحة العظام من جامعة ليفربول، وأنشأ في مصر قسم جراحة العظام الذي يعد رائده الكبير. أنشأ مستشفى الهلال الأحمر في مصر وعيّنه طه حسين أول مدير لجامعة إبراهيم باشا -عين شمس الآن - وكانت ميوله الفكرية والفلسفية والأدبية وراء دخوله مجمع اللغة العربية، وألّف كتابًا جميلًا هو "اللغة العربية المعاصرة"، كما كتب "الشعر العربي والذوق المعاصر"، في محاولة أن يسهل مهمة تذوّق الشعر عند المثقفين. وكان مع التجديد في الشعر، وأقرب إلى المدرسة النفسية أو العاطفية التي ترى أن الشعر مرآة لشخصية الشاعر، أي قريبًا من مدرسة "الديوان".

وللعقاد محاولة تطبيقية شهيرة لآراء هذه المدرسة تمثلت في كتاب
"ابن الرومي حياته من شعره"، وأيًّا كان الرأي في هذه المدرسة، فلقد كانت يومًا فرس الرهان في تجديد الشعر. ولمحمد كامل حسين كتب أخرى مهمة في العلوم والفلسفة، أخص منها "وحدة المعرفة" الذي لا يبتعد فيه كثيرًا عن تقسيم أفلاطون للمعارف، ففي القاعدة العلوم الطبيعية، وفي القمة العلوم الإنسانية، التي تصل في النهاية إلى المعرفة بالله. هو كتاب أحبه، قرأته في سن مبكرة، كما قرأت له في سن مبكرة أيضًا روايته الفذة "قرية ظالمة"، وهي روايته الوحيدة، التي تدور كلها في يوم واحد، هو يوم الجمعة، اليوم الذي تقرر فيه صلب المسيح في أورشليم، وما جرى عند اليهود، وعند الحواريين وعند الرومان، وهو أكثر الأيام ظلمًا في تاريخ البشرية.

لم أقرأ لمحمد كامل حسين أكثر مما أوردت مع أن له مؤلفات أخرى، فله مجموعة قصص قصيرة بعنوان "قوم لا يتطهرون" قرأت بعضها ورأيت أنها قصص أخلاقية لا تهتم كثيرًا ببنية القصة أكثر مما تهتم بالغاية الأخلاقية، وظللت لسنوات أرى بين حين وآخر كتابه "الوادي المقدس" في بعض المكتبات، تهفو نفسي إلى قراءته، ثم تشغلني عنه كتب أخرى، حتى وجدت أنني في هذه الأيام بحاجة إلى أن أقرأ شيئًا لهذا المفكر والأديب الكبير محاولًا استعادة شيء من حلاوة لغته، التي فتنتني كثيرًا أيام الشباب، وكنت أعرف أن الكتاب رؤية فلسفية للدين والعلم والفن، لكن المعارك الفكرية القائمة منذ سنوات بلا معنى - اللهم إلا أهداف سياسية - جعلتني دائمًا أجفل من القراءة في هذه الموضوعات، لأني - ببساطة - أرى أن المعارك الدائرة بين المحافظين والمجددين في الفكر الديني بالذات، تبدو قد زادت على الحد، فالمحافظون يستعينون على أي محاولة لإعمال العقل، بالنقل، ولا يتصورون أبدًا أنه حتى في القرآن الكريم يمكن تعدد التفسيرات باستثناء الأركان الخمسة للإسلام، ويستعينون إلى جانب النقل بشروح الفقهاء في التراث، ويعطون هذه الشروح صفة القداسة، التي لا تليق إلا بالله عز وجل.

لقد وصلت منذ زمن إلى فكرة أن كل هذه المعارك حول الفكر الديني، والتراث والتجديد، والهوية، والآخر، والنهضة، وغيرها معارك معادة، ولقد تم حسمها منذ أزمان في بلد مثل مصر، وإعادتها الآن على هذا النحو العجيب هو خراب للناس والأوطان، لأن أحدًا مهما أوتي من سلطة وسلطان، لن يوقف عجلة التغيير، وكل ما صنعه الأسلاف من البشر ونراه مقدسًا هو يخص هؤلاء الأسلاف وبيئاتهم، كما أن ما نصنعه نحن من أفكار الآن لن يخص أحدًا في ما بعد!

اقتنيت كتاب "الوادي المقدس"، وبدأت أقرأ فيه، فلم أستطع أن أتركه. كان السؤال الذي شغلني دائمًا أثناء القراءة: لماذا حقًّا تجاهل الجميع هذا الكتاب، والجميع هنا هم مَن يقدّسون التراث ومن يسعون إلى التغيير، ممن يرفعون راية السلف في الفهم الديني، ومَن يحاولون التجديد في الفكر الديني. هل لأن الرجل مات، أم لأنه مات قبل أن تمتلئ الأرض العربية وسماؤها بهذه المعارك التي بددت كثيرًا من الوقت والمال والأرواح؟ أغلب الظن لأن الرجل مات قبل أن تشتجر هذه المعارك، فليس مقصودًا أبدًا هذا الإهمال، وأغلب الظن أن قراءة هذا المفكر الكبير تغري بالاقتناع ولا أحد يريد أن يقتنع.

الوادي المقدس:

ليس هناك واد بعينه يقصده الناس، إنما هناك واد مقدس لكل شخص، يعرّفه محمد كامل حسين قائلًا: "هو البقعة من الأرض، وهو القطعة من الزمن، وهو الحالة النفسية التي تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء، فوق ضرورات الحياة، بل فوق حدود العقل"، هو إذن مرتبة من مراتب الصوفية كما قد يبدو من ظاهر الكلام، لكن صاحب التفسير النفسي للدين، يجعل من الوادي المقدس حالة إنسانية يمكن أن يشترك فيها الناس جميعًا، فهو الوادي المقدس، حيث آمالك كلها خير، وأحلامك كلها جميلة، لا يقع الشر منك ولا يقع عليك، حيث تكون الطبيعة وجسمك وعقلك ونفسك متوافقة توافقًا موسيقيًّا تكتمل به السعادة الإنسانية.

ثم يستمر في شرح فكرته، الوادي المقدس مملكة السماء، الجنة، أمور ثابتة في النفس الإنسانية أصولها الإيمان والخير والحكمة، وميادينها الدين والحب والعلم.

ولكن هل بلوغ هذه الغاية سهل، سهل إذا أراد الإنسان، أما إذا ضعف وترك نفسه لما حوله فسيفقد الراحة النفسية والبدنية "ففي النظام القائم بين الناس مرتفعات وسهول ووديان، وفوق المرتفعات أقزام هم دونك قدرًا، وأقل منك علمًا وحكمة وخلقًا، لكنهم يتحكمون في أمور حياتك بقوة ارتفاعهم عنك، فهم أعلى منك، وإن لم يكونوا أطول قامة ولا أعظم نفسًا، وفي الوديان قوم يرونك، فهم بمنزلة أهل المرتفعات منك".

أما في الوادي المقدس، فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير، فيسمو المظلوم فوق الظالم، والظالم لا يستطيع أن يستمتع بأمن الوادي المقدس ما دام ظالمًا.

الوادي المقدس إذن حالة يمكن أن يبلغها الإنسان فيستريح بها على شقاء الحياة، لكن حتى يبلغها عليه أن يتطهر بالرياضة النفسية على اجتناب الخطأ والخطايا. والتطهر ليس حالة ثانوية في

الإنسان، بل هو الأصل، وهو طبيعة في الإنسان وعنوان إنسانيته، على أن هذا لا يعني أن يشعر الإنسان باليأس إذا لم يستطع أن يتغلب على كل ما فيه من ضعف أمام نفسه أو الحياة من حوله، فالخير يقاس بما تبذله من جهد في هذا السبيل، وإن لم تبلغ الغاية التي تطمح إليها.

نحن هنا إزاء اعتراف بتفاوت القدرة البشرية، وأفق أوسع لفهم الإنسان، وليس اختزاله في شيء واحد، ويستمر محمد كامل حسين محللًا الطبيعة البشرية، فيحدد الشر باعتباره فسادًا في العلاقات بين الناس، فالشر ليس من طبع الإنسان. ما رأيك في الذين يعتبرون الإنسان شرًّا كله، جُبل على الشر، معبأ بالغرائز الجنسية، فملأوا حياتنا بالتحريم كأنه ليس لنا من عمل إلا ارتكاب الخطايا. انظر إليه وهو يتكلم عن التطهر، فيقول إن الطهر لا يفسده بعض الشر حين تعمله عرضًا أو مرغَمًا، فكما يكون من الحجارة ما هو ضعيف أو معوج ويكون البناء قويًّا كذلك قد ترتكب في حال الغضب أو الشدة ما لا ترضى عنه نفسك ثم تكون حياتك في آخر الأمر جميلة طيبة إذا كان قوامها التطهر.

ثم يصل الغاية في معنى الحياة الطيبة الصادقة بأنها هي التي تقوم على السلم. السلم بينك وبين نفسك ويحققه الإيمان، وبينك وبين الأقربين ويحققه الحب، وبينك وبين العالمين ويحققه الخير. ويستفيض في شرح كل حالة على حدة، لتجد أن التسامح يرفرف عليها جميعًا، ويقول بشجاعة إنه كان جديرًا بالأديان الكبرى ألا تختلف اختلافًا كبيرًا، فكلها تصدر عن أصل واحد هو الإيمان بالغيب وتؤدي إلى غاية واحدة هي بلوغ الوادي المقدس، لكنها اختلفت وظن أهل كل دين أنهم وحدهم على حق، والواقع أن أمور العقيدة ليس فيها حق وباطل، فكل ما تؤمن به إيمانًا قويًّا فعالًا مطهرًا يبلغ بك الوادي المقدس هو الحق بالنسبة إليك.

إذن فيم الاختلاف بين أهل الأديان. هو اختلاف في التركيب السيكولوجي للناس. فإذا كنت ممن يدفعهم إلى الخير خوفهم من الله وخشيتهم من عدله حين يبطش بالظالمين والخاطئين فأنت موسوي العقيدة مهما يكن الدين الذي تدين به، وإن كنت تشعر في نفسك أن الذي يدعوك إلى الخير حبك لله والناس الذين يحبهم الله فأنت عيسوي مهما يكن الدين الذي تدين به، وإذا كان الذي يدفعك إلى الخير أملك في الله والرغبة في الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، فأنت إسلامي مهما يكن الدين الذي تدين به.

ما رأي السادة الذين يملأون الدنيا بالمؤتمرات عن التقريب بين المذاهب والأديان؟ هل رأيت تبسيطًا للأديان الثلاثة الكبرى أكثر من هذا. ثم يوضح المسألة أكثر فيقول: إن من المسيحيين من هم موسويون يؤكدون الخوف من الله وأن عليهم أن يطهروا الناس بالقوة ولو بالقتل والتعذيب، ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن في تحقيقه من قسوة، يطيعون أوامر الله كما يفهمونها ولو خالفت روح الدين مخالفة واضحة. ما رأيك في ما يفعله المتطرفون في بلادنا هذه الأيام؟

الدين والعلم والجمال:

وفي فصل ممتع وكبير يتحدث عن الهوى والضلال حتى يصل إلى الدين والعلم والجمال، فيؤكد أن الخلاف ليس أبدًا بين الدين وحب الجمال والعلم ولكنه بين المتدينين وعشاق الجمال والذين يعملون. وأصل الخلاف ما يظنه أكثر الناس من أن الإخلاص لأمر منها يحول دون الإخلاص للأمر الآخر، والواقع أنها أمور متكاملة، لكل منها موضع في النفس الكاملة، وهي النفس المتطهرة الراضية فلا يضير الدين شيئًا أن يترك للجَمال أن يعمل في النفس عمله الطبيعي وهو السرور الذي لا تستقيم النفوس حقًّا إذا حرمته، - ما رأي الذين يريدون تحريم كل الفنون ؟ - ثم إنه لا يضير الدين شيئًا أن يترك للعقل تحقيق المعرفة وهي ميدانه الطبيعي - ما رأي الذين يدعون للانصراف عن الدنيا والعلوم العصرية
ولا يريدون علومًا إلا علوم الدين ولا يرون في الدنيا إلا الآخرة؟ - والمعرفة عنده لا تُغني عن الجَمال في تحقيق السرور، ولا تغني عن الدين في تحقيق الهداية، وحب الجمال لا يغني بدوره عن الدين في هدايته للناس.

والجمال الحسي في جوهره تنظيم لما هو كائن في الطبيعة على غير نظام، فالرقص تنظيم للحركة، والموسيقى تنظيم للزمن، والتصوير تنظيم للألوان، وهكذا.

والجمال المعنوي تنظيم لأمور معنوية، من ذلك الإيمان فهو تنظيم للأمور الغيبية، ولن تجد شيئًا جميلًا تطرب له النفس إلا أن يكون منظمًا على نحو ما. وعلى ذلك، فالتشابه كبير بين الجمال الحسي والجمال المعنوي، لكن الجمال الحسي أقرب إلى الطبيعة والسرور به أيسر على الناس، والذين يحرمونه
ولا يستعيضون عنه بقدر من الجمال المعنوي يشقون كثيرًا. ثم يستمر في تفسير الخطأ في اعتبار حب الجمال أصل الضلال عند المتشددين، فعشاق الجمال بهم من الحس المرهف ما يجنبهم كثيرًا من السوء والقسوة وإيذاء الناس. والمتشددون يسرفون في سوء ظنهم بالعلم، والواقع أنه أحرى بالمتشددين استعارة مذاهب أهل العلم في البحث حتى عن الأمور الغيبية. فالدراسة للنفس الإنسانية تؤدي بنا إلى إقامة الحقائق الدينية والخلقية، فمن المهام التي يجب أن يضطلع بها العصر الحديث أن يثبت الأصل السيكولوجي للدين. فهذه أيسر السبل للفهم والإقناع وأقواها أيضًا في الثبات.

الكتاب يستمر ليؤكد الأصل الفسيولوجي للأخلاق وأثر الحرمان في كثير من المشكلات الاجتماعية والنفسية. وفي النهاية، بعد رحلة من التأمل بالغ الصدق والتأثير يقول إن غياب حرية الفكر هي أكبر عوامل الحرمان، فالقليل منه يكفي لصحة الجماعات، وحرية الفكر من الأمور التي لا تستطيع أي أمة أن تستعيض عنها بغيرها من الأمور، فالقوة والغنى والفتوحات لا تمنع الدولة من الانحطاط إذا لم يكن فيها القدر الكافي من حرية الفكر. فكثير من الدول القديمة زالت بعد أن حققت فتوحات كبيرة، ثم ركنت إلى الاستبداد فاضمحلت وبادت.

"الوادي المقدس" ليس كتابًا للنفس المطمئنة فقط، لكنه كتاب للأمم والشعوب، قراءته دينية خالصة يمكن أن تغير من تفكير الكثيرين، من المتزمتين ومن المجددين أيضًا. إنه كتاب صدر منذ ثلاثين سنة- صارت أكثر من أربعين الآن مع إعادة نشر المقال هنا- كأنما كان يستكشف ما سيحدث فيها من معارك يتجنى فيها كثير من المتشددين على العلم والفنون، وعلى أهل الديانات الأخرى. إنه كتاب هداية لكل الناس والأمم والشعوب على اختلاف الملل، بقدر ما سرني أيقظني على السؤال:

لماذا حقّا لم يصل كثيرون من الذين يملأون حياتنا بالغضب إلى ما وصل إليه محمد كامل حسين؟ أليست لهم نفس نفسه ووواديها المقدس؟ ربما.

"مجلة العربي الكويتية يناير 2008"

أوراق مهاجر – أمريكا للبيع

هذان كتابان نشرا منذ حوالي ثلاثين سنة للدكتور محمود عمارة. ورغم مضي السنين لا يزال ما كتبه يستحق الاهتمام والتفكير فضلًا عن متعة القراءة. الكتابان نتاج لواقع وخبرة حياة لم تتغير كثير من مظاهرها وقضاياها، بل تلح علينا قضاياها كل يوم. أندهش جدًّا أنه رغم ما كتبه ورغم مقالاته التي كانت لسنوات طويلة بجريدة المصري اليوم لا تزال هذه القضايا قائمة. الكتاب الأول هو "أوراق مهاجر" نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب. أكثر من نصف الكتاب عن الرحلة إلى أوربا للعمل فيها في النصف الأول من السبعينيات. ذلك الوقت كان بعض طلاب الجامعة في الإجازة الصيفية يسافرون للعمل المؤقت في بلاد مثل إنجلترا وفرنسا. هنا رحلته وهو طالب لم ينتهِ بعد من الدراسة في كلية الحقوق مع مجموعة من زملائه إلى لندن بإنجلترا ثم فرنسا. بدأ ذلك عام 1973.

كان السفر حلمًا لهم وللكثيرين. وهنا تصبح اللغة الأدبية رائعة في وصفها للرحلة وتشبيهاتها ومشاعرهم التي هي بين الأمل والقلق. القلق الذي يجعل قلوبهم لا تزال مهشمة رغم وصول الطائرة لسماء لندن وبداية نزولها في المطار. حين وجدوا عملًا بعد أيام في غسيل الصحون والأكواب وغيرها في أحد المطاعم تغيرت فيه لون أصابعهم من غسيل أكثر من ألف طبق في اليوم فضلًا عن المياه الساخنة والصابون الإنجليزي الحارق. بعد أن صار مع كل منهم ستة عشر جنيهًا إسترلينيًّا يغيرون سكنهم من الخيمة التي جلسوا فيها إلى حجرة واحدة لهم الأربعة تبعد خمسة كيلومترات عن حي البيكاديلي الذي يعملون فيه وكانوا يقطعونها سيرًا على الأقدام.

تتغير الأعمال والمكابدات التي يصفها بشكل رائع وتتغير الأحياء وأماكن العمل ويأخذهم الحديث إلى السياسة حين يقابلون إحدى اليهوديات وغير ذلك. يتحدث بعضهم عن مشروعاته وآماله بشكل ترى فيه الجميع أمامك فهو يصفهم شكلًا وطريقة كلامهم. تحدث حرب أكتوبر وهم هناك، وهنا يتغير كل شيء بين التهليل والصراخ: الله أكبر، بينما أحدهم – مصطفى - يغمى عليه بعد أن صرخ الله أكبر. بعد أن يفيقوه يقص عليهم قصته مع حرب 1967 هو الذي تم تجنيده قبل الحرب وترك الجيش قبل حرب أكتوبر. يحكي كيف لم يحارب وكيف انتهت المعركة قبل أن تبدأ وكان الجيش ضحية ظلم فادح. يأخذهم الحديث إلى السياسة وجمال عبد الناصر.

المصريون في الخارج لاينسون بلادهم. يختلفون في تقييم عبد الناصر والسادات لكن صداقتهم لا تنتهي. يعود إلى مصر وفي العام التالي بعد أن أنهى دراسته لا يتمكن من الحصول على فيزا للندن مرة ثانية فيتجه إلى فرنسا وتبدأ قصص أخرى ملحمية الطابع. كان ممن معه هذه المرة خالد ابن المخرج صلاح أبو سيف.

علاقات وشخصيات كثيرة يتحدث عنها من الناس العاديين والمسؤولين، ورحلة يتقدم فيها من العمل عند الغير إلى استئجار محل إلى شراء محل ثم أكثر إلى التجارة إلى جانب ذلك مما لم يذكره ونعرفه مثل رحلته مع الدراسة في السوربون وحصوله على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي. هنا التركيز على الهجرة والمهاجرين. هكذا يكبر وسط المعاناة، ويتزوج سيدة من تولوز

ويشرح لك ويصف حياة المهاجرين العرب في باريس والأحياء التي يعيشون فيها ومشاكلهم وما يثيرون من مشاكل، وكيف كل من يعملون لايجدون إلا أعمالًا عضلية لا فكر فيها، وكيف أن هذه رؤية الغرب الاستعماري للعرب. أعمال عضلية من نوع البناء والحفر وجمع القمامة حتى باتت حكرًا عليهم لا ينافسهم فيها سوى بعض البرتغال والأفارقة. يطوف بك في أحياء وشوارع باريس ويتوقف عند كثير منها مثل الشانزليزيه ويتحدث عن عظمة المترو الفرنسي وغيره من مظاهر الحضارة. ينتقلون للعمل في الحقول لجمع العنب والبرقوق والخوخ وغيره وتعود الحوارات عن مصر دائمًا بينهم، خالد أو بكري أو حسين وغيرهم. يحدثك بإسهاب عن شغف الشعب الفرنسي إلى الثقافة والفنون والآداب.

التقى صدفة بشخص توقف بسيارته الفيات يسأله عن الطريق إلى أحد الفنادق بالإنجليزية، ولأنه كان يسكن جوار الفندق بالحي الرابع عشر يأخذه السائل في سيارته. يكتشف أنه مصري يعيش في أمريكا واسمه الدكتور صلاح جودة الذي رغم عمله بالطب والعيادة فهو صاحب أرض في أمريكا يزرعها ويقوم بالتصدير إلى فرنسا وجاء لتسويق منتجاته. يأخذه الحديث عن المصدرين المصريين وكيف لا يلتزمون بمواصفات ما يصدرونه فلقد ألصقوا على البضائع ما يفيد صحة كل شيء، لكن مع أول اختبار في المطارات أو الموانئ للمنتجات الزراعية يتم اكتشاف الحقيقة التي تكون عكس المطلوب والمكتوب، فتكون الخسائر والسمعة السيئة. كيف سبقتنا دولة مثل إسرائيل في أشياء كثيرة في الزراعة أو التصدير على أفضل ما يكون؟

تتسع الأحلام وإن لم يقل ذلك وتصير صداقة بينه وبين الدكتور صلاح جودة ويزوره بدوره في أمريكا حيث يعيش في ولاية ميتشيجان. خمس سنوات من العمل كبرت فيها أعماله وصار لديه أكثر من محل للفواكه في ضواحي باريس ولم يتخلَّ عن واحد ممن ساعدوه أو كانوا معه، وحديث رائع عن المصريين والمطاعم فلقد صاروا ملوك البيتزا سواء في مطاعمهم أو في المطاعم التي يعملون فيها. لقد أسس الجالية المصرية في فرنسا وصار رئيسًا لها ومستوردًا ومصدرًا وصاحب محلات وحسابات في البنوك تدعو إلى احترامه، لكنه لاينسى الحديث عن مشاكل المصريين في مصر وخارجها فيلقي أضواء مهمة عليها من خلال لقاءاته بالمسؤولين من الوزراء وغيرهم ممن يزورون باريس. المشاكل التي تقابل الاستثمار في مصر ومنها وعلى رأسها الروتين والبيروقراطية وكيف يحتاج المستثمر إلى عشرات التوقيعات من جهات عديدة مما يجعله في النهاية ينهي أعماله. يزداد الأمر سوءًا حين يكون العمل في استصلاح الأراضي في الصحراء فكم هي الموافقات المطلوبة من وزارة الآثار والجيش والمحافظة ووزارة الزراعة والمساحة وغيرها كثير جدًّا، ولا تتم الأمور بسهولة أبدًا، وهكذا كل شيء موجه ضد الاستثمار. رغم أن الكتاب أحداثه في زمن السبعينيات والثمانينيات إلا أن هذه التعقيدات مستمرة. يتحدث عن التناقض الموجود بين مجانية التعليم ثم عدم الاستفادة من المتعلمين وتوفير فرص عمل لهم، أو كيف أن مجمل ساعات العمل للمصري وفقًا للإحصاءات الدولية هو ساعة في اليوم بينما هو نفسه الذي يعمل ثماني وعشر ساعات في الخارج. كذلك مشاكل المهاجرين من نوع التجنيد ذلك الوقت أو تصاريح العمل أو الإقامة الشرعية خاصة إذا عرفنا أن الباسبورات التي كانت تقدم للطلاب وقتها كانت صالحة لستة أشهر فقط. كل ذلك تثيره في نفسه وعقله حياة المهاجرين بالخارج. كثير من المسؤولين التقى بهم هناك ووجدهم أيضًا لا يقدمون على حل شيء فالأمور أعقد منهم، بينهم

وزراء وسفراء وقناصل. يتلخص الأمر في عبارة "جهاز التعطيل المصري" ويطول الكلام عن التفاصيل التي للأسف ما زال الكثير منها مستمرًّا.

أمريكا للبيع

الكتاب الثاني رحلة أخرى مليئة بالتشويق والأحلام. يبدأه بما انتهى به الكتاب الأول عن عقم نظام الاستثمار في مصر والمشاكل التي تقابل المستثمرين حتى يتركون العمل. يفكر بعد فشله في الاستثمار في مديرية التحرير في مصر بسبب هذه الإجراءات التي تصل إلى عشرين جهة للموافقة عليها أن يستثمر في أمريكا. لقد قضى في فرنسا خمسة عشر عامًا الآن، وانتهى من دراسته في السوربون وكبرت أعماله. يتصل بالدكتور صلاح جودة الذي لم تنقطع علاقته به والذي يستثمر في الزراعة في أمريكا إلى جوار عمله كطبيب. يسأله هل يمكن أن يشاركه. لا تنتهي المكالمة إلا وقد اتفقا على كل شيء. يأخذ زوجته وابنهما الصغير الذي كان في السابعة بالطائرة إلى أمريكا. إلى نيويورك. هنا يجد دموعًا في عيني زوجته التي سبق ووافقت على السفر بحماس. يعرف إنها دموع الفراق لوطنها ويتذكر حاله حين سافر أول مرة إلى إنجلترا. تصل ذكرياته إلى طرافة ارتباكه في ربط حزام الطائرة أول مرة، بينما ابنه الصغير لم يرتبك وقام بذلك كأنه خبير سفر. يقضيان أيامًا قليلة في نيويورك قبل السفر إلى فلوريدا. يرى التناقض بين الفقراء من الأجانب في أول شارع مشى فيه التاكسي إلى الفندق وثاني شارع البورجوازي في كل شيء وحديث رائع عن نيويورك يذكرك بأحاديثه عن باريس.

الحقيقة التي تدركها من الكتابة أن محمود عمارة على ثقافة عظيمة ليس بالاستثمار والسياسة من واقع حياته ودراسته فقط لكن بالآداب والفنون. كيف لا يكون كذلك من قضى خمسة عشر عامًا في باريس؟ ينعكس ذلك على لغته في السرد. لقد وضع خطة لاستمرار أعماله في فرنسا قبل السفر.حديث عن سهولة كل شيء قبل أن يسافر. الفيزا ونظامها وسرعة كل شيء وتحايا من نوع نتمنى لك النجاح في بلاد العم سام. لقد قام بتحويل مدخراته في البنوك في مصر أو فرنسا وإخطار الضرائب في غاية السهولة. أمنياته في الحياة على المحيط في فلوريدا في ساحل النخيل.

الحديث يأخذه إلى كتاب صغير تقدمه السفارة الفرنسية لمن يترك فرنسا من الفرنسيين بالخارج وفيه كل شيء يحتاجه الفرنسي وجهات الاتصال في أي مشكلة تواجهه ومن هم المُناط بهم مساعدته. لقد صار يحمل الجنسية الفرنسية. كيف أن للمهاجرين عشرة أعضاء معينين في مجلس النواب مهمتهم متابعة أحوالهم وخدمتهم في أي مكان في العالم. يبدأ في الحديث عن الآمال الكبيرة لكل مهاجر وكيف يحقق في أمريكا المستحيل فهي بلاد الفرصة الثانية بينما بلادنا فرصة واحدة لو ضاعت تضيع كل الفرص. يقدم إليك معلومات مدهشة عن بعض المشاهير. ماكدونالد مثلًا الذي وصلت مبيعاته عام 1989 إلى عشرين مليار دولار وستصل إلى ثلاثين مليار عام 1990. شركة واحدة أسسها فرد واحد تحقق أكثر من الدخل القومي المصري. يقارن هذا بأفريقيا كلها.

حديث رائع مفصل عن المهاجرين وأنواعهم والفرص أمامهم، أو كما قال مارك توين: "هنا تأتلف أمة من الأمم" أو كما قال جون كينيدي: "المهاجر هو المجتمع". حديث طويل عن المهاجرين الفرنسيين والإيرلنديين والإنجليز والألمان والبولنديين واليونانيين واليهود وغيرهم بالأرقام عبر

تاريخ الولايات المتحدة التي تتسع لا للغريب الموسر فقط لكن للمضطهدين والملونين في كل الأمم والأديان. يدخل في تفاصيل الحياة فالتليفزيون يأخذ منه مساحة كبيرة.

محطة السي إن إن وكيف انتشرت في العالم. مائتا محطة تليفزيونية لكن الإعلانات تقطع كل البرامج. يلخص الأمر في أنك لو تملك مائة ألف دولار فاستثمر منها خمسة وعشرين ألفًا بينما خمسة وسبعون ألفًا في الإعلانات وستكسب ما تريد. قصة طريفة عن شاب قابله اسمه جورج في نيوجرسي المفعمة بالمصريين وهو مصري، وعن كيف هرب إلى أمريكا بجواز سفر مزور وتأشيرة مزورة وتم اكتشافه، وكان معه جواز آخر حقيقي لكن تم ترحيله. كيف ذهب إلى أوربا وكيف عاد إلى أمريكا في رحلة صعبة مدهشة وصلت به إلى المكسيك وكيف هرب من الحدود. السؤال هو من المسؤول عن هذه الأجيال التي تحب الوطن ولا تجد فرصة فيه وترحل ويكون الرحيل أملًا.

ينتقل إلى فلوريدا ويبدأ سردًا عن أغنياء العالم وقتها وأولهم سلطان بروناي الذي كان في الثالثة والأربعين ويحكم دولة لا يزيد سكانها عن مائتي وثلاثين ألفًا وثروته تقدر بمائتي وخمسين مليارًا من الدولارات. في قائمة أثرياء العالم لا يجد إلا عثمان أحمد عثمان وتقول المجلة أنها لم تصل لمعلومات عن أثرياء العالم الثالث لأنهم يخفون كل شيء. كان الحديث عن أغنى مائتي شخص في العالم وكان أغلبهم من أمريكا واليابان وألمانيا الغربية وإنجلترا بالترتيب فدول البترول، بينما الاسم المصري الوحيد وقتها هو عثمان أحمد عثمان الذي قدرت المجلة ثروته بألف وخمسمائة مليون دولار، وكان ترتيبه السادس والخمسين بين الأثرياء. كانت ملكة إنجلترا هي الثانية بعد سلطان بروناي.

يأخذه حديث الأغنياء إلى عائلات شهيرة منهم عائلة كينيدي وتاريخها منذ هاجر الجد الأول من إيرلندا عام 1848. أبناؤه ثم أحفاده الثلاثة جون وروبرت وإدوارد وكيف قتل جون كينيدي وروبرت كينيدي، الأول حين كان رئيسًا والثاني حين قرر نزول الانتخابات الرئاسية، فقررت الأم الحفاظ على الثالث ومنعته من ذلك، فاكتفى أن يكون عضوًا بالكونجرس الأمريكي. يلخص حكاية زواج جاكلين كينيدي بعد مقتل زوجها بالمليونير أوناسيس في قولها: "أنا لست إلهة ولا قديسة ولست رمزًا. إنني بشر من لحم ودم. سيدة في أجمل سنوات عمري. جميلة ثرية تواقة للمرح والحياة". ينتقل إلى تاريخ عائلة روتشيلد اليهودية وتطورها من العمل في الروبابكيا حتى صارت أغنى أغنياء العالم. يتذكر ذلك كله وهو في الطائرة حتى تنزل به إلى فلوريدا كأنه يمني نفسه بالأمل. يجد في انتظاره بالمطار الدكتور صلاح جودة وتبدأ رحلة الاستثمار في أمريكا.

كل شيء يمر بسهولة وحديث شائق زاخر بالمعلومات عن كيف يتم الاستثمار، وكيف أن كل الطرق مفتوحة وأن البنوك تعطيك ما تريد ما دامت تثق في فهمك وقدراتك، وأن كل الأوراق بعد الشراء للتسجيل أو غيره تتم بسرعة دون أي عقبات ومقارنات طبعًا بما يحدث في مصر تؤلمك. وهكذا دخل سريعًا شريكًا مع الدكتور صلاح جودة واثنين آخرين في مزرعة كبيرة ألف فدان. حديث عن فهمه وتعلمه طرق الزراعة من مساعد الدكتور صلاح جودة أسامة الشريف المصري الذي يشتهر باسم سام بكل تفاصيلها وحديث أو أحاديث عن الحياة الأمريكية وحريتها التي وراء الفوضى أحيانًا في الملابس في المنطقة الريفية والسهرات وغير ذلك ووضع المرأة أمام الرجل

الذي يعطيها أكبر من أي حقوق فتبيع وتشتري فيه وعن المناخ في ولاية فلوريدا ومقارنته بغيرها مثل كاليفورنيا.

معرفة عميقة بكل شيء حتى تفاصيل أنواع الموالح وطرق زراعتها ومقارنة ذلك في مصر. تأخذ الحياة في أمريكا مساحة كبيرة وتصل إلى كيف يعيش البواب حياة رفاهية لا يحياها زعيم الحزب الشيوعي في البلد الشيوعي إذا لم يستغل منصبه. الأوكازيونات التي تصل تخفيضاتها إلى سبعين بالمائة والفصال في الأسعار الذي لا يوجد مثله في فرنسا وكيف يربي الناس أبناءهم على العمل وهم تلاميذ ليعتمدوا على أنفسهم في سن الثامنة عشرة ولا يكلفون أهلهم شيئًا لا في التعليم ولا في الحياة.غرائب الحوادث مثل اللص الذي رفع قضية على صاحب فيلا لأنه تعثر في حديقتها وكيف لم يضع صاحبها سورًا يرشده للابتعاد فأصابه ضرر من التعثر، وكيف حكمت المحكمة له بالتعويض فهو لم يسرق أو لم يعرف أحدًا أنه كان ينوي أن يسرق رغم أن تاريخه يقول ذلك. البنك الذي رفع قضية على مستثمر اقترض منه الكثير ولم يرد القرض وأراد البنك أن يوقف أعماله، وحكم القاضي باستمرار الأعمال فكيف حقًّا يمكن إيقاف أحد عن الاستثمار، ويعطي المقترض الوقت ليرد ديونه. غرائب الناس الذين يتركون ثرواتهم للكلاب أو الخنازير. كيف وأنت تستخرج أوراقك الشخصية يسألونك ما إذا كنت تحب أن تغير اسمك.

أمريكا للبيع بمعنى أن لك كل الفرص فيها مهما كنت فقيرًا أو مهاجرًا ما دمت تريد. لكن الحياة لا تمضي دون آلام. يموت سمير أحد شركائهم في المزرعة ويصاب هو بحصوات في المرارة وينتقل بالطائرة إلى مستشفى في ميتشيجان لإجراء الجراحة. ويعرف وهو هناك أن زوجته في فلوريدا انتقلت إلى المستشفى للولادة وابنه ذو السبع سنوات وحده في البيت، ويأتيه خبر وفاة أخيه في مصر بالسرطان الذي انتشر في جسمه. تكون لحظات صعبة يبكي فيها بكاءً مريرًا كما نبكي نحن من تأثير الأحداث وصدق لغته وتصويره. كل شيء في وقت واحد وهو رهن المستشفى.

بعد التفاصيل المذهلة. العمل في المزرعة واتساع العالم بالأحلام تجتاح الولاية ليلة تنزل فيها الحرارة إلى خمس درجات تحت الصفر فتفسد شتلات الأشجار التي زرعوها أو بذروها ويخسرون خسارة كبيرة. ينتقل فأمريكا للبيع، ويضيف عملًا آخر هو الاستثمار العقاري بشراء أرض وبيعها وهنا حديث آخر عن كيف يكون المكسب مضمونًا. حديث رائع مفصل عن مدينة ديزني لاند وفروعها في أمريكا وما تفعله في السياحة ومكاسبها بالمليارات، وكيف كان هناك اقتراح منه بها يومًا لتكون في مصر تقدم به إلى فاروق حسني وزير الثقافة، ووصل الاقتراح إلى حسني مبارك ولم يتم مثل أشياء كثيرة لا تتم بسبب الروتين والبيروقراطية.

ينهي الكتاب بعودة إلى باريس كزائر ويراها كسائح هذه المرة رغم أنه يعرفها جيدًا وأحاديث عن التغير في المظهر في شارع الشانزليزيه وأحياء مثل الحي اللاتيني وفرساي وغيره وتاريخ وحاضر كل منها وعشرات ممن رآهم من الكتاب والصحفيين المصريين والمسؤولين. خلال ذلك لا يفوته الحديث عن العلاقات الفرنسية المصرية الرائعة منذ الحملة الفرنسية التي كان على رأسها نابليون محب مصر الذي أتى ومعه فريق من العلماء قدموا الكثير جدًّا في سنوات قليلة، وعصر محمد علي، فتعرف مثلًا أن أقدم سفارة لفرنسا في الخارج كانت في مصر في الإسكندرية عام 1832 في عهد محمد علي، وكذلك أقدم مدارس فرنسية في الخارج كانت في مصر. إنه كتاب

يعكس خبرة حقيقية بكل ما يتكلم عنه مكتوب بلغة أدبية رغم ما فيه من حقائق ساطعة وراءها مفكر وباحث كبير كثيرًا ما ينحو نحو الشعر في الصور والتشبيهات، وكثيرًا ما يستشهد على ما يقول بكلمات لأدباء وفنانين من العالم العربي والعالم تؤيد حديثه من حيرة أو من حقيقة. لقد قرأت الكتابين في يومين متتالين وهذا نادرًا ما يحدث لي لكن لغة الدكتور محمود عمارة وحقائقه وأفكاره جعلت كلًّا من الكتابين يضيء أمامي ويشعلني بالرغبة في الطيران في فضاءات العالم رغم تقدم العمر وكل الصعاب.

" موقع أصوات أون لاين"

القسم الرابع

بين روايات وقصص جميلة

"المجوس" رواية الطوارق الكبرى... ملامح ورؤى

إبراهيم الكوني كاتب وروائي عربي من ليبيا له العديد من الأعمال القصصية والروائية. على سبيل المثال "جرعة من دم"، "شجرة الرتم"، ومن الروايات "خماسية الخوف". صدرت له رواية ضخمة من جزأين هي "المجوس" كما سبق أن صدرت له في العام الأسبق 1995 روايتان هما "نزيف الحجر"، و"التبر"، ومجموعة قصصية بعنوان "القفص".. وروايته الضخمة "المجوس" هي موضوع قراءتنا.

تثير رواية "المجوس" عدة أسئلة لعل أهمها هذا السؤال: هل هي رواية عن الصحراء الليبية؟ أم عن قبائل الطوارق الشهيرة التي تعيش في المنطقة الممتدة جنوب الصحراء الليبية والجزائرية وشمال مالي والنيجر، حيث تقوم مدن مثل جات وغدامس وآير وأزجر وتربكتو التي تتردد أسماؤها كثيرًا في الرواية؟ بالطبع سيجد القارئ أن الرواية عن الاثنين معًا. الصحراء والطوارق، المكان والبشر في الزمان، لكن السؤال يصبح أكثر جوهرية حين تكون الإجابة أن الرواية عن الإنسان في مواجهة الطبيعة. صحيح أننا هنا أمام حالة محدودة، إنسان بعينه، هو الإنسان (الطارقي) إذا جاز التعبير، وطبيعة بعينها، هي الصحراء الليبية الجنوبية، لكن يظل المعنى العميق لهذه الرواية في أنها عن الإنسان في مواجهة الطبيعة. الإنسان الغفل، البدائي، مخلوق الفطرة، مع الطبيعة البكر، العذراء، التي لم يسبقها غير العدم. نحن لا نجد هنا لحظتين، إنها لحظة واحدة أقرب إلى لحظة النزول من الفردوس، وصرخة الإنسان الأول حين أحس بالضياع وسط طبيعة لا ترحم. فبدأ من يومها يبحث عن الفردوس الذي ضيعه بيده. باختصار نحن هنا أمام لحظة دهشة طويلة من الإنسان أمام الطبيعة التي فرضت عليه ناموسها، وفرضت عليه من القيم ما يتسبب في موته وضياعه إذا حاد عن هذا الناموس. وأول ما يدهشنا من مظهر هذا الالتحام بين الطبيعة والإنسان هو الفاعلية التي تتوافر للطبيعة. فتميزها على الإنسان المحمل بالخطايا.

الرواية تتعامل مع طبيعة غفل وإنسان فطري، لذلك أمسكت بما يسمى في البحوث الأنثروبولوجية "بالأنيميزم" وهو مصطلح أطلقه الأنثروبولوجيون الأوائل مثل، تايلور وفريزر على تلك الظاهرة الواضحة التي تكاد تتمحور حولها حياة القبائل البدائية، وهي حيوية الطبيعة. إن الإنسان البدائي لا يرى في الجبل أو السهل أو الشمس ظواهر طبيعية، بل يرى فيها وفي غيرها قوة حيوية، ويتحول كل مظهر طبيعي عنده إلى شخصية لها حياتها وأحيانًا ترقى هذه الشخصية - المظهر الطبيعي- إلى مرتبة الآلهة.

نسيج هذه الرواية كله من هذه الظاهرة، وهي ظاهرة في جانب منها فنية أيضًا، ومن ثم تتيح للغة إمكانات أكثر شعرية.

إن الطبيعة في هذه الرواية شديدة الحيوية، ومن ثم فهي شديدة الفاعلية، على هديها تدور حياة الناس وفي قلبها يموتون في أدوار تراجيدية تتفق كلها في طقس أشبه بالعودة إلى الأصل- الأرض، رغم اختلاف شكل طقس الرجوع هذا، وهو غالبًا طقس موت، واختلاف أصحابه.

إن الخلاص الوحيد الممكن للشخصيات في هذه الرواية هو العودة إلى الطبيعة والذوبان فيها ما دمنا لا نستطيع الوصول إلى مدينة "واو" الأسطورية، وما دمنا تركنا "واو" الأولى حين ارتكب الإنسان الأول خطيئته الأولى. ولواو هذه سوف نعود بعد قليل بتفصيل أكبر.

ولا تبدو "حيوية الطبيعة" أو "الأنيميزم" في مجرد اللغة، ولكن أيضًا في تركيب بنيان الرواية فكما أن هناك فصولًا للشخصيات هناك أيضًا فصول "للريح" - القبلي- و"للبئر"- حلمة الأرض- و"لواو".. وهكذا، بل إن الرواية تكشف عن سيادة ظاهرة الأنيميزم على شكل حياة شخصياتها منذ أول فصل من الجزء الأول، وهو الفصل المخصص عن "القبلي" أي الريح التي تأتي من الجنوب محملة بنيران الصحراء فتنشر الجفاف والرعب والموت على طول الصحراء. سيظل معنا الفرع من القبلي هذا على طول الرواية المكونة من جزأين كبيرين يقعان معًا في حوالي تسعمائة صفحة. وإليك قليلًا من الصور الأنيميزمية!!

"واصل القبلي رحلته بعد استرخاء أمهل فيه النجع أيامًا، فارتبك كل من تقاعس عن استغلال الهدنة ولم يتزود بحاجته.... ".

وكذلك "تشجعت السماء وتحررت من الحياء. زحفت في الظلمات والتحمت بالصحراء في طقوس العناق المحرم. ولا يحلو للسماء العاشقة أن تغازل الصحراء إلا بعد أن تجلدها في النهار بسياط النار كأنهما رجل وامرأة لا يطيب. لهما الحب إلا بعد تبادل صنوف العذاب، وكلما كان عراكهما بالنهار قاسيًا أطاب لهما الالتحام في فراش الليل فيلفح أحدهما الآخر بالأنفاس الحارة. يتدفق في جسديهما الصهد والعرق. يتوقف الغبار ويركع القبلي يسود الصمت كأن الفناء قد حل".

أو "أنصتا للصمت والصحراء فأنصت لهما الصمت وانضمت الصحراء" وكذلك حين يقول عن جبل إيدينان حين تعلو هامته ريح الغبار:

"العمامة الشفافة التي يتقنع بها "إيدينان" الضال ازدادت قتامة ونزلت من البرج السماوي الأول إلى البرج الثالث فجرده القبلي من جلاله وغموضه وغطرسته وأجبره أن يتحلى بالتواضع ويتشبه بقرينه الجنوبي الأقصر قامة".

وهكذا تتماهى الأشياء، العناصر الطبيعية، مع الطبيعة الإنسانية، وكما أن هناك فصلًا عن (القبلي) هناك فصل كبير رائع عن البئر "حلمة الأرض" كما قلت، والحقيقة أنه يجعل من الظواهر الطبيعية شخصيات إنسانية، وإن بدت أكثر فاعلية حتى نكاد نعتقد أنها الشخصيات الرئيسية للرواية بحسب التقسيم التقليدي لشخوص الروايات.

وفاعلية الطبيعة هذه التي نتحدث عنها تظهر أكثر ما تظهر في الرواية حين يحيد الإنسان عن الناموس الموروث من الكتاب الأسطوري الضائع "آنهي" الذي ترد إليه كل كلمة مستخلصة من تجربة الحياة التاريخية الطويلة للطوارق. فالطارقي تحل عليه اللعنة إذا توقف عن الترحال، أو إذا بنى له بيتًا بالطوب أو صنع سورًا للنجع أو استقر في واحة أو قطع شجرًا أو سمم الآبار أو مد يده إلى كنز مدفون أو طمع في حيوانات الصحراء الطليقة أو جرى وراء الذهب.

إن كل من اقترف شيئًا من ذلك انتهت حياته نهاية مأساوية.. تقول الأميرة تينيري التي توزع حبها بين "أوخا" العاشق المتيم بها وبين "أوداد" المغني الضال مع "الودان"- الكباش- في الصحراء:

"أردت أن أملك رجلين ففقدتهما معًا وفقدت كل الرجال معهما. الظمأ إلى رجلين خطيئة. من أراد أن يفوز بكل شيء لم ينل شيئًا. وسبب الزلة هو تقيدي بوصية المجوس فهل ثمة أمل يا جبل؟".

لا أمل طبعًا. لقد خرجت تينيري عن ناموس الصحراء منذ عشقت الاثنين، كبرياء أوخا ورقة المغني أوداد. لقد رأت أن الرجلين يحققان لها اكتمال الرجولة، المادة والروح معًا، لكنها منذ فكرت أن تكون المرأة للرجال جميعًا دخلت عالم المجوس، وكذلك منذ فكرت في الذهب. لذلك استحقت تينيري الموت غريقة تحت الجبل، في السهل مع انسياب المطر، وليست تينيري هي الوحيدة التي ستسقط في الموت في طقس توحدي مع الطبيعة. لكن ذلك سيأتي بعد قليل. بعد "واو" وحديثها.

حديث "واو":

رواية مثل المجوس لا يمكن تلخيصها بسهولة، لكن يمكن تشريحها، وحتى هذا التشريح لا نستطيعه هنا إلا باقتضاب، لذلك أتوقف عند ملامحها المحورية الكبرى. فالأنيميزم بصورته الماضية ليس مجرد خاصية بدائية في العقل الإنساني، لكنه محور لمنظومة من العلاقات لم تظهر إلا في المجتمعات المشاعية القديمة قبل أن يفسدها الاقتناء، كما يفسد الذهب هنا سكان الصحراء. ومن الملامح الرئيسية في الرواية بعد ظاهرة الأنيميزم، الحديث الدائم عن "واو".

في الرواية تاريخ للمكان منذ دخله الإسلام، وقبله أيضًا، وحديث عن الماضي الجميل لتمبكتو الشهيرة، وكيف آلت إلى الضياع بعد أن تحول أهلها إلى تجارة الذهب. وفي الرواية جغرافيا وحديث عن المكان. سلسلة جبال أكاكوس والحدود مع الدولة المجاورة ولغة الهوسا وأسماء مدن شهيرة للطوارق مثل غدامس وغات وتمبكتو، المؤلف يضيف إليها صورًا من الفن الصخري مما اكتشف في كهوف جبال تادرارت أكاكوس في جنوب الصحراء الليبية في العصر الحديث، وينقل لنا أحيانًا نقوشًا بخط "التيفيناغ" وهو رسم الخط الطارقي، ويضمن الرواية أحيانًا بعض الحكم المصوغة شعرًا بلغة حديث الطوارق المسماة "تاماهاق" مما يجعلنا نمسك أكثر بروح المكان والناس. وفي الرواية روح مخايلة لواقع جديد يتغلغل إلى المجتمع الطارقي واقع الذهب الذي يتسبب في تفسخ العلاقات القديمة، وأشكال الحياة القديمة حيث بدأ الزعماء يبنون المدن المسورة ويعملون في الزراعة في الوقت الذي تبدأ فيه روابط الناس في الانحلال بالطريقة القادرية المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني، وروابط الناس بالإسلام أيضًا، فلا شك إذن أن يقوم في الرواية درويش عظيم هو الدرويش موسى يشغل حوالي ثلث صفحاتها.

الرواية إذن في أحد وجوهها مرثية للمجتمع الطارقي القديم، راصدة لخطايا إنسان الطوارق التي تفضي به إلى الموت وفي مثل هذه الحالات يكون طبيعيًّا أن يبحث الإنسان عن فردوسه المفقود. إن المجتمع القديم ينهار، لكن الجديد ليس هو الذي ينشره في أعماقه في الأقل، فيبدو الإنسان محملًا بالخطايا لأنه لم يستطع الاحتفاظ بالمجتمع القديم، ويأخذ في نشدان الفردوس الضائع الذي

هو بمثابة الخلاص من كل شيء، والذي هو هنا مدينة المدن وأجملها المسماة "واو".. عن "واو" هذه تتناثر الفقرات ويطيل الحوار في اللحظات الصعبة ويعطيها المؤلف فصلًا كاملًا، وأكثر من يردد ذكرها هو الدرويش موسى كاشف أسرار أرواح القبيلة..

"واو في صدر كل مخلوق. واو الأخرى التي نبحث عنها في الصحراء الأبدية".

"لو لم توجد" واو "في مكان ما، يومًا ما، لما كان للصحراء معنى. لما كان للحياة معنى. واو. واو هي العزاء".

ونجد تبسيطًا لواو أكثر في كلام الدرويش..

كلما توغلت في الجوع أحسست أني أقترب من يوم الميعاد في "واو"، فكأن "واو" إذن نوع من المجاهدة الصوفية.

"واو ليست بستانًا فقط، وليس الصمت لغتها الوحيدة، كما أن الذهب ليس كنزها الوحيد. هذه واو الغوغاء".

"لقد خرج جدنا الأول عن "واو" الفردوس سعيًا وراء الحرية وعندما خرج وعرف وضاع ووجد نفسه في الصحراء القاسية عاد على عقبيه ودق على بوابة السور، لكن الباب كان قد أغلق في وجهه إلى الأبد".

ومن النصين السابقين نعرف أن "واو" ليست في الحياة الدنيا على أي حال.. "إذا عجز الرجل عندنا في العثور على واوه نجده يهرع فورًا ليبحث عن امرأة يدفن في أحضانها هزيمته. اليأس أمام "واو" هو الدافع الأول لعشقه النساء".

"شقاؤنا راجع إلى سببين مختلفين. ضياعنا عن "واو" وضياع كتاب الهداية من أيدنان".

و"أيدنان" اسم أحد الجبال التي يزعمون أن كتاب الهداية الطارقي القديم كان محفورًا على أحجاره بلغة التيفيناغ لكنه اندثر مع الزمن كما قلت. إن الشذرات السابقة، وغيرها بالطبع كثيرة، المبعثرة على جزأي الرواية تأتي دائمًا في اللحظات الحرجة للشخصية كنوع من الخلاص المنشود. إنها بالطبع إحدى تجليات الفردوس الضائع كموروث له وجهه الشعبي كما أن له وجهه الديني، وهي تتجسد حينًا في الماضي البعيد الذي كان جميلًا، أو في المستقبل المنشود الذي لا يأتي. هكذا يتفق أشخاص الرواية رغم اختلافهم، في أمر واو. الزعيم آده، والدرويش موسى، والمحارب أوخا، وأخماد، والنذير والعرافة. إلى آخر شخصيات الرواية.. ولكل من شخصيات الرواية حلمه الضائع الذي يفنى بسببه، وهو في فنائه يحقق "واوه" الممكنة فعلًا. لكن الدرويش يكون أكثرهم معرفة. إنه يقيم طقس التحاقه بالطبيعة بإرادته محتفلًا به.. إن الطقوس سمة رئيسية أخرى في الرواية.

رواية طقسية:

خايلني كثيرًا طقس أوديب في كولونا وأنا أرى طقوس اختفاء شخوص الرواية المعذبة، آده، أوخا، أخماد، تينيري، والدرويش. رغم أن طقس أوديب كان فيه شيء من الشفقة، إذ الأرض نفسها هي التي انفتحت لتحتضنه فيها بعد ما حل في حياته من خراب، بينما تدفع الشخوص خطاياهم أو إراداتهم وما هم منذورون سلفًا له.

وخايلني أيضًا طقس اختفاء أورفيوس المغني بحثًا عن حبيبته في أسفل الأرض، وأنا أتابع أوداد المتحد بالودان - كباش الجبال- ولا يكف عن الغناء والذي تعشقه تينيري، رغم أن الطقس هنا مقلوب إذ إن تينيري هي العاشقة بالأساس. ورغم هذه المخايلة، فالرواية بعيدة عن هذين الطقسين، في الوقت الذي تبدو فيه بحق رواية طقوس. فالمشهد الطارقي لا يزال به - ولعله لم يعد فيه غير هذا- أساطيره الموروثة عن التطهر من الآثام في الصحراء. وليس في الالتحام بالطبيعة هنا أي مظهر للخصوبة والنمو، لكنها طقوس خلاص وثيقة الصلة بالرغبة الدفينة في الوصول إلى "واو" أيضًا.. ذلك معنى موت تينيري غريقة في مياه السهل تحت المطر، ومعنى موت أوخا على سفوح الجبال، ومعنى الطقس الغريب للدرويش الذي يستحق وقفة قليلًا.. الدرويش موسى الذي يعرف كل أسرار القبائل يصر على أن يلحق نفسه بالطبيعة محققًا شكلًا من أشكال التناسخ والحلول. يقول عن نفسه: "أول أمري كنت طلحة في واد مهجور، فلماذا تدهشكم أبوتي للطلحات"، ويقول أيضًا: "أنت لا تستطيع أن تتصور يا شيخنا كم عانيت من هؤلاء الأعداء عندما كنت طلحة وحيدة في الصحراء المهجورة". وهو لا يكتفي بكونه نباتًا فقط، بل هو أيضًا وثيق الصلة بالريح، بالطقس، بالمناخ. يقول: "صدقني أن القبلي هو المسئول عن امتصاص الدم في عروقي"، ويقول أيضًا: "في الشتاء يقتلني البحري ويجمد الدم في عروقي، وفي الصيف يقتلني القبلي ويمص الدم من عروقي".

ألا يكون هذا الدرويش الذي يشير إلى نفسه باعتباره "طلحة" يجمدها الشتاء ويمصها الصيف هو الصحراء نفسها نباتها ورمالها. جبالها وصخورها؟ الدرويش يصل في التوحد مع الطبيعة إلى الغاية، إلى كونه الطبيعة ذاتها. إنه يمثل أعمق حالات التوحد بين الناس والصحراء، لذلك يقيم طقس الإخصاء لنفسه، طقس انتفاء الحيوانية، طقس الالتحاق بالطبيعة الصماء. هكذا يتصرف هو الأكثر معرفة، بينما لا يجد الآخرون أمامهم إلا طقس الموت على سفوح الجبال فيبدون وكأن بهم نزعة الاستشهاد. لهذه الطقوس علاقة بواو المنشودة. فلا واو حقًا إلا الصحراء. فالصحراء حرية ولا حرية إلا في الصحراء، ليس باعتبارها جنة، ولكن باعتبارها الجحيم نفسه فلو كانت جنة أو بستانًا أخضر لكانت فردوس الدهماء والمجوس. هكذا يقول الدرويش ملخصًا المسألة. واو إذن حلم يتحقق بطقس احتفالي بالموت أو الإخصاء أو الاختفاء في الجبال.

وتظل رواية المجوس محملة بالإمكانات.. إنها مجمع أساطير وخلاصة حكمة التاريخ للإنسان الطارقي، وهي بمثابة كنز مفتوح ترى فيه الإنسان والطبيعة في حالة بكر معًا وجهًا لوجه. وبالطبع يستخدم المؤلف طريقة خاصة في تقسيم الرواية إلى أجزاء وأقسام وفصول وأجزاء الفصول، ويستعين على كل قسم بمقدمة شبه تعويذة أو رقية كاشفة، لكنها محتفظة بروحها الغنية من كتب التاريخ والتصوف، وتبدو لغة المؤلف محملة بدلالات كثيفة: شمس وغبار ونور ونار وسحر أيضًا. على أن من الملامح الرئيسية للكتابة عند المؤلف الحكمة، أو استخلاصها والبدايات.

استخلاص الحكمة والبدايات:

الحكمة في الأدب أول ما يتجنبه الأديب. لكن الآداب العظيمة هي التي تقدم العبر العظيمة أيضًا. رواية المجوس مجمع للحكمة الإنسانية لكنها حكمة لا يسوقها الكاتب مدفوعًا بتقديم صورة اجتماعية للناس، بل هي حياة الناس أنفسهم وهم في حالة الحركة والسكون معًا. فضلًا- بالطبع- عما تسوقه الشخصيات مما تبقى لديهم من كتابهم القديم الضائع "آنهى". هذا وجه آخر من وجهه رواية المجوس. ولأن الحكمة مستخلصة من الحياة والحركة لا يبدو فيها أي تزيد لغوي أو جمالي.

وتأخذنا اللغة والجمال إلى ملمح مهم هو بدايات فصول الرواية التي نستطيع أن نمضي منها من بداية إلى بداية وكل واحدة إما محملة بالنذر أو التوقع أو إثارة الانتباه أو الدفع بالقارئ إلى قلب القراءة بسرعة مذهلة. إنها بدايات موجزة نافذة نسوق إليك بعضها. "بعد أن ذاق اللقمة الحرام تسمم بدنه بالشهوة". هذه بداية تعود بالذهن فورًا إلى آدم والخطيئة الأولى في إيحاء بما سيأتي بعد ذلك في الفصل كله.

"عقب عودته من رحلة طرابلس لم يعتزل في بيته أكثر من ثلاثة أيام". هذه أيضًا تثير في الذهن ملمحًا من ملامح النبوة قال تعالي: "آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا".

"كل القبيلة لاحظت بدهشة هذه البهجة".

"قيل إن غياب النذير هو الذي أبطل السحر".

وبداية الرواية أفصح من كل كلام إذ يبدأ المؤلف فصله الأول بجملة:

"لن يذوق طعم الحياة من لم يتنفس هواء الجبال".

ونحن ندخل بعد ذلك بين الجبال فتكون الرواية بحق مفعمة بالحياة في كل مظاهرها الجميلة وبالفناء أيضًا.

"مجلة العربي الكويتية أبريل 1992"

الخالة أم هاني

منذ سنوات لم أقرأ شيئًا لربيعة ريحان كاتبة المغرب العربي الكبيرة. كان آخر ما قرأته لها مجموعتها القصصية "كلام ناقص"، وكان ذلك عام 2010. ورواية طريق الغرام عام 2013. حضرت منذ سنوات قريبة احتفاء عظيمًا بها في المركز الثقافي ببلدة بني ملال بالغرب وساهمتُ فيه وعدت مشبعًا بقراءة أعمال ربيعة ريحان التي هي أيضًا من أجمل أصدقاء العمر. قرأت أخيرًا روايتها الفاتنة "الخالة أم هاني" التي صدرت في يناير الماضي بدار العين المصرية والتي تأخرت في قراءتها لقراءتي للكثيرين ممن لم أقرأ لهم أو لم أقرأ لهم ما يكفي من قبل، فضلًا عن انشغالي بالكتب الفكرية أكثر في هذه السنوات وكذلك بكتابة رواية.

ربيعة ريحان كاتبة عظيمة في القصة القصيرة وبنائها مما ظهر في مجموعاتها القصصية مثل "مشارف التيه" و"شرخ الكلام" و"مطر المساء" وغيرها ولذلك كانت دهشتي من هذه المغامرة في رواية تزيد عن ثلاثمائة صفحة. أسرار النساء. العوالم الظاهرة والسرية. الروح المنطلقة في رضائها وسخطها. الاغتراب بين عالم الذكور وعالم السياسة وإن كان الأخير من بعيد وحين يذهب إليه الحدث أو الكلام. دهشة الأطفال وتمردهما لا تفارق لغة الساردة شيماء ولا حكي الخالة أم هاني فترى وجهيهما أمامك. هي ليست خالتها لكنها بنت خالة أمها التي لم تجد حظًّا في الحياة وصارت وحيدة فأعطتها الأم ابنتها الساردة لتكون معها. الساردة دارسة للأدب وتعمل بالصحافة وناضجة.

بعد سنوات قررت أن تعرف في تحقيق صحفي حكاية الخالة أم هاني مع أزواجها الستة. ليس من الصحافة إلا الخبر بأنها قررت إجراء التحقيق الصحفي ومنذ السطور الأولى ندخل في سرد أدبي يتدفق صورًا شعرية من تكوين الجمل دون إسهاب، وفي كل جملة أو عبارة إذا زاد الأمر شعور جديد يتدفق بالأسى أو الفكاهة أو الدهشة واللامبالاة وبوجوه أصحابها أمامك. نمضي مع الأزواج الستة فتكون الرواية لا التحقيق الصحفي الذي كان الحديث عنه حيلة أو نقلة إلى أن ما يحدث أكبر من أي حوار صحفي. أم هاني حكاياتها حياة. بدهشة من البدايات والنهايات تمضي حتى تلتحم الاثنتان معًا فتسألها أم هاني عن علاقتها هي أيضًا بالذكور وبالحب والجنس. كيف حقًّا عرفت عنها كل شيء ولا تعرف الخالة أم هاني عنها سرًّا من الأسرار؟ هكذا نرى أنفسنا في وجه آخر للمأساة التي شملت جيلين متباعدين، فالساردة شيماء مثل الخالة أم هاني فشلت تجربة حبها.

أم هاني لم تكن رومانسية مثل الساردة، لكنها رغم ذلك ورغم أنها تركت أزواجها ينهلون من جسدها صارت مثل الماعون القديم في كل مرة. الساردة الرومانسية لا تريد أن تكون كالماعون ولا تجد من الشباب إلا من يريدها كذلك. طموح أن تمضي الحياة بلا تكرار. أم هاني تزوجت أكثر من مرة لأنه ليس للمرأة غير الزواج والساردة الشابة لا تريد أن تكون إلا كما تريد هي لا كما تريد الأعراف.

مدن من المغرب وأحداث تتوالى بسرعة وبيوت وأزقة وعطور وأزياء تتناثر في الحديث في حنين أو متاهة وصور للآباء والأجداد وغيرهم، لكنك لا تستطيع أن تقول إن هناك صورة اجتماعية

للمكان والناس. هناك صورة للغرباء في الزمان والمكان. أولئك المنذورون للعذاب الأبدي في قصص الحب والخذلان. يمكن للناقد أن ينظر من أي زاوية اجتماعية أو نفسية للمسألة فهذا سهل لكن تظل الزاوية الفلسفية التي لا تعيها لا الساردة ولا الخالة أم هاني وتصنعها الأحداث!

هذا العذاب الأبدي الذي تصنعه الأحداث التي تبدو متسقة مع أصحابها الذين لايدركون هذا البعد الفلسفي فيما يفعلون. الذي يحملك إلى روح الفلسفة الغائبة هي لغة ربيعة التي تحلق بالأرواح في برزخ جميل بغاية السهولة رغم أنها أحيانًا تحيلك إلى مفردات عصرنا، فالساردة المثقفة التي تحكي ترى أنواع النميمة أو الحديث بين بعض النساء مثل تويتر أو الفيسبوك أو غيرهما من تجليات الميديا. تحملك الرواية إلى ما حولك وتضحك لأن الصدق الفني لتصوير الساردة العصرية المثقفة هو ما وراء ذلك. وهكذا يصنع الصدق الفني لغات متعددة لشخوص وبناء روائي فاتن رغم أن الرواية تتوالى بلا فصول. فقط مجرد علامات فاصلة داخل الحديث نفسه فتبدو الرواية فصلًا واحدًا لكنه طموح يحلق بلا فواصل في الفضاء.

" كتبته على الفيسبوك"

مع حسين عبد الرحيم وروايته شقي وسعيد

عشرون يومًا الآن لا أعرف لماذا ابتعدت عن القراءة. لا سبب واضح أو لا سبب واحد. وصلتني أعمال كثيرة ولا تزال، أعرف أني لن أقرأها كلها فلست في حالة الانضباط الفكري المطلوب للقارئ. سنوات طويلة كان للقراءة وقت وللكتابة وقت وللفراغ وقت. الآن صار الفراغ هو الوقت كله وربما العدم. ما علينا من جروح الروح يطول فيها الكلام. قلت فلأجرب مع الأقرب إلى يدي. وكانت رواية "شقي وسعيد" لحسين عبد الرحيم الصادرة عن دار خطوط وظلال الأردنية. هل يمكن تلخيص الرواية. يمكن. سردية من هزيمة 1967 والرحيل عن بورسعيد إلى طلخا وغيرها من قرى ومدن الدقهلية حتى بعد حرب 1973.

علاقة الطفل بأمه منذ ميلاده ورحلة الهجرة ومخالطة المهجرين من بورسعيد تحت أزيز الطائرات وحتى العودة في العام 1975. قسوة وعطف من الأم وأب شديد القسوة في الأغلب لا يبالي.ليس هذا كافيًا. وجه آخر هو العلاقة الأوديبية المعقدة بين الطفل "الحسين" وأمه "الصدّيقة". ليس هذا كافيًا. رؤيته لما حوله من بشر وأعمالهم الصعبة في الأسواق وسلوكهم خارج العقل في معظم الأحوال. ليس هذا كافيًا. هذا كله تدركه بعد أن تنتهي من الرواية وإذا كنت في عمري فلا بد أن تمسك بقلم وتضع ملاحظات صغيرة حتى لا تنسى.

كانت أغلب ملاحظاتي علامات تعجب واستفهام. ليس مهمًّا ما تذكرته من الرواية. وماذا بعد أن تتذكر؟ ما الفائدة؟ هي المتعة المذهلة في لغة السرد والحوار التي لخصتها علامات التعجب والاستفهام. ولم يكن ذلك لما يتردد عن بعض السرديات من شعرية في اللغة، لكن من تصوير سريع الإيقاع وخروج مذهل عن المألوف. رواية لا تضع سورًا بين الوهم والحقيقة رغم أنها رواية للمكان بامتياز. السارد يصف لك ما رآه وهو رضيع وتقتنع، وهو أكبر وتقتنع، ووصفه للناس مذهل، وهو يعود في الزمن دائمًا بلا انقطاع وبلا تقديم، كأنه يغيظك ويقول لك لن أصنع لك سلمًا متعدد الدرجات. سأرفعك إلى السطح وألقي بك في أي طابق حتى البدروم المظلم، المهم إني سأحافظ على توازنك بمتعة الرؤية في الصعود والهبوط. الشخوص عراة مهما ارتدوا من أزياء. هل هي أزياء حقًّا أم ثياب الفقراء لتراهم؟ والعالم قاتل بالصمت مهما ارتفع فيه الضجيج، والموت أو الجنون هما الأقرب إلى الله. هو لا يترك شيئًا إلا ويخطفه بكلمات سريعة الإيقاع جدًّا وليس بوصف مترو.

الحقيقة إن حسين عبد الرحيم عمل في السينما مساعدًا للإخراج والتقى كثيرًا بنجوم سينما مجانين مثل يوسف شاهين وعمل معه، وحبه للسينما كبير يعكس... لا. لا يعكس، بل يمسك به وهو يسرد. وحين تأخذه الشخصيات أطفالًا ونساء ورجالًا ومجرمين إلى عالمهم وحياتهم فهو بينهم. ينفجر هيامه بالسينما مع الوصف المرئي ومن بداية الرواية، أو بعد صفحات قليلة وهو يعرف كيف تم اغتصاب الأم في دورة المياه في الغربة، ويتذكر فؤادة وعتريس في فيلم شيء من الخوف. مع موت الأم التي تعيش بعد ذلك في الرواية حتى الموت الحقيقي إليك هذا المشهد "خرست كل الأصوات. الشارع. حي الزهور. المستشفى. البشر. البنايات تدور مترنحة. الكلاب تمشي ميتة. الشوارع مزدحمة بعربات الشرطة والبلوكامين. المطافي. عربة النجدة الصغيرة الهيونداي.

تلاشت أصوات السفن في الميناء وانقطعت كل علاقتي بالماضي". "هل سيحدث؟ سيأتي الماضي الذي هو الرواية". أشم رائحتها الجميلة. أريج عطر أنفاسها وهي تلقمني صدرها فأستعيد نشوة سرسوب اللبن الساقط في فم الطفل النونو وهي تقبل أناملي وتلعق أصابعي وتغني لي "أو" أقولها في نفسي محدقًا في هالات الضوء التي ترسلها تلك السلسلة المعلقة في رقبتها وقد لاحت الكاتينة في ظلام البدروم تبرق في عنقها ليمتزج سلسال العرق بنثار ماء بارد رشته فوق رأسها".

ما هذه الدقة في الرؤية وسط الظلام! هي دقة الصورة وليس الحكي. الأمر نفسه في علاقته بأم هاشم التي ستموت أيضًا وفي حديثه عن كل الناس. لقد لخص الأب في مشهد مثل "ناداني أبي وهو يرفع الباشكير من فوق الباب، ظهر بالصديري وتحته فانلة قطنية دون لباس داخلي وقد تدلى عضوه كرجل ثالثة تتوسط ساقيه.." عجيب وجميل أن حسين عبد الرحيم لم يمشِ وراء ما يحدث الآن من الكثيرين من تلخيص فكري للأحداث في حكم وأمثال. كاتب مجنون بالصور ويترك لنا الأحكام والأمثال. أما الحوارات فهي لغة تتسق تمامًا مع قائليها وبنت حياتهم الضائعة بين الحرب وبين الأسواق وبين البلاد ولا تطول أبدًا فكل شيء إلى زوال.

" كتبته على الفيسبوك"

عن رواية "بالأمس كنت ميتًا" لرضوى الأسود

هذه رواية طموحة جدًّا في بنائها ولغتها. ربما جذبني إليها في البداية أنها رواية عن مذابح العثمانيين للأرمن وكيف أوقعوا بينهم وبين الأكراد ثم عصفوا بهم في مذابح شهيرة. قلت فلأرَ مغامرة لكاتبة مصرية صدرت لها من قبل أربع روايات هي رضوى الأسود التي كنت أعرف أنها موهوبة منذ روايتها الأولى، لكن أن تغامر وتكتب عن مذابح الأرمن فلأرَ كيف كان جهدها. ما إن بدأت في الرواية حتى وجدت نفسي أمام مغامرة في البناء الروائي طموحة جدًّا. وهذا بالمناسبة يجذبني كثيرًا ما دام بلا افتعال.

الرواية تبدأ في مصر في زمننا. بالضبط عام 2000 ولوسي في المستشفى في أيامها الأخيرة وليلى تزورها وتتألم من أجلها. من هما لوسي وليلى. سنعرف القليل في البداية والكثير فيما بعد حين ينضم إليهم مالك الذي سنعرفه أيضًا. بعد قليل نعود إلى القرن التاسع عشر عام 1868 وما بعده حتى أوائل القرن العشرين فالأبطال بين الأرمن والأتراك والأكراد قبل أن نصل إلى مصر. مشيت مستمتعًا بالدقة في الأحداث وباللغة المحملة بالمشاعر وشكل الأماكن والفضاء التي يحتاج الوقوف عندها وعند العقائد بأسرارها الروحية إلى صفحات، والحياة وطموحات وأمل الشخصيات التي اختفت بعد ذلك بنزوح اثنين، زوج كردي وأم أرمينية.

اللغة من أكبر ما جذبني ليس لبلاغتها فما أسهل البلاغة لكن لتعددها مع روح الشخصيات والأحداث وهنا كنز حقيقي. كنز من الظلم والقتل والهروب والطموح والقدرة على الصورة والإيجاز في التعبير حتى ندخل في حكاية أخرى هي قصة حب في مصر لمالك حفيد الأتراك، ولوسي حفيدة الأرمن وليلى المصرية اللتين نشأتا ونضجتا معًا. وكيف وافقاه على ذلك أو وافقا نفسيهما. هذه ضربة فنية قد لا يتصورها أحد إذ كيف ترضى فتاتان بحب كلتيهما لنفس الحبيب لكنها الروح تتمدد بالغرائب. تتطور العلاقة ويتزوج من ليلى بنت العائلة المصرية المتصوفة بعد أن خطب لوسي حفيدة الأرمن لكن بعد أزمة كبيرة، فأبوه هو حفيد طلعت باشا قاتل الأرمن ومرتكب المذابح البشعة التي لا يعترف بها حفيده، أبو مالك. يعرف مالك ما فعله أسلافه فيمشي في بلاد الله من مصر إلى المغرب إلى آسيا في رحلة أشبه بالتطهير بعد اكتشاف جرائم أجداده ويا لها من رحلة مليئة بعجائب الخلق في حب الله وفهمه عند كل الأديان.

وبلغة فيها عناء الرحلة وشهوة المعرفة التي لا يدركها إلا الصوفيون. حتى الجنس يتحول إلى طقسه الصوفي للفناء في الملكوت، يعود إلى ليلى وليس لوسي. تبتعد لوسي في إيثار نفسي نادر لليلى على نفسها. لوسي نفسها تترك مصر إلى ألمانيا مع ابن عمها هاكوب لكنها لا تستطيع، فهاكوب ليس ما تريد، إضافة إلى قسوته. تعود مريضة عقليًّا وتموت في مصر ونعود إلى بداية الرواية. بناء الرواية عجيب ففصولها الكثيرة التي نادرًا ما يزيد الفصل منها عن ثلاث صفحات تتوالى لكنك حين تنظر إلى تاريخ العام الذي يتم فيه الحديث الذي يتنوع بين سرد الشخصيات وسرد الكاتب والرسائل يمكن أن تقيم البناء أمامك رغم تعدد الفصول.

هذا طموح كبير والله لأن ما يحدث الآن في الكثير منه هو الحكي المتوالي والحبكة وغير ذلك. وفوق ذلك وأمامه لغة جميلة جدًّا تتنوع من الموت إلى الحياة ومن الإقبال عليها إلى الزهد فيها ومن أجمل ما تقرأ أحيانًا نهايات الفصول بالجمل الموجزة المعبرة. ويحدث هذا كثيرًا في متن السرد ولا تشعر به مقحمًا أبدًا فهو وهو يعكس ثقافة رائعة للكاتبة يعكس أيضًا مشاعر حقيقية لشخصياتها العادية من خبرة الحياة، والمتعلمون منهم من ثقافتهم فلا غرابة في الأمر. الرواية يتم تقديمها دائمًا أنها عن مذابح الأرمن وهذا حقيقي لكنها أيضًا وهذا مهم جدًّا، قصة أو قصص حب مفارقة للعادي، وتعزف على ناي الحزن فالماضي لايفارق الحاضر بالآلام، بل تشغل الصفحات المعاصرة أكثر من صفحات المذابح لكن الماضي يظللها.

شكرًا يا رضوى والله على هذه اللغة الفارقة في الكتابة وعلى طموحك في هذا البناء وعلى دخول هذه المنطقة التي لا بد كلفتك قراءات كثيرة في التاريخ والسياسة والأديان لتخرجي منها بقصص حب أعادتك إلى الماضي كأنما هو حكم الآلهة الخفي وتجسيدك لنوع شيطاني من البشر ونوع طاهر تحبه الآلهة فنذرته للعذاب الأبدي.

"كتبته على الفيسبوك"

عن رواية "كقطة تعبر الطريق" لحاتم حافظ

رواية جديدة مغرية جدًّا بالقراءة.. لغة موجزة تصل إلى أعمق المعاني بجمل قصيرة نافذة. باختصار هي رحلة لعلياء السورية التي تدمرت بلادها مع زوجها أو عشيقها فلا فرق ميشيل الفرنسي إلى أوربا وإلى باريس. في الرحلة شخصيات كثيرة تتفرق على الرواية. ذكريات مع السوريين عمّار بالذات وأمها ومعها ابنتهاالصغيرة "لِيلِي" وفي أوربا شخصيات أوربية وعربية ويهودية تلتقي بهم حين تتقدم للعمل كمترجمة في إحدى دور النشر.

الشخصيات مُعبَّر عنها بصدق فني بليغ بحيث تراها "باها" المصري اختصارًا لاسمه "إيهاب" والذي رغم قلة ظهوره يسرق القارئ بغرابته وجنونه، أو "نيمو" اختصارًا لاسم نعمة التونسية أو سهيلة العراقية أو أولجا البيلاروسية وكل منهم هارب من وطن منهار وكلها قطط تحاول عبور الطريق. فضلًا عن شخصيات أخرى مثل عائلة ميشيل، أبوه وأمه وأخوه وزوجة أخيه. الشخصيات الثانوية فاعلة جدًّا في الجزء الثاني الذي جعل له المؤلف عنوانًا واضحًا " قطط برية " الموضوع هو البحث عن وطن لكل هؤلاء الغرباء وصراعهم من أجل الفوز بالاستقرار. بعد جزء طويل بعنوان امرأة غاضبة ورجل ضجر يستحوذ عليه ميشيل وعالية فتأتي فصول بضمير المتكلم لكل منهما مرة حتى تستقر الرحلة على الأقل لعالية في باريس فميشيل أصلًا فرنسي. بين ذلك أحاديث عن علاقات جنسية وحب ضائع ووصف للأماكن والمدن بدقة كاتب عرف أوربا أو على الأقل باريس جيدًا جدًّا مكانًا وروحًا وبشرًا. وحين يعود إلى الذاكرة السورية تظهر البراعة في وصف المكان بألفته وزواله وأيضًا عن كل البلاد الأصلية للشخصيات.

القسم الأول من الرواية أطول منقسم بين عالية وميشيل بضمير المتكلم ثم يأتي القسم الثاني ويظهر فيه المؤلف يحكي بضمير الغائب عن الجميع. ربما ابتعدوا عن أنفسهم أو قام بينهم وبين ما وصلوا إليه، باريس والعمل، جدار. والحقيقة أن هذا القسم فيه من الانهيارات والصراعات أكثر مما فيه من آمال. ربما لو استخدم أي من الأبطال ضمير المتكلم يصبح كاذبًا. من أين لك هذه القوة لتحكي وأنت في هذا المستنقع من الصراعات الصغيرة الرديئة لكنها طبعًا كبيرة على الغريب. أحاول أن أجد تفسيرًا فنيًّا لانقسام الرواية بين ضمير المتكلم والغائب. لم يكن بضمير المتكلم في القسم الثاني غير رسائل نعمة التونسية التي أخذت طريقها إلى أمريكا. ابتعدت. يشغلني دائمًا بناء العمل الفني أكثر من الموضوع رغم أن الموضوع هنا مثير.

الرواية ليست حكاية عالية وحدها لكنه حكاية غير المتوافقين مع العالم. الرواية تحتاج إلى حديث طويل، أهم ما فيه لي أني أنا الذي ابتعدت عن القراءة قليلًا قلت فلأجرب ونجحت التجربة التي أرجو أن تستمر. وما دمت تحدثت عن الشكل، فالرواية تثير سؤالًا: لماذا كان الحوار في أغلبه خاصة في القسم الأول على طريقة الروايات الأجنبية. تأتي الجملة الحوارية أولًا ثم بعدها قال أو قلت أو تساءل ولا تأتي على طريقة الحكي المصري فتكون قال أو تساءل أولًا. أعرف أن بعض الكتاب الشوام يفعلون ذلك، لكن الأمر يتجاوز عالية السورية إلى ميشيل الفرنسي. هل هو تأكيد اغتراب كل منهما عن الآخر أو عما يحكي؟ ربما. لكن الأحاديث مهمة في تطور الأحداث.

بالمناسبة تصل إلى جمال رائع في أحاديث وأسئلة وحيرة الطفلة لِيلي. لكن الذي أشعر به أنه حين تأتي قال أو تساءل دائمًا بعد الجملة الحوارية تأخذ القارئ عنها رغم أنها الأخيرة.

نحن المصريين حين قدمنا قال أو تساءل جعلنا لما يقال المقدمة في الروح رغم أنه بعد قال أو تساءل أو اتفقنا مع تراثنا المحكي. أحيانًا نلجأ إليها حين يطول الحديث لتنبيه القارئ حتى لا يختلط الحوار عليه أو حين يكون الرد مفاجئًا أو فيه استطراد نقسمه أجزاءً، لكن ليس على طريقة الروايات الأجنبية. في القسم الثاني قل هذا وظهوره يمكن تقبله باعتباره أن الذي يحكي هو المؤلف لكن يظل هذا السؤال قائمًا. كان الحوار يأسرني ثم تأتي قال بعد كل جملة تجعلني أنظر حولي أبحث عن المؤلف وأقول منك لله يا حاتم فكرتني إنها تأليف وليست حقيقة. ربما هي قراءات حاتم حافظ التي وضح لي عمقها جدًّا في الأعمال الأجنبية. الرواية تحتاج الكثير من الاهتمام النقدي بالإضافة إلى متعة القراءة المذهلة، وهذه دعوة مني للنقاد. أنا تكفيني المتعة.

"كتبته على الفيسبوك"

جولة سريعة في الرواية والقصة العمانية

المشهد السردي في عمان

"نماذج من السيرة والقصة والرواية"

عمان دولة ذات بعد حضاري ضارب في القدم. وهي تشهد مثل سائر بلدان الجزيرة العربية نهضة من العمارة والتصنيع والتعليم والصحة وغيرها، وفي مثل هذه الحالات لا بد أن يبدأ النهوض من الفنون والآداب. وكما يحدث في الجانب المادي من الحضارة، إذ يبدأ النهوض مما انتهت إليه البشرية، يحدث في الفنون والآداب، فعمان أو غيرها، ليست في حاجة إلى التجربة الحصرية التاريخية في الأدب. أي تأسيس تاريخ للرواية أو القصة، ذلك حدث في مصر في بدايات القرن الماضي حينما انفتحت مصر على أوروبا واكتشف كتابها فن القصة والرواية والمسرح، الآن هذه الفنون وغيرها ليست في حاجة إلى اكتشاف. هي موجودة حول الناس في كل مكان بفعل الميديا وثورة الاتصالات واتساع المعرفة.

إذن فالعمانيون لا بد أن تكون بداياتهم مع الفنون من النقطة التي انتهت إليها الفنون والآداب. من هذه الزاوية قرأت ما توصلت إليه من أعمال روائية أو قصصية. لكن قبل ذلك أحب أن أقف عند نوع آخر من السرد، الذي هو أقرب إلى السيرة، أو السيرة ذاتها وفي هذا أقف عند عمل للشاعر سيف الرحبي وعمل للروائي محمد عيد العريمي.

1- أرق الصحراء:

"أرق الصحراء" هو عنوان العمل الذي أحب أن أقف عنده لسيف الرحبي. وهو نوع من الكتابة فيه من فنون الكتابة القصصية، وهو ليس بقصص، والسيرة، وهو ليس سيرة شخصية إنما سيرة للمكان والزمان معجونين بروح الكاتب وسيرته في عبوره على الأشياء والوقت، والشعر من حيث كثافة الصور الشعرية في الجمل والعبارات، وقبل ذلك كله وبعده نظرات عميقة في الكون والحياة والناس والفنون والثقافات، إنها غابة شديدة الكثافة ثرية الأشجار في تنوعها وغرائبها وحقائقها أيضًا.

أرق الصحراء أشبه بالصحوة، صحوة الكائن الأزلي على عالم شديد الغرابة شديد الحضور متنوع في مباهجه وآلامه، والكائن هنا كائن فطري، شاعر، تندلق منه الكلمات مرسلة من المنطقة الغامضة التي تجعلها برزخية فتحب أن تعود إليها أكثر من مرة، كما يقول برنارد شو عن الكتاب المقدس، وكما يقول هو عن بعض قراءاته. الكتاب مقسم إلى خمسة أجزاء صغيرة، الجزء الأول يحمل عنوان "الغبار الأرضي وذلك القادم من كواكب أخرى"، والجزء الثاني يحمل عنوان "كل هذا الموت، كل هذه الحياة، كل هذا الجاز" والجزء الثالث يحمل عنوان "بيروت" والرابع "القاهرة" والخامس "نصوص".

يبدأ الجزء الأول بسؤال: في أي يوم نحن؟ الأربعاء، الخميس، الأحد؟ في أي ساعة وزمن وتاريخ؟ لا أكاد أتبين علامات الأزمنة، الغبار يلف المشهد بكامله.. الغبار الأرضي وذلك القادم من كواكب أخرى "الزمن يسيل سيلان الدماء الغزيرة في الطرقات والشوارع، في الأزقة والأودية، على الأرض العربية والعالم"... حتى يصل إلى التساؤل الكاشف "في أي يوم نحن الآن وفي أي ساعة وتاريخ؟

بعد ذلك تبدأ روزنامة الأيام، الأحد ثم الثلاثاء، ثم الثلاثاء، ثم الثلاثاء، ثم ليلة الأربعاء، ثم الخميس ثم الأحد.. وهكذا دون ترتيب إلا قفزات الروح. ونمضي مع سيف من أوروبا إلى عُمان وتفاصيل التفاصيل من الحياة والمكان والكتاب والكتابة والأهل والأصدقاء والقراءة والإعلام ومشاهدة الأفلام والغناء والموسيقى والمسرح.

إنها تنقلات الكاتب الجسدية والروحية التي تجعلنا نحب هذا العالم رغم الفوضى، وتجلي لنا إمكانية البقاء والجمال تحت الغبار، ففي أحد الصباحات يقول: "صباح مليء بنباح الكلاب المجاورة الذي يحاول تمزيق الفراغ الذي
لا يقهر. هل ثمة من يستطيع تمزيقه أم هو على الأغلب من يفترس الجميع؟" وفي إحدى الليالي يقول: "أحاول النوم مبكرًا من غير أن أشاهد التلفزيون الذي يهيمن بسطوة مطلقة على المدينة، ممتدًّا إلى الصحاري والأرياف البعيدة القاحلة لتكون ضحيته المثالية". وفي إحدى الأماسي يقول: "رتل غربان على قمة جبل صغير تبين أنها تلتهم جثة نسر "وفي مرة يقول: "عام 1990 دفعت بي صروف الأيام إلى "لاهاي"، كان شتاء والموتيلات على البحر تكون خاوية حيث يشتد البرد والعواصف.... هكذا سكنت أحد الموتيلات مع عجوز مرفقة وحيدة إلا من كلبها الضخم المخيف الذي سيصبح أليفًا ومؤنسًا مع الأيام". وهكذا تمضي رحلة الكاتب، الشاعر المهوشة المضطربة بنائيًّا، لتصنع بناء من نوع خاص، أساسه الحرية وترك الحبل على الغارب للروح تبدي تجلياتها، ومع تجلياتها البصرية عشرات التجليات الفكرية في التراث والشعر والحضارة العربية والدين والصراع العربي الإسرائيلي والعربي العربي بحيث يبدو الأمر كنافذة فتحت في يوم ريح وتتدحرج بينها أسماء عشرات الكتاب والفنانين من أصدقاء الكاتب وأصدقائنا وأصدقاء الحقيقة والعذاب في عالمنا العربي بدءًا من محمود درويش حتى حسين العبري من أحدث أجيال الكتابة العربية في عُمان.

على هذا النحو يمضي الجزء الثاني أيضًا، يقول عن حسين العبري الذي سنتحدث عن روايته فيما بعد: "حسين يتحدث عن كندا التي رجع منها حديثًا، وبصفته طبيبًا نفسيًّا وروائيًّا يحلل الأشياء والعالم من أفق المعرفة النفسية. أردت أن أقترح عليه تحليل سيكولوجية الجبال ومحاولة استقصاء كهوفها ومخابئها المفعمة بالأسرار والمهابة الروحية، وبما يمكن أن نطلق عليه علم نفس الأزل. علم جمال القسوة، خاصة إذا عرفنا أن حسين ولد في "الحمراء".

يخصص سيف الجزء الخامس لنصوص تحمل عناوين مقدم الربيع، عيد الأسلاف، شرفة الضباب الغريب، غراب الحنين. والنصوص كتابة فرضت نفسها من الربع قرن الأخير، تخلصًا من مأزق التصنيف إلى أجناس أدبية، وتقسيم الأجناس إلى أنواع، هي نصوص متأبية على التصنيف، يكتبها ويبدع فيها أمين صالح من البحرين وعيسى مخلوف من لبنان وسيفٍ الرحبي وغيرهم كثير، لكن

ليس بهذا التركيز، أو ليس بهذا الاستمرار، وان كان سيف أيضًا مقلّا فيها، على ضوء معرفتي أنا، إلا إنها في هذا الكتاب جديرة بالتأمل باعتبارها نوعًا راقيًا من السرد.

إنه سرد ينزل عليك ولا يصعد من المألوف. سرد يمكن أن ينتهي في أي لحظة لكنه لا ينتهي إلا عند آخر جملة للنص، يمسك بك ويدهشك وتستطيع أن تقول في راحة أن هنا كتابة مفتوحة على أفق لا ينتهي، وتفتح أو قادرة على أن تفتح أفق الوجدان عن الكتاب القادمين لذلك فثمة وشيجة بين سيف الرحبي وكتاب عُمان الشباب، ليس فقط لكونه رئيس تحرير مجلة نزوى، أول مجلة أدبية في عمان وواحدة من أهم المجلات العربية، ولكن أيضًا لكونه الشاعر الذي يقف على فصل النثر ويفتح أبوابه لقرائه. إن نصوصه تفتح شهوة القارئ على الحكاية وعلى القصة رغم إنها نصوص وليست قصصًا.

2- مذاق الصبر / حز القيد:

يقول الدكتور ضياء خضير في تقديمه للكتاب "هذا كتاب فريد في بابه، يحتل أو ينبغي أن يحتل مكانة متميزة بين الأعمال الأدبية الخليجية والعربية المشابهة، وإذا كنا غير قادرين على تحديد نوع الكتاب "مذاق الصبر"؛ فلأنه بطبيعته ينأى عن التصنيف، إذ يكتفي المؤلف بتقديم مادة خام ولا يُعنَى بالشكل وطريقة الكتابة على الأسس النوعية الشائعة. ليس لأنه يجهل أو يتجاهل مثل هذه الأسس، وإنما لأن الرغبة الضاغطة في الكتابة عن التجربة، ومحاولة الكشف عن ملابساتها ضمن الوضع البشري الاستثنائي الذي عاشه صاحبها، هي التي تسبق ما عداها، وتجعل من الممكن أن يحرز النص هذا القدر الطيب من النجاح والتأثير، ويحقق جماليته الخاصة بصرف النظر عن شكل الكتابة والنوع الذي تنتمي إليه.

هذا الكلام يعني باختصار أن الكتاب يقع ما بين السيرة والرواية والمقالة، وهو ما سيقوله الناقد فيما بعد. والحقيقة أن جانب السيرة هو الضاغط الأكبر، فالكاتب محمد عيد العريمي الذي تعرض لحادث أصابه بشلل رباعي يذكرنا بالكاتب المصري المتوفى صبحي الجيار صاحب سيرة "ربع قرن من القيود". وأنا هنا لست في معرض المقارنة بين السيرتين، ولكن في معرض الأسى على الكتّاب الذين يتساوون أحيانًا حتى في مرض عضال مثل الشلل، ما يهمني هنا هو السرد وأسلوبه، ورغم أن الكاتب يعتذر للقارئ عما اعترى النص من قصور لأنه لم يكن معنيًّا بشكل الكتابة قدر عنايته بمضمونها. والحقيقة إن السرد هنا بسيط ينم عن دراية باللغة، قريب الصلة من الرومانسية، وكيف لا يكون كذلك، إلا أن الكاتب المعني بالمضمون لا يمشي وراء الحزن، ولا يجعل نفسه محور انهيار العالم ويستطيع كثيرًا أن يختزل المعاني في جمل سهلة، مثل: "لم يختلف اليوم الثاني للحادثة عن الذي سبق، ولم يكن أفضل حالًا عما تلاه من أيام".

ويقدم إلينا في سلاسة رحلته منذ الحادثة حتى السفر للعلاج بالخارج ومسيرة العلاج والمرضى الذين قابلهم والجو المحيط وحياته بين اليأس والرجاء، وتتفجر كثيرًا جمل تحمل طاقة فنية لأنها بنت تجربة كبيرة، مثل: "وأنا جليس الكرسي المتحرك الذي غدا، أحببته أم كرهته، جزءًا من جسدي"، على أن الجميل في هذا الكتاب هو التصالح مع الحالة، واللغة العذبة السهلة، إنه شكل آخر من السرد، لا يطمع ولا يطمح أن يكون حالة أدبية، وكل نجاحه هو في الروح الإنسانية التي

تتدفق رغم قسوة الحالة وفداحة الخسارة الجسدية لصاحب السيرة، محمد عيد العريمي هنا ينتصر للإرادة الإنسانية دون مبالغات، ينتصر لها أيضًا بسلاسة السرد. على أن هذا السرد سيتطور كثيرًا حين يكتب محمد عيد العريمي روايته الأولى "حز القيد".

هنا ستتسع مساحة المغامرة والصور الشعرية والأخيلة خاصة أن الرواية عن السجن، وليست عن سجن محدد، لكن سجن متخيل. سجن في بلد تسمى "قحطين" ولعل ذلك من قحطان فهي إذن بلد عربي، أي بلد عربي. الرواية رغم إنها عمل متخيل، إلا إنها ابنة معرفة واسعة بأحوالنا العربية، هذه السجون المفتوحة بتهم غير حقيقية للمناضلين وللناس العاديين على السواء، فبطل الرواية راح ضحية معرفته بشخص دعاه إلى مشاهدة فيلم سينمائي معه، ومن السينما تم القبض عليه، فالذي دعاه حسب أقوال أجهزة الأمن يشكل مع غيره تنظيمًا سريًّا مناهضًا للنظام. أغامر فأقول: إن هذه الرواية أيضًا قريبة من السيرة، ولكنها سيرة جماعة رغم أن كاتبها فرد. وهكذا يظل الكاتب في منطقة المراوحة بين السيرة والرواية في عمليه، "مذاق الصبر" و"حز القيد"، والمهم هنا هو أنه يساهم في فتح باب الكتابة في مناطق خطرة وصعبة، وإذا كان ثقل السيرة في الكتاب الأول يجعل السرد بسيطًا، فإن الرواية في الكتاب الثاني تجعل السرد أكثر حركة وأكثر تشظيًا وأكثر استجابة للغرائب، فأشكال التعذيب النفسي والبدني في المعتقلات العربية تتفوق في الحقيقة على أي متخيل..

ونستطيع أن نقول على الإجمال أن محمد عيد العريمي، بعيدًا عن مضمون عمليه، يحقق في السرد ببساطة وحيوية، لكنه في الكتاب الثاني لا يبوح بأفكاره أو رؤاه الفكرية إلا من خلال الصور المتتالية منذ لحظة الاعتقال، وهذا الذي يجعل الجانب الروائي في الكتاب الثاني هو الأكثر حضورًا، لكن العريمي في الكتابين لا يحاول أن يحقق شكلًا، هذه قد تكون ميزة للقارئ العادي، لكنها تقلل من إسهام المؤلف الفني، فالبحث عن شكل جديد أو مغاير هو العلامة الفارقة بين كاتب وآخر، لكن يظل العريمي في الكتابين هادئ الصوت، وهذه ميزة تحسب له رغم قسوة التجربتين؛ التجربة الأولى الواقعية والتجربة الثانية المتخيلة.

3- الطواف حيث الجمر:

هذه رواية نشرت عام 1999 لبدرية الشحي، فهي أسبق من رواية محمد عيد العريمي ومن رواية حسين العبري التي سنتناولها فيما بعد. وفي رواية بدرية الشحي، ومن أول صفحة نجد أنفسنا مع لغة متوترة، مع سرد مفاجئ في حركته، لا يهدأ، يحمل شحنات من الغضب الأنثوي والقهر الواقع على الأنثى، بدون أفكار مسبقة، إنما حالة الأنثى الخام التي مضت حياتها محاصرة بالجهل وقهر الإرادة في البيت والزواج، ثم الانسحاق أمام الزوجة الأخرى التي انجذب إليها الزوج التقليدي الذي لا يرى في المرأة إلا متاعًا.

الراوية، أو الساردة، تبدأ بخطبة عالية النبرة "فليذهب جميعكم إلى الجحيم. وهذه الشعيرات البيض وهذا العمر البائس، وليذهب سالم والعالم من بعده وحوله إلى النار، لقد ضاع عمري عبثًا، ضاع في سراب مملوء بالوعود الكاذبة، أي حسرات بعد هذا تنفع، ما باليد حيلة" علو النبرة يلخص عمق القهر، ويلخص عدم القدرة، أي الانسحاق، لكنه يفتح الباب بعد ذلك للرد الهادئ، للروح حين

تبوح "صياح ديك أم قيس المبكر ينتزعني من كابوس ثقيل، جسدي يتفصد عرقًا وارتعاشًا" على أن السرد لا يهدأ دائمًا، لكنه لا يعود إلى صوته الافتتاحي العالي إلا قليلًا.

يدخل بعد ذلك في دائرة التصوير أو التشخيص "رسمت النار ظلًّا كبيرًا لجسدي المتكوم بقربها، كان الظل يهتز ويغمق، يتحرك ويسكن" على إنها دائمًا لا تنسى أن للزوج روحًا متجاوزة للمكان، هو نفسه غير قادر على الاستقرار أو الاستمرار "أريد أن أرى الكون الأخضر يا زهرة، ماذا بعد الليل، يقولون بحرًا، هل تعرفين البحر يا زهرة"، اسمها زهرة إذن، تذكرنا على الفور بحكاية زهرة لحنان الشيخ، هناك قهر وهنا قهر، كأنما اسم زهرة صار علامة على الأنثى المقهورة، لكن هذا ليس موضوعي، موضوعي هو السرد.

والسرد هنا على طول الرواية يمشي في مستويين، مستوى الحكي "الغرفة كانت ضيقة وبها رائحة لا كريهة ولا حلوة، الأرض مغطاة بحصيرة قش، عتيقة لكنها نظيفة" إنها طرق الحكي التقليدية لكن مع قوة وإيجاز وتصوير دقيق
"ودون أن أدري تناولت بعيني تحركات الخادم المرتبكة من الممر المحاذي لنافذتي، تجربة واحدة ربما تخلق لي فرصة جديدة تمامًا، نبض جديد أقل خوفًا من هذا النبض الخائف المهموم" والمستوى الثاني هو البوح الذي يعلو أحيانًا قليلة كما هو في المفتتح الذي أشرت إليه ويرق غالبًا "لا. لا. ويحي سيقتلونني سيذبحونني بالخنجر التي ألمعها كل صباح في الدار. ويلي. السر أحسن".

أي أن السرد يرق أكثر حين يتعلق الأمر بالأشياء حول زهرة ويتلون بالمشاعر المرتبكة، الخوف والقهر والازدراء وغيرها حين يتعلق بالذات. وتستطيع بلا ترتيب أن تجد هذا التفاوت في أي صفحة من الكتاب، "كانت هناك امرأة طويلة تطبخ عند نار قوية، تمسح حبات العرق المتساقطة من وهج النار، ترتدي ثوبًا مشجرًا ملفوفًا حول جسد مكتنز".. إلخ. ثم بعد قليل "لماذا يستبد بنا الخوف من الليل مع أنه مخلوق نهوب ورقيق، ساج لا يجيد الإزعاج والمشقة، لماذا نخاف عند خشخشة شجر بالجوار وتدور أعيننا في محاجرها طويلًا حتى نستكين خلف باب به رتاج"، أو "وبعد دقيقة أو اثنتين انفرج الباب عن وجه خميس الباسم، كان يبدو مرهقًا مكدودًا، وما أن رأى وجهي حتى ندت عنه آهة استغراب". ثم بعد قليل "اليوم بالذات سأضحك ملء قلبي، وأسطورة الذكي الشقي ستتحطم بيدي، سيذوق سلطان للمرة الأولى أصعب صفقاته مع من كان يظنها أضعف المخلوقات" وهكذا، وبين هذا وذاك نحن مع عالم غريب ومدهش في الجبل والقرية والبحر وصبوات ونزوات الناس. يمكن أن يكون علو الصوت الداخلي أحيانًا مزعجًا، لكن هذه هي مزالق المونولوج، المونولوج العربي بالذات، فالإنسان العربي لم يعرف بعد كيف يكون بعيدًا عن هذه الآثام من حوله، لأنها موجهة إليه بالأساس، فما بالك، إذا كان هذا الإنسان امرأة..

4- الوخز:

هي الرواية الأولى لحسين العبري، وهي كما هو واضح من العنوان عن الألم، والألم هنا هو ألم الوضع البشري، الإنسان المتهم، لعلك تذكر الآن رواية "حز القيد"، لمحمد عيد العريمي. لكن لماذا لا تتذكر كافكا، مع محمد عيد العريمي، نتذكر "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف أكثر مما

نتذكر كافكا، ومع حسين العبري نتذكر كافكا أكثر مما نتذكر منيف، ونتذكر اللجنة، لصنع الله إبراهيم لكنها أيضًا تذكرنا بكافكا، أي إننا مع محمد عيد العريمي نتذكر حياتنا العربية أكثر مما نتذكر وجودنا، رغم تسهيل المكان، ومع حسين العبري نتذكر وجودنا ولا نفلت من حياتنا العربية. ولأننا نتذكر وجودنا أكثر يشف هنا السرد يصبح أكثر حيادية، ويبدو الكاتب منشغلًا بالبناء الفني أكثر، فينوع من طرق السرد ويخترع شاهدًا متخيلًا "ينط" كما يقول السرد على أحيان متباعدة ليقدم لنا تفسيرات للسارد نفسه أو للموت، فالرواية المكتوبة بضمير المتكلم مثل الروايتين السابقتين للعريمي ولبدرية الشحي تتحايل لقطع رتابة السرد بهذا الشاهد الذي يتحدث بضمير الغائب، وهو غير هذه الوظيفة الشكلية، من الشكل، أو البنائية، من البناء، وهذا أفضل له.

وظيفة أخرى موضوعية هي توسيع معرفتنا وتنويرنا بالخفي الذي لا يبوح به السارد، الذي هنا على طول الرواية تقريبًا يتمتع بقدر كبير من الدهشة والدهاء. على أي حال هذا الشاهد تزداد مساحته مع تقدم الرواية، لقد تعب السارد/ المتهم من طول التحقيق وكشف خلاله عوراتنا ومأزق وجودنا. والسرد يتحرك تقريبًا على وتيرة واحدة إلا حين يتغير الضمير من المتكلم إلى الغائب، أو في النهاية حيث يقدم لنا تصورات كلية عن الناس والأمن والبشر، من كلام أشبه بالهذيان.

لقد عرفنا كل شيء خلال الرواية عن ذلك وغيره، ويظل الحياء وعدم جنوح الأسلوب إلى المحسنات البديعية أهم ما في سرد حسين العبري، ولقد طال منه كثيرًا تحليل المتهم، السارد/ الراوي للأمور أمام جهات التحقيق، وواضح أثر عمله كطبيب نفسي على هذه الإطالة. لكن الرواية في النهاية ممتعة وبالنظر إلى الروايتين السابقتين، للعريمي ولبدرية الشحي، يقفز السؤال المدهش الذي يجعلنا نطمئن على قوة البداية الروائية في عُمان، وهو لماذا موضوع الحصار. ذلك يعكس قوة الكتاب، ويؤكد ما قلته في البداية، بداية المقال، من أن الكتاب في عُمان على قلة عددهم يبدأون من حيث انتهت الرواية العربية والرواية بشكل عام. ونقفز الآن إلى القصص القصيرة لبعض الكتاب.

5- حبس النورس:

قرأت ليونس الأخزمي مجموعتين قصصيتين، النذير، ثم حبس النورس. في المجموعة الأولى يفاجئنا الكاتب، أو لعله أراد أن يفاجئنا، بقدرته على امتلاك قوة السرد. حتى إنك تجد نفسك في حاجة إلى فك شفرات النص بين الجملة والأخرى، والعبارة والعبارة، "رشقت المدى بنظرة متعجرفة، وتحفزت لابتلاع المسافات، تحت شمس جهنمية أمضي غير حافل بتجفيف العرق، والمدى ينطوي.. خلف سراب قاحل، وأمامي سماء تحتضر، وفي الأفق ألمح زخم ضباب يتداخل".. مرثيات، لا مرئيات، توغل في الولوج إلى الجمجمة المترنحة كالمقصلة. أو "تقتعد التلة مبحلقًا من المحيط بتشتت، عيناك منتصبتان بقلق وعقلك مبعثر فوق الأرصفة. تقعد منعزلًا.. في أعماقك غبار كثيف وملء عينيك ملح وذعر.. تبكي. تعرك بأسمالك الرثة دموعك المتهدلة".. أو "في الرمق الأخير من الليل تنبثق مترهلًا للعتمة الرابضة في المستنقعات" أو "نصف إغماضة تفتح عينيك وتبرح البحر وصمتك دون حواس، تخطو.. فتنهال عليك الرؤى.." هذه استشهادات قليلة من القصص الحافلة بهذا الاحتواء القوي للحالة الروحية للشخوص يساعد عليها ضمير المتكلم أحيانًا والمخاطب أحيانًا وفي الحالتين لا نبتعد عن الكتابة النفسية، أو التي تقوم بتشريح

النفس وتجسيد الحالة الروحية للشخوص. ومن حيث إنها قصص فهي قصص تتمحور حول مركز هذه اللحظة الشعورية.

وقصص المجموعة كلها كتبت في أواخر الثمانينيات، ما بين عامي 1989، 1990 تقريبًا وبهذه المناسبة فيونس بداية قوية للقصة القصيرة في عمان يمتلك قوة في السرد، رغم إنها قد تكون استعراضية كما هي هنا، لكن هذا السرد يختلف كثيرًا في مجموعته التالية الأكثر نضجًا "حبس النورس". تصبح أكثر نصاعة وبساطة رغم أنها لا تتخلص من رؤاها وخيالاتها.

انظر مثلًا في قصة يوم صمت في مطرح "جفلت هذا الصباح على حلم غريب، حيث وجدت جيوبي خاوية وملابسي رثة ممزقة وأنا أتسمر رصيف شارع كورنيش مطرح المزدحم بالمارة". وتمشي مع القصة أو غيرها في هذه المجموعة فتجد أن المكان هنا هو الذي يتصدر المشهد، وهو الذي يتفاعل مع الحالة الروحية للسارد أو البطل. لدينا إذن بطلان في السرد، المكان والسارد أو البطل، وأول ما يُلاحظ أن علامات الترقيم هنا عادت إلى طبيعتها، أي استخدام الفاصلة والنقطة بدلًا من استخدام النقطتين فقط في المجموعة الأولى في محاولة لتسارع الإيقاع، وهو ما كان يحدث في القصص القصيرة حين طفرتها الكبيرة في الستينيات.

الآن القصص عادت إلى طبيعتها الأولى، الحكاية، ولكن ممتزجة بالمكان. انظر كيف صار السارد أكثر ارتياحًا في هذا المقطع من القصة الثانية "وجه سلوم" "كان البحر دائمًا في الهدوء والسماء قطعة زرقاء صافية المعالم في ذلك الصباح الذي لا يختلف عن عداه من صباحات أيلول الباردة" والمقارنة بين القصتين في السرد وفي الموضوع تصل بنا إلى يقين بأنه كاتب موهوب يمتلك ناصية القص وقادر على إبداع لوحة فنية شديدة التميز والقوة، فيوم صمت في مطرح اغتراب عنيف للسارد وحضور قوي للمكان، السوق والباعة والأغراب، فإذا به الأشد اغترابًا، و"وجه سلوم" أشبه بالسيرة الجميلة لبطل شعبي صغير هو سلوم طفلًا وشابًّا، الذي أحبته القرية لكن قال ما لا تعرفه القرية. أن لكل وجه ثلاثة أبعاد كما لكل شيء ثلاثة أبعاد، هذا ما تعلمه في المدرسة، ولوجه سلطان الذي وضعته الحكومة وسط الصيادين، أو شيخًا لهم، ألف بعد، بعدد العيون أو البصاصين الذين زرعهم بين الصيادين، يكفي أن يقول سلوم ذلك ليختفي
ولا يعرف أحد هل سجن أم مات.

والقصة في شكل رسالة يكتبها المؤلف إلى لا أحد، القارئ طبعًا، وإن حملت في بدايتها كلمة سيدي، فنحن لا نعرف أي سيد يخاطبه الكاتب
ولا نريد، رغم أننا يمكن أن نقول ببساطة إنه السيد الذي بيده إعادة سلوم من سجنه، أو اختفائه، أو موته. المهم إننا نحن القراء نفهم محنة سلوم ومحنة القرية، لذلك يغلق الكاتب قوس القصة بعودة سلوم إليه، في الحلم أو الحقيقة ليعترف أنه لا يفهم معنى أن يكون للمخلوقات ثلاثة أبعاد، وإن لوجه سلطان ألف بعد. وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا، فالكاتب في النهاية يقول: إنه ليس لسلوم البدوي وجه ثالث بعد أن أضاء لنا بعديه السابقين، بعد المعرفة وبعد التمرد. القصة حول البراءة الإنسانية، مؤكد، والقصة انتصار لها، مؤكد، لكن من سرد هادئ موجز، وهي كقصة قصيرة مثل أيقونة شديدة الإتقان.. لقد امتلك الكاتب ناصية السرد ولم يعد في حاجة إلى استعراض قدراته اللغوية، صار قادرًا على إبداع عمل جميل فاتن.

وتستطيع أن تقول ذلك على بقية قصص المجموعة التي تتنوع فيها طرق السرد، فتصل إلى حد النشيد أحيانًا في قصة مؤامرة حبس النورس، أو تستطيع أن تقول أنشودة وداع، ويبرز الراوي ليقطع السرد بتعليقات مضيئة كما في قصة سيدة الأحلام، وهو راو متخيل غير الراوي الأصلي، الكاتب، وسيدة الأحلام هي بداية الجزء الثاني من المجموعة، والقصص كلها كتبت عام 1991، أي قبل قصص الجزء الأول، وأنا لا أعرف هل جعل يونس القصص الأقدم في الجزء الثاني ليبدأ القارئ بالقصص الأكثر اكتمالًا، أم لشيء آخر. على أي حال قصص هذا الجزء تبرز نوعًا آخر من قدرة الكاتب أو رغبته في إظهار هذه القوة، فهي قصص حافلة بالعناوين كما في "مساء الحكاية المؤرق" أو بالتقسيمات الكثيرة. إنها قصص مسكونة بالشعر. شعرية الخطاب، وهو أثر من مجموعته الأولى، لكنه أهدأ وأبسط ويظهر في التكوين أو المعمار أكثر مما يظهر في الجملة نفسها، وفي كل الأحوال يونس الأخزمي صوت قوي في القصة القصيرة، يؤكد ما كتبته أول هذه الدراسة من أن بدايات كتاب القصة في عمان بدأت من الاكتمال.

6- الماء باتجاهين:

مجموعة قصص قيد النشر لعلي الصوافي، أول ما يبدهنا فيها هو بساطة السرد، فالقصة الأولى مثلًا "السكنية" هي صور لحياة الأولاد والبنات بين الخضرة أو الجبال، يرويها واحد منهم بروح طفولية عذبة، ومن ثم يتحرك السرد على نفس مستوى البساطة والعذوبة، وتجد احتفاء بالطبيعة، يساوي الاحتفاء بالفرح بأجساد البنات، ورغم غرابة المسميات لبعض الأشجار والأماكن والألعاب بالنسبة للقارئ غير العماني، وكثرتها، فالرسالة تصل بسهولة لأن الغالب هو الاحتفاء الكلي بهذا الفرح الطفولي وذلك السلام الروحي وتلك الصبوات الأولى..

الكاتب ينجح أن يكون السارد الصغير لذلك لا تجد هنا تداخلات عقلية ثقافية. القصة كلها أشبه بالحنين الذي يضفي الهدوء على السرد، وفي النهاية تبدو مثل لوحة فنية لا نتوءات، ولا زيادات بشيء أشبه بلوحات التأثيريين، فللشمس هنا نصيب كبير، يسري منها الدفء إلى أوصالنا في لغة حانية. في القصة الثانية "الفصل" يتسارع السرد، فالولد الصغير التلميذ في حالة من الارتباك وهو يهرول خارجًا من المدرسة ثم يعود إلى الفصل ليعيد الزمزمية التي نسيها، ليكتشف إنه نسي الحقيبة أسفل فيعود للحقيبة، فيقع ويتعثر ويسيل الماء من الزمزمية والدم من وجهه، وينتهي نهاية مأساوية وقد دهسته سيارة عند الباب، لكنها نهاية ليست ميلودرامية فهل الارتباك السابق ينذر بالنهاية، وسواء مات الطفل أم لم يمت فالمهم هنا أن القصة التي تجري وراء حالة الولد تجري بنا في سرد سريع محايد في التكوين الأخير، وتنتهي القصة بسرعة تناسب سرعة ارتباك الولد، وهنا نجد الأفعال الماضية منذ الفقرة الثانية.. بسرعة ركض الولد وضع الولد شد الولد اندفع ركض وصل تجاوز أنزل، كلها أفعال لجمل قصيرة لا يضع فواصل من أي نوع بينها، لا نقطتين ولا فاصلة، ويتكرر فعل الركض أكثر من مرة كالنذير بالنهاية.

في القصة الثالثة يتأكد لنا ما مر. سرد متواتر سريع كالحالة التي عليها الولد. ظهر في القصتين الأولى والثانية، وهو أن الكاتب على الصوافي مبدع ماهر للصور الصغيرة، أو الموتيفات البصرية الصغيرة، التي تكون لنا لوحة كبيرة، هي القصة القصيرة، وتأتي النهايات الكاشفة ليكتمل الإطار الفني، فالنهاية هنا هي مشاركة السارد ملمع الأحذية في شم الإسبراي. ملمع الأحذية الذي

اقترض منه النقود يجد عزاءه في هذا الشم والسارد يشاركه، وليس مهمًّا معرفة السبب، هل يمزح؟ هل هو مثله مرهق؟ المهم إنهما يصنعان لحظة حلوة يتساوى فيها الناس، وعلى نفس المستوى يأتي السرد موجزًا سهلًا.

هنا مع التقدم في القصص نكتشف أننا في منطقة بين قصيدة النثر، حين تجنح إلى القص، وبين القصة حين تميل إلى القصيدة، لكننا لسنا بإزاء ما عرف مؤخرًا بالقصة القصيرة، إنما نحن إزاء قصة تختار لحظة من الزمن وتنثرها أمامنا كأشعة الشمس حين تقع على الأرض. ويظل السرد في المنطقة الهادئة، وتأتي قوته من تتابع الموتيفات ورهافة حس السارد. على هذا النحو يمضي علي الصوافي في قصصه كلها، لكنه في بعض القصص "الماء باتجاهين، المنبه على الطاولة" والأولى أكثر، تظهر العامية العمانية لتحتل مساحة كبيرة، قد تربك القارئ مثلي، لكن لا بأس فالقصة عمانية في النهاية، كما إنه في هاتين القصتين يلجأ إلى حيلة سردية جديدة، إذ يأتي باسم المتكلم بعد الكلام، كأنه لا يريد للسرد أن ينقطع. في القصة الثانية يبدو الأمر طبيعيًّا، فالذي أمامنا ليس حديثًا لكن تقارير في العمل، ثم يعود في قصة "أيام البلدة" ليفسر ما يشير إليه الحوار، أو المتكلم، "هاذول بنات ناس" مثلًا، ثم يتبعها "امرأة بوجه دائري وعباءة ماركة " صالونة "كانت تقف أمام الرفوف الخاصة بالشعيرية والمعجنات"، هو يرسم المكان أيضًا وهكذا، نخلص في النهاية أن الصوافي يستخدم تقنيات حرة علينا أن نتبعها لأنها تساهم في اختصار السرد وهو ما يطمح إليه أي كاتب.

هذه سياحة كنت أتمنى أن تطول، فأتحدث فيها عن محمود الرحبي من جيل يونس الأخزمي وعن سليمان المعمري وهلال البادي من جيل أحدث، لكن الوقت لم يسعفني، وإنما أردت فقط أن أوضح ما سقته في البداية من أن كتّاب القصة والرواية يعرفون طريقهم جيدًا، على قلتهم، ولهم كشوفات حقيقية، يسبقهم شاعر وناثر كبير هو سيف الرحبي الذي يمكن اعتباره بحق رائدًا لكل هذا النثر القوي، والذي حقق مكانته في الكتابة العربية عبر مكابدات معرفية وشخصية وتجربة حافلة.. ثم إن هذه القراءة السردية في النهاية ليست قراءة ناقد متخصص بقدر ما هي دعوة للنقاد أن ينتبهوا لهذا العدد القليل من الكتاب لتتسع مساحتها كما سبق واتسعت في بلدان خليجية عديدة، مثل السعودية والكويت، أو كما سبق واتسعت في أكثر الدول العربية، ولا يجب أن ننتظر حتى يصنع التراكم التاريخي ذلك، لكن على النقاد إنعاش هذا التراكم اختصارًا للتاريخ.

"مقال نشرته عام 2006 بعد زيارتي لعمان لأول مرة - مجلة نزوي إبريل 2006"

متابعة للرواية والقصة العمانية مما كتبته عام 1202 على تويتر:

1- بر الحكمان:

سأحاول في هذا الشهر أن ألوذ بشواطئ بعيدة. سأقرأ بعض روايات من سلطنة عمان. خلال الأيام الثلاثة الماضية انتهيت من قراءة رواية "برّ الحكمان" للكاتب يونس الأخزمي. له من قبل مجموعات قصصية ثلاث ورواية "الصوت". وله من بعد رواية "بدون" و"كهف آدم". بر الحكمان هي الجزء الأول من ثلاثية بحر العرب والثاني هو "غبة حشيش" وحتى لا يذهب فكركم بعيدًا فهو

اسم مكان مياه ضحلة أمام ساحل قرية محوت التي تدور فيها معظم أحداث الجزء الأول. أي لن نبتعد عن بحر العرب والصحراء العمانية خلفه.

بحر العرب إجمالًا هو المنطقة بين "رأس الحد" والحدود اليمنية وما في شمالها من صحراء. تقوم الرواية على فكرة تدركها بعد أن تنتهي منها وتكون عشتها بتفاصيلها الإنسانية الجانحة والخيالية وهي غرق الحلم واليقظة منه من جديد لكن يكون الزمن قد تغير.

الحلم هو السفينة "شانتي" التي صنعها مبخوت كاحسن السفن. من هو مبخوت ومن هي شانتي؟ لتعرف مبخوت ستعرف قرية محوت محور معظم الأحداث وقرى أخرى وتاريخ الصراعات بين الناس حول من يملك الثروة أكثر من التجارة والصيد. مبخوت دائمًا ينتصر بالدهاء أو بالمال أو بالزواج من بنات من هم أقوى. باختصار مبخوت رغم اسمه محسود وعلى هذه الضفة كثير من الأعداء مثل ناجي وجليلة زوجته لكن مبخوت ينجح دائمًا حتى أحب فتاة هندية اسمها "شانتي" وقرر أن يتزوجها وبنى سفينة أعطاها اسمها ليوافق أبوها الهندي كومار غير ما سيعطيه من ذهب وجواهر. ستصل قوته ونفوذه إلى الهند.

تبدأ الرواية بغرق السفينة وحتى نعرف كيف بنى السفينة نمر على الحياة في الساحل الشرقي لبحر العرب في تفاصيلها التاريخية والحاضرة واليومية لشخصياتها من حركة الشخصيات المؤيدة والمحبة لمبخوت أو منافسة له وكما تشق القوارب الطريق في البحار تشق الرواية ورحلاته مع البلاد الأخرى وأنواع الأسماك التي يصطادونها والصراع بينهم وأسماء القوارب ووظائف البحارة وغيرها وهكذا في صور سينمائية تظل في حركة ممتعة بين البحار والقرى. رغم غرابة أسماء القرى أو المدن أو مسميات الناس للأسماك التي لم نعتد على أسمائها في مصر فلا تشعر بصعوبة ورغم أن الكاتب كثيرًا في الحوار ما يمزج بين العامية العمانية والفصحى إلا أنك لا تشعر بغرابة في أي معنى ويبدو كأنك ترى مصريين يتحدثون فلا تشكل العامية لك أي قلق.

رحلة الرواية طويلة رغم أن نهايتها كانت البداية المفجرة للحكي وحين نصل إلى النهاية نجد أن مبخوت سيحاول من جديد القيام من العثرة الكبرى لكن نكتشف أن الزمن قد مر وظهرت سفن بخارية ضخمة يعتبرها أهل البلاد سفن أعداء فهي لا تترك لهم إلا الأسماك التافهة. لقد أخذتنا الرحلة عبر الزمن في القرن الماضي دون أن ندري لصدق الشخصيات وبراعة تتبع مشاعرها والتعبير عنه ويقرر مبخوت أن يترقى ويدخل المغامرة الجديدة ببناء سفينة بخارية عصرية كبيرة لكنه هو الذي عاش يتحدى الزمن بما يفعله، هذه المرة يموت على صدر الفتاة الصغيرة الجديدة التي تزوجها. هي في العقد الثاني وهو عجوز لم يدرك الزمن مؤمن أن شيئين لا يقتنع بإبعادهما عنه هما النساء واللحوم. لقد استعد لليلة زفافه أكثر من شهر بتناول كل الأطعمة والمشروبات واللحوم والأسماك والنباتات المقوية للطاقة الجنسية لكنه مات بمجرد ميله على بطن زوجته الجديدة وبين ساقيها قبل أن يفعل أي شيء. بهذا سينفسح الطريق لابنه سليّم الذي لم يكن مبخوت عثرة في طريقه لكن سليم كان يرى أن العالم لا يجب أن يكون من صنع شخص واحد ولا ملك شخص واحد. كيف يتغير العالم أسرع ممن يعيشون هناك بين الطبيعة وصراعاتهم تجسد أمامك في الرواية بمتعة الحكي البسيط الذي رغم طول الرواية – 450- صفحة تشعر أن اتساعها

طبيعي جدًّا مع انفجار الرواية بالواقع والحال وتاريخ المكان الروحي بدءًا من حادثة غرق السفينة شانتي أمل مبخوت الكبير حتى موته قبل بناء سفينة عصرية جديدة..

2- حيتان شريفة:

نعود إلى الراحة على أرض وشواطئ عُمان مع رواية أخرى بعد ما قرات "بر الحكمان" للدكتور يونس الأخزمي. هذه المرة هي رواية محمد بن سيف الرحبي "حيتان شريفة" ولمحمد أكثر من عشرة أعمال. روايات "سيرة أبو زيد العماني" و"السيد مرّ من هنا" وقصص، مثل "وقال الحاوي" و"أنواع" وسيرة مكان مثل "بوح سلمى" وسيرة روحية مثل "بوح الأربعين" وغيرها.

محمد بن سيف الرحبي دائمًا مغرم بالتجريب في البناء واللغة دون تعقيد وأول ما يظهر في هذه الرواية هو فصلها الأول، حيث الكاتب الذي ينوي أن يكتب رواية عن الفساد يقابله بالمقهى شخص مجهول قرأ نيته وأفكاره يسأله كيف سيكتب عن وزير وفساده. ويتحدث هو معه كأن هذا طبيعي يفرق له بين الخيال والواقع وأن مسعود الحوت الوزير الذي سيكون في الرواية ليس وزيرًا بعينه، بل شخصية فنية. تكتمل الدهشة في الفصل الأخير حين يستدعيه الوزير الذي أقاله من العمل لمعرفته أنه سيكتب رواية عن الفساد وفوجئ به يشير إلى شخصيات الرواية مسعود الفاسد الذي كان وزيرًا جالسًا ومعه أخوه صالح رجل الأعمال الفاسد ويخبره لولا أن منصور في السجن لأحضره أيضًا. بين الفصل الأول والأخير يقطع محمد بن سيف الرحبي السرد بفصلين أو ثلاثة عن نفس الموضوع وأيضًا بزوجة الكاتب التي تدرك ما يكتب وتحدثه عن عشقه لشريفة أهم أبطال الرواية وغيرها.

الرواية رحلة عذاب جميلة لكاتب يقرأون أفكاره لكن حول ذلك تتداعى فصول الرواية المذهلة في وادي سمائل. فالحيتان هنا هم الفاسدون، وهم أبناء السيدة شريفة التي لا تعرف هل هي جنية أم إنسية وكيف تزوجت رجلًا هو ماهل بن الحوت ومنه حصل أبناؤه على اللقب الذي صار حقيقة. الزوج نفسه لا يعرف أحد أصله فهو ابن الطبيعة وغرائبها وحين يغيب ويسألونها أين يغيب زوجك يا شريفة؟ تقول في أرض الله الواسعة، ويخبرها الجني في كل غياب بالبلاد العجيبة التي يرتحل إليها ويعود. أبناؤه ثلاثة مسعود وهو الأكبر ومنصور وصالح وأُجهضت بعد ذلك في كل مرة فكأنما كُتب عليها ألّا تنجب إلا الثلاثة صناع الدراما في الرواية. طبعًا هذا كلامي وليس كلام محمد بن سيف الرحبي. كأنها الدنيا. مسعود يسلك طريق السياسة فيصبح وزيرًا ويظهر جشعه وفساده وقدرته على شراء منتقديه من الصحفيين بالهدايا وبعد إبعاده من منصبه يصبح لا حيلة ومنصور يسلك طريق النصب المالي فيكون شركة للاستثمار يستولي على أموال المساهمين. حاجة كدا زي شركات توظيف الأموال ويسجن أكثر من مرة. وصالح أيضًا يستثمر في بلده وخارجها. كذلك صالح يخسر زوجته الثانية التي تعرف عليها في ملهى ليلي في البحرين وتتركه آخذة معها ابنهما كريم وكل شيء.

كل شيء في الرواية مُفعم بالسحر وللماء أحاديث تفهمها شريفة وتتحدث عنها والواقع الذي رغم أنه موضوعها إلا أنه لا يأخذ المساحة الأكبر ولا يتم الاتكاء عليه إلا حين يعود الكاتب يتحدث عن الرواية وخوفه مما يكتبه أو تخويفه وإن كان قليلًا. وهكذا يبدو الموضوع الذي قد يغري الكتاب

وهو الفساد ثانويًّا رغم أنه الأساسي وهذه والله براعة يا محمد يا جميل. تتعدد لغات السرد فحين يتحدث الراوي عن نفسه نحن أمام ضمير المتكلم وحين يتحدث عن غيره وهو الأكثر طبعًا فنحن أمام ضمير الغائب وحين يواجه أي شخص نفسه فنحن أمام ضمير المُخاطب وإن كان قليلًا فالحركة والأحداث توضح أكثر والشعور بالخطأ أو الخطيئة ليس قويًّا عند المخطئين. الكاتب يبدو شاعرًا بثقل ذنب الكتابة ويجعلها حالة وجودية ليست للنشر أو الشهرة كما يتهمونه ويستعير قصيدة جميلة للشاعر المصري فتحي عبد السميع وهو بالمناسبة من الصعيد وباحث جميل توحي بأنهم الأبطال هم الذين عادوا به كسمكة وحيدة إلى بيوتهم في المساء والسؤال الغائب كيف لا يكتب وهم يفعلون به ذلك.

طبعًا هناك إشارة لبعض التوترات والأصوات التي ارتفعت بعد 2011 منددة بالفساد لكنها خافتة قياسًا على الرواية وتاريخها الممتد لنصف قرن تقريبًا قبل ذلك، وهو يتأنى في تاريخ شريفة وزوجها ماهل الحوت ولا يمكن القول إن الرواية بنت الربيع العربي فالأصوات التي ارتفعت تندد بالفساد لا تتجسد إلا في أخبار لكنه الزمن انطبق في النهاية بين الرواية وما حولها. أي أنه الفن. أين كان يمكن أن يذهب وقد وصل الزمن بأبطاله إلى 2011. ورغم أنه في النهاية كتب الرواية وأرسلها إلى دار نشر لتعرضها على الرقابة وتنشرها لكنه يتساءل هل ثمة أمل حقًّا؟ طبعًا الواضح عن النشر والموافقة عليها لكنه الأمل في انتهاء الحيتان حتى لو كانو أبناء شريفة الشريفة رغم الشكوك في أنها قاتلة غريمتها الزوجة الأخرى لماهل الحوت. وإلى لقاء في رواية أخرى من عُمان وهم أحرار فيما يكتبون لكني أريد الفوز بشيء من الفضاء الجميل.

3- جبرين وشاء الهوى

لا زلت أبحر في بحار عمان وأرسو في شوائطها. هذه المرة في رواية "جبرين وشاء الهوى" لسعيد محمد السيابي. هذه أول رواية له، لكنها ليست أول أعماله الفنية، فهو دكتور في المسرح والثقافة الشعبية وكتب مسلسلات درامية لإذاعة وتليفزيون عمان وله مجموعتان قصصيتان هما "رغيف أسود" و"أحلام الإشارة الضوئية" كما له دراسات أدبية عديدة. أهمية هذه المقدمة أن إنتاجه الإذاعي أكثر مما قد يشي أني سأجد أثرًا له في هذه الرواية. وأعني بالأثر الحوار والتلاعب بالزمن. إلا إني وجدت النص الروائي مخلصًا جدًّا لفن الرواية. السرد. فالحوار قليل جدًّا. جُمل متناثرة بين المونولوجات الطويلة. كما أنه ونحن أمام بطلين رئيسيين للعمل جعل الرواية قسمة بينهما، فصل لكل منهما.

المعتاد أن يتحدث أحدهما نصف الرواية ثم يقابله الآخر بالنصف الثاني. لكن هنا الأمر اختلف وربما نجد هنا أثر السيناريو. لكن الصورة الفنية التي تجنح كثيرًا إلى الشعرية تجعلنا نرى السرد الروائي أكثر وتبدو طبيعية. ما يحرك البطلين هو الحب المفتقد الذي اشتعل فجأة بعد أن تجاوز كل منهما الأربعين من عمره. البطل تزوج لكن فقد زوجته منذ خمسة عشر عامًا. البطلة لم تتزوج فحياتها كانت ملك أبيها الذي رفض ذلك دائمًا. في السرد عودة إلى حياة كل منهما مع عائلته من الجد إلى الأعمام إلى الأم إلى الإخوة بسرعة كبيرة وبعبارات موجزة. هو من عمان وهي من زنجبار العمانية طبعًا يجمعهما سفرة لها إلى عمان مع أبيها وأخيها أما هو فهو حارس لقصر جبرين الذي يرفض أن يسميه بالحصن وهو أثر تاريخي عريق. القصر يأتي بالسعادة والحصن قد

يشي بالرعب وهو اختار السعادة. رآها مرة في زيارة للقصر وهي رأته والأمل لديه كبير جدًّا أن تكون هي زوجته لكن السرد الشعري يجعلهما أقرب إلى الخيال ويجعل حياتهما هي الواقع. كل فصل بضمير المتكلم لكل منهما ويتقابلان. لكن لا لقاء يتم كاملًا. هناك دائمًا نحس يجعلك تضحك أحيانًا، فإما أن يموت جده أو تحدث عطلة بالعمل أو يموت والدها بعد أن أسرّ لها برغبته في الزواج منها فتترك عمان عائدة إلى زنجبار.

كل نحس سابق عابر لكن موت والدها نهائي. المهم أن اللقاء لا يكون إلا مثل نسمة وسط شوق عارم. حين يموت أبوها وتسافر إلى زنجبار موطنها الأصلي يسافر وراءها لا يعرف مكانها، وكما كانت تبدو له كطيف دائمًا تظهر له كطيف ولا يقابلها أبدًا. يراها بعيدًا في المطار ولا يصل إليها ولا نعرف إلى أين تذهب وهل ستكتمل القصة أم لا؟ الأغلب إنهما إذا التقيا بعد الرواية سيفترقان! لن يفارقا منطقة الهوى! رغم أن هذا الطيف من قبل جاء منه سائق تاكسي برسالة ورغم أنها عرفت بذهابه إليها في المستشفى ورغم أنه رآها وتاهت منه فيها لكن يبدو الأمر كله حلمًا ممتدًّا.

ما الذي يحرك الرواية ؟ الهوى. ورغم أن القصر كان يمكن أن يبتلعهما أو يضمهما إلا أنهما دائمًا ما يخرجان منه. يتأنى في الحديث لها عن نشأة القصر وسحره والإمام الحاكم الذي بناه وصراع أخيه معه وموته بشكل يجسد المكان ويجعله أقرب إلى الخيال الجميل تمامًا كبحثه عنها أو رؤيته لها كنهاية للعالم القديم ورؤيتها له كنهاية لتعاستها. لغة الرواية الساحرة تجعلك تمشي مع الهوى وأمل الروحين اللتين حاصرتهما ظروف كثيرة من تاريخ العائلتين، وفي حديث كل منهما عن حياته عشرات العبر والخلاصات الإنسانية تتناثر ولا تشكل عبئًا فنيًّا على القارئ رغم ما تشي به من أفكار. لماذا؟ لأنها تتدافع موجَزة. يحدث أن تتلاقى الشخصيتان بضمير المتكلم في فصل دون فواصل فأدركت أن الروحين صارتا روحًا واحدة لكنها خدعة فنية فينفصلان في الحديث من جديد كنذير للنهاية. هل هي القلعة التي جذبت البطلة لتكون مثلها سحرًا أم هي الروح التي اشتاقت للهوى بعد سنوات من الوحدة أم هو الحارس القديم أسير المكان
لا يرى شيئًا بعيدًا عنه. لا يختلف الأمر. وسنمضي مع عمان وسحرتها من الكتاب ومع شخصياتها المسحورة في أعمال قادمة.

4- الذي لا يحب جمال عبد الناصر

لا زلت مع عُمان الجميلة وقد اقترب يونيو من الانتهاء. ستظل معي البحار والسفن والكهوف والجبال والأسواق والأهم بالنسبة لي هو ما سيظل معي من قدرات رائعة على تجديد الشكل الأدبي والمغامرة فيه. هنا مغامرة شائقة للغاية في رواية سليمان المعمري. سليمان المعمري مثل كل العمانيين يتلفع بالصمت رغم أنه يعمل في الإذاعة العمانية ويقدم برنامجًا جميلًا وأكبر مكتشف للانتحالات والسرقات الأدبية بين الكتاب. سليمان له أكثر من مجموعة قصصية؛ الأولى كانت عام 2000 وهي "ربما لأنه رجل مهزوم" ثم الثانية "الأشياء أقرب مما تبدو في المرآة" التي قرأتها وقتها عام 2005 والتي فازت في مصر بجائزة يوسف إدريس من المجلس الأعلى للثقافة وغيرها من الكتب. هذه الرواية "الذي لا يحب جمال عبد الناصر" تبدأ مع الربيع العربي وثورة يناير في مصر.

تعود الثورة وتعود الحياة العربية كلها قبل وبعد الثورة في "ميدان التحرير" الذي هو هنا صالة التحرير في الجريدة المسائية في عمان. هكذا أسموها مجموعة الصحفيين الذين سيشكلون شخصيات الرواية.. المصري بسيوني سلطان الذي لا يحب جمال عبد الناصر والذي فجرت شخصيته والتي تندهش من اختيار سليمان المعمري لهذا الموضوع لكن حين تقرأ لا تشعر بأي غرابة من صدق الشخصيات وجهد المؤلف فتحتويك الرواية.

بداية فانتازية إذ يصحو جمال عبد الناصر من قبره ويريد أن يخرج إلى الدنيا لكن الحارس يقول له لقد سمحنا لك مرة أن تخرج وتقابل الشيخ متولي الشعراوي ولن نسمح لك بالخروج من جديد. الخروج من أجل لقاء من يكرهك والتصافي معه يمكن. يشفق على عبد الناصر ويختار له واحدًا يكرهه هو بسيوني سلطان المصري الذي يعمل في الجريدة في عمان والذي يبلغ من العمر سبعين سنة ومضت عليه خمس وثلاثون سنة هناك في العمل بالجريدة.

يتسلل عبد الناصر ويركب الطائرة ويصل إلى مسقط ثم بيت بسيوني سلطان فيدق الباب ليخرج بسيوني وما إن يراه حتى يغمى عليه وتبدأ الرواية العجيبة. بعد الفصل الأول الذي بصيغة الراوي العليم تبدأ الفصول بضمير المتكلم لكل من شخصياتها فيكون الفصل الثاني لجار النبي بسيوني سلطان أي ابنه ونعرف منه كيف صوّت أبوه في الانتخابات لمرسي وكيف منعه عن صديقه الذي صوت لحمدين صباحي وحتى عن حبيبته ثم تتداعى الفصول كل منهم يحكي حكايته في الجريدة مع بسيوني سلطان.

رئيس القسم الديني ثم التونسي عبد المجيد والسوداني ورئيس القسم الثقافي سالم الخنصوري الذي كان من أكثر المختلفين معه بسبب تدخله في المقالات والأفكار ورئيس التحرير يحكي خلافه معه وتحمله وأحداث خاصة مثل ضربه لابنه وهو يعطيه درسًا، وكان السبب أن ابنه سأله ليش انتم يا مصريين تحبون جمال عبد الناصر. وخلال ذلك نعرف أن رئيس التحرير متزوج سرًّا على زوجته وغير ذلك كثير كما نعرف أسرار الآخرين وحياتهم من خلال خلافهم مع بسيوني سلطان حول عبد الناصر الذي جعلوه كثيرًا مادة لاستفزازه.

الحديث طويل عن كل منهم منفردًا فمن الصعب الاختصار بسبب الدقة المدهشة لسليمان المعمري في السرد أو الحوار. ويستمر الأمر مع زينب رئيسة القسم الاقتصادي التي من خلال حديثها عنه وعرضه الزواج منها تحكي كيف تزوجت وكان زوجها إباضيًّا وهي شيعية وكيف سُجن باتهام الانتماء لتنظيم يريد إعادة الإمامة وكان أبوها قد سجن من قبل بنفس التهمة وكيف مات بعد خروجه وكيف عرض عليها بسيوني سلطان زواج المتعة باعتبارها شيعية بينما هو سني ورفضت طبعًا حبًّا لزوجها ويحكي لها بسيوني تفاصيل كرهه لعبد الناصر فهو من عائلة الفقي التي صادروا أراضيها في كمشيش. ويحكي لزينب عن تفاصيل ما جرى في كمشيش وصلاح حسين الذي صار بطلًا على حسابهم وموقف عبد الحكيم عامر ضد أسرته والنكسة التي أسماها ناصر ومن معه من المنافقين وكسة.

وحديث آخر لرئيس قسم المحليات في الوقت الذي يدور فيه الحديث عن مظاهرات الشباب العماني في فبراير 2011 واحتشادهم في الساحة الشعبية وكيف خطب بسيوني سلطان في الساحة الشعبية

بين المتظاهرين متحدثًا ضد عبد الناصر وما فعله في مصر وموقفه من عمان في زنجبار إذ كان ضد عمان مما أدى إلى خروج العمانيين ويصفقون له. ونستمر مع المصحح التونسي عبد المجيد الذي يصف لهم الوصفات الجنسية وأحاديث شيقة عن الجنس في التاريخ العربي، وحديث زوجة رئيس التحرير عضو اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان في عمان عن بسيوني، وكيف عرفت بزواج زوجها من أخرى ثم المترجم المصري صديق جار النبي ابن بسيوني الذي لا يزال في المستشفى بعد أن ظهر له عبد الناصر وكيف يرى بسيوني اللغة الإنجليزية لغة كفار، وكيف انتهى الأمر أنهم أسموه "بسيوني سيفون" لأن سيرة عبد الناصر كانت مثل السيفون تفتح المياه بالغضب.

المهم أنك في كل القضايا ترى بسيوني سلطان من خلالهم فهو لا يزال في المستشفى في غيبوبة لم يفق منها بسبب ظهور عبد الناصر له. تراه لديه مبررات كراهية عبد الناصر وعبر ذلك تتناثر قضايا الأدب والصحافة في عمان من رقابة وغيرها والأهم هو أن الحوار يتحول أحيانًا إلى تونسي وسوداني ومصري وبالعامية الخاصة بكل بلد إلى جانب العمانية، وتقرأ ذلك فتشعر بصدق فني كبير يدخلك قلب الأحداث وترى المعلومات الثرية عن الثورات والأدب والفلسفة وتاريخ البلاد التي تمثلها الشخصيات متناثرة بسهولة رائعة مما يعني دراسة عميقة للمؤلف سليمان المعمري. دراسة دقيقة مدهشة. أحيانًا تضحك وأحيانًا تندهش فكأنما أنت في مسرحية أمامك رغم السرد الذي يسرده كل منهم بلغته ومشاعره في كل فصل.

ثم يظهر الراوي العليم في النهاية في صفحة واحدة يستيقظ فيها عبد الناصر من ضريحه بكوبري القبة بعد ستة آلاف سنة ربما لبداية رواية جديدة. وبالمناسبة لا يستيقظ بسيوني سلطان من إغمائه.

5- "حديقة السهو" لمحمود الرحبي

والآن مع الكاتب محمود الرحبي. ومحمود كاتب قصة قصيرة بامتياز وله روايات جميلة وأن أقل من مجموعاته القصصية أربع روايات منها "درب المسحور" و"أوراق الغريب"، ومن قصصه ست مجموعات أعاد نشرها في مجلد واحد بعد نشرها من قبل وعبر سنوات مجموعات منفصلة. وبعد جمع الست مجموعات في كتاب. أصدر مجموعة قصصية أيضًا "صرخة مونش".

فاز بجائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب في دورتها الأولى عام 2012 عن مجموعته القصصية "ساعة زوال"، وقبلها جائزة أفضل إصدار قصصي في معرض مسقط للكتاب عام 2008 عن مجموعته "لماذا لا تمزح معي؟" وجائزة دبيّ الثقافية عن مجموعته "أرجوحة فوق زمنين" عام 2009.

هنا حديث عن الكتاب الذي يضم ست مجموعات قصصية بعنوان "حديقة السهو". أول ما يلفت انتباهنا هو العنوان، فهو ليس عنوانًا لإحدى مجموعاته الست ولا قصة منها لكنه إجلال وتعظيم للسهو. سهو الكاتب لا يعني المعنى الدارج للسهو ولا الاعتذار عنه، لكن يعني الانشغال بالخيال عما حوله ونسيانه. رتب المجموعات ترتيبًا عكسيًّا فجعل أحدث المجموعات "مرعى النجوم" التي صدرت 2015 هي البداية ثم "ساعة زوال" الصادرة عام 2011 ثم "أرجوحة فوق زمنين" الصادرة عام 2009 ثم "لماذا لا تمزح معي؟" الصادرة 2008 ثم "بركة النسيان " الصادرة

2006 حتى انتهى إلى أول مجموعة له وهي "اللون البني" التي صدرت عام 1988. هي النهاية كأنك تعود معه شيئًا فشيئًا إلى كيف كان يستقبل الدنيا ويعبر عنها. حين تصل إلى النهاية تجد نفسك مُرغمًا على المقارنة بين البدايات والنهايات فتجد أن قصصه الأولى في أكثرها كانت أقل عددًا في الصفحات قد تراها تقوم على الحبكة العادية لكن نهاياتها في معظمها مفتوحة وليست تقليدية وهذه سمة دائمة معه. الحدث الواحد محورها ولا تخرج منه أحداث أخرى، وهذا يستمر أيضًا لكن يقل مع التقدم في الزمن.

فمثلًا في قصة مثل الحذاء من مجموعته الأولى التي هي آخر الكتاب. شخص حذاؤه ممزق يفكر أن يستعير حذاءً من أصدقائه. يمر عليهم واحدًا واحدًا يعتذرون إما لخروجهم أو لاختلاف مقاسات أقدامهم. يتركهم ويرى في الطريق إسكافيًّا عجوزًا فيقف يسأله أن يعيره حذاء من عنده لأن لديه موعدًا مع خطيبته. لاحظ ذلك. لقد أخفى الكاتب السبب الذي من أجله يريد الشخص حذاء سليمًا. قبل أن يجيبه الإسكافي يجد خطيبته تقف وراءه. لا يقول خطيبته. يقول: "تلفت ورائي فإذا بشعر يشبه شعرها وعينين تشبهان عينيها تنظران إليّ".

تنتهي القصة ويترك لك الكاتب أن تفكر هل هي خطيبته أم هي تجسيد لقلقه يعيدك إلى البداية. وهذا ما أعني بالنهاية المفتوحة. هو يعرف مبكرًا جدًّا أنه
لا يكتب قصة تقليدية يرى فيها خطيبته وراءه. وهكذا مع تذكرك لما قرأت تجد كيف كانت القصص تدور حول مركزية اتسعت لتشمل حكايات تقفز مع كل الشخصيات. والأهم هو الخيال الذي اتسع حتى صارت القصص كأنما هي حكايات أسطورية. المسافة بين عامي 1988 و2015 كبيرة. أكثر من ربع قرن. اتسعت فيها الرؤية للعالم ولم تتخلَّ عن حيرة الإنسان وضعفه لكنها جعلته عالمًا أرحب. فكثيرًا ما نجد حديثًا سريعًا عن تاريخ الشخصية، لكنه حديث متناثر وليس على الطريقة الساذجة من التقديم.

أشياء في القصة قد تستدعي شيئًا من حياة البطل. ولأن القصص في معظمها بين البحر والصيد والأسواق وحتى السجن والجبال فمساحة الخيال تتسع للأشياء والحيوانات وللشخصيات الخيالية من النساء والرجال واللقاء حتى مع ملك أو إمبراطور مثل شاه إيران. وهكذا في كل قصة نجد أن هناك الباب لم ينغلق. إذن كيف انتهت القصة. انتهى الحدث أو الشوق أو الحنين أو الذكريات. حتى لو وجدت قصصًا من صفحتين أو أقل في قصصه الأحدث تجد أنها تقوم على رؤية أو خيال أو حدث لا يمكن حدوثه. ولن تجد قصصًا قصيرة تبدو كأنها خاطرة أو لحظة تأمل. تتسع القصص بالرؤى والخيال الأسطوري. "زوايا القمر على كمراز"، "رحلة الشيخ"، "في مديح الضجر"، "ساعة زوال"، "ليلة في السجن" وغيرها.

قدرة الكاتب رائعة أن يجعل الخيال متسقًا مع الشخصية فطفل صغير يتخيل بلغة غير الكبار وامرأة غير الرجال وهكذا يبدو دائمًا محمود الرحبي في حديقة مع من صار السهو معهم وليس عنهم لا يفصله عنهم إلا قصة أخرى. قد تشعر أحيانًا بالحكي أكثر لكن مع التدقيق ترى الحكي الذي يبدو سهلًا مليئًا بالخيال. صارت البساطة طريقته في الحكي لتحمل صورًا جميلة للبشر في كل أفراحهم وأتراحهم. في يقظتهم والأحلام. وسنستمر في عمان.

6- غبة حشيش:

لا زلت بين عجائب عمان فبعد "بر الحكمان " الجزء الأول من ثلاثية بحر العرب للكاتب الجميل يونس الأخزمي أعود إلى الجزء الثاني "غبَّة حشيش". لماذا أخرت القراءة والحديث؟ حتى أختم به أحاديثي عن الروايات التي أتيح لي قراءتها هذا الشهر من ناحية، ولأني أعرف أنه جزء خاص بالمكان أكثر مما هو بالشخوص نفسها. انتقلنا هنا إلى مكان آخر حقًّا لكنه أيضًا على بحر العرب. أعني به غبَّة حشيش التي هي منطقة المياه الضحلة أمام قرية "محوت ". هنا قرية "خلوف" المختلفة عن القرية السابقة "محوت ". يستيقظ الشيخ إمام القرية مرشد ابن مسلم الساعدي على كابوس يذكره بأفعال قديمة لا تزال تطارده وتستيقظ القرية ونكتشف أننا أمام حدث كبير إذ ظهرت على شاطئها جثة "ساعد بن مكتوم الجنيبي" الذي كان يصطاد في مركبه في البحر مع ابنه "غيث".

تكون الحادثة مدخلًا أسطوريًّا للحكايات ومنها حكاية الولد الذي حمله الموج إليهم ولم يعرف أحد لغته ولا حديثه. نكتشف أن الذي قتل ساعد هو اشتباك شباكه التي يستخدمها بجرافة ضخمة جذبته إلى الماء وغرق. نسترجع فورًا نهاية الجزء الأول عن قرية محوت حين أراد مبخوت عمل سفينة عظيمة بدلًا من التي غرقت لكن ظهرت السفن البخارية العصرية الضخمة، الجرافات وسبقت الجميع. في العزاء لثلاثة أيام تتداعى الآراء بالانتقام وضرورته فهذه سفن كفار مثل كفار قريش وكيف يكون الانتقام بينما رأى الوالي أن الخطأ في ساعد الذي اقترب من السفينة والبحر كبير. نقاش ملتهب حول البحر. هم يريدون من الوالي أن يأمر السفن ألا تقترب من شواطئهم فهم يعيشون عليها وهي حقهم والوالي يرى أن البحر للجميع فعليهم الحذر. وفي النهاية حين يقول لهم الإمام مرشد بن مسلم الذي بدأت به الرواية أن الحل هو العودة إلى الله في حياتهم لا يعترضون لكن يقولون إن ساعد الذي غرق كان من أكثر الناس إيمانًا ومعرفة بواجبات المسلم أمام الله.

وبين النقاش وبعده خلال ثلاثة أيام العزاء تتجلى براعة الكاتب في حيوية الشخصيات في نقاشها وأفكارها ومنهم من لا يريد أن يغير رأيه ومنهم من مع الوالي ومنهم الذي يرضي الجميع وهكذا، والمهم أننا من النقاش والحكايات نعيش واقع المكان الأسطوري وماضيه، بحره وفضائه وطيوره وأسماكه وكل الشخصيات الرئيسية وكيف صارت السفن العصرية كابوسًا على تاريخ المكان وأهله البسطاء. لا ينسى الكاتب وسط زخم الحزن على ساعد في لفتة فنية باهرة أن يجعل شخصًا مثل "غانم" يقتنص الفرصة حيث تتجمع النساء باكيات ليلمح بين وجوههن وجه "مزيونة بنت غيث بن ساعد" وهي تبكي وقد غفلت عن ارتداء برقعها.

بين عودة لتاريخ القرية "خلوف" وكيف اعتمرت بالسكان وخراب ما حولها واللجوء إليها ومن اللاجئين الإمام مرشد بن مسلم الذي قتل ابن عمه في معركة وبعدها قتل ابن عمه الآخر طفليه وزوجته التي كانت حاملًا ولاذ هو بالقرية
ولا يعرف أحد سره إلا اثنان هما "خيرة" شيخ القرية و"ساعد" وهذا سر كوابيسه.

وحين حاول مكتوم وسالم قبل سنين بناء مصنع للسفن والقوارب ما لبثت الريح أن قامت والأمطار سبعة أيام ودمرت كل شيء، وعاد الناس للقوراب الصغيرة فالأرض ملعونة مثل ثمود، قالوا لأن

امرأة خانت زوجها فغضب الله، والراعي العجيب "صبيّح" الذي يدور صارخًا أنها أرضه وأرض آبائه وأجداده وعليهم أن يخرجوا منها فلن يفلتوا من اللعنة. تظهر لعنة ظهور الجرافات على الصيد والأسماك وعدم قدرة "غيث" على الانتقام لأبيه "ساعد" في الوقت الذي تتحدث زوجته صالحة برغبتها في تزويج مزيونة وحديث طويل عن ذلك ومزيونة تزداد جمالًا كل يوم هي التي تجاوزت السابعة عشرة وتميل إلى "ذياب" المختفي والذي كان قد اتفق مع "غيث" والد مزيونة الثأر لساعد قبل أي فرح.

تمضي الرواية بين مصنع جديد سيتم بناؤه للأسماك في القرية من قبل الشيخ طارق الذي استعان بأجانب في بنائه وبين موت "خيرة" شيخ القرية وأخو ساعد وأبو ذياب. حين مات كان ذياب ابنه ينتظر أن يتولى المشيخة بدلًا منه لكن الأصوات ذهبت إلى غيث فغضب ذياب واختفى بعد أن حاول مرة حرق الجرافة بأن أشعل النار في قاربه ودفعه إليها لكن جدار الجرافة لم يتأثر وبدأت الأساطير حول اختفائه في الصحراء والمدن التي ظهر فيها تتوالى، بينما كانت مزيونة في حزن عليه ونعرف من أحبها من بعيد قبله في الوقت الذ ي يزداد التباعد بين أهل القرية وبين الوالي ويبدأ ظهور الحكومة في مسائل مثل إحصاء الأسماك وبداية بناء المصنع.

باختصار يبدو التقدم مهاجمًا لهم وهم غارقون في الأساطير الجميلة
ولا مانع أن تأتي سيرة قرية مبخوت، شيخها مبخوت الحكماني الذي أغرق في غمضة عين خيرة شبابها حين أقنعهم بركوب غنجته – سفينته- الضخمة في بحر العرب وهو ما ذُكر من قبل في الجزء السابق وكان سببًا في غضب القرية منه وكيف أقسموا على ذبحه. ويستمر التقدم بين عالم جديد وعالم زائل.

تتقدم الرواية في التغير الذي يطرأ على القرية وبينما يرفض الناس قيام مصنع للسمك إلا أن الوالي ينفذ ويصفهم بأنهم يحبون التخلف وينصاعون ويصبح لشيخ القرية "غيث" راتب شهري وتظهر السيارات اللاند كروز والعمال الأجانب ويبدأ الأطفال يتعلمون منهم تدخين السجاير ويبدأ الحديث عن شربهم الخمر ويكتشف إمام القرية مرشد بن مسلم أن طارق صاحب المصنع في غرفته خمور ولا يتحمل الناس الأمر فيقرر إمام القرية تركها.

نكتشف أن حضوره لم يكن لقتله ابن عمه لكن لأنه خان قبيلته في صراعها مع القبيلة الأخرى وغير اسمه بعد أن جاء هنا ويشعر أنهم عرفوا مكانه فيقرر الاختفاء بعيدًا في البلاد في الوقت الذي لا يظهر فيه ذياب ويقرر غانم المتزوج الزواج بمزيونة - هو الذي نظر إليها في البداية بين النحيب في جنازة ساعد والد أبيها غيث - لتنجب له الذكور، والحديث مستمر عن ذياب الذي يؤخر غيابه زواج مزيونة ويتم بناء المصنع. تتدافع الرواية بسرعة مدهشة إلى النهاية فيتم بناء مدرسة ويتم التغير في الحياة وتدخل البنات المدرسة والولاد ويأتي مدرس مصري يحدثهم عن بطولاته في حرب أكتوبر وكيف كان يضع القنابل في طريق الدبابات الإسرائيلية ويأسر جنودها ويكاد غيث شيخ القرية يطلب منه صنع قنابل مثلها لكنه يتراجع وسندرك معنى ذلك في النهاية حين يتوالى تفجير الجرافات كأنه انتقام الله مما جرى لساعد والد غيث كما يقولون.

يكفي أن تعرف كيف أنهم أبناء بيئتهم الجافة حين يعرفون لأول مرة ما هي السلاطة والبامية وغيرها من المدرس المصري. بين ذلك يعود ذياب فيجد مزيونة في انتظاره ويتزوجها وتحمل منه ونكتشف فجأة مقتل غيث بخنجر في بطنه على الشاطئ فيدرك الجميع أن من وراء ذلك هم أصحاب الجرافات وقد يكون الوالي الذي يأتي بعد كل حادثة وتأتي الجنود ويفتشون القرية ولا يصلون إلى شيء وهنا يكشف ذياب الذي كان غائبًا عنهم أن الذي فعل كل ذلك كان غيث بن ساعد ويثني عليه كل ثناء، وهكذا كان غضبه من توليه المشيخة عوضًا عنه وهمًا ليختفي ويقدم لغيث كل ما يريده من محروقات لمهاجمة الجرافات
ولا يراهما أحد. غيث بن ساعد وأبو مزيونة هو من فجر الجرافات التي تعتدي على مياههم وتأخذ أسماكها انتقامًا لأبيه وفجر المصنع. هكذا ندرك كيف كان يوافق على تأخير زواج ابنته حتى يعود ذياب. البنات لا يتأخر زواجها في الصحراء. ويفجر ابنه صقر أخو مزيونة قصر طارق صاحب المصنع ويتم القبض عليه إذ لا يخفي ذلك، بل يعلنه متفاخرًا. العادات البدوية وراء هذا الفخر. يمكن طبعًا. لكنهم أيضًا سيبنون المصنع هم وليس أحد غريب وسيطورون من لنجاتهم أو لنشاتهم لينافسوا الجرافات. وانتقموا لساعد.

وبين أربعمائة صفحة حديث مذهل كالعادة عن الطبيعة والبحر والأسماك بحث ترى كل شيء أمامك وتنتهي الرواية بعد رحلة رائعة مع البشر كما خلقهم الله وكونتهم البيئة وبين الطبيعة والبحر بكل سحره بحيث تعجز عن إحصاء مفرداتها العجيبة. الرواية قرية بين زمنين وكان الانتقام لساعد معلنًا أو مكتومًا محركًا للقديم فيها بكل تجلياته فحملنا الكاتب في رحلة مدهشة بين المكان والناس.

أحلام طائر الفينيق

انتهى شهر يونيو الذي خصصته لقراءة أعمال أدبية من عمان. ولحسن الحظ كنت كتبت هذا المقال قبل ما تعرضت إليه من خلع لكتفي الأيمن وفي نيتي أن أختم به الشهر بعد ما قدمت من قراءة لبعض الروايات العُمانية وكتابها الكبار وها أنذا أنشره. وجدت من المناسب أن أعرض كتابًا صغيرًا لكنه هام جدًّا عنوانه "أحلام طائر الفينيق – مقاربة بين مدينتين" من إعداد وتحرير الكاتب الصحفي الخطاب المزروعي. الكتاب عبارة عن مقالات ودراسات عن مدينتي صور اللبنانية وصور العُمانية. صور العمانية تقريبًا جاء ذكرها في كل ما عرضت من روايات وقصص "بر الحكمان" و"غبة حشيش" ليونس الأخزمي، و"جبرين- وشاء الهوى" لسعيد السيابي، و"الذي لا يحب جمال عبد الناصر" لسليمان المعمري، و"حيتان شريفة" لسيف بن محمد الرحبي وقصص "غلاف حديقة السهو" لمحمود الرحبي وتقريبًا في كل ما قرأت من قبل من قصص وروايات عمانية وما سأقرأ.. الدراسات للكتاب الدكتور حسن دياب والدكتورة ناريمان محمد فتح الله عساف وللأساتذة حمود بن حمود بن جويد الغيلاني وخالد علي المخيني ودكتور سالم بن مبارك الحتروشي. الموضوع الرئيس للكتاب في عنوانه العام هو التثاقف بين المدينتين ومن ثم نعرف مقدمًا أن هناك علاقة بينهما عبر التاريخ ونستعد للدخول في تاريخ كل منهما أو المشترك بينهما.

عن صور اللبنانية يتحدث الدكتور حسن دياب عن المدينة القديمة التي كانت محط أنظار الغزاة ومقصد الرحالة والأدباء وملاذ النازحين، وموقعها على بعد 80 كيلو مترًا جنوب بيروت و25 كيلو مترًا عن فلسطين المحتلة. اسمها يعود إلى طابعها الصخري وتطلق عليها الوثائق القديمة اسم صلر التي تعني في اللهجات السامية الصوان أو الحجر. هذه التعريفات يشترك معه فيه الباحثون بعد ذلك. نشأتها تعود إلى الألف الثالث ق.م حسب رواية المؤرخين ومنهم هيرودوت، وكيف تعاقب عليها الغزاة حيت دمرها المماليك بعد نهاية الحكم الصليبي
عام 1292.

ورحلة مع آثار صور الباقية من مدافن رومانية وكاتدرائية صليبية وغيرها، وكيف أعيد بناؤها، وحديث طويل عن تقسيماتها وشوارعها وما جرى عليها من تحديث خلال الانتداب الفرنسي وأنواع الخامات المستخدمة في العمارة وأحيائها الآن وتعداد سكانها وتطور زيادة سكانها مع هجرة الأرمن إليها خلال الحرب العالمية الأولى وهجرة الفلسطينيين ونزوح السكان أثناء الحرب الأهلية اللبناني 1975 من الشمال وحالها الآن. وندخل مع الدكتورة ناريمان محمد التي تتحدث عن التثاقف ابتداء من الاسم للمدينتين والموقع فكلاهما يعانق البحر ووصل إليها الفينيقيون وكيف كان لصور العمانية بموقعها ونضالها ضد البرتغال دورًا حيويًّا بالتعريف بعمان كنقطة التقاء للتفاعل السياسي والاجتماعي والديني ثم حديث عن حصونها وتاريخها مثل حصن رأس الد وحصن السنيسلة وقلعة الرفصة وكيف صارت وطنًا للتفاعل بين الإباضية التي هي الأكثر شيوعًا بين العمانيين والسنة والشيعة وعاشوا جميعًا في سلام وعاشت القبائل بلا نزاعات بفضل سياسة حكامها الذين جعلوا شعبهم ينزع إلى التسامح والسلام وبنا ء وطنهم فلم تعرف عمان الإرهاب.

ثم تقارن بين تاريخ صور اللبنانية التي أصبحت يومًا دولة وما مرعليها من ملوك وكيف كانت رائدة في احتضان الديانة المسيحية ثم كيف ازدهرت في العصر الإسلامي على يد معاوية ثم في العصر العباسي وحديث عن عمارتها الباقية وتثاقفها مع العصر الحاضر وهي المدينة التي من جاءها زائرًا أهلت به ومن جاءها محتلًّا دحرته مثل صور العمانية والتوأمة بين المدينتين في الاسم والأرض والموقع، وفي خروج الساميين من عمان إلى الشمال في بعض الدراسات والعكس في الرحلات البحرية، حيث إنه يوجد مدينة في ولاية صور العمانية تسمى بيروت في ديار جابر، لكن تظل صور العمانية هي الأقدم فلم يكن للفينيقيين مستعمرة في عمان مثلما كان لهم في قبرص ورودس وكريت وقد بلغ التشابه في أشياء كثيرة حتى في وجود محمية للسلاحف في المدينتين.

في صور عمان فلج أو كهف الجن يقال إن الذي صنعه جن سليمان، وفي صور اللبنانية ثلاث نواقير تسمح للواقف عليها أن يرى البلدة يقال إنها من صنع جن سليمان، وتأخذ صناعة السفن في كل منهما مساحة كبيرة لكنها في صور العمانية أكبر فهي عاشت عليها وعلى الصيد. وهكذا تفرد الدراسات الباقية للأمر وللمكان في صور العمانية وكيف وصل الفراعنة إليها في رحلاتهم لبلاد بونت، وهي ولاية صور العمانية وتبادلوا التجارة معها في عهد حتشبسوت.

لقد عرف السومريون عمان باسم مجانا نسبة إلى صناعة السفن ومعناها هيكل السفينة وكيف جاءت صور في الكتابات الإسلامية، وكيف كان العمانيون من منطقة صور بحارة وبنائين للسفن ويعرفون فن الملاحة الفلكية في أعمار مبكرة، وكتب تراثية كثيرة تتحدث عن ذلك ورحلة مع بعض الآثار ومنها قطعتان تعودان للحضارة الفرعونية والمواقع الساحلية التي اكتشف بها ذلك مثل رأس الجنز ورأس الحد وطبعًا يحفل الكتاب بصور للمقابر والأضرحة والحمَّامات وغيرها فضلًا عن الأواني مما يؤكد التفاعل مع غيرها من الحضارات في المواد المستخدمة من خارج البلاد ثم تاريخ صور الملاحي في العصر الحديث بقلم خالد علي المخيني الذي طبعًا، وهو يذكر ماضيها لا يبتعد عما قيل ويضيف كيف كانت صور والصوريون هم من نقلوا العوائل العمانية إلى شرق أفريقيا لتعزيز التواجد العماني هناك – عمان كانت إمبراطورية في شرق أفريقيا يومًا من فضلك - وكيف جاء عصر النفط فغير كل شيء فسارع الشباب إلى فرص عمل سريعة في الكويت والبحرين وغيرها فتُركت وأُهملت صناعة السفن، ثم تأتي المقالة الأخيرة منفردة عن الخصائص الجغرافية الطبيعية والبشرية لولاية صور جيولوجيًّا ومناخيًّا وسكانيًّا وغير ذلك محددًا هذه المرة. كنت أقرأ الكتاب وتهل عليّ ذكريات جميلة من الروايات السابقة والقصص السابقة.

"من صفحتي في تويتر"

نجيب محفوظ.. ملاحقة المعنى

هذا كتاب باللغة الإنجيليزية Naguib Mahfouz: the pursuit of meaningللباحث المصري الدكتور رشيد العناني المحاضر في الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة إيكستر Exeter بإنجلترا، ومترجم رواية "حضرة المحترم" لنجيب محفوظ إلى الإنجليزية، والمترجم، أيضًا، لمسرحية "على جناح التبريزي وتابعه قفة" لألفريد فرج.

الكتاب منشور هذا العام - 1993 - عن دار روتلدج Routledge في إنجلترا وأمريكا في وقت واحد ضمن سلسلة الثقافة والفكر العربي Arabic Thought And Culture وهي سلسلة تُعنى بتقديم الشخصيات والحركات الكبرى في الفكر العربي.

الملاحظة الأولى، والمهمة، على هذا الكتاب هي العنوان. فكلمة "Pursuit" تعني متابعة الشيء وملاحقته واقتفاء أثره وتعقبه وما إلى ذلك، والقارئ للكتاب يكتشف أن المؤلف يرفض التقسيم الكلاسيكي لأعمال محفوظ إلى مراحل ثابتة، ويؤكد على تداخل المراحل وتطور العديد من المعاني ونحوها من عمل إلى عمل، حتى إن بعض الأعمال تكون توسيعًا لأفكار بدأت جنينية في أعمال سابقة.

الباحث الدكتور رشيد العناني يتعقب هذه الأفكار، ويلاحقها بالدرس والتحليل العميق المتأني ليقدم صورة، سهلة، وشاملة، وعميقة لعالم كاتبنا الكبير حامل نوبل نجيب محفوظ. والحقيقة أن هذا اكتشاف قديم في أعمال نجيب محفوظ وأهميته هنا هي في تأكيده بالبحث والتحليل وشكل واسع وحاسم ولأول مرة بهذا الوضوح، ولقد قلت أنا مرة في حديث لي - مازحًا بالطبع - إن نجيب محفوظ استطاع أن يأخذ النقاد من أنوفهم ويسحبهم في طرق أعدها لهم سلفًا في رواياته بحيث تجد امتدادًا لكثير من الأفكار المبثوثة في قصصه الواقعية، وقد قامت وانتصبت في قصصه الفلسفية كموضوعات أساسية.

والكتاب وهو يسعى لتأكيد هذه الحقيقة يقدم تحليلًا عميقًا وشاملًا لأعمال محفوظ - حتى عام 1989 - للقارئ الغربي، وهو بالتأكيد سيكون قاعدة مهمة لدراسات تالية لباحثين آخرين وسيأخذ مكانه كمرجع مهم يقول عنه صاحبه:

"في العشرين سنة الأخيرة، وبالتحديد منذ نهاية الستينيات، حيث أخذت حياة نجيب محفوظ منحنيات جديدة، وأبدع كتبًا جديدة، ظلت الحاجة إلى كتاب يدرس هذه المرحلة، ويردم الفجوة بينها وبين ما قبلها.. وبعد جائزة نوبل صارت الحاجة إلى تقييم جديد وطازج سواء للقارئ المتخصص أو القارئ العادي. وهذا الكتاب، كما يأمل مؤلفه، يمكن النظر إليه كمجهود في هذا الاتجاه.

هذا وقد اعتاد النقاد تقسيم أعمال محفوظ إلى ثلاث مراحل هي:

1 - المرحلة التاريخية/ الرومانسية.

2 - المرحلة الواقعية/ الطبيعية.

3 - المرحلة الحديثة/ التجريبية.

ثم أضافوا إليها مرحلة رابعة هي مرحلة الشكل التراثي، وهي المرحلة التي سيشير إليها هذا الكتاب باسم الروايات الإبسودية Episodi (الرواية الاستطرادية) هذا التقسيم السابق كله غير معتمد في هذا الكتاب. إن الذين اعتبروا الكتابات التاريخية/ الرومانسية مرحلة لا شك قد أخذتهم المفاجأة بكتابات محفوظ التاريخية الأخيرة، ولو أنها ليست رومانسية. هذه الكتابات التي تفصلها أربعون سنة عن الكتابات السابقة.

والكتاب بعد المقدمة التي أوجزناها يشتمل على ثمانية فصول هي على الترتيب: الكاتب وعالمه، البحث في الماضي عن الحاضر، آلام الميلاد الجديد والصراع بين الماضي والحاضر، الزمن والإنسان: أربع ملاحم مصرية، الحلم المجهض على الأرض كما في السماء، وتهشيم الزمان: الروايات الإبسودية، وقضايا الشكل: دراسة في حضرة المحترم، ثم أخيرًا صورة الله، والموت، والمجتمع في القصص القصيرة والمسرحيات.

وحين ينتهي المؤلف من هذه الفصول الثمانية يكون قد قام بتحليل ودراسة جميع روايات محفوظ من عبث الأقدار حتى قُشتمر، وجميع مجموعاته القصصية من "همس الجنون" حتى "الفجر الكاذب".

عن الكاتب وعالمه:

الحارة هي عالم نجيب محفوظ الجميل سواء حملت هذه الحارة اسمًا كما في أعماله الأولى، أو جاءت بلا اسم كما في أعماله الأخيرة.

لقد ولد نجيب محفوظ عام 1911 بحي الجمالية الشهير بالقاهرة، وغادر الجمالية مع أسرته عام 1924 إلى حي العباسية. لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التي قضاها في الجمالية هي التي تركت أثرها الكبير عليه، وهي ما شكلت وجدانه، وهي منبع إلهامه الكبير. لا يبتعد محفوظ عنها في أعماله إلا ويعود إليها، وكلما تقدم به العمر عاد إليها بشدة. وبحسب قول محفوظ نفسه فإن تقدم العمر يؤكد للإنسان أن أصله هو الحقيقة الباقية في هذا العالم الغريب. إن العودة إلى الطفولة، مع تقدم سني العمر، هي عودة إلى الأمان المفقود. الحارة هي نوستالجيا محفوظ الدائمة. والحارة قديمًا كانت نموذجًا للمجتمع المصري، بما فيها من اختلاف في الطبقات، وكانت كالمجتمع نفسه بالنسبة إلى الفرد، والإنسانية الكبيرة أيضًا كما تبدو في "أولاد حارتنا" و"الحرافيش"..

غير الحارة مما أثر في تكوين محفوظ الروحي، ثورة 1919 ومشاهدها التي كان يراها من النافذة وفي طريقه إلى المدرسة المواجهة لضريح الحسين. مشاهد المظاهرات وجنازات الشهداء والقتلى. والمنزل والحياة الأسرية أيضًا كان لهما بالغ الأثر، فلقد كان بيت الأسرة يردد أسماء الأبطال الوطنيين سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم، كذلك كانت تشيع فيه الروح الدينية،

حتى إن أحدًا لم يكن يتوقع أن يخرج من بين الأسرة واحد يشتغل بالفن والأدب. هذا وقد كان لأم نجيب محفوظ نفسها بالغ الأثر فهي التي كانت تأخذه إلى رحلات خلوية إلى الأهرام والمتاحف الأثرية وغرف المومياوات فغرست فيه الميل إلى دراسة الحقبة الفرعونية مما ظهر بعد ذلك في رواياته الأولى.

العباسية أيضًا شغلت جانبًا من روح الكاتب، وحين كان يكتب عن الإسكندرية مثلًا (الشحاذ - الطريق - السمان والخريف - ميرامار)، فقد كان يعود دائمًا إلى الجمالية أو العباسية، ففيهما يبدو محفوظ وكأنما هو في منزله، بل في وطنه.

يتقصى المؤلف، رشيد العناني، عوامل التكوين البيئية، ثم يتقصى عوامل التكوين الفكري لمحفوظ. قراءاته الأولى المترجمة (سير والتر سكوت وسير هنري رايدر هيجارد) وكيف كان يعيد كتابة القصة التي يقرؤها مع إضافة بعض التفاصيل من حياته الخاصة. ثم اكتشاف محفوظ للمنفلوطي وهو يتجه إلى العشرين من عمره، ثم اكتشافه الأكبر للمجددين في حياتنا الأدبية والفكرية. طه حسين والعقاد وحسين هيكل وسلامة موسى الذي كان له أبلغ الأثر، حيث كتب محفوظ مقالاته الأولى في "المجلة الجديدة" التي كان يصدرها سلامة موسى في الثلاثينيات، كما نشر له سلامة موسى أولى رواياته (عبث الأقدار). وأهم من ذلك اكتشاف محفوظ للأفكار العلمية والاشتراكية والمتطورة عند سلامة موسى، وفي كتاباته. (في الفصل الثالث عشر من السكرية تظهر هذه العلاقة بقوة في علاقة كمال عبد الجواد بأحمد شوكت صاحب مجلة الإنسان الجديد).

بعد ذلك اكتشف محفوظ الأدب العربي القديم: الكامل والبيان والتبيين والأمالي وغيرها، ثم اكتشف برجسون في الفلسفة. لقد كان لبرجسون أثر كبير على سلامة موسى، لكنه كان ذا أثر بالغ على نجيب محفوظ. إن فكرة الديمومة Duration في الزمان تكمن خلف الثلاثية كلها. وكذلك فكرة التطور الخالق التي تلمح أثرها البالغ في الحرافيش وأولاد حارتنا من قبلها، ثم ليالي ألف ليلة وغيرها من أعمال محفوظ. كذلك هناك أثر لا يخفى لفكرة الحدس أساس التجربة الصوفية.

لقد قرأ محفوظ تولستوي وبروست وتوماس مان (صاحب الأثر الكبير على الثلاثية) وجيمس جويس والسيرياليين (الذين سيظهر أثرهم في قصصه القصيرة بعد هزيمة 1967). وعرف أيضًا قصص يحيى حقي والحكيم وجورجي زيدان من قبلهما. يقول محفوظ: إنه لم يهتم كثيرًا بعودة الروح رواية الحكيم التي رآها أقرب إلى الدراما منها إلى الرواية، بينما اهتم أكثر بجورجي زيدان وقصصه التاريخي، وبرواية شجرة البؤس لطه حسين التي نبهته إلى كتابة الرواية الملحمية. بعدها قرأ "ملحمة أسرة فورسايت" "والحرب والسلام" ثم "عائلة بودنبروك" ثم كتب الثلاثية. وهكذا يتوقف بنا المؤلف رشيد العناني طويلًا لتحليل وإبراز المؤثرات المختلفة في شخصية محفوظ وأدبه مما يساعد القارئ الأجنبي كثيرًا في فهم هذا الكاتب العملاق الذي أصبحت أعماله معروفة الآن في كل لغات العالم الحية والمهمة تقريبًا بعد فوزه بجائزة نوبل. ويتوقف أيضًا عند منابع السياسة التي تظهر دائمًا في أعمال محفوظ سواء ما جاء منها من أثر ثورة 1919 أو حزب الوفد ودوره في الحياة الوطنية المصرية أو الحركة الاشتراكية في الأربعينيات أو ثورة يوليو فيما بعد. وحن يبدأ الفصل الثاني، أول الفصول التحليلية لأعمال محفوظ، يكون القارئ الأجنبي قد حظي بجهد علمي كبير يسر له سبل فهم كاتبنا بعمق وبساطة معًا.

الماضي والحاضر.. الزمان والإنسان:

يرى رشيد العناني، مؤلف الكتاب أن روايات محفوظ الفرعونية التي بدأ بها حياته الأدبية (عبث الأقدار - رادوبيس - كفاح طيبة) لم تكن إلا محاولة لارتياد الماضي من أجل الحاضر. كانت إطلالة على الحاضر، من خلال الماضي البعيد. فالروايات تتحدث عن الظلم القائم والعدل المنشود، والمستعمر الذي يجب طرده من البلاد، في كفاح طيبة مثلًا، إن نجيب محفوظ لا يتوانى عن وضع كلمات عن العدل وتوزيع الثروة بالعدل بين الرعية ومساواة الناس أمام القانون على لسان أحمس بطل كفاح طيبة.

يضيف المؤلف إلى هذا الفصل تحليلًا لرواية "إمام العرش" رغم صدورها بعد الروايات الثلاث بحوالي أربعين سنة. كذلك يضيف إليها رواية "العائش في الحقيقة" التي تدور في الحقبة التالية لسقوط إخناتون ومحاولة بطلها المعذب بمعرفة الحقيقة عن ذلك الحاكم. يشير المؤلف إلى حقيقة مهمة جدًّا، وهي أن هذه الرواية مكتوبة عام 1985 في وقت صعود الأصوليين وحركة الجهاد من الإسلاميين الذين يرون في المجتمع مروقًا وكفرًا. وهكذا مرة أخرى يستعين محفوظ بالماضي للتعليق على الحاضر. لكن شتان في الحيل والطرق الجمالية التي توجد في الروايات الثلاث الأولى ثم في الرواية الأخيرة.

في الروايات الفرعونية الأولى يستخدم المؤلف السرد المباشر المتدفق من الكاتب نفسه عبر الرواية كلها، كما لا تجد فروقًا بين حوار الشخصيات، فالحوار كله مكتوب بلغة واحدة، بينما هنا يستفيد محفوظ من إنجازاته التقنية واكتشافاته ونضجه وعميق خبرته. وعندما انتقل محفوظ من التاريخ الفرعوني إلى رواياته الواقعية الشهيرة الأولى التي بدأت بـ "خان الخليلي" نجد هنا الصراع يشتجر بين الماضي والحاضر. صورة أخرى للعلاقة بين الزمنين. هنا في هذه الروايات الجديدة (خان الخليلي - زقاق المدق - القاهرة الجديدة....) صراع بين الفرد وآليات المجتمع القديم.

يحاول دائمًا محفوظ تأكيد هذا الصراع بدرجات مختلفة ومن زوايا عديدة. في خان الخليلي صراع بين نوعين من الأخلاق، اللذة والواجب؛ اللذة يمثلها رشدي الأخ الأصغر، والواجب يمثله أحمد عاكف الأخ الأكبر الذي ينتصر له نجيب محفوظ رغم خواء حياته. في القاهرة الجديدة يتوسع محفوظ في رسم العلاقة بين الأخلاق الفردية والتقدم الاجتماعي، وهو ما سيزدهر في أعمال قادمة. وفي زقاق المدق عليك أن تقفز إلى المعاصرة بكل إرادتك مثل "حميدة" أو تتردد وتنظر خلفك فيكون مصيرك مثل عباس الحلو.

وفي "السراب" التي يراها كثير من النقاد رواية فلسفية نفسية عن مُركَّب أوديب، هناك مستوى أعمق لها أيضًا هو الصراع بين الروحانية والمادية. أما "بداية ونهاية" المكتوبة عام 1949 فيتمثل فيها الصراع مع الماضي كأحسن ما يكون في شخص حسنين. وسوف يظل ظهور هذا المنزع في روايات أخرى قادمة.

والحديث عن الماضي والحاضر يسلمنا إلى الحديث عن الزمن. فالزمن يشكل الأساس الذي تتعاقب فيه أجيال الثلاثية في بناء كلاسيكي صارم يتفكك وتتسارع فيه الأحداث في رواية لاحقة

مثل قشتمر، والزمن هو أيضًا أساس رواية "باقي من الزمن ساعة" ورواية "يوم قتل الزعيم". ومن ثم فهي روايات ملحمية.

إن هذه الروايات علامات على التعقد في رؤية الكاتب للزمن وتجسيده من خلال، أو عبر علاقة الفرد بالمجتمع.. لقد حدث بعد اكتشاف محفوظ للجوانب الطبيعية والاجتماعية لمجتمع القاهرة عبر خمسة عشر عامًا (1930 - 1945) هي زمن الروايات الواقعية الأولى، وبعد اختبار المعارك المأساوية للفرد ضد المجتمع، حدث أن نجيب محفوظ أراد أن يجمع الشظايا معًا. يتبع التوتر الاجتماعي بين الماضي والحاضر عائدًا إلى نقطة مضيئة توصلنا لرؤية أبطاله في مواجهة لضرورة الاختيار بين نظامين من القيم، ومن ثم شرع نجيب محفوظ في كتابة الثلاثية بادئًا بعام 1917 عابرًا فيها ثورة 1919 حتى عام 1944 عبر ثلاثة أجيال. إن سنة 1944 هي السنة التي لم تعبرها أي رواية من رواياته السابقة على الثلاثية. وللتاريخ هنا دلالته، فالرواية يبدأ زمنها في منتصف الحرب الأولى وينتهي مع نهاية الحرب الثانية.

الحلم المجهض وتهشيم الزمان:

يستمر المؤلف، رشيد العناني، في تحليل أعمال نجيب محفوظ وتحت عنوان الحلم المجهض على الأرض وفي السماء يقوم بتحليل روايات اللص والكلاب، السمان والخريف، الطريق، الشحاذ، ثرثرة فوق النيل، ميرامار، حب تحت المطر، الكرنك، قلب الليل، عصر الحب، ثم أفراح القبة. فهذه الروايات، سواء ما كتب منها قبل هزيمة 1967 أو بعدها هي تناول متعدد الوجوه للحلم المجهض للفرد والمجتمع. ويتوقف المؤلف بعض الوقت للحديث عن توقف نجيب محفوظ عن الكتابة بعد ثورة يوليو 1952، وكيف أنه تخلى عن مشروعات الروايات التي كان ينوي كتابتها عن المجتمع السابق. لقد جاءت ثورة يوليو لتصل بالمجتمع إلى الاكتمال، لتنفيذ أحلام الثوريين والكتاب والذي "حدث أن نجيب محفوظ حين عاد للكتابة عاد برواية "أولاد حارتنا" وهي رواية تاريخية علمية دينية. ولقد كانت هذه الرواية بداية تعامل الكاتب، محفوظ، مع المجتمع الجديد. لكنها رواية مجازية في بنائها. وسنلاحظ أن المجاز سيسود أعمال محفوظ طوال الستينيات. لقد اختفت أساليب السرد النمطية، والتأني الواقعي الطبيعي والحبكة التقليدية، وساد الشعر واللغة المجنحة والتقنيات الحديثة. هكذا حتى هزيمة 1967، حيث عاد محفوظ ليتوقف عن كتابة الرواية مرة أخرى، ولكن لكتابة القصص القصيرة والحواريات المسرحية حتى عام 1972 الذي شهد صدور "المرايا" ثم "الحب تحت المطر" عام 73 وبعدها "الكرنك" عام 1974".

لقد شملت "ثرثرة فوق النيل" فيما شملت نبوءة الحكيم الفرعوني بخيانة الأصدقاء والحرب القادمة والأيام الصعبة لبلاد النيل، وكذلك كانت ميرامار ومنذ "اللص والكلاب" وقد بدا أن محفوظ يحذر من شيء ثقيل، ومن الفصام القادم بين الفرد وشعارات المجتمع، بعد ذلك كانت المرايا بانوراما لعصرها ومقدمة لروايات عن قضايا بعينها، مثل التعذيب في المعتقلات "الكرنك"، وانهيار القيم وانحطاط الأخلاق، ويأس عدد كبير من الشباب في البلاد بعد الهزيمة الثقيلة "الحب تحت المطر". لقد كان محفوظ في حاجة إلى رواية يقدم فيها تعليقه الشخصي على ما حدث حتى لو جاء ضعيفًا فنيًّا.

وبعد تطواف كبير وطويل في القاهرة والإسكندرية عبر فترة الستينيات كلها والنصف الأول من السبعينيات يعود محفوظ إلى عالمه الأثير، إلى الجمالية بحكايات حارتنا وقلب الليل- نشرا معًا عام 1975. إن العذاب الميتافيزيقي المقموع بالضغوط الاجتماعية والسياسية الضخمة في ثرثرة فوق النيل ينطلق هنا من قلب الليل، قلب الليل أمثولة عن التطور الروحي للجنس البشري إنها تنتمي إلى أولاد حارتنا وتستعير بعض رموزها، أما عصر الحب المنشورة عام 1980 فتبدو هي أيضًا تكرارًا لقلب الليل لكنها بدورها أمثولة بسيطة عن التمرد على الآلهة المصحوب بالعودة المعذبة، إنها تستخدم نفس الأدوات: المنزل الموسر والحديقة المسكرة ذات الأسوار العالية، الفردوس.

وينتقل المؤلف للحديث عن تهشيم الزمان وعن الرواية الإبسودية يمهد لذلك بحديث عن ظواهر النثر العربي منذ أيام العرب حتى المقامات وكليلة ودمنة ثم ألف ليلة وغيرها، ينتهي إلى أنه لم يكن هناك تراث قصصي خلف نجيب محفوظ غير المقامات التي قرر محفوظ ألا يكتب مثلها أبدًا وقد فعل، لكن كان هناك الشكل الموجود في ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، الشكل الإبسودي، الحكايات الاستطرادية التي تأخذ برقاب بعضها وهو الشكل الذي سيظهر في الحرافيش وليالي ألف ليلة، حقًّا تغلب النزعة الإبسودية على أولاد حارتنا أيضًا المنشورة قبل الحرافيش وألف ليلة وليلة، لكن كونها إبسودية فذلك بسبب طبيعتها كأمثولة تاريخية دينية تعنى بموازاة ملاحم محددة في التاريخ الإنساني، لذلك نحن على صواب في عدم اعتبارها بداية للوجه الإبسودي للكاتب، الكلام هنا لرشيد العناني طبعًا.

وتحت العنوان السابق "تهشيم الزمان" يتناول المؤلف بالتحليل روايات المرايا وحكايات حارتنا، حديث الصباح والمساء، صباح الورد، أولاد حارتنا، ملحمة الحرافيش، ليالي ألف ليلة، ثم رحلات ابن فطومة. فالمرايا كتاب من الصور المنفصلة في تدفق الزمن وكل قطعة منها محمولة إلى الأمام بالتيار الداخلي، وربما في هذا التهشيم تكمن وحدة الرواية، ويمكن أن تكون الحكاية الأخيرة في المرايا أولى حكايات حارتنا فهناك وحدة في الأسلوب والمحتوى معًا، وفي حكايات حارتنا وحدات عامة ووحدات جزئية آخذة برقاب بعضها، أما حديث الصباح والمساء فتعود إلى التكنيك الأبجدي لتقديم الشخوص الذي سبق استخدامه في المرايا.

وتأتي صباح الورد المنشورة عام 1987 أي نفس عام نشر حديث الصباح والمساء تأتي كمجموعة قصصية، هكذا كتب على غلافها لكنها في الحقيقة ثلاث مقطوعات متصلة رغم انفصالها، هناك شيء فيها يجعلها متجانسة فكلها استرجاع وتأمل في أثر الزمان على الناس والحياة، أما الحرافيش التي جاءت بعد ثمانية عشر عامًا من أولاد حارتنا فهي تستدعيها إلى الذهن بسرعة، فالمكان واحد- الحارة- وبناء القوة متماثل- الصراع بين الفتوات لإقرار الحق بين أبناء الجبلاوي أو الحرافيش- ومحاولة خرق بناء القوة متماثلة فالأشخاص القادرون الطيبون يقيمون العدل لوقت قصير قبل أن يظهر الشر مرة أخرى وهكذا، هناك تماثل بين العملين إلا أن الحرافيش هي أسطورة المؤلف يصنعها بنفسه
ولا يعتمد هنا على أساطير أو حكايات دينية.

الحرافيش عمل أكثر نضجًا ويتوقف المؤلف طويلًا عند تحليله قبل أن ينتقل لتحليل ليالي ألف ليلة التي صدرت عام 1982 والتي قد تكون آخر الأعمال الكبرى لنجيب محفوظ وهي مع الحرافيش

يمثلان قمة الروايات الإبسودية، إن سؤال الحرافيش عن وجود الشر في العالم وكيف يمكن مقاومته يعود في ليالي ألف ليلة لكن مع إضافة مدى مسئولية الفرد بالقياس لمسئولية البيئة، إن السؤال هنا هل الشر قوة فوق طبيعية - تعود إلى الشيطان مثلًا والغواية للفرد- أم هو ظاهرة بشرية مرتبطة ببحث الإنسان عن القوة والثروة؟

بعد تحليل "ليالي ألف ليلة" و"رحلات ابن فطومة" ينتهي أهم وأطول فصول الكتاب، ثم يفرد المؤلف بعد ذلك فصلًا كاملًا لأدوات التشكيل ومكونات الشكل الفني، من خلال دراسة لشكل رواية حضرة المحترم، وهي رواية بسيطة تتمحور حول شخصية رئيسية وشخصيات ثانوية تأتي أهميتها مما تنيره من جوانب الشخصية الرئيسية، ويدرس المؤلف حبكة الرواية التي يشي بناؤها بإبراز السخرية الأخلاقية للرواية، ثم يدرس آليات السرد وبناء الشخوص واللغة والحوار، وهكذا يقدم نموذجًا تطبيقيًّا بالغ العمق لواحد من أعمال محفوظ.

الله. الموت. المجتمع. الكتاب!!

يفرد المؤلف الفصل الأخير لتحليل قصصه القصيرة وحواریاته، ويقول: إن محفوظ لو لم يكن روائيًّا لكانت القصص القصيرة تكفيه ليدخل تاريخ الأدب العربي، لنجيب محفوظ "200" قصة قصيرة موزعة على "14" مجموعة قصصية في الوقت الذي كتب فيه "33" رواية معظمها أعمال عظمى في الشكل والرؤية.

كان نشر مجموعة "همس الجنون" بمثابة البداية الثانية لنجيب محفوظ، لقد نشرها بعد أن كان قد نشر ست روايات كاملة وانتقل من الفرعونية إلى الروايات الواقعية، ثم كانت المجموعة الثانية "دنيا الله" مجالًا لتأمل عميق في الموت وفي الله وفي الوجود الإنساني، وبعد نكسة 1967 طار محفوظ إلى "العبث" والنزعة السريالية، كما أشرنا من قبل، لقد نشر "خمارة القط الأسود" و"تحت المظلة" عام 1969، الأولى تشارك المجموعتين السابقتين الاهتمام بالله والموت والزمان وسخرية القدر والثانية هروب من الواقع الخارجي إلى التجربة التعبيرية والسيريالية معًا، صحيح أنه فعل ذلك من قبل في روايات مثل الشحاذ وثرثرة فوق النيل لكن ذلك كان يتم من خلال واقع خارجي، الآن لا علاقة للنص بالواقع الخارجي.

ويستمر المؤلف في مناقشة المجموعات القصصية التالية حتى آخر مجموعات الكاتب "الفجر الكاذب" المنشورة عام 1988، وينتهي الكتاب الثمين. وأتخيل الجهد التحليلي الجبار الذي بذله مؤلفه، وأتخيل المائدة العامرة التي قدمها للقارئ في الغرب وأدرك قيمة الجهد العلمي الذي يستحق كل تحية وتقدير. إن كتاب رشيد العناني عن نجيب محفوظ بالغ العمق والجمال معًا.

" مجلة العربي الكويتية ديسمبر 1993 العدد 421"

الفهرس

القسم الأول: لعل الفضاء يجيب 7

الرسالة الأولى 9

الرسالة الثانية 19

الرسالة الثالثة 33

الرسالة الرابعة 43

الرسالة الخامسة 48

الرسالة السادسة 54

الرسالة السابعة 62

القسم الثاني: وجوه للعالم والوطن 71

- إيطاليا في الإسكندرية، تاريخ أسرة في إحياء المدينة، محمدعوض 73

- عملاق بين الأنهار.. المسح العلمي لنهر زائير، ريتشارد سنيلهام 85

- الجحيم أو البحار العالية، كلير فرانسيس 102

- الهروب الكبير من سجن جلبوع..كيف كنا في حاجة إليه؟..... 120

- حرب أكتوبر.. تبقى الذكريات 125

- ذات يوم في القدس، سحر حمودة 132

- قرن من الحروب، كتاب أطلس "تاريخ القرن العشرين" لريتشارد ناتكيل 148

- صحة الأمم... "الصراع الوحشي في سوق الدواء العالمية"، لمايك مولر..... 167
القسم الثالث: علامات مضيئة من الأدباء والمفكرين..... 203
- كيف غاب هذا الكاتب عن النقاد وتاريخ الرواية المصرية؟..... 205
- رسالتان من المعري وأبي حيان..... 213
- كيف تكتب عن فيصل دراج..... 221
- ثروت عكاشة: التاريخ المعاكس..... 226
- مع محمد حسنين هيكل.. ذكريات وشغف قديم..... 231
- صلاح عيسى .. كتابة من ذهب..... 235
- في محبة آل النقاش..... 238
- الإنسان ومراحل حياته، ألكساندر تولستيخ..... 240
- ازدواجية الرؤية. العبقرية والتنقل بين الفنون، والتر سوريل..... 251
- الوادي المقدس .. من هداية النفس إلى هداية الأمم..... 266
- أوراق مهاجر – أمريكا للبيع..... 273
القسم الرابع: بين روايات وقصص جميلة..... 283
- "المجوس" رواية الطوارق الكبرى.. ملامح ورؤى..... 285
- الخالة أم هاني..... 295
- مع حسين عبد الرحيم وروايته شقي وسعيد..... 298
- عن رواية "بالأمس كنت ميتًا" لرضوى الأسود..... 301

- عن رواية "كقطة تعبر الطريق" لحاتم حافظ..... 304
- جولة سريعة في الرواية والقصة العمانية..... 307
- أحلام طائر الفينيق..... 340
- نجيب محفوظ .. ملاحقة المعنى..... 344